

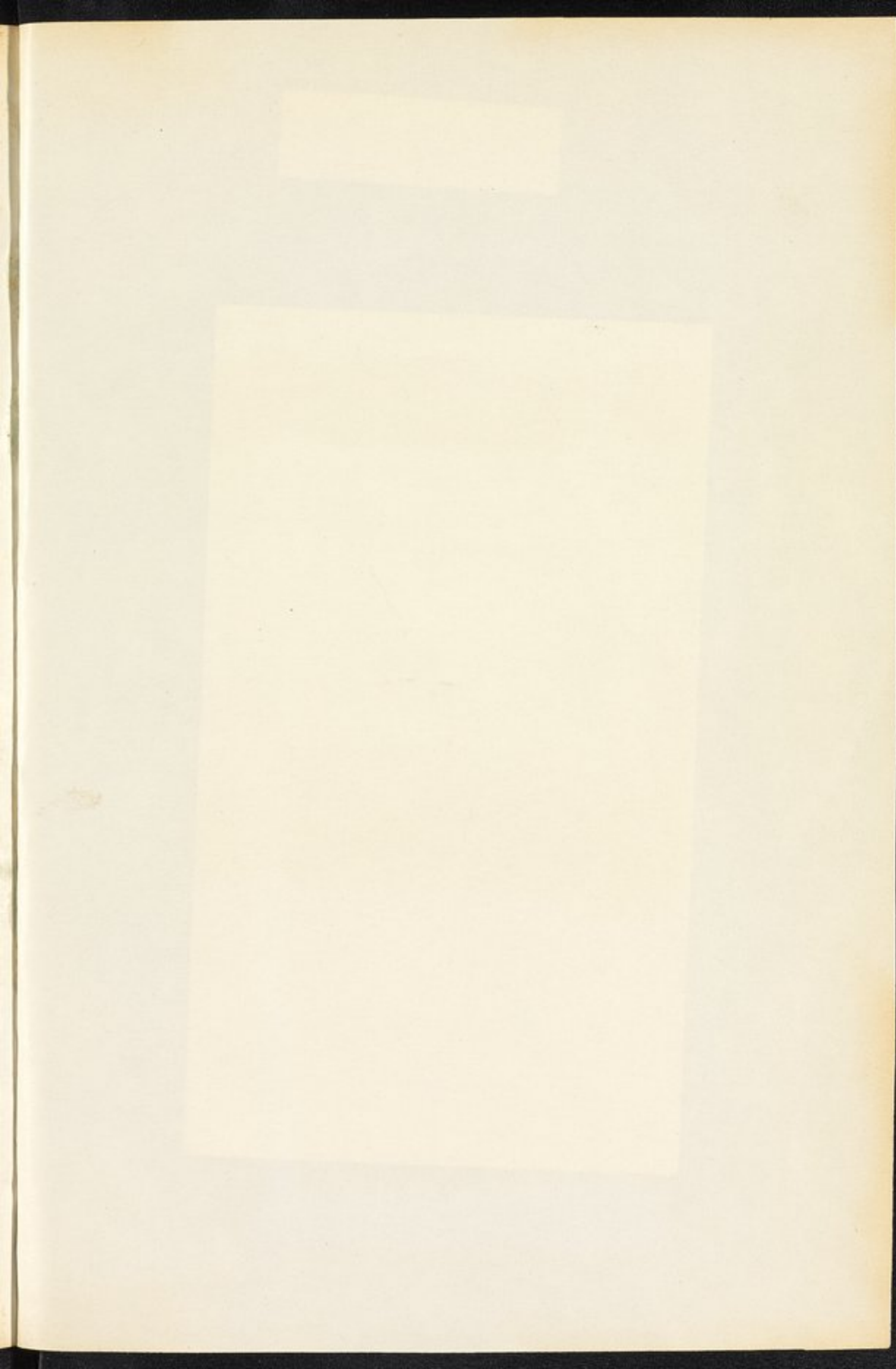
PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>

32101 019483187

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--



الجزء التاسع

فَتَكَايِبُ

الْمِلْزَانِ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

لِوَلَّيْهِ

الْأَسْتَاذِ الْعَلَّامِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَسْبِ الشَّيْبَانِيِّ

مَلِكِ الطَّبَعِ وَنَسْرٍ

الْبَيْتِ مُحَمَّدِ الْخَوَزْدَاقِيِّ

حَسْبِ

كَارِ الْكَلْبِ الْإِسْلَامِيَّةِ

طَهْرَانَ سَوِّقِ الشُّطْرَانِيِّ

فِي أَسْنَةِ ١٣٧٩ هـ

مَطْبَعَةُ الْحَبْدَرِيِّ بِطَهْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سورة الأنفال - مدنية و هي خمس وسبعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَمَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
لَكَارِهِونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ (٦) .

﴿بيان﴾

سياق الآيات في السورة يعطي أنها مدنية نزلت بعد وقعة بدر ، وهي تقص بعض أخبار بدر ، وتذكر مسائل متفرقة تتعلق بالجهاد والغنائم والأنفال ونحوها ، و أمورا أخرى تتعلق بالهجرة ، وبها تختتم السورة .
قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » إلى آخر الآية .
الأنفال جمع نفل بالفتح وهو الزيادة على الشيء ، ولذا يطلق النفل والناقلة على التطوع



لزيادته على الفريضة ، و تطلق الأنفال على ما يسمى فيئاً أيضاً وهي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرووس الجبال، و بطون الأودية، والديار الخربة، والقرى التي باد أهلها، وتركة من لاوارث له ، وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد وهي لله ولرسوله ، و تطلق على غنائم الحرب كأنها زيادة على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب والغزوة الظفر على الأعداء واستئصالهم فإذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المقصود ، والأموال التي غنمه المقاتلون والقوم الذين أسروهم زيادة على أصل الغرض .

و « ذات » في الأصل مؤنث « ذاء » بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمة للإضافة غير أنه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى ما به الشيء هو هو فيقال : ذات الإنسان أي ما به الإنسان إنسان ، وذات زيد أي النفس الإنسانية الخاصة التي سميت بزيد ، و كأن الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدي مؤداه ثم قيل ذات ، و كذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومة لا تتحقق إلا بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أي الحالة والرابطة السيئة التي هي صاحبة البين فالمراد بقوله : أصلحو ذات بينكم أي أصلحو الحالة الفاسدة والرابطة السيئة التي بينكم .

و قال الراغب في المفردات : « ذوء » على وجهين : أحدهما يتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع ، ويضاف إلى الظاهر دون المضمرة ، ويثنى ويجمع ، ويقال في التثنية : ذواتا ، وفي الجمع : ذوات ، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافاً .

قال : وقد استعار أصحاب المعاني الذات فجعلوه عبارة عن عين الشيء جوهرأ كان أوعرضاً ، واستعملوها مفردة ومضافة إلى المضمرة وبالألف واللام ، وأجروها مجرى النفس والخاصة فقالوا : ذاته ونفسه وخاصته ، وليس ذلك من كلام العرب ، و الثاني في لفظ ذولغة لطبيء يستعملونه استعمال « الذي » و يجعل في الرفع والنصب والجرو والجمع و التأنيث على لفظ واحد نحو :

وبئري ذو حفرت و ذوطويت

أي التي حفرت والتي طويت . انتهى .

والذي ذكره من عدم إضافته إلى الضمير منقول عن الفرّاء ، ولازمه كون استعماله

مضافاً إلى الضمير من كلام المولدين والحق أنه قليل لا متروك ، وقد وقع في كلام علي عليه السلام في بعض خطبه كما في نهج البلاغة

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية و موقعها اختلافاً شديداً من جهات : من جهة معنى قوله : « يسألونك عن الأنفال » وقد نسب إلى أهل البيت عليه السلام وبعض آخر كعبدالله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن مصرف أنهم قرأوا : يسألونك الأنفال فقيل : عن زائدة في القراءة المشهورة ، وقيل : بل مقدرة في القراءة الشاذة ، وقيل : إن المراد بالأنفال غنائم الحرب ، وقيل : غنائم غزوة بدر خاصة بجعل اللام في الأنفال للمعهد ، وقيل : الفية الذي لله والرسول والإمام ، وقيل : إن الآية منسوخة بآية الخمس ، وقيل : بل محكمة ، وقد طالت المشاجرة بينهم كما يعلم بالرجوع إلى مطولات التفاسير كتفسير الرازي والآلوسي وغيرهما .

والذي ينبغي أن يقال بالاستمداد من السياق : أن الآية بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله : « يسألونك » تخاصم خاصم به بعضهم بعضاً بأخذ كل جانباً من القول لا يرضى به خصمه ، والتفريع الذي في قوله : « فاتموا الله وأصلحوا ذات بينكم » يدل على أن الخصومة كانت في أمر الأنفال ، ولازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكى في صدر الآية إنما وقع لقطع الخصومة ، كأنهم تخاصموا في أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه عن حكمها لتقطع بما يجيبه الخصومة ويرتفع عما بينهم .

وهذا - كما ترى - يؤيد أولاً القراءة المشهورة : « يسألونك عن الأنفال » فإن السؤال إذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم والخبر ، وأما إذا استعمل متعدياً بنفسه كان بمعنى الاستعطاء ولا يناسب المقام إلا المعنى الأول .

وثانياً : أن الأنفال بحسب المفهوم وإن كان يعم الغنيمة والفية جميعاً إلا أن مورد الآية هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوة بدر خاصة إذ لا وجه للتخصيص فإنهم إذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصة بل لأنها غنائم مأخوذة من أعداء الدين في جهاد ديني ، وهو ظاهر .

و اختصاص الآية بحسب موردها بغنيمة الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد، فإن المورد لا يخص، فأطلاق حكم الآية بالنسبة إلى كل ما يسمّى بالنفل في محله، وهي تدلّ على أنّ الأنفال جميعاً لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمة و الفية .

ثمّ الظاهر من قوله : « قل الأنفال لله والرسول » وما يعظمهم الله به بعد هذه الجملة ويحرّضهم على الإيمان هو أنّ الله سبحانه فصل الخصومة بتشريع ملكه لنفسه ولرسوله، ونزعه من أيديهم وهو يستدعي أن يكون تخصّصهم من جهة دعوى طائفة منهم أنّ الأنفال لها خاصّة دون غيرها، أو أنّها تختصّ بشيء منها، وإنكار الطائفة الأخرى ذلك، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها وإثبات ملك نفسه ورسوله، وموعظتهم أن يكفوا عن المخاصمة والمشاجرة، وأمّا قول من يقول : إنّ الغزاة يملكون ما أخذوه من الغنيمة بالإجماع فأحرى به أن يورد في الفقه دون التفسير .

وبالجملة فنزاعهم في الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأنّ الغنيمة لهم أو ما في معناه غير أنّه كان حكماً مجملاً اختلف فيه المتخاصمان وكلّ يجرّ النار إلى قرصته، والآيات الكريمة تؤيد ذلك .

توضيحه أنّ ارتباط الآيات في السورة و التصريح بقصّة وقعة بدر فيها يكشف أنّ السورة بأجمعها نزلت حول وقعة بدر وبُعَيْدِهَا حتّى أنّ ابن عباس - على ما نقل عنه - كان يسمّيها سورة بدر، والتي تتعرض لأمر الغنيمة من آياتها خمس آيات في مواضع ثلاثة من السورة هي بحسب ترتيب السورة، قوله تعالى « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » الآية، وقوله تعالى : « واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين و ابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » الآية، وقوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إنّ الله غفور رحيم » الآية .

و سياق الآية الثانية يفيد أنها نزلت بعد الآية الأولى و الآيات الأخيرة جميعاً
لمكان قوله فيها : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ،
فهي نازلة بعد الوقعة بزمان .

ثم الآيات الأخيرة تدل على أنهم كلّموا رسول الله ﷺ في أمر الأسرى و
سألوه أن لا يقتلهم و يأخذ الفدية ، وفيها عتابهم على ذلك ، ثم تجوز أن يأكلوا مما غنموا
و كأنهم فهموا من ذلك أنهم يملكون الغنائم و الأنفال على إبهام في أمره : هل يملكه
جميع من حضر الوقعة أو بعضهم كالمقاتلين دون القاعدين مثلاً ؟ و هل يملكون ذلك
بالسوية فيقسم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة و النقيصة كأن يكون سهم الفرسان
منها أزيد من المشاة ؟ أو نحو ذلك .

وكان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الأمر ، و رفعوا ذلك إلى رسول الله ﷺ
فنزلت الآية الأولى : « قل الأنفال لله و الرسول فاتقوا الله و أصلحوا ذات بينكم » الآية
فخطأهم الآية فيما زعموا أنهم مالكو الأنفال بما استفادوا من قوله : « فكلوا مما
غنمتم » الآية و أفترت ملك الأنفال لله و الرسول و نهتهم عن التخاصم و التشاجر فلما انقطع
بذلك تخاصمهم أرجعها النبي ﷺ إليهم ، و قسمها بينهم بالسوية ، و عزل السهم لعدة
من أصحابه لم يحضروا الوقعة ، ولم يقدم مقاتلاً على قاعد ، و لا فارساً على ماش ، ثم نزلت
الآية الثانية : « و اعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمس » الآية بعد حين فأخرج
النبي ﷺ مما رد إليهم من السهام الخمس و بقي لهم الباقي . هذا ما يتحصل من انضمام
الآيات المربوبة بالأنفال بعضها ببعض .

فقوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » يفيد بما ينضم إليه من قرائن السياق أنهم
سألوا النبي ﷺ عن حكم غنائم الحرب بعد ما زعموا أنهم يملكون الغنيمة ، و اختلفوا
فيمن يملكها ، أو في كيفية ملكها و انقسامها بينهم ، أو فيهما معاً ، و تخاصموا في ذلك .
وقوله : « قل الأنفال لله و الرسول » جواب عن مسألتهم وفيه بيان أنهم لا يملكونها
و إنما هي أنفال يملكها الله و رسوله ، فيوضع حيثما أراد الله و رسوله ، و قد قطع ذلك أصل
مانشب بينهم من الاختلاف و التخاصم .

ويظهر من هذا البيان أن الآية غير ناسخة لقوله تعالى : « فكلوا مما غنمتم » إلى آخر الآية وإنما تبيّن معناها بالتفسير ، وأن قوله : « كلوا » ليس بكناية عن ملكهم للغنيمة بحسب الأصل ، وإنما المراد هو التصرف فيها والتمتع منها إلا أن يمتلكوا بقسمة النبي ﷺ إياها بينهم .

ويظهر أيضاً أن قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة و للرسول ولذي القربى » الآية ليس بناسخ لقوله : « قل الأنفال لله والرسول » الآية فإن قوله : « واعلموا أن ما غنمتم » الآية إنما يؤثر بالنسبة إلى المجاهدين منعهم عن أكل تمام الغنيمة والتصرف فيه اذلم يكن لهم بعد نزول قوله : « الأنفال لله والرسول » إلا ذلك ، وأما قوله : « الأنفال لله والرسول » فلا يفيد إلا كون أصل ملكها لله والرسول من دون أن يتعرض لكيفية التصرف وجواز الأكل والتمتع ، فلا يناقضه في ذلك قوله : « واعلموا أن ما غنمتم » الآية حتى يكون بالنسبة إليه ناسخاً ، فيحصل من مجموع الآيات الثلاث : أن أصل الملك في الغنيمة لله والرسول ثم يرجع أربعة أخماسها إلى المجاهدين يأكلونها ويمتلكونها ويرجع خمس منها إلى الله والرسول وذي القربى وغيرهم لهم التصرف فيها والاختصاص بها .

ويظهر بالتأمل في البيان السابق أيضاً : أن في التعبير عن الغنائم بالأنفال وهو جمع نفل بمعنى الزيادة إشارة إلى تعليل الحكم بموضوعه الأعم ، كأنه قيل : يسألونك عن الغنائم وهي زيادات لا مالك لها من بين الناس ، وإذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات والأنفال ، وقل : الأنفال لله والرسول ، ولازم ذلك كون الغنيمة لله والرسول .

وبذلك ربما تأيد كون اللام في لفظ الأنفال الأوّل للمعهد وفي الثاني للجنس أو الاستغراق ، وتبيّن وجه الإظهار في قوله : « قل الأنفال » الآية حيث لم يقل : قل هي لله والرسول .

ويظهر بذلك أيضاً : أن قوله : « قل الأنفال لله والرسول » حكم عام يشمل بعمومه الغنيمة وسائر الأموال الزائدة في المجتمع نظير الديار الخالية والقرى البائدة ورؤوس الجبال وبطون الأودية وقطائع الملوك وتركة من لا وارث له ، أما الأنفال بمعنى

الغنائم فهي متعلّقة بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي ﷺ ، و بقي الباقي تحت ملك الله ورسوله .

هذا ما يفيد التأمّل في كرائم الآيات ، و للمفسّرين فيها أقاويل مختلفة تعلم بالرجوع إلى مطوّلات التفاسير لاجدوى في نقلها والتعرّض المنقّض والإبرام فيها .
قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » إلى آخر الآيتين .
 الآيتان والتي بعدهما بيان ما يتميّز به المؤمنون بحقيقة الإيمان و يختصّون به من الأوصاف الكريمة والثواب الجزيل بسبب لبتأ كذب ما يشتمل عليه قوله تعالى : « فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم » إلى آخر الآية .

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامه لكونها مستلزّمة لكرائم صفاتهم على كثرتها وملازمة لحقّ الإيمان ، وهي بحيث إذا تنبّهوا لها وتأملوها كان ذلك ممّا يسهّل لهم توطين النفس على التقوى، وإصلاح ذات بينهم، وإطاعة الله ورسوله .

وهاتيك الصفات الخمس هي : وجل القلب عند ذكر الله ، و زيادة الإيمان عند استماع آيات الله ، والتوكل ، وإقامة الصلاة ، والإفناق ممّا رزقهم الله ، ومعلوم أنّ الصفات الثلاث الأولى من أعمال القلوب ، والأخيرتان من أعمال الجوارح .

وقد روعي في ذكرها الترتيب الذي بينها بحسب الطبع ، فإنّ نور الإيمان إنّما يشرق على القلب تدريجاً ، فلا يزال يشتدّ ويضعف حتّى يتمّ و يكمل بحقيقته ، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل والخشية إذا تذكّر بالله عند ذكره ، وهو قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » .

ثمّ لا يزال ينبسط الإيمان ويتعرق وينمو ويتفرّع بالسير في الآيات الدالّة عليه تعالى ، والهادية إلى المعارف الحقّة ، فكلّما تأمّل المؤمن في شيء منها زادته إيماناً ، فيقوى الإيمان ويشدّ حتّى يستقرّ في مرحلة اليقين ، وهو قوله تعالى : « وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » .

و إذا زاد الإيمان و كمل كما لأعرف عندئذ مقام ربّه وموقع نفسه ، معرفة تطابق

واقع الأمر ، وهو أن الأمر كله إلى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذي إليه يرجع كل شيء ، فالواجب الحق على الإنسان أن يتوكل عليه ويتبع ما يريد منه بأخذه وكيلاً في جميع ما يهتمه في حياته ، فيرضى بما يقدر له في مسير الحياة ، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشترعه من الشرائع فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه ، وهو قوله تعالى : «وعلى ربهم يتوكلون» .

ثم إذا استقر الإيمان على كماله في القلب ، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبودية إلى ربه ، وينصب نفسه في مقام العبودية وإخلاص الخضوع وهو الصلاة ، وهي أمر بينه وبين ربه ، وأن يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإفناء على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك ، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعه ، وهو قوله تعالى : «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» .

وقد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى : «زادتهم إيماناً» إشارة إلى الزيادة من حيث الكيفية وهو الاستعداد والكمال ، دون الكمية وهي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين .

قوله تعالى : «أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» قضاء منه تعالى بثبوت الإيمان حقا فيمن اتصف بما عده تعالى من الصفات الخمس ، و لذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله : « لهم درجات عند ربهم » الآية فلهؤلاء من صفات الكمال وكريم الثواب وعظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقي .

وأما قوله : « لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » فالمغفرة هي الصفح الإلهي عن ذنوبهم ، والرزق الكريم ما يرتزقون به من نعم الجنة ، وقد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة ونعمها في مواضع من كلامه ، كقوله تعالى : « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » الحج : ٥٨ وغير ذلك .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله : « لهم درجات عند ربهم » مراتب القرب والزلفي ودرجات الكرامة المعنوية ، وهو كذلك ، فإن المغفرة والجنة من آثار مراتب القرب عن الله

سبحانه وفروعه البتة .

و الذي يشتمل عليه الآية من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين ، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم ، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان ، والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبة بازائد كذلك لا محالة ، فمن المؤمنين من له درجة واحدة ، ومنهم ذو الدرجتين ، ومنهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم في الإيمان .

ويؤيده قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » المجادلة : ١١ و قوله تعالى : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله و ماواه جهنم وبئس المصير ، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ، آل عمران : ١٦٣ .

وبما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما في الآية من الدرجات بدرجات الجنة ، ليس على ما ينبغي ، وأن المتعین كون المراد بها درجات القرب ؛ كما تقدم وإن كان كل منهما يلازم الآخر .

قوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، إلى آخر الآيتين . ظاهر السياق أن قوله : « كما أخرجك » متعلق بما يدل عليه قوله تعالى : « قل الأنفال لله والرسول ، والتقدير : أن الله حكم بكون الأنفال له ولرسوله بالحق » مع كراهتهم له ، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهة فريق منهم له ، فالجميع حق يترتب عليه من مصلحة دينهم ودنياهم ما هم غافلون عنه .

وقيل : إنه متعلق بقوله : « يجادلونك في الحق » وقيل : إن العامل فيه معنى الحق والتقدير : هذا الذكر من الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . والمعنيان - كما ترى - بعيدان عن سياق الآية .

والمراد بالحق ما يقابل الباطل ، وهو الأمر الثابت الذي يترتب عليه آثاره الواقعية المطلوبة ، وكون الفعل - وهو الإخراج - بالحق هو أن يكون هو المتعین الواجب بحسب الواقع ، وقيل : المراد به الوحي ، وقيل : المراد به الجهاد ، وقيل خير ذلك ، وهي معان بعيدة .

والأصل في معنى الجدل شدة القتال ، يقال : زمام جدبل أي شديد القتال ، وسمي

الجدال جدالاً. لأن فيه نزاعاً بالقتل عن مذهب إلى مذهب كما ذكره في المجمع .
ومعنى الآيتين : أن الله تعالى حكم في أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه
كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجاً يصاحب الحق ، والحال أن فريقاً من المؤمنين
لكارهون لذلك ، ينازعونك في الحق بعد ما تبيّن لهم إجمالاً والحال أنهم يشبهون جماعة
يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون إلى ما أعدّ لهم من أسبابه وأدواته .

﴿ بحث روائى ﴾

في جامع الجوامع للطبرسي : قرء ابن مسعود و علي بن الحسين زين العابدين و
الباقر و الصادق عليهم السلام : يسألونك الأنفال .

أقول : ورواه عن ابن مسعود و كذا عن السجّاد والباقر و الصادق عليهم السلام غيره .

وفي الكافي بإسناده عن العبد الصالح عليه السلام قال : الأنفال كل أرض خربة قد باد
أهلها ، و كل أرض لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب و لكن صالحوا صلحاً و أعطوا بأيديهم
على غير قتال - فقال - : وله - يعنى الوالى - رؤوس الجبال و بطون الأودية و الآجام ، و كل
أرض مئة لارب لها ، وله صواني الملوك : ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله
مردود ، وهو وارث من لا وارث له ، ويعول من حيلة له .

وفيه : بإسناده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » قال : من
مات وليس له مولى فماله من الأنفال .

أقول : وفي معنى الروايتين روايات كثيرة مروية من طرق أهل البيت عليهم السلام
ولاضرير في عدم ذكرها الأنفال بمعنى غنائم الحرب ، فإن الآية بموردها تدل عليه على
ما يفيد سياقها .

وفي الدر المنثور : أخرج الطيالسي و البخاري في الأدب المفرد و مسلم و النحاس في
ناسخه و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت في أربع آيات
من كتاب الله : كانت أمي حلفت أن لا تأكل ولا تشرب حتى أفرق محمداً صلى الله عليه وآله فأنزل الله

وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً
و الثانية : أني كنت أخذت سيفاً أعجبني فقلت : يا رسول الله هب لي هذا فنزلت :
يسألونك عن الأنفال .

والثالثة : أني مرضت فأتاني رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إنني أريد أن
أقسم مالي أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، فقلت : الثالث ؟ فسكت فكان الثالث بعده جائزاً .
والرابعة : أني شربت الخمر مع قوم من الأنصار فضرب رجل منهم أنفي بلحبي
بجل فأتيت النبي ﷺ فأنزل الله تحريم الخمر .

أقول : الرواية لا تخلو عن شيء أما أولاً فلأن قوله تعالى : « وإن جاهدك على
أن تشرك بي » الآية ذيل قوله تعالى : « و وصينا الإنسان بوالديه » لقمان : ١٤ و هي
بسياقها تأتي أن تكون نازلة عن سبب خاص . على أنه قد تقدم في ذيل قوله تعالى : « قل
تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » الآيات
الأنعام : ١٥١ أن الإحسان بالوالدين من الأحكام العامة غير المختصة بشريعة دون
شريعة .

وأما ثانياً : فلأن ما ذكر من أخذ السيف واستيهاه من النبي ﷺ إنما يناسب
قراءة : « يسألونك الأنفال » لقراءة : « يسألونك عن الأنفال » وقد تقدم توضيحه في البيان
المتقدم .

و أما ثالثاً : فلأن استقرار السنة على الإيضاء بالثلث لم يكن بأية نازلة بل
بسنة نبوية .

وأما رابعاً فلأن قصة شربه الخمر مع جماعة من الصحابة و شج أنفه بلحبي بعير
وإن كانت حقة لكنه إنما شرب الخمر مع جماعة مختلطة من المهاجرين و الأنصار ، و قد
شج أنفه عمر بن الخطاب ثم أنزل الله آية المائة ، ولم ينزل للتحريم بل لتشديده ، و قد
تقدم ذلك كله في ذيل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأصاب
والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان ، المائة : ٩٠ .

و فيه : أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه والحاكم

والبيهقي في سننه عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل فساءت فيه أحلامنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسّمه رسول الله ﷺ بين المسلمين ، عن براء يقول : عن سواء .

وفيه : أخرج سعيد بن منصور و أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و أبو الشيخ و الحاكم و صححه والبيهقي و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرأ فالتقى الناس فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمين يقتلون ، و أكبّت طائفة على العسكر بحوزونه و يجمعونه ، و أحدثت طائفة برسول الله ﷺ لانصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل و فاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها و جمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، و قال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحقّ بهامنا ، نحن نفينا عنها العدو و هزمناها ، و قال الذين أحذقوا برسول الله ﷺ و خفنا أن يصيب العدو منه غرة و اشتغلنا به فنزلت : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول فاتمقوا الله و أصلحوا ذات بينكم » فقسّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين الحديث .

وفيه : أخرج ابن أبي شيبة و أبو داود و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ : من قتل قتيلاً فله كذا و كذا و من أسر أسيراً فله كذا و كذا فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، و أما الشبان فتسارعوا إلى القتل و الغنائم فقالت المشيخة للشبان : أشر كوننا معكم فإننا كنا لكم رداءً و لو كان منكم شيء للجأتم إلينا ، فاختموا إلى النبي ﷺ فنزلت : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول » فقسّم الغنائم بينهم بالسوية .

أقول : و في هذه المعاني روايات أخر ، و هنا روايات تدل على تفصيل القصة تتضح بها معنى الآيات سنورها في ذيل الآيات التالية .

و في بعض الروايات أن النبي ﷺ وعدهم أن يعطيهم السلب و الغنيمة ثم نسخه الله تعالى بقوله : « قل الأنفال لله و الرسول » و إلى ذلك يشير ما في هذه الرواية ، و لذلك

ربما قيل : إنه لا يجب على الإمام أن يفي بما وعد به المحاربين . لكن يبعده اختلافهم في أمر الغنائم يوم بدر إذ لو كان النبي ﷺ وعدهم بذلك لم يختلفوا مع صريح بيانه .
وفيه : أخرج ابن جرير عن مجاهد : أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت : يسألونك عن الأنفال .

أقول : وهو لا ينطبق على ما تقدم من مضمون الآية على ما يعطيه السياق ، و في بعض ماورد عن المفسرين السلف كسعيد بن جبير و مجاهد و عكرمة و كذا عن ابن عباس أن قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول » الآية منسوخة بقوله : « واعلموا أن ماغنمتم من شيء فإن لله خمسها وللرسول » الآية ، وقد تقدم في بيان الآية ما ينتفي به احتمال النسخ .

و فيه ، أخرج مالك و ابن أبي شيبة و أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و النحاس و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل فأعاد المسألة فقال ابن عباس : ذلك أيضا .

ثم قال الرجل : الأنفال التي قال الله في كتابه ماهي ؟ فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه فقال ابن عباس : هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر - و في لفظ - ما أحوجك إلى من يضربك كما فعل عمر بصبيغ العراقي ، و كان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبه .

و فيه في قوله تعالى : « أولئك هم المؤمنون حقا » أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقا . قال : انظر ماتقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري و كأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، و كأنني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها قال : يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثاً .

أقول : والحديث مروى من طرق الشيعة بأسانيد عديدة .

* * *

وَ إِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يَفِشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرًا بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يَثْبِتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَاقُوا قَوْلَهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤).

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى قصة بدر ، وهي أول غزوة في الإسلام ، و ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد انقضائها على ما سيوضح .

قوله تعالى : « وإن يعِدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله أن يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين » أي واذكروا إن يعِدكم الله ، وهو بيان من الله وعد نعمه عليهم ليكونوا على بصيرة من أن الله

سبحانه لا يستقبلهم بأمر ولا يأتيتهم بحكم إلا بالحقّ وفيه حفظ مصالحهم وإسعاد جدّهم فلا يختلفوا فيما بينهم ، ولا يكرهوا ما يختاره لهم ، ويكلوا أمرهم إليه فيطيعوه ورسوله . والمراد بالطائفتين العير والنفير ، والعير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها أربعون رجلاً منهم أبوسفیان بن حرب ، والنفير جيش قريش وهم زهاء ألف رجل . وقوله : « إحدى الطائفتين » مفعول ثان لقوله : « يعدكم » ، وقوله : « أنها لكم » بدل منه وقوله : « وتودون » الآية في موضع الحال ، والمراد بغيرزات الشوكة : الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير الذي كان أقلّ عدّة وعدّة من النفير ، والشوكة الحدة ، استعارة من الشوك .

وقوله : « ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته » في موضع الحال ، والمراد بإحقاق الحقّ إظهاره وإثباته بترتيب آثاره عليه ، وكلمات الله هي ما قضى به من نصره أنبيائه وإظهار دينه الحقّ ، قال تعالى : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ، الصافات : ١٧٣ وقال تعالى : « يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون » الصف : ٩ . وقرئ : « بكلمته » وهو أوجه وأقرب والداير ما يأتي بعد الشيء مما يتعلّق به ويتصلّ إليه وقطع دابر الشيء ، كناية عن إنفائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرّعة عليه المرتبطة به .

ومعنى الآية : « واذكروا إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إما العير وإما النفير وأنتم تودون أن تكون تلك الطائفة هي العير لما تعلمون من شوكة النفير ، وقوتهم وشدّتهم ، مع مالكم من الضعف والهوان ، والحال أن الله يريد خلاف ذلك وهو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم ويظهر ما قضى ظهوره من الحقّ ، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم .

قوله تعالى : « ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » ظاهر السياق أن اللام للغاية ، وقوله : « ليحقّ » الآية متعلّق بقوله : « يعدكم الله » أي إنتما وعدكم الله ذلك وهو لا يخلف الميعاد ليحقّ بذلك الحقّ ويبطل الباطل ولو كان المجرمون

يكرهونه ولا يريدونه .

وبذلك يظهر أن قوله : « ليحق الحق » الآية ليس تكراراً لقوله : « و يريد الله أن يحق الحق بكلماته » وإن كان في معناه .

قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » الاستغاثة طلب العوث وهو النصرة كما في قوله : « فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه » القصص : ١٥ والإمداد معروف ، وقوله : « مردفين » من الإرداف وهو أن يجعل الراكب غيره ردفاً له ، والردف التابع قال الراغب : الردف التابع ، وردف المرأة عجيزتها ، والترادف ، التتابع ، والرادف : المتأخر ، والمردف المقدم الذي أوردف غيره . انتهى .

وبهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى فيما يشير به إلى هذه القصة في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله يدر وأنتم أنزلت فأتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومة وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران : ١٢٦ .

فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح أن المراد بنزول ألف من الملائكة مردفين نزول ألف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين .

وبذلك يظهر فساد ما قيل : إن المراد بكون الملائكة مردفين كون الألف متبعين ألقاً آخر لأن مع كل واحد منهم ردفاً له فيكونون ألفين ، وكذا ما قيل : إن المراد كون بعضهم إثر بعض ، وكذا ما قيل : إن المراد مجيئهم على أثر المسلمين بأن يكون مردفين بمعنى رادفين ، وكذا ما قيل : إن المراد إردافهم المسلمين بأن يتقدموا عسكر المسلمين فيلقوا في قلوب الذين كفروا الرعب .

قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله »

إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ الضميران في قوله : «جعلهُ» وقوله : «به» للإمداد بالملائكة على ما يدلُّ عليه السياق ، والمعنى أنَّ الإمداد بالملائكة إنما كان لغرض البشري واطمئنان نفوسكم لاليهلك بأيديهم الكفار كما يشير إليه قوله تعالى بعدُ : «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب» .

وبذلك يتأيد ما ذكره بعضهم : أنَّ الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم أحداً فقد قتل ثلث المقتولين منهم أو النصف علي عليه السلام و الثلثين الباقين أو النصف سائر المسلمين و إنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم و تثبت قلوب المسلمين ، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وسيجيء بعض الكلام في ذلك .

وقوله : «وما النصر إلا من عند الله إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ» بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى وأنه لو كان بكثرة العدد والقوة و الشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة والقوة ؛ على المسلمين على ما به من القوة والضعف .

وقد عدل بقوله : «إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ» جميع مضمون الآية وما يتعلق به من الآية السابقة فبعضته نصرهم وأمدتهم ، وبحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة .

قوله تعالى : «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه» إلى آخر الآية . النعاس أوّل النوم وهو خفيفه والتغشية الإحاطة ، والأمنة الأمان ، وقوله : «منه» أي من الله وقيل : أي من العدو والرجز هو الرجس والقذارة ، والمراد برجس الشيطان القذارة التي يطرء القلب من وسوسته وتسويله .

ومعنى الآية : أنَّ النصر والإمداد بالبشري و اطمئنان القلوب كان في وقت يأخذكم النعاس للأمن الذي أفاضه الله على قلوبكم فتمتم و لو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس ولا نوم ، وينزل عليكم المطر ليطهركم به ويذهب عنكم وسوسة الشيطان ويربط على قلوبكم ويشد عليها - وهو كناية عن التشجيع - وليثبت بالمطر أقدامكم في الحرب بتلبس الرمل أو بثبات القلوب .

والآية تؤيد ما ورد أنَّ المسلمين سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كتيب رمل ، وأصبحوا محدثين ومجننين ، و أصابهم الظمأ ، ووسوس إليهم الشيطان فقال : إنَّ عدوكم

قد سبقكم إلى الماء ، و أنتم تصلّون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابة ، و تطهروا به من الحدث ، وتلبّدت به أرضهم ، وأوحلت أرض عدوهم .

قوله تعالى : « إن يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب » إلى آخر الآية حال الظرف في أوّل الآية كحال الظرف في قوله : « إن تستغيثون ربكم » وقوله : « إن يغشيبكم النعاس » ومعنى الآية ظاهر .
وأما قوله : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرؤوس وبكل بنان جميع الأطراف من اليدين والرجلين أو أصابع الأيدي لئلا يطبقوا حمل السلاح بها والقبض عليه .

ومن الجائز أن يكون الخطاب بقوله : « فاضربوا » الخ للملائكة كما هو المتسابق إلى الذهن ، والمراد بضرب فوق الأعناق و كل بنان ظاهر معناه ، أو الكناية عن إنزالهم و إبطال قوّة الإمساك من أيديهم بالإرعاب ، و أن يكون الخطاب للمؤمنين والمراد به تشجيعهم على عدوهم بتشبيت أقدامهم والربط على قلوبهم ، وحشّهم و إغراؤهم بالمشركين .
قوله تعالى : « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » المشاقمة المخالفة وأصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل إلى شق غير شق من يخالفه ، والمعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم ، لأنهم خالفوا الله ورسوله وألحوا وأصرّوا بذلك ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب .

قوله تعالى : « ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » خطاب تشديدي للكفار يشير إلى ما نزل بهم من الخزي ويأمرهم بأن يذوقوه ، ويذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع قال ابن عباس : لما كان يوم بدر واصطف القوم للقتال قال أبو جهل : اللهم أولانا بالنصر فانصره ، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله : « إذ تستغيثون ربكم ، إلى آخره .

وقيل : إن النبي ﷺ لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال : اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض فما زال يهتف ربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه فأنزل الله : « إذ تستغيثون ربكم ، الآية عن عمر بن الخطاب والسدي وأبي صالح وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

قال : ولما أمسى رسول الله وجنّه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس وكانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل لا تثبت فيه قدم فأنزل الله عليهم المطر رذاذاً حتى لبد الأرض وثبت أقدامهم وكان المطر على قريش مثل العزالي ، وألقى الله في قلوبهم الرعب كما قال الله تعالى : « سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب » .

أقول : لفظ الآية : « إذ تستغيثون ربكم » الخ لا يلائم نزولها يوم بدر غيب استغاثتهم بل السياق يدل على نزولها مع قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » والآيات التالية له ، وهي تدل على حكاية حال ماضية وامتتانه تعالى على المسلمين بما أنزل عليهم من آيات النصر وتفاريق النعم ليشكروا له ويطيعوه فيما يأمرهم وينهاهم .

ولعل المراد من ذكر نزول الآية بعد ذكر استغاثتهم انطباق مضمون الآية على الواقعة ، وهو كثير النظير في الروايات المشتملة على أسباب النزول .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب : قال النبي ﷺ في العريش : اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعد هذا اليوم فنزل : « إذ تستغيثون ربكم » فخرج يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر فأيده الله بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وكثّروهم في أعين المشركين ، وقلّل المشركين في أعينهم فنزل : « وهم بالعدوة القصوى من الوادي

خلف العنقل والنبي ﷺ بالعودة الدنيا عند القلب .

أقول : والكلام فيه كالكلام في سابقه .

وفي المجمع : ذكر البلخي عن الحسن أن قوله : « وإذ يعدكم الله ، الآية نزلت قبل قوله : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » وهي في القراءة بعدها .

أقول : وتقدم مدلول إحدى الآيتين على مدلول الأخرى بحسب الوقوع لا يلزم سبقها نزولاً ، ولا دليل من جهة السياق يدل على ما ذكره .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن يحيى الخثعمي عن أبي عبد الله ﷺ في قوله تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » فقال : الشوكة التي فيها القتال .

أقول : وروى مثله القمي في تفسيره .

وفي المجمع قال أصحاب السير و ذكر أبو حمزة و علي بن إبراهيم في تفسيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أقبل أبو سفيان بعير قريش من الشام وفيها أموالهم وهي اللطيمة ، وفيها أربعون راكباً من قريش فندب النبي ﷺ أصحابه للخروج إليها ليأخذوها ، وقال : لعل الله أن ينفلكموها فاتتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، ولم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي كيداً ولا حرباً فخرجوا لا يريدون إلا أباسفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم .

فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ﷺ استأجر مضمض بن عمر والغفاري فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لغيرهم في أصحابه فخرج مضمض سريعاً إلى مكة .

وكانت عاتكة بنت عبدالمطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم مضمض بن عمر وبثلاث ليال أن رجلاً أقبل على بعيرله ينادي يا آل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبي قبيس فأخذ حجراً فدهده من الجبل فماترك داراً من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فاتتبت فرعة من ذلك وأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة : هذه مصيبة تحدث في قريش ، وفشت الرؤيا فيهم وبلغ ذلك أباجهل فقال : هذه

نبيّة ثانية في بني عبدالمطلب ، والآت والعزى لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأيت حقاً
وإلا لنكتبن كتاباً بيننا : أنه مامن أهل بيت من العرب أكذب رجلاً و نساءً من
بني هاشم .

فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت يا آل غالب يا آل غالب . اللطيمة
اللطيمة . العير العير . أدر كوا وما أراكم تدر كون إن تجداً و الصباة من أهل يشرب قد
خرجوا يتعرّضون لعيركم فتهيأوا للخروج ، و ما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج
مالاً لتجهيز الجيش ، و قالوا من لم يخرج نهدم داره ، و خرج معهم العباس بن عبدالمطلب ،
ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، و عقيل بن أبي طالب ، و أخرجوا معهم القيان يضربن
الدفوف .

و خرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلاً فلما كان بقرب بدر أخذ عيناً
للقوم فأخبره بهم ، و في حديث أبي حمزة : بعث رسول الله ﷺ أيضاً عيناً له على العير اسمه
عدي فلما قدم على رسول الله ﷺ فأخبره أين فارق العير نزل جبرائيل على رسول الله
ﷺ فأخبره بنفير المشركين من مكة فاستشار أصحابه في طلب العير و حرب النفير فقام
أبو بكر فقال : يا رسول الله إنها قريش و خيلاؤها ما آمنت منذ كفرت ، و لا ذلت منذ عزت ،
و لم نخرج على هيئة الحرب ؛ و في حديث أبي حمزة : أنا عالم بهذا الطريق فارق عدي
العير بكذا و كذا ، و ساروا و سرنا فنحن و القوم على ماء بدر يوم كذا و كذا كأننا فرسا رهان
فقال ﷺ : اجلس فجلس . ثم قام عمر بن الخطاب فقال : مثل ذلك ، فقال ﷺ اجلس
فجلس .

ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله إنها قريش و خيلاؤها ، و قد آمنتنا بك و صدقنا و شهدنا
أن ما جئت به حق ، و الله لو أمرتنا أن نخوض بحر الغضا و شوك الهراس لخضناه معك ،
و الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت و ربك فقاتلنا إننا ههنا قاعدون
ولكننا نقول : إمض لأمر ربك فإننا معك مقاتلون فيجزاه رسول الله ﷺ خيراً على قوله
ذاك .

ثم قال : أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأتصار لأن أكثر الناس منهم ،

ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : إننا برآء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ثم أنت في ذمتنا فمنع أبناءنا ونساءنا فكان صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا يكون الأ نصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدو ، وأن ليس عليهم أن ينصروه خارج المدينة .

فقام سعد بن معاذ فقال : بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله كأنك أردتنا . فقال : نعم . قال : بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله إننا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واترك منها ما شئت ، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخصناه معك ولعل الله عز وجل أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : سيروا على بركة الله فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده ، والله لكأنني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان (١) .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرحيل ، و خرج إلى بدر وهو بشر ، وفي حديث أبي حمزة الشمالي : بدر رجل من جهينة والماء ماؤه فإتما سمى الماء باسمه ، وأقبلت قريش وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا نحن عبيد قريش . قالوا : فأين العير ؟ قالوا لا علم لنا بالعير فأقبلوا يضربونهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي فانقتل من صلواته وقال : إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم فأتوه بهم فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : يا محمد نحن عبيد قريش ، قال : كم القوم ؟ قالوا : لاعلم لنا بعددهم قال : كم ينحرون في كل يوم من جزور ؟ قالوا : تسعة إلى عشرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم تسعمائة إلى ألف رجل ، وأمر صلى الله عليه وسلم بهم فحبسوا وبلغ ذلك قيساً ففرغوا وندموا على مسيرهم .

ولقي عتبة بن ربيعة أبا البخترى بن هشام فقال : أما ترى هذا البغي والله ما أبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا وقد أفلتت فجئنا بغياً وعدواناً ، والله ما أفلح قوم بغوا قط ، ولوردت أن ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهبت ولم نسر هذا المسير فقال له أبو البخترى : إنك

(١) وقد كان صلى الله عليه وآله يشير بذلك إلى لقاء النضير وهم يرجون لقاء العير .

سيد من سادات قريش فسر في الناس وتحمل العير التي أصابها محمد وأصحابه بنخلة (١) ودم ابن الحضرمي فإنه حليفك . فقال له علي ذلك ، وما على أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلية يعني أبا جهل فصر إليه وأعلمه أنني حملت العير ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعلي عقله .

قال : فقصدت خباءه وأبلغته ذلك فقال : إن عتبة يتعصب لمحمد فإنه من بني عبدمناف وابنه معه يريد أن يخذل بين الناس لا واللات والعزى حتى تفحم عليهم يشرب أو نأخذهم أسارى فندخلهم مكة و تتسامع العرب بذلك ، وكان أبو حذيفة بن عتبة مع رسول الله ﷺ .

وكان أبو سفيان لما جاز بالعير بعث إلى قريش : قد نجى الله عيركم فارجعوا ودعوا محمداً والعرب ، وادفعوه بالراح ما اندفع ، وإن لم ترجعوا فردوا القيان فلحقهم الرسول في الجحفة فأراد عتبة أن يرجع فأبى أبو جهل وبنو مخزوم وردوا القيان من الجحفة .

قال : وفزع أصحاب رسول الله ﷺ لما بلغهم كثرة قريش ، واستغاثوا وتضرعوا فأنزل الله عز وجل : « إذ تستغيثون ربكم ، وما بعده .

قال الطبرسي : ولما أصبح رسول الله ﷺ يوم بدر عبأ أصحابه فكان في عسكره فرسان : فرس للزبير بن عوام وفرس للمقداد بن الأسود ، وكان في عسكره سبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها ، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ و مرثد بن أبي مرثد الغنوي يتعاقبون على حمل مرثد بن أبي مرثد وكان في عسكر قريش أربعمئة فرس ، وقيل : مائتا فرس .

فلما نظرت قريش إلى قلة أصحاب رسول الله ﷺ قال أبو جهل : ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد ، فقال عتبة بن ربيعة : أتمرى لهم كميناً أو مدداً ؟ فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً فجاء بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله ﷺ ثم رجع فقال : ليس لهم كمين ولا مدد ولكن نواضح يشرب قد حملت

(١) وقد تقدمت الروايات في قصته في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل قوله تعالى : يسألونك

عن الشهر الحرام قتال فيه الآية البقرة : ٢١٧ .

الموت الناقع أما ترونهم خرساً لا يتكلمون ويتلمظون تلمظ الأفاعي ما لهم ملجأ إلا سيوفهم ، وما أراهم يولون حتى يقتلوا ، ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم فقال له أبو جهل : كذبت وجبت .

فأنزل الله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : يا معشر قريش إنني أكره أن أبدأ بكم فخلوني والعرب وارجعوا فقال عتبة : ما رد هذا قوم قط فأفلحوا ، ثم ركب جملأ له أحر فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو يجول بين العسكرين وينهى عن القتال فقال ﷺ : إن يك عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحر وإن يطيعوه يرشدوا .

وخطب عتبة فقال في خطبته : يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر إن محمداً له إل وزمة وهو ابن عمكم فخلوه والعرب فإن يك صادقاً فأنتم أعلى عيناً به وإن يك كاذباً كفتكم زؤبان العرب أمره ففاظأ أبا جهل قوله وقال له : جبت وانتفخ سحره فقال : يا مصفر إسته مثلي يجبن ؟ وستعلم قريش أيننا الأم وأجبن ؟ وأيننا المفسد لقومه .

ولبس درعه وتقدم هو وأخوه شيبه وابنه الوليد ، وقال : يا محمد أخرج إلينا أكفاه نامن قريش فبرز إليهم ثلاثة نفر من الأنصار وانتسبوا لهم فقالوا : ارجعوا إنتما نريد الأكفاه من قريش فنظر رسول الله ﷺ إلى عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب - وكان له يومئذ سبعون سنة - فقال : قم يا عبيدة ، ونظر إلى حمزة فقال : قم يا عم ثم نظر إلى علي بن أبي طالب فقال : قم يا علي - وكان أصغر القوم - فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفيء نور الله وبأبي الله إلا أن يتم نوره . ثم قال : يا عبيدة عليك بعتبة بن ربيعة ، وقال لحمزة عليك بشيبه ، وقال لعلي : عليك بالوليد .

فمر وا حتى انتهوا إلى القوم فقالوا : أكفاه كرام فحمل عبيدة على عتبة فضربه على رأسه ضربة فلقت هامته ، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فأطنسها فسقطا جميعاً ، وحمل شيبه على حمزة فتضاربا بالسيفين حتى انثلما ، وحمل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على الوليد فضربه على جبهته فأخرج السيف من إبطه قال علي لقد أخذ الوليد يمينه بيساره فضرب بها هامتي فظننت أن السماء وقعت على الأرض .

ثم اعتنق حمزة وشيبة فقال المسلمون : يا علي " أما ترى أن الكلب قد نهز عمك فحمل عليه علي عليه السلام ثم قال : يا عم طأطىء رأسك وكان حمزة أطول من شيبة فأدخل حمزة رأسه في صدره فضربه علي فطرح نصفه ثم جاء إلى عتبة و به رمق فأجهز عليه .
وفي رواية أخرى أنه برز حمزة لعتبة ، وبرز عبيدة لشيبة ، وبرز علي للوليد فقتل حمزة عتبة ، وقتل عبيدة شيبة ، وقتل علي عليه السلام الوليد ، فضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها فاستنقذه حمزة وعلي ، وحمل عبيدة حمزة وعلي حتى أتيا به رسول الله صلى الله عليه وآله فاستعبر فقال : يا رسول الله ألسنت شهيداً ؟ قال : بلى أنت أول شهيد من أهل بيتي .
وقال أبو جهل لقريش : لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر أبناء ربيعة عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً ، وعليكم بقرش فخذوهم أخذاً حتى ندخلهم مكة فنعم فهم ضاللتهم التي هم عليها .

وجاء إبليس في صورة سرافة بن مالك بن جشعم فقال لهم : أنا جار لكم ادفعوا إلي رايتمكم فدفعوا إليه راية الميسرة وكانت الراية مع بني عبدالدار فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لأصحابه : غضوا أبصاركم ، وعضوا على النواجذ ، ورفع يده فقال : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد ثم أصابه الغشي فسري عنه وهو يسلك العرق عن وجهه فقال : هذا جبرائيل قد أتاكم بألف من الملائكة مردفين .
وفي الأمالي بإسناده عن الرضا عن آباءه عليهم السلام : أن رسول الله صلى الله عليه وآله سافر إلى بدر في شهر رمضان وافتتح مكة في شهر رمضان .

أقول : وعلى ذلك أطبق أهل السير والتواريخ ، قال اليعقوبي في تاريخه : وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد مقدمه صلى الله عليه وآله - يعني إلى المدينة - بثمانية عشر شهراً .

وقال الواقدي : ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان فبعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبب بن عمرو يتجسسون على الماء فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم فأسروهم وأفلت بعضهم ، وأتوا بهم النبي صلى الله عليه وآله وهو قائم يصلي فسألهم المسلمون فقالوا : نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم

من الماء فضر بهم فلمّا أن لقوهم بالضرب قالوا : نحن لأبي سفيان ونحن في العير ، وهذا العير بهذا القوز فكانوا إذا قالوا ذلك يمسكون عن ضربهم . فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم .

فلمّا أصبحوا عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف وخطب المسلمين فحمد الله

وأثنى عليه ثم قال :

أمّا بعد فإنّي أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه فإنّ الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحبّ الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرّج الله به المهم وينجّي به من الغم تدركون به النجاة في الآخرة ، فيكم نبيّ الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإنّه تعالى يقول : ملقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم انظروا في الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وما أعزّكم به بعد الذلّة فاستكينوا له يرض ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته فإنّ وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنما أنا و أنتم بالله الحيّ القيوم ، إليه ألقانا ظهورنا ، وبه اعتمسنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، ويغفر الله لي وللمسلمين .

و في المجمع : ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس وغيره : أن جبرائيل قال للنبيّ

ﷺ يوم بدر خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول الله ﷺ لما التقى الجمعان لعليّ :

أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفاً من حصا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم وقال :

شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخره منها شيء ثم ردّهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم .

وفي الأمالي بإسناده عن ابن عباس قال : وقف رسول الله ﷺ على قتلى بدر فقال :

جزاكم الله من عصابة شرّاً لقد كذبتموني صادقاً وخوتتم أمنيّاً ، ثم التفت إلى أبي جهل

بن هشام فقال : إن هذا أعتى على الله من فرعون إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد الله ،

وإنّ هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللآت والعزى .

وفي المغازي للواقدي : وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر بالقلب أن تغور ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسمناً انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه ترايل لحمه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ائركوه ، فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه .

ثم وقف على أهل القلب فناداهم رجلاً رجلاً : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً بس القوم كنتم لنبيكم كذبتوني وصدفتني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرتني الناس . فقالوا يا رسول الله أتناذي قوماً قد ماتوا ؟ فقال : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق ، وفي رواية أخرى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

قال : وكان انهزام قريش حين زالت الشمس فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدر وأمر عبدالله بن كعب بقبض الغنائم ومهلها ، وأمر نفرأ من أصحابه أن يعينوه فصلّى العصر يبدر ثم راح فمرّ بالأثيل قبل غروب الشمس فنزل به وبات ، وبأصحابه جراح وليست بالكثيرة ، وأمر ذكوان بن عبد قيس أن يحرس المسلمين حتى كان آخر الليل فارتحل . وفي تفسير القميّ في خبر طويل : وخرج أبو جهل من بين الصّفين وقال : اللهم إنّ محمداً أقطعنا للرحم ، وآماناً بما لا نعرفه فأحنه الغداة فأنزل الله على رسوله : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين .

ثم أخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصي ورمى به في وجوه قريش وقال : شامت الوجوه فبعث الله رياحاً تضرب في وجوه قريش فكانت الهزيمة فقال رسول الله ﷺ : اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام فقتل منهم سبعين ، وأسر منهم سبعين .

والتقى عمرو بن الجموح مع أبي جهل فضرب عمرو أبا جهل على فخذه وضرب أبو جهل عمراً على يده فأبانها من العضة فتملقت بجلده فاتسكى عمرو على يده برجله ثم تراخى إلى

السماء حتى انقطعت الجلدة ورمى بيده .

وقال عبد الله بن مسعود : انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحط بدمه فقلت : الحمد لله الذي أخزاه ورفع رأسه فقال : إنما أخزى الله عبداً ، ابن أم عبد لمن الدبرة ويملك ؟ قلت : لله ولرسوله وإنسي قاتلك ، وضعت رجلي على عنقه فقال : ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم أما إنّه ليس شيء أشدّ من قتلك إيتاي في هذا اليوم ألا تولى قتلي رجل من المطليبين أو رجل من الأحلاف ؟ فاقتلت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقلت : يا رسول الله البشري هذا رأس أبي جهل بن هشام فسجد لله شكراً .

وفي الإرشاد للمفيد ثم بارز أمير المؤمنين عليه السلام العاص بن سعيد بن العاص بعد أن أحجم عنه من سواه فلم يلبث أن قتله ، وبرز إليه حنظلة بن أبي سفيان فقتله ، وبرز إليه بعده طعيمة بن عدي فقتله ، وقتل بعده نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش ، ولم يزل يقتل واحداً منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم وكانوا سبعين رجلاً ، تولى كافة من حضر بدرأ من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين قتل الشطر منهم ، وتولى أمير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده .

وفي الإرشاد أيضاً : قد أثبتت رواية العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم بيد من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان ممن سمّوه : الوليد بن عتبة كما قد مناه وكان شجاعاً جريئاً وقاحاً فتاكاً تهابه الرجال ، والعاص بن سعيد وكان هولاً عظيماً تهابه الأبطال ، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب و قصته فيما ذكرناه مشهورة نحن نبينها فيما نورد ، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس أهل الضلال ، ونوفل بن خويلد وكان من أشدّ المشركين عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وكانت قريش تقدّمه وتعظّمه وتطيعه ، وهو الذي قرن أبا بكر وطلحة قبل الهجرة بمكة و أوثقهما بحبل وعتدّ بهما يوماً إلى الليل حتى سئل في أمرهما ، ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وآله حضوره بدرأ سأل الله أن يكفيه أمره فقال : اللهم اكفني نوفل بن خويلد فقتله أمير المؤمنين عليه السلام .

وزمعة بن الأسود^(١)، والحارث بن زمعة، والنضر بن الحارث بن عبد الدار، وعمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحة بن عبيد الله، وعثمان ومالك ابنا عبيد الله أخوا طلحة بن عبيد الله ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة، وقيس بن الفاكه بن المغيرة، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة و[أبو] قيس^(٢) بن الوليد بن المغيرة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن مخزوم، وأبو منذر بن أبي رفاعة، ومنبه بن الحججاج السهمي، والعاص بن منبه، وعلقمة بن كلدة، وأبو العاص ابن قيس بن عدي، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، ولوزان بن ربيعة، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، ومسعود بن أمية بن المغيرة، وحاجب بن السائب بن عويمر، وأوس بن المغيرة بن لوزان، وزيد بن مليص، وعاصم بن أبي عوف، وسعيد بن وهب حليف بني عامر، ومعاوية بن [عامر بن] عبد القيس، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد، والسائب بن مالك، وأبو الحكم بن الأخنس، وهشام بن أبي أمية بن المغيرة.

فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين عليه السلام فيه غيره وهم أكثر من شطر المقتولين بيد علي ما قدمناه.

أقول : وذكر غيره كما في المجمع أنه قتل يوم بدر سبعة وعشرين رجلاً، وذكر الواقدي : أن الذي اتفق عليه قول النقلة والرواة من قتلاه تسعة رجال والباقي مختلف فيه .

لكن البحث العميق عن القصة وما يحتف بها من أشعارهم والحوادث المختلفة التي حدثت بعدها تسيء الظن بهذا الاختلاف، وقد نقل عن محمد بن إسحاق أن أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلي عليه السلام.

وقد عد الواقدي فيما ذكره ابن أبي الحديد من قتلى المشركين في وقعة بدر اثنين وخمسين رجلاً ونسب قتل أربعة وعشرين منهم إليه عليه السلام ممن انفرد بقتله أو شاركه غيره . ومن شعر أسيد بن أبي ياس يحرّض مشركي قريش على علي عليه السلام على ما في الإرشاد والمناقب قوله :

في كل مجمع غاية أخزاكم * جذع أبر على المذاكي القرح

(١) في بعض النسخ : وعقيل بن الاسود وفيه فذلك ستة وثلاثون .

(٢) هو أخو خالد بن الوليد، والثلاثة الذين قتل أبناء أعمامه .

- لله دركم أمتا تنكروا * قد ينكر الحرّ الكريم ويستحي
 هذا ابن فاطمة الذي أفناكم * ذبحاً و قتلته فقصه لم تذبح
 أعطوه خرجاً واتقوا تضريبه * فعل الذليل و بيعة لم تريح
 ابن الكهول وابن كل دعامة * في المعضلات وابن زين الأبطح
 أفناهم قعصاً و ضرباً يفترى * بالسيف يعمل حده لم يصفح

وفي الإرشاد روى شعبة عن أبي إسحاق عن حارث بن مضر ب قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : لقد حضرنا بدرأ وما فينا فارس غير المقداد بن الأسود ، ولقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا من نام غير رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه كان منتصباً في أصل شجرة يصلي فيها ويدعو حتى الصباح .

أقول : والروايات في قصة بدر كثيرة جداً وقد اقتصرنا منها على ما يتضح به فهم مضامين الآيات ، ومن الأخبار ما سيأتي إن شاء الله في تضعيف البحث عن الآيات التالية المشيرة إلى بعض أطراف القصة .

﴿فهرس أسماء شهداء بدر. رض﴾

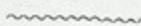
في البحار عن الواقدي قال : حدثني عبد الله بن جعفر قال : سألت الزهري كم استشهد من المسلمين ببدر؟ قال : أربعة عشر : ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار .

قال : فمن بني المطلب بن عبدمناف ، عبيدة بن الحارث قتله عتبة وفي غير رواية الواقدي قتله شيبة فدفعه النبي صلى الله عليه وآله بالصفراء ، و من بني زهرة عمير بن أبي وقاص قتله عمرو بن عبدود فارس الأحزاب ، و عمير بن عبدود ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتله أبو أسامة الجسمي ، و من بني عدي عاقل بن أبي البكير حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهير ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي ويقال : إن مهجعاً أول من قتل من المهاجرين ، و من بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عدي .

ومن الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور ، وسعد بن

خيامة قتله عمرو بن عبدود ، ويقال : طعيمة بن عدي ، ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقه رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرتة فقتله ، ومن بني مالك بن النجار عوف ومعوز ابنا عفراء قتلها أبو جهل ، ومن بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعمى ، ويقال : إنه أول قتيل قتل من الأنصار ، وقدروي : أن أول قتيل منهم حارثة بن سراقه ، ومن بني زريق رافع بن المعلّى قتله عكرمة بن أبي جهل ، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار .

وروي عن ابن عباس : أن أنسة مولى النبي صلى الله عليه وسلم قتل بيدر ، وروي : أن معاذ بن ماعص جرح بيدرفمات من جراحته بالمدينة ، و ابن [أنظ] عبيد بن السكن جرح فاشتكى جرحه فمات منه .



* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ (١٥)
 وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
 مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا
 رَمَيْتَ أَذْرَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ
 الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا
 وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ
 وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ
 لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنْ شَرَّ الدَّوَابُّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ إِلَيْكُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ
 عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ أَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ
 مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأُولَئِكَمُ وَ أَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ
 وَ زَرْقَتِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ
 وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ
 أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا
 اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ (٢٩) .

﴿ بيان ﴾

أوامر ونواه متعلّقة بالجهاد الإسلاميّ مما يناسب سوق القصة، وحثّ على تقوى الله وإندار و تخويف من مخالفة الله و رسوله والتعرّض لسخطه سبحانه، و فيها إشارة إلى بعض ماجرى في وقعة بدر من منن الله و أياديه على المؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » اللّقاء مصدر لقي يلقى من المجرّد و لاقى يلاقي من المزيد فيه قال الراغب في مفردات القرآن : اللّقاء مقابلة الشيء و مصادفته معاً ، وقد يعبر به عن كلّ واحد منهما يقال : لقيه يلقاه لقاءً ولُقيّاً ولُقية ، ويقال ذلك في الإدراك بالحسّ وبالبصر وبالبصيرة قال : لقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه ، وقال : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، و ملاقاته الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال : واعلموا أنّكم ملاقوه ، وقال : الذين يظنون أنّهم ملاقوا الله ، واللّقاء الملاقاتة قال : وقال الذين لا يرجون لقاءنا ، وقال : إلى ربّك كدحاً فعلاقيه . انتهى .

وقال في المجمع : اللّقاء الاجتماع على وجه المقاربة لأنّ الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحلّ الواحد . انتهى .

وقال فيه : الزحف الدنو قليلاً قليلاً ، والتراحف التداني يقال : زحف يزحف زحفاً وأزحفت للقوم إذا دنوت لقتالهم وثبتّ لهم قال اللّيث : الزحف جماعة يزحفون إلى عدوّ لهم بمرّة وجمعه زحوف . انتهى .

وتولية الأعداء الأدبار جعلهم يلوونها وهو استدبار العدوّ واستقبال جهة الهزيمة . و خطاب الآية عامّ غير خاصّ بوقت دون وقت ولا غزوة دون غزوة فلا وجه لتخصيصها بغزوة بدر وقصر حرمة الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين . على أنّك عرفت أنّ ظاهر سياق الآيات أنّها نزلت بعد غزوة بدر لا يومها ، وأنّ الآيات ذيل ما في صدر السورة من قوله : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول ، الآية ، وللکلام تتمّة ستوافيك في البحث الروائيّ إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، إلى آخر الآية . التحرف : الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف وهو طرف الشيء وهو أن ينحرف وينعطف المقاتل من جهة إلى جهة أخرى ليتمكن من عدوه و يبادر إلى إلقاء الكيد عليه ، والتحيز هو أخذ الحيز وهو المكان ، والفئة القطعة من جماعة الناس ، والتحيز إلى فئة أن يعطف المقاتل عن الأفراد بالعدو إلى فئة من قومه فيلحق بهم و يقاتل معهم .

والبواء الرجوع إلى مكان و الاستقرار فيه ، ولذا قال الراغب : أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافاة الأجزاء . انتهى فمعنى قوله : باء بغضب من الله أي رجع ومعه غضب من الله .

فمعنى الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إنزالقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفرّوا منهم و من يفرّ منهم يومئذ أي وقتئذ فقد رجع ومعه غضب من الله وماواه جهنم و بسّ المصير إلا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز إلى فئة فلا بأس به .

قوله تعالى: « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى » إلى آخر الآية ، التدبير في السياق لا يدع شكاً في أن الآية تشير إلى وقعة بدر وما صنعه رسول الله ﷺ من رميهم بكفّ من الحصا ، و المؤمنون بوضع السيف فيهم و قتلهم القتل الذريع ، و ذيل الآية أعني قوله : و ليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً « يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى ، و قد أثبت تعالى عين مانفاه في جملة واحدة أعني قوله : « و ما رميت إذ رميت » .

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله : « فلم تقتلوهم و لكن الله قتلهم و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى » نفي أن تكون وقعة بدر و ما ظهر فيها من استئصال المشركين و الظهور عليهم و الظفر بهم جارية على مجرى العادة و المعروف من نوايس الطبيعة ، و كيف يسع لقوم هم شزيمة قليلون ما فيهم على ماروي إلا فرس أو فرسان وبضعة أدرع وبضعة سيوف ، أن يستأصلوا جيشاً مجهزاً بالأفراس و الأسلحة و الرجال و الزراد و الرحلة ، هم أضعافهم عدّة و لا يقاسون بهم قوة و شدة ، و أسباب الغلبة عندهم ، و عوامل

البأس معهم ، والموقف المناسب للتقدم لهم .

إلا أن الله سبحانه بما أنزل من الملائكة ثبت أقدام المؤمنين وأرعب قلوب المشركين ، وألقى الهزيمة بما رماه النبي ﷺ من الحصاة عليهم فشملمهم المؤمنون قتلاً وأسراً فبطل بذلك كيدهم وخمدت أنفاسهم وسكنت أجراسهم .

فبا لحري أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين و الرمي الذي شتمت شملهم وألقى الهزيمة فيهم إليه سبحانه دون المؤمنين .

فما في الآية من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العناية ، بالنظر إلى استناد الوقعة بأطرافها إلى سبب إلهي غير عادي ، ولا ينافي ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع إلى أسبابها القريبة المعهودة في الطبيعة بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم ، والنبي ﷺ رامياً لمارماه من الحصاة .

وقوله : « وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً » الظاهر أن ضمير « منه » راجع إلى الله تعالى ، والجملة لبيان الغاية وهي معطوفة على مقدّم محذوف ، والتقدير : إنما فعل الله ما فعل من قتلهم و رميهم لمصالح عظيمة عنده ، وليبلي المؤمنين ويمتحنهم بلاءً وامتحاناً حسناً أولينعم عليهم بنعمة حسنة ، و هو إفناء خصمهم وإعلاء كلمة التوحيد بهم وإغناؤهم بما غنموا من الغنائم .

وقوله : « إن الله سميع عليم » تعليل لقوله : « وليبلي المؤمنين » أي إنه تعالى يبليهم لأنه سميع باستغاثتهم عليهم بحالهم فيبليهم منه بلاءً حسناً .

والتفريع الذي في صدر الآية : « فلم تقتلوهم » الخ متعلق بما يتضمنه الآيات السابقة : « إن تستغيثون ربكم » إلى آخر الآيات من المعنى ، فإنها تعد من الله عليهم من إنزال الملائكة وإمدادهم بهم وتغشية النعاس إياهم وإمطار السماء عليهم و ما أوحى إلى الملائكة من تأييدهم و تثبيت أقدامهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، فلمّا بلغ الكلام هذا المبلغ فرّغ عليه قوله : « فلم تقتلوهم و لكن الله قتلهم و ما رميت إزرميت و لكن الله رمى »

وعلى هذا فقولته : « يا أيها الذين آمنوا إنالقيتم إلى قوله - وبئس المصير » معترضة

متعلّقة بقوله : «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» أو بمعناه المفهوم من الجمل المسرودة ؛ وقوله : «فلم تقتلوهم» الخ متصل بما قبله بحسب النظم .

وربّما يذكر في نظم الآية وجهان آخران :

أحدهما : أن الله سبحانه لما أمرهم بالقتال في الآية المتقدمة ذكر عقبيها أن ما كان من الفتح يوم بدر وقهر المشركين إنما كان بنصرته ومعونته تذكيراً للنعمة . ذكره أبو مسلم .

والثاني : أنهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول : أنا قتلنا فلاناً وأنا فعلت كذا نزلت الآية على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم . وربّما قيل : إن الفاء في قوله «فلم تقتلوهم» لمجرّد ربط الجمل بعضها ببعض . والوجه ماقدّمناه .

قوله تعالى : «ذلکم وأن الله موهن کید الکافرين» قال في المجمع : «ذلکم» موضعه رفع ، وكذلك «أن الله» في موضع رفع ، والتقدير : الأمر ذلکم والأمر أن الله موهن ، وكذلك الوجه فيما تقدّم من قوله : «ذلکم فذوقوه وأن للکافرين عذاب النار» ، ومن قال : إن «ذلکم» مبتدئ و «فذوقوه» خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبراً لمبتدئه ، ولا يجوز : زيد فمنطلق ، ولا : زيد فاضرب به إلا أن تضر «هذا» تريد : هذا زيد فاضرب به . انتهى . فمعنى الآية : الأمر ذلکم الذي ذكرناه والأمر أن الله موهن کید الکافرين .

قوله تعالى : «إن تستفتحوا فقد جاء کم الفتح» إلى آخر الآية . ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسرودة كقوله : «وإن تنتهوا فهو خير لكم» وقوله : «وإن تعودوا نعد» الخ أن تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشمال الكلام على الالتفات للمتّهكّم ، وهو المناسب لقوله في الآية السابقة : «وأن الله موهن کید الکافرين» .

فالمعنى : إن طلبتم الفتح وسألتم الله أيّها المشركون أن يفتح بينکم وبين المؤمنين فقد جاء کم الفتح بما أظهر الله من الحقّ يوم بدر فكانت الدائرة للمؤمنين علیکم ، وإن تنتهوا عن المكيدة على الله ورسوله فهو خير لكم وإن تعودوا إلى مثل ما كنتم نعد إلى مثل ما وهنّا به کید کم ، ولن تغني عنکم جماعتکم شيئاً ولو كثرت كما لم تغن في هذه المرّة وإن الله مع المؤمنین ولن يغلب من هو معه .

و بهذا يتأيّد ما ورد أنّ أباجهل قال يوم بدر حين اصطفّى الفريقان أوحين التقى
الفتنان : اللهمّ إنّ تجّداً أقطعنا للرحم وأماناً بما لانعرف فانصر عليه ، وفي بعض الروايات
- وهو الأ نسب - كما في المجمع عن أبي حمزة : قال أبوجهل : اللهمّ ربنا ديننا القديم ودين
تجّد الحديث فأىّ الدينين كان أحبّ إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم .

و ذكر بعضهم : أنّ الخطاب في الآية للمؤمنين ، و وجهوا مضامين جملها بما لا
يرتضيه الذوق السليم ، ولا جدوى للإطالة بذكرها و المناقشة فيها فمن أراد ذلك فعليه
بالمطولات .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوا عنه و أنتم
تسمعون » الضمير على ما يفيد السياق راجع إلى الرسول ﷺ ، والمعنى : ولا تولّوا عن الرسول
و أنتم تسمعون ما يليق به إليكم من الدعوة الحقّة و ما يأمركم به و ينهاكم عنه ممّا فيه
صلاح دينكم و دنياكم . ومصّب الكلام أوامره الحرّية و إن كان لفظه أعمّ .

قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا واهم لا يسمعون » المعنى ظاهر وفيه
نوع تعريض للمشركين إذ قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون ، وقد حكى الله عنهم ذلك إذ قال
بعد عدّة آيات : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » الأنفال :
٣١ لكنّهم كذبوا ولم يسمعوا ولو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى : « ولهم آذان لا
يسمعون بها » الأعراف : ١٧٩ وقال تعالى حكاية عن أصحاب السعير : « وقالوا لو كنّا
نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » الملك : ١٠ فالمراد بالسمع في الآية الأولى تلقّي
الكلام الحقّ الذي هو صوت من طريق الأذن ، وفي الآية الثانية الانقياد لما يتضمّنه الكلام
الحقّ المسموع .

والآيتان - كما ترى - خطاب متعلّق بالمؤمنين متّصل نوع اتّصال بالآية السابقة
عليهما و تعريض للمشركين ، فهو تعالى لما التفت إلى المشركين فنعمّهم و تهكّم عليهم
بسؤالهم الفتح ، و ذكر لهم أنّ الغلبة دائماً لكلمة الإيمان على كلمة الكفر و لدعوة
الحقّ على دعوة الباطل ، التفت إلى حزبه وهم المؤمنون فأمرهم بالطاعة له و لرسوله ، و

حذّرهم عن التوليّ عنه بعد استماع كلمة الحقّ ، وأن يكونوا كأولئك إذ قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون .

و من الممكن أن يكون في الآية إشارة إلى عدّة من أهل مكّة آمنوا بالنبيّ ﷺ ولما تخلّص قلوبهم من الشكّ خرجوا مع المشركين إلى بدر لحرب رسول الله ﷺ فابتلوا بما ابتلي به مشركوا قريش ، فقد ورد في الخبر : أن فئّة من قريش أسلموا بمكّة واحتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش ، يوم بدر ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبّه بن الحجاج ، والحرث بن زمعة ، وقيس بن الفاكه بن المغيرة ولما رأوا قلة المسلمين قالوا : مساكين هؤلاء غرّهم دينهم ، و سيدّكرهم الله بعد عدّة آيات بقوله : « و إذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض هؤلاء دينهم » الآية .

وربّما قيل : إن المراد بالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون هم أهل الكتاب من يهود قريظة والنضير . وهو بعيد .

قوله تعالى : « إن شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون » إلى آخر الآيتين . تعريض و ذمّ للذين سبق ذكرهم من الكفّار على ما يعطيه سياق الكلام و ما اشتملت عليه الآية من الماوصول و الضمائر المستعملة في أولي العقل ، وعلى هذا فالظاهر أن اللّام في قوله : « الصمّ البكم » للعهد الذكريّ ، ويؤوّل المعنى إلى أن شرّ جميع ما يدبّ على الأرض من أجناس الحيوان و أنواعها هؤلاء الصمّ البكم الذين لا يعقلون ، و إنّما لم يعقلوا لأنّه لا طريق لهم إلى تلقّي الحقّ لفقدهم السمع و البصر فلا يسمعون و لا يبصرون .

ثمّ ذكر تعالى أن الله إنّما ابتلاهم بالصمّ والبكّة فلا يسمعون كلمة الحقّ و لا ينطقون بكلمة الحقّ ، وبالجملة حرّمهم نعمة السمع و القبول ، لأنّه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به ولو كان لعلم ، لكن لم يعلم فلم يوفّقهم للسمع و القبول ، و لو أنّه تعالى رزقهم السمع و الحال هذه لم يثبت السمع و القبول فيهم بل تولّوا عن الحقّ و هم معرضون .

ومن هنا يعلم أن المراد بالخير حسن السريرة الذي يثبت به الاستعداد لقبول الحق ويستقر في القلب ، وأن المراد بقوله : « ولو أسمعهم » الإسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد أنه تعالى لو أسمعهم ورزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم ولا رجه مع ذلك لتوليهم وإعراضهم ، وذلك أن الشرط في قوله : « ولو أسمعهم » على تقدير فقدهم الخير على ما يفيد السياق .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » لما دعاهم في قوله : « أطيعوا الله والرسول » النخ إلى إطاعة الدعوة الحقة و عدم التولي عنها بعد استماعها أكدته ثانياً بالدعوة إلى استجابة الله والرسول في دعوة الرسول ، ببيان حقيقة الأمر والركن الواقعي الذي تعتمد عليه هذه الدعوة ، وهو أن هذه الدعوة دعوة إلى ما يحيي الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار ، وموقفه في الوجود أن الله سبحانه أقرب إليه من قلبه وأنه سيحشر إليه فليأخذ حذره وليجمع همه ويعزم عزمه .

الحياة أنعم نعمه وأعلى سلعة يعتقدها الموجود الحي لنفسه كيف لا ؟ وهو لا يرى وراءه إلا العدم والبطلان ، وأثرها الذي هو الشعور والإرادة هو الذي ترام لأجله الحياة ويرتاح إليه الإنسان ولا يزال يفر من الجهل وافتقاد حرية الإرادة والاختيار ، وقد جهز الإنسان وهو أحد الموجودات الحية بما يحفظ به حياته الروحية التي هي حقيقة وجوده كما جهز كل نوع من أنواع الخليقة بما يحفظ به وجوده وبقاءه .

وهذا الجهاز الإنساني يشخص له خيالاته ومنافعه ، ويحذره من مواطن الشر والضرر .

وإن كان هذه الهداية الإلهية التي يسوق النوع الإنساني إلى نحو سعاداته وخيره ويندبه نحو منافع وجوده هداية بحسب التكوين وفي طور الخلقة ، ومن المحال أن يقع خطأ في التكوين ، كان من الحتم الضروري أن يدرك الإنسان سعادة وجوده إدراكاً لا يقع فيه شك كما أن سائر الأنواع المخلوقة تسير إلى ما فيه خير وجوده ومنافع شخصه من غير أن يسهو فيه من حيث فطرته ، وإنما يقع الخطب فيما يقع من جهة تأثير عوامل وأسباب أخر مضادة تؤثر فيه أثراً مخالفاً ينحرف فيه الشيء عما هو خير له إلى ما هو شر ، وعمما

فيه نفعه إلى ما فيه ضرر يعود إليه ، و ذلك كالجسم الثقيل الأرضي الذي يستقر بحسب الطبيعة الأرضية على بساط الأرض ثم إنه يبتعد عن الأرض بالحرارة إلى جهة العلو بدفع دافع يجبره على خلاف الطبع فإذا بطل أثر الدفع عاد إلى مستقره بالحرارة نحو الأرض على الاستقامة إلا أن يمنعه مانع فيخرجه عن السير الاستقامي إلى انحراف واعوجاج .

وهذا هو الذي يصر عليه القرآن الكريم أن الإنسان لا يخفى عليه ما فيه سعادته في الحياة من علم وعمل ، وأنه يدرك بفطرته ما هو حق الاعتقاد والعمل قال تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، الروم : ٣٠ ، و قال تعالى « الذي خلق فسوئى والذي قدر فهدى - إلى أن قال - فذكر إن نفعت الذكرى سيدك من يخشى ويتجنبها الأشقى » الأعلى : ١١ ، و قال تعالى : « و نفس و ما سواها فآلهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » الشمس : ١٠ .

نعم ربما أخطأ الإنسان طريق الحق في اعتقاد أو عمل وخبط في مشيته لكن لأن الفطرة الإنسانية والهداية الإلهية أو فطرته في ضلالة و أوردته في تهلكة بل لأنه أغفل عقله و نسي رصده و اتبع هوى نفسه و ما زينته جنود الشياطين في عينه قال تعالى : إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » النجم : ٢٣ و قال : « أفرأيت من اتخذ إليه هواه وأضل الله على علم » الجاثية : ٢٣ .

فهذه الأمور التي تدعو إليها الفطرة الإنسانية من حق العلم والعمل لوازم الحياة السعيدة الإنسانية وهي الحياة الحقيقية التي بالحري أن تختص باسم الحياة ، والحياة السعيدة تستتبعها كما أنها تستلزم الحياة وتستتبعها ، وتعيدها إلى محلها لو ضعفت الحياة في محلها بورود ما يضاها ويبطل رشد فعلها .

فإذا انحراف الإنسان عن سوي الصراط الذي تهديه إليه الفطرة الإنسانية و تسوقه إليه الهداية الإلهية ، فقد فقد لوازم الحياة السعيدة من العلم النافع والعمل الصالح ، ولحق بحلول الجهل وفساد الإرادة الحرّة والعمل النافع بالموات ولا يحميه إلا علم حق وعمل حق ، وهما اللذان تندب إليهما الفطرة وهذا هو الذي تشير إليه الآية التي نبحت عنها : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

واللّام في قوله : «لما يحييكم» بمعنى إلى ، وهو شائع في الاستعمال ، و الذي يدعو إليه الرسول ﷺ هو الدين الحق و هو الإسلام الذي يفسره القرآن الكريم باتّباع الفطرة فيما تندب إليه من علم نافع و عمل صالح .

وللحياة بحسب ما يراه القرآن الكريم معنى آخر أدقّ ممّا نراه بحسب النظر السطحيّ الساذج فإنّنا إنّما نعرف من الحياة في بادئ النظر ما يعيش به الانسان في نشأته الدنيويّة إلى أن يحلّ به الموت ، وهي التي تصاحب الشعور والفعل الإراديّ ، و يوجد مثلها أو ما يقرب منها في غير الانسان أيضاً من سائر الأنواع الحيوانيّة لكنّ الله سبحانه يقول : «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» العنكبوت ٦٤ ويفيد ذلك أنّ الانسان متمتّع بهذه الحياة غير مشتغل إلاّ بالأوهام ، و أنّه مشغول بها ممّا هو أهمّ و أوجب من غايات وجوده و أغراض روحه فهو في حجاب مضروب عليه يفصل بينه وبين حقيقة ما يطلبه و يبتغيه من الحياة .

وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى وهو من خطايات يوم القيامة : «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ .

فلإِنسان حياة أخرى أعلى كعباً وأعلى قيمة من هذه الحياة الدنيويّة التي يعدها الله سبحانه لعباً ولهواً ، وهي الحياة الأخرويّة التي سينكشف عن وجهها الغطاء ، وهي الحياة التي لا يشوبها اللعب و اللهو ، ولا يدانيتها اللغو والتأثيم ، لا يسير فيها الانسان إلاّ بنور الإيمان وروح العبوديّة قال تعالى : «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه» المجادلة : ٢٢ وقال تعالى : «أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» الأنعام : ١٢٢ .

فهذه حياة أخرى أرفع قدراً وأعلى منزلة من الحياة الدنيويّة العامّة التي ربّما شارك فيها الحيوان العجم الانسان ، و يظهر من أمثال قوله تعالى : «وأيدناه بروح القدس» البقرة : ٢٥٣ وقوله : «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا» الآية الشورى : ٥٢ أنّ هناك حياة أخرى فوق هاتين الحياتين المذكورتين سيوافيك البحث عنها فيما يناسبها من المورد إن شاء الله .

و بالجملة فللاإنسان حياة حقيقية أشرف وأكمل من حياته الدنيوية الدنيوية يتلبس بها إذا تم استعداده بالتحلي بحلية الدين والدخول في زمرة الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياة الدنيوية حين تم استعداده بالتلبس بها وهو جنين إنساني .
وعلى ذلك ينطبق قوله تعالى في الآية المبحوث عنها : «يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» فالتلبس بما تندب إليه الدعوة الحققة من الإسلام يجر إلى الإنسان هذه الحياة الحقيقية كما أن هذه الحياة منبع ينبع منه الإسلام وينشأ منه العلم النافع والعمل الصالح ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» النحل : ٩٧ .

والآية أعني قوله فيها : «إذا دعاكم لما يحييكم» مطلق لا يابى عن الشمول لجميع دعواته ﷺ المحيية للقلوب ، أو بعضها الذي فيه طبيعة الإحياء أولئناؤها التي هي أنواع الحياة السعيدة الحقيقية كالحياة السعيدة في جوار الله سبحانه في الآخرة .

ومن هنا يظهر أن لوجه لتقييد الآية بما قيدها به أكثر المفسرين فقد قال بعضهم : إن المراد بقوله : «إذ ادعاكم لما يحييكم» بالنظر إلى مورد النزول : إذا دعاكم إلى الجهاد إذ فيه إحياء أمركم وإعزاز دينكم .

وقيل : المعنى إذ ادعاكم إلى الشهادة في سبيل الله في جهاد عدوكم فإن الله سبحانه عد الشهداء أحياء كما في قوله : «ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» آل عمران : ١٦٩ .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى الإيمان ، فإنه حياة القلب والكفر موته ، أو إذا دعاكم إلى الحق .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى القرآن والعلم في الدين لأن العلم حياة والجهل موت والقرآن نور وحياة وعلم .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى الجنة لما فيها من الحياة الدائمة و النعمة الباقية الأبدية .

وهذه الوجوه المذكورة يقبل كل واحد منها انطباق الآية عليه غير أن الآية كما عرفت مطلقة لا موجب لصرفها عما لها من المعنى الواسع .

قوله تعالى : «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون، الحيلولة هي التخلل وسطاً ، والقلب العضو المعروف . ويستعمل كثيراً في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الإنسان ويظهر به أحكام عواطفه الباطنة كالحب والبغض والخوف والرجاء والتمني والقلق ونحو ذلك فالقلب هو الذي يقضي ويحكم ، وهو الذي يحب شيئاً ويبغض آخر ، وهو الذي يخاف ويرجو ويتمنى ويسر ويحزن ، وهو في الحقيقة النفس الإنسانية تفعل بما جهزت به من القوى والعواطف الباطنة .

والإنسان كسائر ما أبدعه الله من الأنواع التي هي أبعاض عالم الخلق مركب من أجزاء شتى مجهزة بقوى و أدوات تابعة لوجوده يملكها ويستخدمها في مقاصد وجوده ، والجميع مربوط به ربطاً يجعل شتات الأجزاء والأبعاض على كثرتها وتفريق القوى والأدوات على تعددها ، واحداً تماماً يفعل ويتحرك ، ويتحرك ويسكن ، بوحدته وفردانيته .

غير أن الله سبحانه لما كان هو المبدع للإنسان وهو الموجد لكل واحد واحد من أجزاء وجوده وتفريق قواه وأدواته كان هو الذي يحيط به وبكل واحد من أجزاء وجوده وتوابعه ، ويملك كلاً منها بحقيقة معنى المملك يتصرف فيه كيف يشاء ، ويملك الإنسان ما شاء منها كيف شاء فهو المتوسط الحائل بين الإنسان وبين كل جزء من أجزاء وجوده وكل تابع من توابع شخصه : بينه وبين قلبه ، بينه وبين سمعه ، بينه وبين بصره ، بينه وبين بدنه ، بينه وبين نفسه . يتصرف فيها بإيجادها ، ويتصرف فيها بتمليك الإنسان ما شاء منها كيف شاء ، وإعطائه ما أعطى ، وحرمانه ما حرم .

ونظير الإنسان في ذلك سائر الموجودات فما من شيء في الكون وله ذات و توابع ذات من قوى وآثار وأفعال إلا والله سبحانه هو المملك بحقيقة معنى الكلمة لذاته ولتوابع ذاته ، وهو المملك إياه كلاً من ذاته وتوابع ذاته فهو الحائل المتوسط بينه وبين ذاته وبينه وبين توابع ذاته من قواه وآثاره وأفعاله .

فإنه سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان وبين قلبه وكل ما يملكه الإنسان ويرتبط ويتصل هو به نوعاً من الارتباط والاتصال وهو أقرب إليه من كل شيء كما قال تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ق : ١٦ .

وإلى هذه الحقيقة يشير قوله : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » فهو تعالى لكونه مالكا لكل شيء ومن جعلتها الإنسان ملكاً حقيقياً لا مالك حقيقة سواه ، أقرب إليه حتى من نفسه وقوى نفسه التي يملكها لأنه سبحانه هو الذي يملكه إياها فهو حائل متوسط بينه وبينها يملكه إياها ويربطها به فافهم ذلك .

ولذلك عقب الجملة بقوله : « وأنه إليه تحشرون » فإن الحشر والبعث هو الذي ينجلي عنده أن الملك الحق لله وحده لا شريك له ، ويبطل عند ذلك كل ملك صوري وسلطنة ظاهريّة إلا ملكه الحق جل ثناؤه كما قال سبحانه : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ ، وقال : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ .

فكان الآية تقول : واعلموا أن الله هو المالك بالحقيقة لكم ولقلوبكم وهو أقرب إليكم من كل شيء ، وأنه ستحشرون إليه فيظهر حقيقة ملكه لكم وسلطانه عليكم يومئذ فلا يغني عنكم منه شيء .

وأما اتصال الكلام أعني ارتباط قوله : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الخ بقوله : « استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » فلأن حيلولته سبحانه بين المرء وقلبه ، يقطع منبت كل عذر في عدم استجابته لله والرسول إذا دعا لما يحييه ، وهو التوحيد الذي هو حقيقة الدعوة الحقّة فإن الله سبحانه لما كان أقرب إليه من كل شيء حتى من قلبه الذي يعرفه بوجدانه قبل كل شيء ، فهو تعالى وحده لا شريك له أعرف إليه من قلبه الذي هو وسيلة إدراكه وسبب أصل معرفته وعلمه .

فهو يعرف الله إلهاً واحداً لا شريك له قبل معرفته قلبه وكل ما يعرفه بقلبه ، فمهما شك في شيء أو ارتاب في أمر فلن يشك في إلهه الواحد الذي هو رب كل شيء ولن يضل في تشخيص هذه الكلمة الحقّة .

فإذا دعاه داعي الحق إلى كلمة الحق ودين التوحيد الذي يحييه لو استجاب له ، كان عليه أن يستجيب داعي الله فإنه لا عذر له في ترك الاستجابة معللاً بأنه لم يعرف حقيقة ما دعي إليه ، أو اختلط عليه ، أو أعيته المذاهب في الإقبال على الحق الصريح فإن الله سبحانه هو الحق الصريح الذي لا يحجبه حاجب ، ولا يستتره ساتر إذ كل حجاب مفروض فالله سبحانه أقرب منه إلى الإنسان ، وكل ما يختلج في القلب من شبهة أو وسوسة فالله سبحانه متوسط متخلل بينه - مع ما له من ظرف وهو القلب - وبين الإنسان فلا سبيل للإنسان إلى الجهل بالله والشك في توحيده .

وأيضاً فإن الله سبحانه لما كان حائلاً بين المرء وقلبه فهو أقرب إلى قلبه منه كما أنه أقرب إليه من قلبه فإن الحائل المتوسط أقرب إلى كل من الطرفين من الطرفين الآخر ، وإذا كان تعالى أقرب إلى قلب الإنسان منه فهو أعلم بما في قلبه منه .

فعلى الإنسان إذا دعاه داعي الحق إلى ما يحييه من الحق أن يستجيب دعاه بقلبه كما يستجيبه بلسانه ، ولا يضر في قلبه ما لا يوافق ما لبس بلسانه وهو النفاق فإن الله أعلم بما في قلبه منه وسيحشر إليه فينبؤه بحقيقة عمله ويخبره بما طواه في قلبه قال تعالى : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ ، وقال : « ولا يكتمون الله حديثاً » النساء : ٤٢ .

وأيضاً فإن الله سبحانه لما كان هو الحائل بين الإنسان وقلبه وهو المالك للقلب بحقيقة معنى المالك كان هو المتصرف في القلب قبل الإنسان وله أن يتصرف فيه بما شاء فما يجده الإنسان في قلبه من إيمان أو شك أو خوف أو رجاء أو طمأنينة أو قلق واضطراب أو غير ذلك مما ينسب إليه باختيار أو اضطراب ، فله انتساب إليه تعالى بتصرفه فيما هو أقرب إليه من كل شيء تصرفاً بالتوفيق أو الخذلان أو أي نوع من أنواع التربية الإلهية ، يتصرف بما شاء، ويحكم بما أراد من غير أن يمنعه مانع أو يهدده ذم أو لوم كما قال تعالى : « والله يحكم لامعقب لحكمه » الرعد : ٤١ ، وقال تعالى : « له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » التغابن : ١ .

فمن الجهل أن يثق الإنسان بما يجد في قلبه من الإيمان بالحق أو التلبس

بنيّة حسنة أو عزيمة على خير أو همّ بصالح وتقوى ، بمعنى أن يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته المطلقة على ما يهّم به فإنّ القلب بين أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء وهو المالك له بحقيقة معنى الملك والمحيط به بتمام معنى الكلمة قال تعالى : « وَنَقَلَبُ أَمْتِدْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْ لَمَرَّةً » الأنعام : ١١٠ فمن الواجب عليه أن يؤمن بالحقّ ويعزم على الخير على مخافة من الله تعالى أن يقلّبه من السعادة إلى الشقاء ويحوّل قلبه من حال الاستقامة إلى حال الانتكاس والانحراف ، ولا يأمن مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون .

و كذلك الإنسان إذا وجد قلبه غير مقبل على كلمة الحقّ والعزم على الخير وصالح العمل ، عليه أن يبادر إلى استجابة الله ورسوله فيما يدعو إلى ما يحببه ، ولا ينهزم عمّا يهجم عليه من أسباب اليأس وعوامل القنوط من ناحية قلبه فإنّ الله سبحانه يحول بين المرء وقلبه ، وهو القادر على أن يصلح سرّه و يحوّل قلبه إلى أحسن حال و يشمله بروح منه ورحمة فإنّما الأمر إليه ، وقد قال : « إِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ » يوسف : ٨٧ وقال : « وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » الحجر : ٥٦ .

فالأية الكريمة - كما ترى - من أجمع الآيات القرآنيّة تشتمل على معرفة حقيقيّة من المعارف الإلهيّة - مسألة الحيلولة - وهي تقطع عذر المتجاهلين في معرفة الله سبحانه من الكفّار والمشرّكين ، وتقلع غرّة النفاق من أصلها بتوجيه نفوس المنافقين إلى مقام ربّهم وأنّه أعلم بما في قلوبهم منهم ، ويلقي إلى المسلمين والذين هم في طريق الإيمان بالله وآياته مسألة نفسيّة تعلّمهم أنّهم غير مستقلّين في ملك قلوبهم ولا منقطعون في ذلك من ربّهم فيزول بذلك رذيلة الكبر عمّن يرى لنفسه استقلالاً وسلطنة فيما يملكه فلا يفرّ ما يشاهده من تقوى القلب وإيمان السرّ ، ورذيلة اليأس والقنوط عمّن يحيط بقلبه دواهي الهوى ودواعي أعراض الدنيا فيتناقل عن الإيمان بالحقّ والإقبال على الخير ، و يورثه ذلك اليأس والقنوط .

ومّا تقدّم يظهر أنّ قوله : « واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه » النخ تعليل

لقوله تعالى: « استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » على جميع التقادير من وجوه معناه .

وبذلك يظهر أيضاً أن الآية أوسع معنى مما أورده المفسرون من تفسيرها : كقول من قال : إن المراد أن الله سبحانه أقرب إلى المرء من قلبه نظير قوله : ونحن أقرب إليكم من جبل الوريد ، وفيه تحذير شديد .

وقول من قال : إن المراد أن القلب لا يستطيع أن يكتم الله حديثاً فإن الله أقرب إلى قلب الإنسان من نفسه ، فما يعلمه الإنسان من قلبه يعلمه الله قبله .

وقول من قال : إن المراد أنه يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة ودعوا التسوية ، وفيه حث على الطاعة قبل حلول المانع .

وقول من قال : معناه أن الله سبحانه يملك قلب القلوب من حال إلى حال فكأنهم خافوا من القتال فأعلمهم الله سبحانه أنه يبدل خوفهم أمناً بأن يحول بينهم وبين ما يتفكرون فيه من أسباب الخوف .

وقد ورد في الحديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بذلك أن الله سبحانه يحول بين الإنسان وبين أن يعلم أن الحق باطل أو أن الباطل حق ، وسيجيء في البحث الروائي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » قرأ عليّ والباقر عليهما السلام من أئمة أهل البيت وكذا زيد بن ثابت والربيع ابن أنس وأبو العالية على ما في المجمع : لتصيبن باللام ونون التأكيد الثقيلة ، والقراءة المشهورة : لا تصيبن بلا الناهية ونون التأكيد الثقيلة .

و على أي تقدير كان ، تحذر الآية جميع المؤمنين عن فتنة تختص بالظالمين منهم ، ولا يتعداهم إلى غيرهم من الكفار والمشركين ، واختصاصها بالظالمين من المؤمنين وأمر عامتهم مع ذلك باتفاقها يدل على أنها وإن كانت قائمة ببعض الجماعة لكن السيء من أثرها يعم الجميع . ثم قوله تعالى « واعلموا أن الله شديد العقاب » تهديد للجميع بالعقاب

الشديد ولا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا وكونه من العذاب الدنيوي من قبيل الاختلافات القومية وشيوع القتل والفساد وارتفاع الأمن والسلام ونحو ذلك .
ومقتضى ذلك أن تكون الفتنة المذكورة على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامة الأمة أن يبادروا على دفعها ، ويقطعوا دابرها ويطفؤوا لهيب نارها بما أوجب الله عليهم من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف .

فيؤول معنى الكلام إلى تحذير عامة المسلمين عن المساهلة في أمر الاختلافات الداخلية التي تهدد وحدتهم وتوجب شق عصاهم واختلاف كلمتهم ، ولا تلبث دون أن تحزب بهم أحزاباً وتبعضهم أبعاضاً ، ويكون الملك لمن غلب منهم ، والغلبة لكلمة الفساد لا لكلمة الحق والدين الحنيف الذي يشترك فيه عامة المسلمين .

فهذه فتنة تقوم ببعض منهم خاصة وهم الظالمون غير أن سيئ أثره يعم الكل ويشمل الجميع فيستوعبهم الذلة والمسكنة وكل ما يترقب من مرّ البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم ، وهم جميعاً مسؤولون عند الله والله شديد العقاب .

وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة ولم يعرّفها بكمال اسمها ورسمها غير أن قوله فيما بعد : « لانصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وقوله : « واعلموا أن الله شديد العقاب » - كما تقدم - يوضحها بعض الإيضاح ، وهو أنها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها في أمر يعلم جميعهم وجه الحق فيه فيجمع البعض عن قبول الحق ويقدم إلى المنكر بظلمه فلا يردّ عوه عن ظلمه ولا ينهوه عن ما يأتيه من المنكر ، وليس كل ظلم بل الظلم الذي يسري سوء أثره إلى كافة المؤمنين وعامة الأمة لكان أمره سبحانه بالجميع بائتمامه ، فالظلم الذي هو لبعض الأمة و يجب على الجميع أن يتقوه ، ليس إلا ما هو من قبيل التغلب على الحكومة الحقّة الإسلامية ، والتظاهر بهدم القطعيّات من الكتاب والسنة التي هي من حقوقها .

وأياً ما كان ففي الفتن الواقعة في صدر الإسلام ما ينطبق عليه الآية أوضح انطباق وقد انهدمت بها الوحدة الدينية ، و بدت الفرقة ونفدت القوّة ، و ذهبت الشوكة على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب وهتك الأعراس والحرمات وهجر الكتاب وإلغاء

السنة ، وقال الرسول يا ربّ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .

ومن شمول مشأمتها وتعرق فسادها أنّ الأمة لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتّى بعد التنبّه منهم لسوء فعالهم وتفريطهم في جنب الله كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها وزوقوا عذاب الحريق .

وقد تفتّن بعض المفسرين بأنّ الآية تحذّر الأمة وتهدّدهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرّق جمعهم ، وتشتت شملهم ، وتوعدهم بعذاب الله الشديد ، وقد أحسن التفتّن غير أنّه تكلف في توجيه العذاب بالعذاب الدنيوي ، وتمحّل في تقييد ما في الآية من إطلاق العقاب ، وأتى لهم التناوش من مكان بعيد .
ولنرجع إلى لفظ الآية :

أمّا على قراءة أهل البيت عليهم السلام وزيد : « واتقوا فتنة لتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة » فاللام في « لتصيبنّ » للقسم والنون الثقيلة لتأكيد ، والتقدير : واتقوا فتنة أقسم لتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة ، وخاصّة حال من الفتنة ، والمعنى اتقوا فتنة تختصّ إصابته بالذين ظلموا منكم أيّها المخاطبون وهم الذين آمنوا ، وعليك أن تتذكّر ما سلف بيانه أن لفظ : « الذين آمنوا » في القرآن خطاب تشرّفي للمؤمنين في أوّل البعثة وبدء انتشار الدعوة لولا قرينة صارفة عن ذلك ، ثمّ تذكر أن فتن صدر الإسلام تنتهي إلى أصحاب بدر ، والآية على أيّ حال يأمر الجميع أن يتقوا فتنة تثيرها بعضهم ، وليس إلّا لأنّ أثرها السيئ يعمّ الجميع كما تقدّم .

وأما على قراءة المشهور : « واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة » فقد ذكروا : أن لا في « لا تصيبنّ » ناهية و النون لتأكيد النهي ، و ليس « لا تصيبنّ » جواباً للأمر في « اتقوا » بل الكلام جار مجرى الابتداء والاستيناف كقوله تعالى : « يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان و جنوده » النمل : ١٨ فقد قال أوّلاً : « واتقوا فتنة » ثمّ استأنف وقال : « لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة » لاتّصال الجملتين معنى .

وربّما جوز بعض النحاة أن يكون « لا تصيبنّ » نهياً وارداً في جواب الأمر كما

يقال : اتق زيدا لا يضربك أو لا يضربنك والتقدير : اتق زيدا فإنك إن اتقيته لا يضربك ولم يشترط في نون التأكيد أن لا يدخل الخبر .

وربما قال بعضهم : إن لازائدة والمعنى : اتقوا فتنة تصيبن الآية .

وربما ذكر آخرون : « أن أصل لاتصين » « لتصين » اشبعت فتحة اللام حتى

تولدت الألف ، وإشباع الفتحة ليس بعزيز في الشعر قال :

فأنت من الغوائل حين ترمي * و من ذم الرجال بمنزح

يريد : بمنزح ، والوجهان بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى .

ومآل المعنى على هذا الوجه أي على قراءة « لاتصين » أيضاً إلى ما تفيدته القراءة

الأولى « لتصين » كما عرفت .

والآية - كما عرفت - تتضمن خطاباً اجتماعياً متوجهاً إلى مجموع الأمة وذلك

يؤيد كون الخطاب في الآية السابقة : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا

دعاكم لما يحبيكم » خطاباً اجتماعياً متوجهاً إلى كافة المؤمنين ، ويتفرع عليه أن المراد

بالدعوة إلى ما يحبيهم الدعوة إلى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله وإقامة الدين وعدم

التفرق فيه كما قال : « و اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » آل عمران : ١٠٣ وقال :

« أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى : ١٣ وقوله : « وأن هذا صراطي مستقيماً

فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » الأنعام : ١٥٣ .

و بهذا يتأيّد بعض الوجوه المذكورة سابقاً في قوله : « إذا دعاكم لما يحبيكم » و

كذا في قوله : « أن الله يحول بين المرء وقلبه » وتختص الآية به بحسب السياق وإن

كانت تفيد معنى أوسع من ذلك باعتبار أخذها في نفسها مفردة عن السياق ، والباحث الناقد

لا يعوز عليه تمييز ذلك والله الهادي .

قوله تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم

الناس » إلى آخر الآية . الاستضعاف عد الشيء ضعيفاً بتوهين أمره ، والتخطف و الخطف و

الاختطاف أخذ الشيء بسرعة انتزاع ، والإيواء جعل الإنسان زامأوى ومسكن يرجع إليه

ويأوى ، والتأييد من الأيد وهو القوة .

والسياق يذّر على أن المراد بقوله : « إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض » الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكة قبل الهجرة وهم قليل مستضعفون ، و بقوله : « تخافون أن يتخطّفكم الناس » مشرّكوا العرب وصناديد قريش ، و بقوله : « فأوأكم » أي بالمدينة وبقوله : « وأيدكم بنصره » ما أسبغ عليهم من نعمة النصر بيدر ، وبقوله : « ورزقكم من الطيبات » مارزقهم من الغنائم وأحلّها لهم .

وماعده في الآية من أحوال المؤمنين ومنه عليهم بالإيواء وإن كانت ممّا يختصّ بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا أن المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين والأنصار فإنهم أمة واحدة يوحدّهم دين واحد . على أن فيما ذكره الله في الآية من منه التأييد بالنصر والرزق من الطيبات وهما نعمتان الجميع ، هذا بحسب ما تقتضيه الآية من حيث وقوعها في سياق آيات بدر ، ولكن هي وحدها وباعتبار نفسها تعمّ جميع المسلمين من حيث إنهم أمة واحدة يرجع لاحقهم إلى سابقهم فقد بدء ظهور الإسلام فيهم وهم قليل مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطّفهم الناس فأوأهم بالمدينة وكثّرهم بالأنصار وأيدهم بنصره في بدر وغيره ورزقهم من جميع الطيبات الغنائم وغيرها من سائر النعم لعلمهم يشكرون .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول و تخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » إلى آخر الآيتين . الخيانة نقض الأمانة التي هي حفظ الأمن لحقّ من الحقوق بعهد أو وصيّة ونحو ذلك قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحقّ بنقض العهد في السرّ ، ونقيض الخيانة الأمانة يقال : خنت فلاناً ، وخنت أمانة فلان و على ذلك قوله : لا تخونوا الله والرسول و تخونوا أماناتكم . انتهى .

وقوله : « و تخونوا أماناتكم » من الجائز أن يكون مجزوماً معطوفاً على تخونوا السابق ، والمعنى : ولا تخونوا أماناتكم ، وأن يكون منصوباً بحذف أن والتقدير : و أن تخونوا أماناتكم وبؤيد الوجه الثاني قوله بعده : « وأنتم تعلمون » .

وذلك أن الخيانة وإن كانت إنّما يتعلّق النهي التحريمي بها عند العلم فلا نهى مع جهل بالموضوع ولا تحريم غير أن العلم من الشرائط العامّة التي لا ينجز تكليف من

التكاليف المولوية إلا به فلا نكتة ظاهرة في تقييد النهي عن الخيانة بالعلم مع أن العلم لكونه شرطاً عاماً مستغنى عن ذكره ، وظاهر قوله : « وأنتم تعلمون » بحذف متعلقات الفعل أن المراد : ولكم علم بأنه خيانة لاما قيل : إن المعنى : وأنتم تعلمون مفسد الخيانة وسوء عاقبتها وتحريم الله إياها فإن ذلك لادليل عليه من جهة اللفظ ولا من جهة السياق . فالوجه أن تكون الجملة بتقدير : وأن تخونوا أماناتكم ، ويكون مجموع قوله : « لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » نهياً واحداً متعلقاً بنوع خيانة هي خيانة أمانة الله ورسوله وهي بعينها خيانة لأمانة المؤمنين أنفسهم فإن من الأمانة ماهي أمانة الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشروعة من عنده ومنها ماهي أمانة الرسول كسيرته الحسنة ، ومنها ماهي أمانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم ، ومنها ما يشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون ، وهي الأمور التي أمر به الله سبحانه وأجرأه الرسول و ينتفع به الناس ويقوم به صلب مجتمعهم كالأسرار السياسية والمقاصد الحربية التي تضيع بإفشائها آمال الدين وتضل بإذاعته مساعي الحكومة الإسلامية فيبطل به حق الله ورسوله ويعود ضرره إلى عامة المؤمنين .

فهذا النوع من الأمانة خيانتة خيانة لله ورسوله وللمؤمنين فالخائن بهذه الخيانة من المؤمنين يخون الله والرسول وهو يعلم أن هذه الأمانة التي يخونها أمانة لنفسه ولسائر إخوانه المؤمنين وهو يخون أمانة نفسه ، ولن يقدم عاقل على الخيانة لأمانة نفسه فإن الإنسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانة للأمانة فكيف يخون أمانة نفسه ؟ فالمراد بقوله : « وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » - والله أعلم - وتخونوا في ضمن خيانة الله والرسول أماناتكم والحال أنكم تعلمون أنها أمانات أنفسكم وتخونونها ، و أي عاقل يقدم على خيانة أمانة نفسه والاضرار بما لا يعود إلا إلى شخصه فتذليل النهي بقوله : « وأنتم تعلمون » لتهذيب العصية الحققة وإثارة قضاء الفطرة لا لبيان شرط من شرائط التكليف .

فكان بعض أفراد المسلمين كان يفشي أموراً من عزائم النبي ﷺ المكتومة من المشركين أو يخبرهم ببعض أسراره فسماه الله تعالى خيانة ونهى عنه ، و عدها خيانة لله

والرسول والمؤمنين .

و يؤيد ذلك قوله بعد هذا النهي : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » الخ فإن ظاهر السياق أنه متصل بما قبله غير مستقل عنه ، ويفيد حينئذ أن موعظتهم في أمر الأموال والأولاد مع النهي عن خيانة الله والرسول وأماناتهم إنما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومة ، استمالة منهم مخافة أن يتعدوا على أموالهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاءً للمودة واستبقاءً للمال والولد أو ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبي لبابة مع بنى قريظة .

و هذا يؤيد ما ورد في سبب النزول أن أباسفيان خرج من مكة بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي ﷺ بخروجه وأشار عليه بالخروج إليه و كتمان أمره فكتب إليه بعضهم بالخبر فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله و الرسول و تخونوا أماناتكم و أنتم تعلمون » و في نزول الآية بعض أحاديث أخر سيأتي إن شاء الله في البحث الروائي التالي .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم و الله ذو الفضل العظيم » الفرقان ما يفرق به بين الشيء و الشيء ، و هو في الآية بقرينة السياق و تفريعه على التقوى الفرقان بين الحق و الباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالترفة بين الإيمان و الكفر و كل هدى و ضلال أو في العمل بالتمييز بين الطاعة و المعصية و كل ما يرضي الله أو يسخطه ، أو في الرأي و النظر بالفصل بين الصواب و الخطأ فإن ذلك كله مما تثمره شجرة التقوى ، وقد أطلق الفرقان في الآية ولم يقيده و قد عدّ جعل الخير و الشر في الآيات السابقة و الجميع يحتاج إلى الفرقان .

و نظير الآية بحسب المعنى قوله تعالى : « و من يتق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب و من يتوكل على الله فهو حسبه » و قد تقدم الكلام في معنى تكفير السيئات و المغفرة ، و الآية بمنزلة تلخيص الكلام في الأوامر و النواهي التي تتضمنها الآيات السابقة أي إن تتقوا الله لم يختلط عندكم ما يرضي الله في جميع ما تقدم بما يسخطه و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم و الله ذو الفضل العظيم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن عقيل الخزاعي : " أن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إن الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازين على الضلال ، ضلال في الدين وسلب للدنيا مع الذلّ و الصغار ، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف عند حضرة القتال يقول الله عزّ وجلّ : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار » .
 و في الفقيه والعلل بإسناده عن ابن شاذان أن أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله : حرّم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين ، والاستخفاف بالرسول والأئمة العادلة ، وترك نصرتهم على الأعداء ، والعقوبة لهم على ترك ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل ، وترك الجور وإماتة الفساد ، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين ، وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله عزّ وجلّ وغيره من الفساد .

أقول : وقد استفاضت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الفرار من الزحف من المعاصي الكبيرة الموبقة ، وقد تقدّم طرف منها في البحث عن الكبائر في تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » النساء : ٣١ في الجزء الرابع من الكتاب .

و على ذلك روايات من طرق أهل السنة كما في صحيح البخاريّ و مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : وماهن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم و التولّي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، و هناك روايات أخرى عن ابن عباس وغيره تدلّ على كون الفرار من الزحف من الكبائر .

نعم قوله تعالى : « اليوم خفف الله عنكم و علم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » الآية يقيد إطلاق آية تحريم الفرار بما دون الثلاثة لواحد .
 وقد روي من طرفهم عن عمر بن الخطاب و عبد الله بن عمر و ابن عباس وأبي هريرة

و أبي سعيد الخدري و غيرهم كما في الدر المنثور : أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاص بيوم بدر .

و ربما وجه ذلك بأن الآية نزلت يوم بدر ، وأن الظرف في قوله « ومن يولهم يومئذ دبره » إشارة إلى يوم بدر ، وقد عرفت أن سياق الآيات يشهد بنزولها بعد يوم بدر ، وأن المراد بقوله : « يومئذ » هو يوم الزحف لا يوم بدر . على أنه لو فرض نزولها يوم بدر لم يوجب خصوص السبب في عموم مدلول الآية شيئاً كما في سائر الآيات التي جمعت بين عموم الدلالة وخصوص السبب .

قال صاحب المنار في تفسيره : وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال - خلافاً للجمهور - مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة في الإسلام لو انهزم فيها المسلمون و النبي ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة . وتأيد المسلمين بالملائكة يشبتونهم ، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم .

فاذا نظرنا إلى مجموع الخصائص و قرينة الحال في النهي اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذي في الآية خاصاً بها . أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولي و الإدبار في القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم : يوم أحد ، وفيه يقول الله تعالى (٣ : ١٥٥) إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم) و يوم حنين ، وفيه يقول الله تعالى (٩ : ٢٥) لقد نصركم الله في مواطن كثيرة و يوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم و ليتم مدبرين ٢٦ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ ، وهذا لا ينافي كون التولي حراماً و من الكبائر ، ولا يقتضي أن يكون كل تولٍ لغير السببين المستثنيين في آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله و مأواه جهنم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك ، وبتقيّد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، و بالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة و سياتي تفصيله قريباً .

و قد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال : « كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة و كنت فيمن حاص فقلنا : كيف صنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بال غضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا ؟ ثم قلنا : لو عرضنا نفوسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : من الفرّارون ؟ فقلنا : نحن الفرّارون . قال : بل أتتم العكّارون أنافتكم وفئة المسلمين . قال : فأتينا حتى قبلنا يده .

«ولفظ أبي داود» قلنا : ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرّارون الخ .

تأول بعضهم هذا الحديث بتوسّع في معنى التحييز إلى فئة لا يبقى معه للوعد معنى ولللغة حكم ، وقد قال الترمذي فيه : حسن لانعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد أقول : وهو مختلف فيه ضعفه الكثيرون ، وقال ابن حبان كان صدوقاً إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغيّر فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغيّر فسماعه صحيح ، وجملة القول : أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لامتنأ ولا سنداً ، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة . انتهى .

أقول : والذي نقله في أوّل كلامه من الوجوه و القرائن المحققة بغزوة بدر من كونه أوّل غزوة في الإسلام ، و كون النبي ﷺ بينهم ونحو ذلك مشتركة بحسب حقيقة الملاك بينها وبين أمثال غزوة أحد والخندق وخيبر وحنين ، و الإسلام أياً من ذلك في حاجة شديدة إلى الرجال المقاتلين وثباتهم في الزحوف ، والنبي ﷺ بينهم ، والله وعدهم بالنصر وأنزل في بعضها الملائكة لتأييدهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم .

والذي ذكره من الآيات النازلة في فرارهم يوم أحد ويوم حنين لا دلالة فيها على عدم شمول وعيد آية الأنفال لهم إذ ذاك وأي مانع يمنع من ذلك والآية مطلقة وليس هناك مقيد يقيدها .

ومن العجيب تسليمه كون فرارهم في اليومين كبيرة محرمة ثم قوله : إن ذلك لا يقتضي كونه مما يبوء صاحبه بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك مع أن الكبائر الموبقة هي المعاصي التي أوعدها الله عليها النار .

وأعجب منه قوله : إنه يتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، وبالنهى عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها ! مع أن آية رخصة الضعف إنما تدل على الرخصة في الفرار إذا كان يربو عدد الزاحفين من الأعداء على الضعف .

وآية النهي عن إلقاء النفس في التهلكة لودت بعمومها على أزيد مما يدل عليه آية رخصة الضعف لغت آية الأنفال وبقيت بلا مصداق كما أن التأول في قوله تعالى : « أو متحيزاً إلى فئة » على حسب ما تقتضيه رواية ابن عمر يوجب إلغاء الآية كما ذكره صاحب المنار فقد تلخص أن لامناس عن إبقاء الآية على ظاهر إطلاقها .

وفي تفسير العياشي عن موسى بن جعفر عليه السلام في الآية : « إلا متحرفاً لقتال » قال متطرفاً يريد الكرة عليهم « أو متحيزاً إلى فئة » يعني متأخراً إلى أصحابه من غير هزيمة . من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله .

أقول : تشير الرواية إلى نكته مهمة في لفظ الآية ، وهي أن النهي إنما تعلقت في الآية على تولي الأدبار وهي أعم من الانهزام فإذا استثنى الموردان أعني التحرف لقتال والتحيز إلى فئة وهي غير موارد الفرار عن هزيمة ، بقيت موارد الهزيمة تحت النهي فكل انهزام عن أعداء الدين إذا لم يجوزوا الضعف عدداً حرام محرماً .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن الثعلبي عن ضحاک عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت » أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي : ناولني كفاً من حصي وناوله ورمي به في وجوه قريش فما بقي أحد إلا امتلأت عيناه من الحصى .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن الطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس وروى العياشي في تفسيره حديث المناولة عن محمد بن كليب الأسدي عن أبيه عن الصادق عليه السلام ، وفي خبر آخر عن علي عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب رضي الله عنهما

قالا لمادنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : شأهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله : « وما رميت إذ رميت - إلى قوله - سميع عليم » .

أقول: والمراد بنزول الآية نزولها بعد ذلك وهي تقص القصّة لانزولها وقتئذ ، و هو شائع في أسباب النزول . وقد ذكر ابن هشام في سيرته : أن النبي صلى الله عليه وسلم رماه بالتراب ثم أمر أصحابه بالكرّة فكانت الهزيمة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب عن عبدالله بن ثعلبة بن صعير : أن أباجهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » الآية .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إن شرّ الدواب عند الله » الآية قال : قال الباقر عليه السلام : هم بنو عبد الدار لم يكن أسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له : سويبط .

وفي جامع الجوامع : قال الباقر عليه السلام هم بنو عبد الدار لم يسلم منهم غير مصعب ابن عمير وسويد بن حرملة ، وكانوا يقولون : نحن صمّ بكم عمي عمّا جاء به محمد ، وقد قتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء .

أقول: وروى في الدر المنثور ما في معناه بطرق عن ابن عباس وقتادة ، والرواية من قبيل الجري والانطباق ، والآية عامّة .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الآية قال : قال : الحياة الجنّة .

وفي الكافي بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » قال :

نزلت في ولاية علي عليه السلام.

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن ابن مردويه عن رجاله مرفوعاً إلى الإمام محمد ابن علي عليه السلام ، وكذا عن أبي الجارود عنه عليه السلام كما رواه القمي في تفسيره ، و الرواية من قبيل الجري وكذا الرواية السابقة عليها ، وقد قدمنا في الكلام على الآية أنها عامة .

و في تفسير القمي عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » يقول : بين المرء ومعصيته أن يقوده إلى النار ، و يحول بين الكافر وطاعته أن يستكمل بها الإيمان ، واعلموا أن الأعمال بخواتيمها .
وفي المحاسن بإسناده عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » قال : يحول بينه و بين أن يعلم أن الباطل حق .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عنه عليه السلام .
وفي تفسير العياشي عن يونس بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ، ولا يستيقن أن الباطل حق أبداً .
وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : « يحول بين المرء وقلبه » قال : يحول بين المؤمن والكفر ، و يحول بين الكافر وبين الهدى .

أقول : وهو قريب من الخبر المتقدم عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في معنى الآية .

و في تفسير العياشي عن حمزة الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » قال : هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده أما إنه لا يفشى شيئاً منها وإن كان يشتهيها فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي : يعرف أن الحق ليس فيه .

أقول : ورواه البرقي في المحاسن بإسناده عن حمزة الطيار عنه عليه السلام وروى ما يقرب

منه العياشي في تفسيره عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ، ويؤول معنى الرواية إلى الروايتين المتقدمتين عن هشام بن سالم ويونس بن عمار عن الصادق عليه السلام .
وفي تفسير العياشي عن الصيقل : سئل أبو عبد الله عليه السلام « و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » قال : أخبرت أنهم أصحاب الجمل .
وفي تفسير القمي قال : قال : نزلت في الطلحة والزبير لما حاربا أمير المؤمنين عليه السلام وظلماه .

وفي المجمع عن الحاكم بإسناده عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : « و اتقوا فتنة » قال النبي صلى الله عليه وسلم : من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي و نبوة الأنبياء من قبلي .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد في القتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن الزبير رضي الله عنه قال : لقد قرأنا زماناً وما نرى أننا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها : « و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وفيه أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن السدي في الآية قال : هذه نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر .
و فيه أخرج أحمد والبرزاز وابن المنذر و ابن مردويه و ابن العساكر عن مطرف قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبي بكر و عمر و عثمان رضي الله عنهم « و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ولم نكن نحسب أننا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت .

وفيه أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : علم والله ذوا الأبواب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنه سيكون فتن .

وفيه : أخرج أبو الشيخ و أبو نعيم و الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « و اذكروا إن أنتم قليل مستضعفون

في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » قيل : يا رسول الله ومن الناس ؟ قال : أهل فارس .
أقول : والرواية لا تلائم سياق الآية .

وفيه في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، الآية » أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبرئيل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتبوا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن تجهداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله : « لا تخونوا الله والرسول » الآية .

أقول : ومعنى الرواية قريب الانطباق على ما استفدناه من الآية في البيان المتقدم .

وفيه : أخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه .

أقول : والآية لا تنطبق عليه بسياقها البتة .

وفي المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام والكليبي والزهرري : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ماصالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أزرعات وأريحات من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقالوا : ماترى يا أبا لبابة ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه : أنه الذبح فلا تفعلوا فأتاه جبرئيل فأخبره بذلك .

قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله فنزلت الآية فيه فلما نزلت شدت نفسه على سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له : يا أبا لبابة قد تيب عليك

فقال : لا والله لأأحل نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلني فجاءه وحلّه بيده .
 ثم قال أبو لبابة : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب
 وأن أنخلع من مالي . فقال النبي ﷺ : يجزيك الثلث أن تصدق به .
أقول : قصة أبي لبابة وتوبته صحيحة قابلة الانطباق على مضمون الآيتين غير أنها
 وقعت بعد قصة بدر بكثير ، وظاهر الآيتين إذا اعتبرتا وقيسنا إلى الآيات السابقة عليهما
 أن الجميع في سياق واحد نزلت بعد وقعة بدر بقليل . والله أعلم .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
 وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا
 لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ
 كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ
 أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ لِلَّهِ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ
 يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا
 كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا
 كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ الْأَمْكَاءِ وَتَصَدِيحَهُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ فَمِيفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
 عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ
 الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي
 جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ بَنَتُهُوا يُغْفِرَ لَهُمْ مَا قَدْ
 سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
 وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا
 فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلِيكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) .

﴿ بيان ﴾

الآيات في سياق الآيات السابقة وهي متصلة بها ومنعطفة على آيات أول السورة
إلا قوله : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق » الآية والآية التي تليها ، فإن ظهور
اتصالها دون بقية الآيات ، وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك »
إلى آخر الآية قال الراغب : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : ضرب
محمود وذلك أن يتحرى به فعل جميل وعلى ذلك قال : والله خير الماكرين ، ومذموم وهو
أن يتحرى به فعل قبيح قال : ولا يحق المكر السيء إلا بأهله . وإذ يمكر بك الذين كفروا .
فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، وقال في الأمرين : ومكروا مكرأ ومكرنا مكرأ ، وقال
بعضهم : من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا ، ولذلك قال أمير المؤمنين
رضي الله عنه : من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله . انتهى .
وفي المجمع : الإثبات الحبس يقال : رماه فأثبتته أي حبسه مكانه ، وأثبتته في الحرب
أي جرحه جراحة مثقلة . انتهى .

ومقتضى سياق الآيات أن يكون قوله : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » الآية
معطوفة على قوله سابقاً : « وإذ بعدكم الله إحدى الطائفتين أنهنالكم » فالآية مسوقة
لبیان ما أسبغ الله عليهم من نعمته ، وأيدهم به من أياديه التي لم يكن لهم فيه صنع .
ومعنى الآية : واذكر أو وليذكروا إذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لا يبطال
دعوتك أن يوقعوا بك أحد أمور ثلاثة : إما أن يحبسوك وإما أن يقتلوك وإما أن
يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

والترديد في الآية بين الحبس والقتل والإخراج بياناً لما كانوا يمكرونه من مكر
يدل أنه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضاً في أمر النبي ﷺ وما كان يهمهم و
يهتمون به من إطفاء نور دعوته ، وبذلك يتأيد ماورد من أسباب النزول أن الآية تشير
إلى قصة دار الندوة على ماسيجي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « وإذ أتت آياتنا قالوا قد سمعنا لئن لم نلقنا مثل هذا »

إلى آخر الآية الأساطير الأحاديث جمع أسطورة ويغلب في الأخبار الخرافية ، وقوله حكاية عنهم : « قدسمعنا » وقوله : « لو نشاء لقلنا » وقوله : « مثل هذا » ولم يقل : مثل هذه أو مثلها كل ذلك للدلالة على إهانتهم بآيات الله وإزرائهم بمقام الرسالة ، و نظيرها قولهم : « إن هذا إلا أساطير الأولين » .

والمعنى : وإذ اتت عليهم آياتنا التي لا ريب في دلالتها على أنها من عندنا وهي تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجؤوا واعتدوا بها وهو نوا أمرها وأزروا برسالتنا وقالوا قد سمعنا وعقلنا هذا الذي تلي علينا لا حقيقة له إلا أنه من أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثله غير أننا لا نعتني به ولا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافية .

قوله تعالى : « و إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » إلى آخر الآيتين . الإمطار هو إنزال الشيء من فوق ، وغلب في قطرات الماء من المطر أو هو استعارة إمطار المطر لغيره كالحجارة وكيف كان فقولهم : أمطر علينا حجارة من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآية السماوية والإهلاك الإلهي محضاً .

فإمطار الحجارة من السماء عليهم على ما سألوا أحد أقسام العذاب و يبقى الباقي تحت قولهم : « أو اتتنا بعذاب أليم » ولذلك نكر العذاب وأبهم وصفه ليبدل على باقي أقسام العذاب ، ويفيد مجموع الكلام : أن أمطر علينا حجارة من السماء أو اتتنا بعذاب آخر غيره يكون أليماً ، وإنما أفرد إمطار الحجارة من بين أفراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجارة مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن وعذاب الروح بما فيه من الذلة والإهانة .

ثم قوله : « إن كان هذا هو الحق من عندك » يدل بلفظه على أن الذي سمعوه من النبي ﷺ بلسان القائل أو الحال بدعوته هو قوله : « هذا هو الحق من عند الله » و فيه شيء من معنى الحصر ، وهذا غير ما كان يقوله لهم : هذا حق من عند الله فإن القول الثاني يواجه به الذي لا يرى ديناً سماوياً ونبوة إلهية كما كان يقوله المشركون وهم الوثنية : ما أنزل الله على بشر من شيء ، وأما القول الأول فإنه يواجه به من يرى أن هناك ديناً حقاً من عند الله ورسالة إلهية يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبي ﷺ أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله تعالى فيواجه بأنه هو الحق من

عند الله لا غيره ثم يرد بالاشتراط في مثل قوله : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

فالأشبه أن لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته إلى جميعهم لاتفاقهم في الرأي أوريا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض أهل الردة ممن أسلم ثم ارتد أو عن بعض أهل الكتاب المعتقدين بدين سماوي حق فافهم ذلك .

ويؤيد هذا الآية التالية لهذه الآية . « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » أما قوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فإن كان المراد به نفي تعذيب الله لكفار قريش بمكة قبل الهجرة والنبي فيهم كان مدلوله أن المانع من نزول العذاب يومئذ هو وجود النبي ﷺ بينهم ، والمراد بالعذاب غير العذاب الذي جرى عليهم بيد النبي ﷺ من القتل والأسر كما سماه الله في الآيات السابقة عذاباً ، وقال في مثلها : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » التوبة : ٥٢ . بل عذاب الاستئصال بآية سماوية كما جرى في أمم الأنبياء الماضين لكن الله سبحانه هددهم بعذاب الاستئصال في آيات كثيرة كقوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أندرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » حم السجدة : ١٣ و كيف يلائم أمثال هذه التهديدات قوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » لو كان المراد بالمعذبين هم كفار قريش ومشركوا العرب مادام النبي ﷺ بمكة .

ولو كان المراد بالمعذبين جميع العرب أو الأمة ، والمراد بقوله : « وأنت فيهم » حياة النبي ﷺ ، والمعنى : ولا يعذب الله هذه الأمة وأنت فيهم حياً كما ربما يؤيده قوله بعده : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » كان ذلك نفياً للعذاب عن جميع الأمة ولم يناف نزوله على بعضهم كما سمى وقوع القتل بهم عذاباً كما في الآيات السابقة ، وكما ورد أن الله تعالى عذب جمعاً منهم كأبي لهب والمستهزئين برسول الله ﷺ ، وعلى هذا لاتشمل الآية القائلين : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » إلى آخر الآية ، وخاصة باعتبار ما روي أن القائل به أبو جهل كما في صحيح البخاري أو النضر بن الحارث بن كلدة كما في بعض روايات أخر وقد حقت عليهما كلمة العذاب وقتلا يوم بدر فلاترتبط الآية :

« وما كان الله ليعذبهم ، الآية بهؤلاء القائلين : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، الآية مع أنها مسوقة سوق الجواب عن قولهم .

ويشدد الإشكال بناءً على ما وقع في بعض أسباب النزول أنهم قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل قوله تعالى « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع ، وسيجيء الكلام فيه وفي غيره من أسباب النزول المروية في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

والذي تمحل به بعض المفسرين في توجيه مضمون الآية بناءً على حملها على ما مر من المعنى أن الله سبحانه أرسل غمماً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين ونعمة لهذه الأمة لا نقمة و عذاباً . فيه أنه ليس مقتضى الرحمة للعالمين أن يهمل مصلحة الدين ، ويسكت عن مظالم الظالمين وإن بلغ ما بلغ و أدى إلى شقاء الصالحين واختلال نظام الدنيا والدين ، وقد حكى الله سبحانه عن نفسه بقوله : « ورحمتي وسعت كل شيء » ، ولم يمنع ذلك من حلول غضبه على من حل به من الأمم الماضية والقرون الخالية كما ذكره في كلامه .

على أنه تعالى سمى ما وقع على كفار قريش من القتل والهلاك في بدر وغيره عذاباً ولم يناف ذلك قوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » الأنبياء : ١٠٧ ، وهدد هذه الأمة بعذاب واقع قطعي في سوريونس والإسراء والأنبياء والقصص والروم والمعارج وغيرها ولم يناف ذلك كونه صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين فما بال نزول العذاب على شزيمة تفوت بهذه الكلمة : « اللهم إن كان هذا هو الحق » الخ ينافي كون النبي صلى الله عليه وآله النبي الرحمة مع أن من مقتضى الرحمة أن يوفى لكل ذي حق حقه ، وأن يقتصر للمظلوم من الظالم و أن يؤخذ كل طاغية بطغيانه .

وأما قوله تعالى : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » فظاهره النفي الاستقبالي على ما هو ظاهر الصفة : « معذبهم » و كون قوله : « يستغفرون » مسوقاً لإفادة الاستمرار والجملة الحالية ، والمعنى : ولا يستقبلهم الله بالعذاب ماداموا يستغفرونه .

والآية كيفما أخذت لاتنطبق على حال مشركي مكة وهم مشركون معاندون لا يخضعون لحق ولا يستغفرون عن مظلمة ولا جريمة ، ولا يصلح الأمر بماورد في بعض

الآثار أنهم قالوا ما قالوا ثم ندموا على ما قالوا فاستغفروا الله بقولهم : « غفرانك اللهم .
 وذلك مضافاً إلى عدم ثبوته أنه تعالى لا يعبأ في كلامه باستغفار المشركين ولا سيما
 أئمة الكفر منهم ، واللاعي من الاستغفار لأثرله ، ولولم يكن استغفارهم لاغياً وارتفع به
 ما أجرموه بقولهم : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء
 الآية لم يكن وجه لذمتهم وتأنيبهم بقوله تعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق »
 في سياق هذه الآيات المسوقة لذمتهم ولومهم وعدّ جرائمهم ومظالمهم على النبي ﷺ
 والمؤمنين .

على أن قوله تعالى بعد الآيتين : « وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن
 المسجد الحرام » الآية لا يلائم نفي العذاب في هاتين الآيتين فإن ظاهر الآية أن العذاب
 المهدد به هو عذاب القتل بأيدي المؤمنين كما يدل عليه قوله بعده : « فذوقوا العذاب
 بما كنتم تكفرون » وحينئذ فلو كان القائلون : اللهم إن كان هذا هو الحق « الآية
 مشركي قريش أو بعضهم وكان المراد من العذاب المنفي العذاب السماوي لم يستقم إنكار
 وقوع العذاب عليهم بالقتل ونحوه فإن الكلام حينئذ يؤول إلى معنى التشديد : ومحصله :
 أنهم كانوا أحقّ بالعذاب ولهم جرم آخر وراء ما أجرموه وهو الصد عن المسجد الحرام ،
 وهذا النوع من الترتيبي أنسب بإثبات العذاب لهم لالفيه عنهم .

وإن كان المراد بالعذاب المنفي هو القتل ونحوه كان عدم الملامة بين قوله : « وما لهم
 أن لا يعذبهم الله » وقوله : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وبين قوله : « وما كان الله
 ليعذبهم » الخ أوضح وأظهر .

وربما وجه الآية بهذا المعنى بعضهم بأن المراد بقوله : « وما كان الله ليعذبهم
 وأنت فيهم » عذاب أهل مكة قبل الهجرة ، وبقوله : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »
 عذاب الناس كافة بعد هجرته ﷺ إلى المدينة وإيمان جمع واستغفارهم ولذا قيل : إن
 صدر الآية نزلت قبل الهجرة ، وزيلها بعد الهجرة !

وهو ظاهر الفساد فإن النبي ﷺ لما كان فيهم بمكة قبل الهجرة كان معه جمع
 ممن يؤمن بالله ويستغفرون ، وهو ﷺ بعد الهجرة كان في الناس فما معنى تخصيص صدر الآية

بقوله : « وأنت فيهم » و ذيلها بقوله : « وهم يستغفرون » .
 ولو فرض أن معنى الآية أن الله لا يعذب هذه الأمة ما دمت فيهم ببركة وجودك ،
 ولا يعذبهم بعدك ببركة استغفارهم لله والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال لم يلائم الآيتين
 التاليتين : « وما لهم أن لا يعذبهم الله » الخ مع ما تقدم من الإشكال عليه .
 فقد ظهر من جميع ما تقدم - على طوله - أن الآيتين أعني قوله : « وإن قالوا اللهم
 إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة » إلى آخر الآيتين لانتشار كان الآيات
 السابقة و اللاحقة المسرودة في الكلام على كفسار قریش في سياقها الواحد فهما لم تنزلا
 معها .

و الأقرب أن يكون ما حكي فيهما من قولهم والجواب عنه بقوله : « وما كان الله
 ليعذبهم » غير مرتبط بهم وإنما صدر هذا القول من بعض أهل الكتاب أو بعض من آمن
 ثم ارتد من الناس .

و يتأيد بذلك بعض ماورد أن القائل بهذا القول الحارث بن النعمان الفهري ، وقد
 تقدم الحديث نقلاً عن تفسيري الثعلبي والمجمع في ذيل قوله تعالى : « يا أيها الرسول
 بلغ ما أنزل إليك من ربك » الآية المائة : ٦٧ في الجزء السادس من الكتاب .
 وعلى هذا التقدير فالمراد بالعذاب المنفي العذاب السماوي المستعقب للاستئصال
 الشامل للأمة على نهج عذاب سائر الأمم ، والله سبحانه ينفي فيها العذاب عن الأمة
 مادام النبي ﷺ فيهم حياً ، وبعده ما داموا يستغفرون الله تعالى .

ويظهر من قوله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم
 يستغفرون » بضمه إلى الآيات التي توعد هذه الأمة بالعذاب الذي يقضي بين الرسول
 وبينهم كآيات سورة يونس : « و لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط
 وهم لا يظلمون » يونس : ٤٧ إلى آخر الآيات أن في مستقبل أمر هذه الأمة يوماً ينقطع
 عنهم الاستغفار ويرتفع من بينهم المؤمن الإلهي فيعذبون عند ذلك .

قوله تعالى : « وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا
 أوليائه » إلى آخر الآية استفهام في معنى الإنكار أو التعجب ، وقوله : « وما لهم » بتقدير

فعل بتعلق به الظرف ويكون قوله : « أن لا يعذب بهم » مفعوله أو هو من التضمين نظير ما قيل في قوله : « هل لك إلى أن تزكى » النازعات : ١٨ .

والتقدير على أي حال نحو من قولنا : « وما الذي يثبت و يحق لهم عدم تعذيب الله إياهم والحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام ويمنعون المؤمنين من دخوله وما كانوا أولياءه . فقوله : « وهم يصدون » الخ حال عن ضمير « يعذب بهم » وقوله : « وما كانوا أولياءه » حال عن ضمير « يصدون » .

و قوله : « إن أولياؤه إلا المتقون » تعليل لقوله : « وما كانوا أولياءه » أي ليس لهم أن يلوا أمر البيت فيجيزوا ويمنعوا من شأؤوا لأن هذا المسجد مبني على تقوى الله فلا يلي أمره إلا المتقون وليسوا بهم .

فقوله : « إن أولياؤه إلا المتقون » جملة خبرية تعلل القول بأمر يسندر كه كل ذي لب ، وليست الجملة إنشائية مشتملة على جعل الولاية للمتقين ، ويشهد لما ذكرناه قوله بعد : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » كما لا يخفى .

والمراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعم منه على ما يفيد السياق باتصال الآية بالآية التالية ، وقد تقدم أن الآية غير متصلة ظاهراً بما تقدمها أي إن الآيتين : « و إذ قالوا اللهم » الخ « وما كان الله ليعذب بهم » الخ خارجتان عن سياق الآيات ، ولازم ذلك ما ذكرناه .

قال في المجمع : ويسأل فيقال : كيف يجمع بين الآيتين وفي الأولى نفي تعذيبهم ، وفي الثانية إثبات ذلك ؟ وجوابه على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن المراد بالأول عذاب الاصطلام والاستئصال كما فعل بالأمة الماضية ، وبالثاني عذاب القتل بالسيف والأسر وغير ذلك بعد خروج المؤمنين من بينهم .
والآخر : أنه أراد : ومالهم أن لا يعذب بهم الله في الآخرة ، ويريد بالأول عذاب الدنيا . عن الجبائي .

والثالث : أن الأول استدعاء للاستغفار يريد أنه لا يعذب بهم بعذاب دنيا ولا آخرة

إذا استغفروا وتابوا فإذا لم يفعلوا عذبوا ثم يبين أن استحقاقهم العذاب بصددهم عن المسجد الحرام . انتهى .

وفيه : أن مبنى الإشكال على اتصال الآية بما قبلها وقد تقدم أنها غير متصلة . هذا إجمالاً .

وأما تفصيلاً فيرد على الوجه الأول : أن سياق الآية وهو كما تقدم سياق التشدد والترقي ، ولا يلائم ذلك نفي العذاب في الأولى مع إثباته في الثانية وإن كان العذاب غير العذاب .

وعلى الثاني أن سياق الآية يناهني كون المراد بالعذاب فيها عذاب الآخرة ، وخاصة بالنظر إلى قوله في الآية الثالثة - وهي في سياق الآية الأولى - « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

وعلى الثالث : أن ذلك خلاف ظاهر الآية بلاشك حيث إن ظاهرها إثبات الاستغفار لهم حالاً مستمراً لا استدعاؤه وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » المكاء بضم الميم الصغير ، والمكّاء بصيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصغير ، ومنه المثل السائر : بنيك حمري ومكّيني . والتصديّة التصفيق بضرب اليد على اليد .

وقوله : « وما كان صلاتهم » الضمير لهؤلاء الصادقين المذكورين في الآية السابقة وهم المشركون من قريش ، وقوله : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » بيان إنجاز العذاب الموعود لهم بقرينة التفرّيع بالفاء .

ومن هنا يتأبّد أن الآيتين متصلتان كلاماً واحداً ، وقوله : « وما كان » الخ جملة حالية والمعنى : وما لهم أن لا يعذبهم الله والحال أنهم يصدّون العباد من المؤمنين عن المسجد الحرام وما كان صلاتهم عند البيت إلا ملعبة من المكاء والتصديّة فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون ، والاتفات في قوله : « فذوقوا العذاب » عن الغيبة إلى الخطاب لبلوغ التشديد .

ويستفاد من الآيتين أن الكعبة المشرفة لو تركت بالصد استعقب ذلك المؤاخذه الإلهية بالعذاب قال علي عليه السلام في بعض وصاياه : « الله الله في بيت ربكم فانها إن تركت لم ينظروا (١) » .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » إلى آخر الآية يبين حال الكفار في ضلال سعيهم الذي يسعون له لإبطال دعوة الله والمنع عن سلوك السالكين لسبيل الله ، و يشرح ذلك قوله : « فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » الخ .

و بهذا السياق يظهر أن قوله : « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » بمنزلة التعليل ، ومحصل المعنى أن الكفر سيبعثهم - بحسب سنة الله في الأسباب - إلى أن يسعوا في إبطال الدعوة والصد عن سبيل الحق غير أن الظلم والفسق وكل فساد لا يهدي إلى الفلاح والنجاح فسيفقون أموالهم في سبيل هذه الأغراض الفاسدة فتضيع الأموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبة لتحسرتهم ، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها ، وذلك أن الكفار يحشرون إلى جهنم و يكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر والخروج إلى محاربة الله ورسوله بحذاء خروجهم محشورين إلى جهنم يوم القيامة .

وقوله : « فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » إلى آخر الآية من ملاحظم القرآن والآية من سورة الأنفال النازلة بعد غزوة بدر فكأنها تشير إلى ما سيقع من غزوة أحد أو هي وغيرها ، وعلى هذا فقوله : « فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة » إشارة إلى غزوة أحد أو هي وغيرها ، وقوله : « ثم يغلبون » إلى فتح مكة ، وقوله : « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » إلى حال من لا يوفق للإسلام منهم .

قوله تعالى : ليمز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ، الخبائث والطيب معنيان متقابلان وقد مر شرحهما والتمييز إخراج الشيء عما يخالفه والحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه ، والركم

(١) نهج البلاغة في باب الوصايا .

جمع الشيء فوق الشيء ومنه سحاب مر كوم أي مجتمع الأجزاء بعضها إلى بعض ومجموعها وتراكم الأشياء تراكب بعضها بعضاً .

و الآية في موضع التعليل لما أخبر به في الآية السابقة من حال الكفار بحسب السنة الكونية ، وهوانهم يسعون بتمام وجدهم ومقدرتهم إلى أن يطفؤوا نور الله ويصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الأموال ويبدلون في طريقه المساعي غير أنهم لا يهتدون إلى مقاصدهم ولا يبلغون آمالهم بل تضيع أموالهم ، وتحبط أعمالهم وتضل مساعيهم ، ويرثون بذلك الحسرة والهزيمة .

وذلك أن هذه الأعمال والتقلبات تسير على سنة إلهية وتتوجه إلى غاية تكوينية ربانية ، وهي أن الله سبحانه يميز في هذا النظام الجاري الشر من الخير والخبيث من الطيب ويركم الخبيث بجعل بعضه على بعض ، ويجعل ما اجتمع منه وتراكم في جهنم وهي الغاية التي تسير إليها قافلة الشر والخبيث يحلها الجميع وهي دار البوار كما أن الخير والطيب إلى الجنة ، والأولون هم الخاسرون كما أن الآخرين هم الرابحون المفلحون .

ومن هنا يظهر أن قوله : « ليميز الله الخبيث من الطيب » الخ قريب المضمون من قوله تعالى في مثل ضربه للحق والباطل : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » الرعد : ١٧ والآية تشير إلى قانون كلي إلهي وهو إلحاق فرع كل شيء إلى أصله .
قوله تعالى : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » إلى آخر الآية الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي ، والسلوف التقدم ، والسنة هي الطريقة والسيرة .

أمر النبي ﷺ أن يبلغهم ذلك وفي معناه تطميع وتخويف وحقيقته دعوة إلى ترك القتال والفتنة ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم وإذائهم للمؤمنين فإن لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنة الله في الأولين منهم بالإهلاك والإبادة وخسران السعي .

قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، الآية وما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار في الآية السابقة ، والمعنى : قل لهم إن ينتهوا عن المحادة لله ورسوله يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا إلى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقهم ؛ قل لهم كذا وأما أنت والمؤمنون فلا تنهوا فيما يهكم من إقامة الدين وتصفية جو صالح للمؤمنين ، وقاتلوهم حتى تنتهي هذه الفتن التي يفاجؤكم كل يوم ، ولا تكون فتنة بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من أعمالهم ، وإن تولوا عن الانتهاء فأرجموا القتال والله مولاكم فاعلموا ذلك ولا تنهوا ولا تخافوا .

والفتنة ما يمتحن به النفوس وتكون لا محالة مما يشق عليها ، وغلب استعمالها في المقاتل وارتفاع الأمن وانتقاض الصلح ، وكان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبي ﷺ قبل الهجرة وبعدها إلى مدة في مكة وبعدهم ويحبرونهم على ترك الإسلام والرجوع إلى الكفر ، وكانت تسمى فتنة .

وقد ظهر بما يفيد السياق من المعنى السابق أن قوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » كناية عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يفترّوا بكفرهم ولا يلفوا فتنة يفتن بها المؤمنون ، ويكون الدين كله لله لا يدعو إلى خلافه أحد ، وأن قوله : « فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » المراد به الانتهاء عن القتال ولذلك أوردته بمثل قوله : « فإن الله بما يعملون بصير » أي عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب أعمالهم وهو بصير بها ، وأن قوله : « وإن تولوا » الخ أي إن تولوا عن الانتهاء ، ولم يكفوا عن القتال ولم يتركوا الفتنة فاعلموا أن الله مولاكم وناصركم وقاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى ونعم النصير .

وقد ظهر أن قوله : « ويكون الدين كله لله » لا ينافي إقرار أهل الكتاب على دينهم إن دخلوا في الذمة وأعطوا الجزية فلا نسبة للآية مع قوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » التوبة : ٢٩ . بالناسخية والمنسوخية .

ولبعض المفسرين وجوه في معنى الانتهاء والمغفرة وغيرها من مفردات الآيات الثلاث لا كثير جدوى في التعرض لها تركناها .

وقد ورد في بعض الأخبار كون « نعم المولى ونعم النصير » من أسماء الله الحسنى والمراد بالاسم حينئذ لا محالة غير الاسم بمعناه المصطلح بل كل ما يخص بلفظه شيئاً من المصاديق كما ورد نظيره في قوله تعالى : « لا تأخذنه سنة ولا نوم » وقد مر استيفاء الكلام في الأسماء الحسنى في ذيل قوله تعالى : « والله الأسماء الحسنى » الأعراف ١٨٠ في الجزء الثامن من الكتاب .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمى في قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » الآية أنها نزلت بمكة قبل الهجرة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريح (رض) « وإذ يمكر بك الذين كفروا » قال : هي مكّة .

أقول : وهو ظاهر ما رواه أيضاً عن عبد بن حميد عن معاوية بن قرّة ، لكن عرفت أن سياق الآيات لا يساعد عليه .

وفيه أخرج عبدالرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني و أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك » قال : تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فائبتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه فاطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش النبي صلى الله عليه وسلم وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، و بات المشركون يحرسون علياً رضي الله عنه يحسبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ناروا عليه فلما رأوه علياً رضي الله عنه ردّ الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقترضوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فرأوا على بابة نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابة فمكث ثلاث ليال .

و في تفسير القمي : كان سبب نزولها أنه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة قدمت عليه الأوس والخزرج فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتكونون لي جارا حتى أتلو كتاب الله عليكم وثوابكم على الله الجنة ؟ فقالوا : نعم خذ لربك ولنفسك ما شئت فقال لهم : موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق فحججوا ورجعوا إلي منى وكان فيهم ممن قد حجّ بشر كثير .

فلما كان اليوم الثاني من أيام التشريق قال لهم رسول الله ﷺ : إذا كان الليل فاحضروا دار عبدالمطلب على العقبة ، ولا تنبهوا نائماً ، ولينسل واحد فواحد فجاء سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتجبروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنة .

فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبدالله بن حرام : نعم يا رسول الله اشترط لربك ونفسك ما شئت . فقال : أمّا ما اشترط لربي فإن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً ، وما اشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون أنفسكم وتمنعون أهلي ممّا تمنعون أهليكم وأولادكم . فقالوا فما لنا على ذلك ؟ فقال : الجنة في الآخرة ، وتملكون العرب ، ويدين لكم العجم في الدنيا ، و تكونون ملوكاً في الجنة فقالوا : قد رضينا .

فقال : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون شهداء عليكم بذلك كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً فأشار إليهم جبرئيل فقال : هذا نقيب وهذا نقيب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس : فمن الخزرج أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبدالله بن حرام أبو جابر بن عبدالله ورافع بن مالك وسعد بن عبادة والمنذر بن عمر وعبدالله بن رواحة وسعد بن ربيع وعبادة بن صامت ومن الأوس أبو الهيثم بن التيسان وهو من اليمن وأسيد بن حصين وسعد بن خيثمة .

فلما اجتمعوا وبايعوا لرسول الله ﷺ صاح إبليس : يا معشر قريش والعرب هذا نحلّ والصبابة من أهل يثرب على بحرة العقبة يبائعونه على حربكم فأسمع أهل منى ، وهاجت قريش فأقبلوا بالسلاح ، وسمع رسول الله ﷺ النداء فقال للأوصار : تفرّقوا فقالوا : يا رسول الله إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيا ففعلنا . فقال رسول الله ﷺ : لم أؤمر بذلك

ولم يأذن الله لي في محاربتهم . قالوا : فتخرج معنا ؟ قال : أنتظر أمر الله .
فجاءت قريش على بكرة أبيها قد أخذوا السلاح وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام
بالسلاح ومعهما السيوف فوقفا على العقبة فلمّا نظرت قريش إليهما قالوا : ما هذا الذي
اجتمعتم له ؟ فقال حمزة : ما اجتمعنا وما ههنا أحد والله لا يجوز هذه العقبة أحد إلا ضربته
بسيفي .

فرجعوا إلى مكة وقالوا : لا نأمن أن يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشائخ قريش
في دين محمد فاجتمعوا في دار الندوة ، وكان لا يدخل دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون
سنة فدخلوا أربعين رجلاً من مشائخ قريش ، وجاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له
البواب : من أنت ؟ فقال : أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم مني رأي صائب إنني حيث
بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل جئت لأشير عليكم فقال : أدخل فدخل إبليس .

فلمّا أخذوا مجلسهم قال أبو جهل : يا معشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب
أعزّ منا نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرتين و يكرمونا ، ونحن في حرم الله
لا يطمع فينا طامع فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله فكنّا نسميه الأمين
لصلاحه وسكونه وصدق لهجته حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله وأن
أخبار السماء تأتبه فسفه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، وأفسد شباننا ، وفرّق جماعتنا ، وزعم
أنه من مات من أسلافنا ففي النار ، ولم يرد علينا شيء أعظم من هذا ، وقد رأيت فيه رأياً .
قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيت أن ندس إليه رجلاً منا ليقبله فإن طلبت بنو هاشم بديته
أعطيناهم عشر ديات .

فقال الخبيث : هذا رأي خبيث قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لأن قاتل محمد مقتول لا محالة
فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم ؟ فإنه إذا قتل محمد تعصبت بنو هاشم وحلفاؤهم
من خزاعة ، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على الأرض فتقع بينكم الحروب
في حرمكم وتتفانون .

فقال آخر منهم : فعندي رأي آخر . قال : وما هو ؟ قال : نشبته في بيت و تلقى
عليه قوته حتى يأتي عليه ريب المنون فيموت كما مات زهير والنابغة وامرء القيس . فقال

إبليس : هذا أخبت من الآخر . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لأن بني هاشم لا ترضى بذلك فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم فاجتمعوا عليكم فأخرجوه .

قال آخر منهم : لا ولكننا نخرجه من بلادنا ونفترغ لعبادة آلهتنا . قال إبليس هذا أخبت من زينك الرأيين المتقدمين ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنكم تعمدون إلى أصحاب الناس وجهاً ، وأتقن الناس لساناً وأفصحهم لهجة فتحملوه إلى بوادي العرب فيخذعهم و يسحرهم بلسانه فلا يفتجؤكم إلا وقد ملأها خيلاً ورجلاً . فبقوا حائرين .

ثم قالوا لإبليس : فما الرأي يا شيخ ؟ قال : ما فيه إلا رأي واحد . قالوا : وما هو ؟ قال : يجتمع من كل بطن من بطون قريش فيكون معهم من بني هاشم رجل فيأخذون سكيناً أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه فقد شار كوه فيه فإن سألوكم أن تعطوهم الدية فأعطوهم ثلاث ديات . قالوا : نعم و عشر ديات . قالوا : الرأي رأي الشيخ النجدي فاجتمعوا فيه ، ودخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي ﷺ .

فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك فأنزل الله عليه في ذلك : « وإن يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلاً فيقتلوه ، و خرجوا إلى المسجد يصفرون ويصفقون ويطوفون بالبيت فأنزل الله : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة فالمكاء التصفير والتصديّة صفق اليدين وهذه الآية معطوفة على قوله : « وإن يمكر بك الذين كفروا » قد كتبت بعد آيات كثيرة .

فلما أمسى رسول الله ﷺ جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال أبو لهب : لأدعكم أن تدخلوا عليه بالليل فإن في الدار صدياناً ونساءً ولا نأمن أن يقع بهم يد خاطئة فنحرسه الليلة فإذا أصبحنا دخلنا عليه فناموا حول حجرة رسول الله ﷺ .

وأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له فرش فقال لعلي بن أبي طالب عليه السلام : أفدني

بنفسك قال : نعم يا رسول الله قال : نم على فراشي والتحف ببردتي فنام علي صلى الله عليه وسلم على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحف ببردته .

وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرء عليهم : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وقال له جبرئيل : خذ على طريق ثور وهو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور فدخل الغار وكان من أمره ما كان .

فلما أصبحت قريش وأتوا إلى الحجرة وقصدوا الفراش فوثب علي صلى الله عليه وسلم في وجوههم فقال : ماشأنكم ؟ قالوا : أين محمد ؟ قال : أجعلتموني عليه رقيباً ؟ أستم قلتم : نخرجه من بلادنا ؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبي لهب يضر بونه ويقولون : أنت تخدعنا منذ الليل .

فتفرقوا في الجبال ، وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له : أبو كرز يقفو الآثار فقالوا : يا أبا كرز اليوم اليوم فوقف بهم على باب حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : هذه قدم محمد والله إنها لأخت القدم التي في المقام ، وكان أبو بكر بن أبي قحافة استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم فردّه معه فقال أبو كرز . وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه ثم قال : وههنا غير ابن أبي قحافة ، ولا يزال يقف بهم حتى أوقفهم على باب الغار .

ثم قال : ما جاوزوا هذا المكان إما أن يكونوا سعدوا إلى السماء أو دخلوا تحت الأرض ، وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار ، وجاء فارس من الملائكة ثم قال : ما في الغار أحد فتفرقوا في الشعاب ، و صرفهم الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم ثم أذن لنبيه صلى الله عليه وسلم في الهجرة .

أقول : وروي ما يقرب من هذا المعنى ملخصاً في الدر المنثور عن ابن إسحاق و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس لكن نسب فيه إلى أبي جهل مانسب في هذه الرواية إلى الشيخ النجدي ثم ذكر أن الشيخ النجدي صدق أبا جهل في رأيه واجتمع القوم على قوله .

وقد روي دخول إبليس عليهم في دار الندوة في زي شيخ نجدي في عدة روايات

من طرق الشيعة وأهل السنة .

وأما ما في الرواية من قول أبي كرز لما اقتفى أثر رسول الله ﷺ : « هذه قدم محمد ، وهذه قدم ابن أبي قحافة ، وههنا غير ابن أبي قحافة » فقد ورد في الروايات أن ثالثهما هند بن أبي هالة ربيب رسول الله ﷺ وأمه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

وقد روى الشيخ في أماليه بإسناده عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه وعبدة الله بن أبي رافع جميعاً عن عمار بن ياسر وأبي رافع وعن سنان بن أبي سنان عن ابن هند بن أبي هالة ، وقد دخل حديث عمار وأبي رافع وهند بعضه في بعض ، وهو حديث طويل في هجرة النبي ﷺ وفيه : واستتب رسول الله ﷺ لأب بكر بن أبي قحافة وهند بن أبي هالة فأمرهما أن يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار ، وثبت رسول الله ﷺ بمكانه مع علي بن أبي طالب ﷺ بأمره في ذلك بالصبر حتى صلى العشاءين ثم خرج رسول الله ﷺ في فحمة العشاء والرصد من قريش قد أطافوا بداره ينتظرون أن ينتصف الليل وتنام الأعين .

فخرج وهو يقرأ هذه الآية : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وكان بيده قبضة من تراب فرمى بها في رؤوسهم فماشعروا القوم به حتى تجاوزهم ومضى حتى أتى إلى هند وأبي بكر فنهضا معه حتى وصلوا إلى الغار . ثم رجع هند إلى مكة بما أمره به رسول الله ﷺ ، ودخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار .

قال بعد سوق قصة الليلة : حتى إذا اتمت من الليلة القابلة انطلق هو - يعني علياً بن أبي طالب - وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله ﷺ في الغار فأمر رسول الله ﷺ هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين فقال أبو بكر قد كنت أعددت لي ولك يا نبي الله رحلتين نرتحلهما إلى يثرب فقال : إنني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن قال : فهي لك بذلك فأمر رسول الله ﷺ علياً بن أبي طالب فأقبضه الثمن ثم وصاه بحفظ زمته وأداء أمانته . وكانت قريش قد سموا محمداً في الجاهلية : الأمين ، وكانت تودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها ، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم ، وجاءت النبوة والرسالة والأمر

كذلك فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً بالأبطح غدوة وعشيماً : من كان له قبل محمد أمانة أودين فليأت فلنؤد إليه أمانته .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم علي فأد أمانتي على أعين الناس ظاهراً ثم إنني مستخلفك على فاطمة ابنتي و مستخلف ربي عليكما و مستحفظه فيكما فأمر أن يبتاع رواحل له و للفواطم ^(١) و من أزمع الهجرة معه من بني هاشم .

قال أبو عبيدة : فقلت لعبيد الله يعني ابن أبي رافع : أو كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجد ما ينفقه هكذا ؟ فقال : إنني سألت أبي عما سألتني وكان يحدث لي هذا الحديث . فقال : وأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام .

قال عبيد الله بن أبي رافع : وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار ثلاثاً نظماً :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصا *	ومن طاف بالبیت العتيق وبالبحر
محمد لما خاف أن يمكروا به *	فوقاه ربي ذوالجلال من المكر
و بت أراعيهم متى ينشرونني *	وقد وطئت نفسي على القتل والأسر
و بات رسول الله في الغار آمناً *	هناك و في حفظ الإله و في ستر
أقام ثلاثاً ثم زمت فلائص *	فلائص يفربن الحصا أينما تفرى

وقد روى الأبيات عنه عليه السلام بتفاوت يسير في الدر المنثور عن الحاكم عن علي بن الحسين عليه السلام .

و في تفسير العياشي عن زرارة وجران عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام : قوله : « خير الماكرين » قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد كان لقي من قومه بلاء شديداً حتى أتوه ذات يوم وهو ساجد حتى طرحوا عليه رحم شاة فأتته ابنته وهو ساجد لم يرفع رأسه فرفعت عنه ومسحته ثم أراه الله بعد ذلك الذي يجب . إنه كان ببدر وليس معه غير فارس واحد

(١) و هو علي مافى ذيل الرواية : فاطمة بنت النبي عليها السلام و فاطمة بنت أسد ، و فاطمة بنت الزبير .

ثم كان معه يوم الفتح اثنا عشر ألفاً حتى جعل أبو سفيان والمشركون يستغيثون . الحديث .
وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : كان
النضربن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها و كلامهم فلما قدم إلى مكة سمع
كلام النبي ﷺ والقرآن فقال : قد سمعنا لونها مثل هذا إن هذا إلا أساطير
الأولين .

أقول : وهناك بعض روايات أخر في أن القائل بهذا القول كان هو النضربن الحارث
وقد قتل يوم بدر صبراً .

وفيه أخرج البخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال أبو جهل بن هشام : اللهم إن كان هذا هو الحق
من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت : « وما كان الله ليعذبهم
وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

أقول : وروى القمي هذا المعنى في تفسيره وروى السيوطي أيضاً في الدر المنثور
عن ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير و عن ابن جرير عن عطاء : أن
القائل : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » الآية النضربن الحارث ، وقد تقدم في
البيان السابق ما يقتضيه سياق الآية .

وفيه أخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها
لبعض : محمد أكرمه الله من بيننا ؟ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا
حجارة من السماء الآية فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا : غفرانك اللهم فأنزل الله :
وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - إلى قوله - لا يعلمون .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن أزي رضي الله عنه قال :
كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فخرج رسول الله
ﷺ إلى المدينة فأنزل الله : وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله :
« وما لهم أن لا يعذبهم الله الآية فأذن في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

عطية رضي الله عنه في قوله : « وما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم » يعني المشركين حتى يخرجك منهم « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قال : يعني المؤمنين . ثم أعاد المشركين فقال : « وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام » وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » يقول : لو استغفروا وأقروا بالذنوب لكانوا مؤمنين ، و في قوله : « وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام » يقول : وكيف لا يعذبهم وهم لا يستغفرون .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : « وما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم » قال : بين أظهرهم « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قال : يسلمون .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك رضي الله عنه « وما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم » يعني أهل مكة « وما كان الله معذبهم » وفيهم المؤمنون يستغفرون . وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة والحسن رضي الله عنهما في قوله : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قالوا : نسختها الآية التي تليها : « وما لهم أن لا يعذبهم الله » ففوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والحصر .

أقول : عدم انطباقها على الآية بظاهاها المؤيد بسياقها ظاهر ، وإنما دعاهم إلى هذه التكاليف الاحتفاظ باتصال الآية في التأليف بما قبلها وما قبلها من الآيات المتعرضة لحال مشركي أهل مكة ، ومن عجيب ما فيها تفسير العذاب في الآية بفتح مكة ، ولم يكن إلا لرحمة للمشركين والمؤمنين جميعاً .

وفيه أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل الله عليّ أمانين لأمتي « وما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم » وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

أقول : مضمون الرواية مستفاد من الآية ، وقد روي ما في معناها عن أبي هريرة وابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواها في نهج البلاغة عن علي عليه السلام .

وفي ذيل هذه الرواية شيء ؛ وهو أنه لا يلائم ما مر في البيان المتقدم من إبعاد القرآن هذه الأمة بعذاب واقع قبل يوم القيامة ، ولازمه أن يرتفع الاستغفار من بينهم قبل يوم القيامة .

وفيه أخرج أحمد عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله » .

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله مقامي بين أظهركم خير لكم فإن الله يقول : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، ومفارقتي إياكم خير لكم . فقالوا : يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خيراً لنا ؟ فقال : أما مفارقتي إياكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض علي كل خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها ، وما كان من سيئة أستغفر الله لكم .

أقول : وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره و الشيخ في أماليه عن حنان بن سدير عن أبيه عنه عليه السلام ، وفي روايتهما أن السائل هو جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ، ورواه أيضاً في الكافي بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وغير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام .
وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كانت قريش تعارض النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزؤون و يصفرون و يصفقون فنزلت ، « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصديّة » .

وفيه أخرج أبو الشيخ عن نبيط وكان من الصحابة رضي الله عنه في قوله : « وما كان صلاتهم عند البيت » الآية قال : كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم يصفرون .

وفيه أخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : « إلا مكاء وتصديّة » قال : المكاء صوت القنبرة ، و التصديّة صوت العصافير وهو التصفيق ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر و الركن اليماني فيجيء رجالان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، و يصبح أحدهما كما يصبح المكاء ، و

الآخر يصفق بيده تصديداً العاصير ليقصد عليه صلواته .

وفي تفسير العياشي عن إبراهيم بن عمر اليماني عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه » يعني أولياء البيت يعني المشركين « إن أولياؤه إلا المتقون » حيث ما كانوا هم أولى به من المشركين « وما كان صلواتهم عند البيت إلا مكاء وتصديداً » قال : التصغير والتصفيق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه ^(١) قال : حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمر قال : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبدالله بن ربيعة وعكرمة بن أبي جهل و صفوان بن أمية في رجال من قريش إلى من كان معه تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن عمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثاراً ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله - إلى قوله - والذين كفروا إلى جهنم يحشرون .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » قال نزلت في أبي سفيان بن حرب .

وفيه أخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير في قوله : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » الآية قال : نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب فأنزل الله فيه هذه الآية .

وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضي الله عنه :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية * ثلاث مئين إن كثرن فأربع

(١) يعني طريق محمد بن اسحاق .

أقول : ورواه ملخصاً عن ابن إسحاق و ابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن

الزبير .

و في المجمع في قوله تعالى : « فقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله » الآية قال : روى زرارة وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : لم يجيء تأويل هذه الآية ولو قام قائمنا بعد سيري من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية وليبلغن دين محمد عليه السلام ما بلغ الكيل حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام ، و في معناه ما في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام ، وروى هذا المعنى أيضاً العياشي عن عبد الأعلى الحلبي عن أبي جعفر عليه السلام في رواية طويلة .

وقد تقدم حديث إبراهيم اللبثي في تفسير قوله : « ليميز الله الخبيث من الطيب » الآية مع بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله : « كما بدأكم تعودون » الأعراف : ٢٩ في الجزء الثامن من الكتاب .

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ
 وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
 الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا
 وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَ الرُّكْبَ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَ لَكِن
 لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَ يَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن
 بَيْنَةٍ وَ إِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلَيْهِمْ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَيْكُهُمْ
 كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لَكِنَ اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلَيْهِمُ بِيْدَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)
 وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلِكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
 كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقَيْتُمْ فِتْنَةً
 فَاقْبَلُوهَا وَ اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَ اطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُوْلَهُ وَ لَا
 تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيْحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنْ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَ لَا
 تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يُصْذُونَ عَن سَبِيلِ
 اللَّهِ وَ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا
 غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارِكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
 وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)
 إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوْلَاءُ دِينَهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ
 عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت
 أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ
 بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
 فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤).

﴿ بيان ﴾

تشتمل الآيات على الأمر بتخميس الغنائم وبالثبات عند اللقاء وتذكريهم ، وتقص
 عليهم بعض ما نكب الله به أعداء الدين وأخزاهم بالمكر الإلهي ، وأجرى فيهم سنة آل
 فرعون ومن قبلهم من المكذبين لآيات الله الصادين عن سبيله .

قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول » إلى آخر
 الآية . الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب وينطبق بحسب مورد
 نزول الآية على غنيمة الحرب قال الراغب : الغنم - بفتحتين - معروف قال : ومن البقر
 والغنم حرمتنا عليهم شحومهما ، والغنم - بالضم فالسكون - إصابته والظفر به ثم استعمل
 في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم قال : واعلموا أنما غنمتم من شيء فكلوا مما
 غنمتم حلالاً طيباً . والمغنم ما يغنم وجمعه مغنم قال : فعند الله مغنم كثيرة انتهى .

وذوالقربى القريب والمراد به قرابة النبي ﷺ أو خصوص أشخاص منهم على ما
 يفسره الآثار القطعية ، واليتيم هو الإنسان الذي مات أبوه وهو صغير ، قالوا : كل
 حيوان يقيم من قبل أمه إلا الإنسان فإن يتمه من قبل أبيه .

وقوله : « فإن لله خمسه » الخ قرىء بفتح أن ، ويمكن أن يكون بتقدير

حرف الجر والتقدير : واعلموا أن ما غنمتم من شيء فعلى أن لله خمسة أي هو واقع على هذا الأساس محكوم به ، ويمكن أن يكون بالعطف على أن الأولى ، وحذف خبر الأولى لدلالة الكلام عليه ، والتقدير : اعلموا أن ما غنمتم من شيء يجب قسمته فاعلموا أن خمسة لله ، أو يكون الفاء لاستشمام معنى الشرط فإن مآل المعنى إلى نحو قولنا : إن غنمتم شيئاً فخمسه لله الخ فالفاء من قبيل فاء الجزاء ، وكرر أن للتأكيد ، والأصل : اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسة لله الخ ، والأصل الذي تعلق به العلم هو : ما غنمتم من شيء خمسة لله وللرسول الخ ، وقد قدم لفظ الجلالة للتعظيم .

وقوله : « إن كنتم آمنتم بالله » الخ قيد للأمر الذي يدل عليه صدر الآية أي أدوا خمسة إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ، وربما قيل : إنه متصل بقوله تعالى في الآية السابقة : فاعلموا أن الله هو مولاكم « هذا والسياق الذي يتم بحيلولة قوله : واعلموا أنما غنمتم من شيء » الخ لا يلائم ذلك .

وقوله تعالى : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان » الظاهر أن المراد به القرآن بقرينة تخصيص النبي ﷺ بالإنزال ، ولو كان المراد به الملائكة المنزلون يوم بدر - كما قيل - لكان الأنسب أو لا : أن يقال : ومن أنزلنا على عبدنا أو ما يؤدي هذا المعنى ، وثانياً : أن يقال : عليكم لا على عبدنا فإن الملائكة كما أنزلت لنصرة النبي ﷺ أنزلت لنصرة المؤمنين معه كما يدل عليه قوله : « فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردين » الأنفال : ٩ . وقوله بعد ذلك : « إن يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا » الخ الأنفال : ١٣ ونظيرهما قوله : « إن تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » آل عمران : ١٢٥ .

وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا » من بسط اللطف على رسول الله ﷺ واصطفائه بالقرب ما لا يخفى .
ويظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث في قوله تعالى في أول السورة : « يسألونك

عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول « الآية أن المراد بقوله : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان » هو قوله تبارك وتعالى : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » بما يحتف به من الآيات .

والمراد بقوله : « يوم الفرقان » يوم بدر كما يشهد به قوله بعده : « يوم التقى الجمعان فإن يوم بدر هو اليوم الذي فرّق الله فيه بين الحق والباطل فأحقّ الحق بنصرته ، وأبطل الباطل بخذلانه .

وقوله تعالى : « والله على كل شيء قدير » بمنزلة التعليل لقوله : « يوم الفرقان » بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق والباطل كأنه قيل : والله على كل شيء قدير فهو قادر أن يفرّق بين الحق والباطل بما فرّق .

فمعنى الآية - والله أعلم - واعلموا أن خمس ما غنمتم أي شيء كان هو لله ولرسوله ، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فردّه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله وما أنزله على عبده محمد ﷺ يوم بدر ، وهو أن الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد ، وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها فالذي أباح لكم التصرف فيها يأمركم أن تكفوا عن التصرف فيها وأمركم أن تؤدّوا خمسها إلى أهله .

وظاهر الآية أنها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية ، وأن الحكم متعلق بما يسمى غنماً وغنيمة سواء كان غنيمة حربية مأخوذة من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمة لغة كأرباح المكاسب والغوص والملاحة والمستخرج من الكنوز والمعادن ، وإن كان مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فليس للمورد أن يخصّص .

وكذا ظاهر ما عدّ من موارد الصرف بقوله : « لله خمسها » وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل « انحصار الموارد في هؤلاء الأصناف ، وأن لكلّ منهم سهماً بمعنى استقلاله في أخذ السهم كما يستفاد مثله من آية الزكاة من غير أن يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل .

فهذا كله مما لارب فيه بالنظر إلى المتبادر من ظاهر معنى الآية ، و عليه وردت الأخبار من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنة في تفسير الآية و سنتعرض لها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .
قوله تعالى : « **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لآخلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** » ، العدو بالضم و قد يكسر شفير الوادي ، والدنيا مؤنث أدنى كما أن القصوى وقد يقال : القصيا مؤنث أفصى والركب كما قيل هو العير الذي كان عليه أبو سفيان بن حرب .

والظرف في قوله : « **إذ أنتم بالعدوة** » بيان ثان لقوله في الآية السابقة : « **يوم الفرقان كما أن** » قوله : « **يوم التقى الجمعان** » بيان أوّل له متعلّق بقوله : « **أنزلنا على عبدنا** » وأما ما يظهر من بعضهم أنه بيان لقوله : « **والله على كل شيء قدير** » بما يفيد بحسب المورد ، والمعنى : والله قدير على نصركم و أنتم أذلة إذ أنتم نزول بشفير الوادي الأقرب ، فلا يخفى بعده ووجه التكلف فيه .

وقوله تعالى : « **ولو تواعدتم لآخلفتم في الميعاد** » ، سياق ما تقدّمه من الجمل الكاشفة عن تلاقي الجيشين ، و كون الركب أسفل منهم ، وأن الله بقدرته التي قهر على كل شيء عفرق بين الحقّ والباطل ، وأيد الحقّ على الباطل ، و كذا قوله بعد : « **ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** » ، كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله : « **ولو تواعدتم لآخلفتم في الميعاد** » بيان أن التلاقي على هذا الوجه لم يكن إلاّ بمشيئة خاصة من الله سبحانه حيث نزل المشركون وهم ذروا عدّة و شدة بالعدوة القصوى وفيها الماء والأرض الصلبة ، والمؤمنون على قلة عددهم وهوان أمرهم بالعدوة الدنيا ولا ماء فيها والأرض رملية لا تثبت تحت أقدامهم ، و تخلّص العير منهم إذ ضرب أبو سفيان في الساحل أسفل ، و تلاقي الفريقان لا حاجز بينهما ولا مناص عندئذ عن الحرب ، فالتلاقي والمواجهة على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين ، لم يكن عن أسباب عادية بل لمشيئة خاصة إلهية ظهرت بها قدرته و بان بها عنايته الخاصة ونصره وتأيدته للمؤمنين .

قوله : « **ولو تواعدتم لآخلفتم في الميعاد** » ، بيان أن هذا التلاقي لم يكن عن سابق

قصد وعزيمة ، ولا روية أو مشورة ، ولهذا المعنى عقبه بقوله : « ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » بما فيه من الاستدراك .

وقوله : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » لتعليل ما قضي به من الأمر المفعول أي إن الله إنما قضى هذا الذي جرى بينكم من التلاقي والمواجهة ثم تأييد المؤمنين وخذلان المشركين ليكون ذلك بينة ظاهرة على حقيقة الحق وبطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

وبذلك يظهر أن المراد بالهلاكة والحياة هو الهدى والضلال لأن ذلك هو الذي يرتبط به وجود الآية البينة ظاهراً .

وكذا قوله : « وأن الله لسميع عليم » عطف على قوله : « ليهلك من هلك عن بينة » الخ أي وإن الله إنما قضى ما قضى وفعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم علم يعلم ما في صدوركم ، وفيه إشارة إلى ما ذكره في صدر الآيات : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم » إلى آخر الآيات .

وعلى هذا السياق - أي لبيان أن مرجع الأمر في هذه الواقعة هو القضاء الخاص الإلهي دون الأسباب العادية - سبق قوله تعالى بعد : « إذ يريكم الله في منامك قليلاً » الخ ، وقوله : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم » الخ ، وقوله : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » الخ .

ومعنى الآية يوم الفرقان هو الوقت الذي أتم نزول بالعدوة الدنيا وهم نزول بالعدوة القصوى ، وقد توافق نزولكم بها ونزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم أن تلتقوا بهذا الميعاد لاختلقتم فيه ولم تتلاقوا على هذه الوتيرة فلم يكن ذلك منكم ولا منهم ولكن ذلك كان أمراً مفعولاً والله قاضيه وحاكمه ، وإنما قضى ما قضى ليظهر آية بينة فتتم بذلك الحججة ، ولأنه قد استجاب بذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم و علم به من حاجة قلوبكم .

قوله تعالى : « إذ يريكم الله في منامك قليلاً » إلى آخر الآية ، الفشل هو الضعف مع الفرع ، والتنازع هو الاختلاف وهو من النزاع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع

كل منهما الآخر عما هو فيه ، والتسليم هو التنجية .

والكلام على تقدير اذ كر أي اذ كر وقتاً يريدكم الله في منامك قليلاً ، وإنما أراكم قليلاً ليربط بذلك قلوبكم وتطمئن نفوسكم ولو أراكم كثيراً ثم ذكرتم للمؤمنين أفرعكم الضعف واختلقتهم في أمر الخروج إليهم ولكنه تعالى نجأكم بإراءتهم قليلاً عن الفشل والتنازع إنه عليم بذات الصدور وهي القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب في اطمئنانها وارتباطها وقوتها .

والآية تدل على أن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ رؤيا مبشرة رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين أنها لهم ، وقد أراهم قليلاً لا يعبأ بشأنهم ، وإن النبي ﷺ ذكر ما رآه للمؤمنين ووعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم . والدليل على ذلك قوله : « ولو أراكم كثيراً لفشلتم » الخ وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وإذ يريدكم وهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً وقللكم في أعينهم إلى آخر الآية . معنى الآية ظاهر ، ولا تنافي بين هذه الآية وقوله تعالى : « قد كان لكم آية في فئتين المتقاتلة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء » آل عمران : ١٢ بناءً على أن الآية تشير إلى وقعة بدر .

وذلك أن التقليل الذي يشير إليه في الآية المبحوث عنها مقيد بقوله : « إذ التقيتم » وبذلك يرتفع التنافي كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلاً في أعين المشركين في بادئ الالتقاء ليستحقر واجمعهم ويشجعهم ذلك على القتال والنزال حتى إذا زحفوا واختلطوا أكثر المؤمنين في أعينهم فرأوهم مثليهم رأي العين فأوهن بذلك عزمهم وأطار قلوبهم فكانت الهزيمة فأية الأنفال تشير إلى أول الوقعة ، وآية آل عمران إلى ما بعد الزحف والاختلاط وقوله : « ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » متعلق بقوله : « يريدكم وهم » وتعليل لمضمونه .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذ التقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » إلى آخر الآيات الثلاث . قال الراغب في المفردات : الثبات - بفتح الثاء - ضد الزوال انتهى فهو في المورد ضد الفرار من العدو ، وهو بحسب ماله من المعنى أعم من الصبر الذي يأمر به في قوله : « واصبروا إن الله مع الصابرين » فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب

بأن لا يضعف ولا يفرع ولا يجزع ، وبالبدن بأن لا يتكاسل ولا يتساهل ولا يزول عن مكانه ولا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص .

والريح على ما قيل : العز و الدولة ، وقد ذكر الراغب : أن الريح في الآية بمعنى الغلبة استعارة كأن من شأن الريح أن تحرك ما هبت عليه وتقلعه وتذهب به ، والغلبة على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها .

وقال الراغب : البطردهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحققها و صرفها إلى غير وجهها قال عز وجل : « بطرأورثاء الناس ، وقال : بطرت معيشتها » وأصله : بطرت معيشتها فصرف عنه الفعل ونصب ، ويقارب البطر الطرب ، وهو خفة أكثر ما يعترى من الفرح وقد يقال ذلك في الترح ، والبيطرة معالجة الدابة . انتهى . و الرءاء المراءاة .

وقوله : « فاثبتوا » أمر بمطلق الثبوت أمام العدو ، وعدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانياً بالصبر كما تقدمت الإشارة إليه .

وقوله : « واذكروا الله كثيراً » أي في جناتكم ولسانكم فكل ذلك ذكر ، ومن المعلوم أن الأحوال القلبية الباطنة من الإنسان هي التي تميز مقاصده وتخصصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغث بالله من فقره وهو يقول : ياغني و المريض المستغث به من مرضه وهو يقول : يا شافي ولو قال الفقير في ذلك : يا الله أو قال المريض فيه ذلك لكان معناه : ياغني ويا شافي لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثة والدعوة لا يريدان إلا ذلك كما هو ظاهر .

والذي يخرج إلى قتال عدوه ، ثم لقيه واستعد الطرف للقتال ، وليس فيه إلا زهاق النفوس ، وسفك الدماء ونقص الأطراف وكل ما يهدد الإنسان بالفناء في ما يجبه فإن حاله يحول فكرته ويصرف إرادته إلى الظفر بما يريد بالقتال ، والغلبة على العدو الذي يهدده بالفناء ، والذي حاله هذا الحال وتفكيره هذا التفكير إنما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله وتنصرف إليه فكرته .

وهذا أقوى قرينة على أن المراد بذكر الله كثيراً أن يذكر المؤمن ما علمه تعالى من

المعارف المرتبطة بهذا الشأن وهو أنه تعالى إليه وربّه الذي بيده الموت والحياة وهو على نصره لقدبر ، وأنه هو مولاه نعم المولى ونعم النصير ، وقد وعده النصر إذ قال : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وأن مآل أمره في قتاله إلى إحدى الحسينين إما الظفر على عدوه ورفع راية الإسلام وإخلاص الجوس لسعادته الدينية ، وإما القتل في سبيل الله والانتقال بالشهادة إلى رحمته ، والدخول في حظيرة كرامته ، ومجاورة المقرّبين من أوليائه ، وما في هذا الصف من المعارف الحقيقية التي تدعو إلى السعادة الواقعية والكرامة السرمديّة .

وقد قيّد الذكر بالكثير لتتجدد به روح التقوى كالملاح للإنسان ما يصرف نفسه إلى حب الحياة الفانية والتمتع بزخارف الدنيا الغارة والخطورات النفسانية التي يلقبها الشيطان بتسويها .

وقوله : « وأطيعوا الله ورسوله » ظاهر السياق أن المراد بها إطاعة ماصدر من ناحيته تعالى وناحية رسوله من التكاليف والذمات المتعلقة بالجهاد والدفاع عن حومة الدين وبيعة الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد والسنة النبوية كالاتداء بإتمام الحجّة وعدم التعرّض للنساء والذراري والكف عن تبنيّت العدو وغير ذلك من أحكام الجهاد .

وقوله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » أي ولا تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتّى يورث ذلكم ضعف إرادتكم وذهاب عزّكم ودولتكم أو غلبتكم فإنّ اختلاف الآراء يخلّ بالوحدة ويوهن القوّة .

وقوله : « واصرروا إن الله مع الصابرين » أي الزموا الصبر على ما يصيبكم من مكاره القتال مما يهدّدكم به العدو ، وعلى الإكثار من ذكر الله ، وعلى طاعة الله ورسوله من غير أن يهزهزكم الحوادث أو يزجركم ثقل الطاعة أو تغويكم لذّة المعصية أو يضلّكم عجب النفس وخيلاؤها .

وقد أكد الأمر بالصبر بقوله : « إن الله مع الصابرين » لأنّ الصبر أقوى عون على الشدائد وأشدّ ركن تجاه التلون في العزم وسرعة التحوّل في الإرادة ، وهو الذي يخلّي بين الإنسان وبين التفكير الصحيح المطمئنّ حيث يهجم عليه الخواطر المشوشة والأفكار الموهنة لإرادته عند الأهوال والمصائب من كلّ جانب فالله سبحانه مع الصابرين .

وقوله : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرأورثاء الناس » الآية نهي عن اتخاذ طريقة هؤلاء البطرين المرثيين الصادق بن عبد الله بن الحسين ، وهم على ما يفيد سياق الكلام في الآيات ، كفار قريش ، وما ذكره من أوصافهم أعني البطر ورثاء الناس والصد عن سبيل الله هو الذي أوجب النهي عن التشبه بهم واتخاذ طريقهم بدلالة السياق ، وقوله : « والله بما يعملون محيط » ينبيء عن إحاطته تعالى بأعمالهم وسلطنته عليها وملكوها ، ومن المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخلية في قضائه متمشية بإذنه ومشيتة وما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجملة كالكناية عما يصرح به بعد عدة آيات بقوله : « ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون » الأنفال : ٥٩ .

وظاهر أن أخذ هذه القيود أعني قوله : « بطراً ورثاء الناس وصدون عن سبيل الله » يوجب تعلق النهي بها والتقدير : ولا تخرجوا من دياركم إلى قتال أعداء الدين بطرين و مرثيين بالتجمعات الدنيوية ، وصد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم وأفعالكم إلى ترك تقوى الله والتوغل في معاصيه والانخلاع عن طاعة أوامره وديانته فإن ذلك يحبط أعمالكم ويطفىء نور الإيمان ويبطل أثره عن جمعكم فلا طريق إلى نجاح السعي والفوز بالمقاصد الهامة إلا سوي الصراط الذي يمهده الدين القويم وتسهله الملة الفطرية والله لا يهدي القوم الفاسقين إلى مقاصدهم الفاسدة .

وقد اشتملت الآيات الثلاث على أمور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلامية عند اللقاء وهي الثبات ، وذكر الله كثيراً ، وطاعة الله ورسوله ، وعدم التنازع ، وأن لا يخرجوا بطراً ورثاء الناس وصدون عن سبيل الله .

و بمجموع الأمور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدستور الحربية شيئاً ، والتأمل الدقيق في تفاصيل الوقائع في تاريخ الحروب الإسلامية الواقعة في زمن النبي ﷺ كقدر وأحد والخندق وحنين وغير ذلك يوضح أن الأمر في الغلبة والهزيمة كان يدور مدار رعاية المسلمين مواد هذا الدستور الإلهي وعدم رعايتها ، والمراقبة لها والمساهلة فيها .

قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم » إلى آخر

الآية تزيب الشيطان للإنسان عمله هو الفأوه في قلبه كون العمل حسناً جميلاً يستلذ به وذلك بتهديج قواه الباطنة وعواطفه الداخلة المتعلقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه ، ولا يجد فراغاً يعقل ماله من سوء الأثر وشؤم العاقبة .

وليس من البعيد أن يكون قوله : « وقال لا غالب لكم اليوم » الآية مفسراً أو بمنزلة المفسر للتزيب الشيطاني على أن يكون المراد بالأعمال نتائجها وهي ما هيئوره من قوة وسلاح وعدة وما أخرجه من القيان والمعازف والخمور ، وما تظاهروا به من نظام الجيش والجنائب تساق بين أيديهم ، ويمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال وهي أنواع تماديتهم في الغي والضلال وإصرارهم في محادة الله ورسوله ، واسترسالهم في الظلم والفسق فيكون قوله المحكي : « لا غالب لكم اليوم من الناس » مما يتم به تزيب الشيطان ، و تطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين ، وقد أكمل ذلك بقوله : « وإني جار لكم » .
والجوار من سنن العرب في الجاهلية التي كانت تعيش عيشة القبائل ، و من حقوق الجوار نصره الجار للجار إذا دهمه عدو ، وله آثار مختلفة بحسب السنن الجارية في المجتمعات الإنسانية .

وقوله : « فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه » النكوص الإحجام عن الشيء . و « على عقبيه » حال والعقب مؤخر القدم أي أحجم وقد رجع القهقري منهزماً وراه .

وقوله : « إني أرى ما لا ترون » الآية تعليل لقوله : « إني بري منكم » ولعله إشارة إلى نزول الملائكة المردفين الذين نصر الله المسلمين بهم ، وكذا قوله : « إني أخاف الله والله شديد العقاب » تعليل لقوله : « إني بري منكم » ومفسر للتعليل السابق .

والمعنى ويوم الفرقان هو الوقت الذي زين الشيطان للمشركين ما كانوا يعملونه لمحادة الله ورسوله وقتال المؤمنين ، ويتلبسون به للتهدية على إطفاء نور الله ، فزين ذلك في أنظارهم ، وطيب نفوسهم بقوله : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين والمؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقري منهزماً وراه وقال للمشركين إني بري منكم إني أرى ما لا ترونه من نزول

ملائكة النصر للمؤمنين وما عندهم من العذاب الذي يهددكم إنني أخاف عذاب الله والله شديد العقاب .

وهذا المعنى - كما ترى - يقبل الانطباق على وسوسة الشيطان لهم في قلوبهم وتهييجهم على المؤمنين و تشجيعهم على قتالهم و تطيب نفوسهم بما استعدادوا به حتى إذا تراءت الفئتان ونزل النصر واستولى الرعب على قلوبهم انتكست أوهامهم وتبدلت أفكارهم وعادت مزعمة الغلبة وأمنية الفتح والظفر مخافة مستولية على نفوسهم وخيبة وياساً شاملة لقلوبهم .

ويقبل الانطباق على تصور شيطاني يبدولهم فتتنجذب إليه حواسهم بأن يكون قد تصور لهم في صورة إنسان ويقول لهم ما حكاة الله من قوله : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم ، فيغويهم ويسيرهم ويقربهم من القتال حتى إذا تقاربت الفئتان وتراءتا فلما تراءت الفئتان ورأى الوضع على خلاف ما كان يؤمله ويطمع فيه نكص على عقبيه و قال إنني بريء منكم إنني أرى مالاترون من نزول النصر والملائكة إنني أخاف الله والله شديد العقاب ، وقد ورد في روايات القصة من طرق الشيعة و أهل السنة ما يؤيد هذا الوجه .

وهو أن الشيطان تصور للمشركين في صورة سراقه بن مالك بن جشعم الكناني ثم المدلجي وكان من أشرف كنانة وقال لهم ما قال وحمل رأيهم حتى إذا تلاقى الفريقان فر منهزماً وهو يقول : إنني بريء منكم إنني أرى مالاترون ، إلى آخر ما حكاة الله تعالى ، وستجيب الرواية في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

وقد أصر بعض المفسرين على الوجه الأول ، ورد الثاني بتزييف الآثار المروية وتضعيف أسناد الأخبار ، وهي وإن لم تكن متواترة ولا محفوفة ببعض القرائن القطعية الموجبة للوثوق التام لكن أصل المعنى ليس من المستحيل الذي يدفعه العقل السليم ، ولا من القصص التي تدفعها آثار صحيحة ، ولا مانع من أن يتمثل لهم الشيطان فيوردهم مورد الضلال والغنى حتى إذا تم له ما أراد تركهم في تهلكتهم أو حتى شاهد عذاباً إلهياً نكص على عقبيه هارباً .

على أن سياق الآية الكريمة أقرب إلى إفادة هذا الوجه الثاني منه إلى الوجه الأول ، وخاصة بالنظر إلى قوله : « وإني جار لكم » ، وقوله : « حتى إذا تراءت الفئتان نكص على عقبيه » ، وقوله : « إني أرى ما لا ترون » الآية فإن إرجاع معنى قوله : « إني أرى » الخ مثلاً إلى الخواطر النفسانية بنوع من العناية الاستعارية بعيد جداً .

قوله تعالى : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » إلى آخر الآية أي يقول المنافقون وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، والذين في قلوبهم مرض وهم الضعفاء في الإيمان ممن لا يخلو نفسه من الشك والارتياب - يقولون مشيرين إلى المؤمنين إشارة تحقير واستدلال - : غر هؤلاء دينهم إذ لولا غرور دينهم لم يقدموا على هذه المهلكة الظاهرة ، وهم شذمة أنلاء لعادة لهم ولا عادة ، وقريش على ما بهم من العدة والقوة والشوكة .

قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » في مقام الجواب عن قولهم وإبانة غرورهم أنفسهم ؛ وقوله : « فإن الله عزيز حكيم » من وضع السبب موضع المسبب ، والمعنى : وقد أخطأ هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض في قولهم فإن المؤمنين توكلوا على الله ونسبوا حقيقة التأثير إليه وضموا أنفسهم إلى قوته وحواله ، و من يتوكل أمره على الله فإن الله يكفيه لأنه عزيز ينصر من استنصره حكيم لا يخطأ في وضع كل أمر موضعه الذي يليق به .

وفي الآية دليل على حضور جمع من المنافقين و ضعفاء الإيمان بیدرحین تلافی

الفئتين .

أمّا المنافقون وهم الذين كانوا يظهرن الإسلام و يبطنون الكفر فالمعنى لكونهم بين المشركين فلم يكونوا إلا بين المسلمين لكن الشأن في العامل الذي أوجب منهم الثبات واليوم يوم شديد .

وأما الضعفاء الإيمان أو الشاكون في حقيقة الإسلام فمن الممكن أن يكونوا بين المؤمنين أوفي فئة المشركين وقد قيل : إنهم كانوا فئة من قريش أسلموا بمكة و احتبسهم آباؤهم ، واضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتى إذا حضروها و شاهدوا ما

عليه المسلمون من القلّة والذلّة قالوا : مساكين هؤلاء غيرهم دينهم ، و سيجي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

وعلى أيّ حال ينبغي إمعان النظر في البحث عمّا تفيد هذه الآية من حضور جمع من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يوم بدر عند القتال ، واستخراج حقيقة السبب الذي أوجب لهؤلاء المنافقين والضعفاء حضور هذه الغزوة ، والوقوف في ذلك الموقف الصعب الهائل الذي لا يساعده عليه الأسباب العادية ولا يقف فيه إلا رجال الحقيقة الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان . وأنتم لما ذا حضروها ؟ وكيف ولما ذا صبروا مع الصابرين من فئة الإسلام ؟ و لعلنا نوفق لبعض البحث في ذلك فيما سيوافي من آيات سورة التوبة في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ، إلى تمام الآيتين . التوفي أخذ الحق بتمامه ، ويستعمل في كلامه تعالى كثيراً بمعنى قبض الروح ، ونسبة قبض أرواحهم إلى الملائكة مع ما في بعض الآيات من نسبه إلى ملك الموت ، وفي بعض آخر إلى الله سبحانه كقوله : « قل يتوفىكم ملك الموت الذي وكل بكم » الم السجدة : ١١ ، و قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ دليل على أن ملك الموت أعواناً يتولون قبض الأرواح هم بمنزلة الأيدي العمالة له يصدرون عن إذنه ويعملون عن أمره ، كما أنه يصدر عن إذن من الله ويعمل عن أمر منه ، و بذلك يصح نسبة التوفي إلى الملائكة الأعوان ، وإلى ملك الموت ، وإلى الله سبحانه .

وقوله : « يضرّبون وجوههم وأدبارهم » ظاهره أنهم يضرّبون مقادير أبدانهم و خلاف ذلك فيكسبى به عن إحاطتهم واستيعاب جهاتهم بالضرب ، وقيل : إن الأدبار كناية عن الأستاه بالمناسبة يكون المراد بوجوههم مقدّم رؤوسهم ، وضرب الوجوه والأدبار بهذا المعنى يراد به الإزراء و الإذلال .

وقوله : « وذوقوا عذاب الحريق » أي يقول لهم الملائكة : ذوقوا عذاب الحريق وهو النار .

وقوله : « ذلك بما قدّمتم أيديكم » تتمّة لقولهم المحكي أو إشارة إلى مجموع

ما يفعل بهم وما يقول لهم الملائكة ، والمعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت أيديكم أو : نضرب وجوهكم وأدباركم ونذيقكم عذاب الحريق بما قدمت أيديكم .

وقوله : « وأن الله ليس بظالم للعبيد » معطوف على موضع قوله « ما قدمت ، أي و ذلك بأن الله ليس بظالم للعبيد أي لا يظلم أحداً من عبده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا يتخلف ولا اختلاف في فعله فلو ظلم أحداً لظلم كل أحد ، ولو كان ظالماً لكان ظالماً للعبيد فافهم ذلك . وسياق الآيات يشهد على أن المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكة يتوفاهم ويعذبهم هم المقتولون بيد من مشركي قريش .

قوله تعالى : « كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله ، إلى آخر الآية . الدأب والديدن : العادة وهي العمل الذي يدوم ويجري عليه الإنسان ، والطريقة التي يسلكها ، والمعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الخالية الكافرة كفروا بآيات الله وأزنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي لا يضعف عن أخذهم شديد العقاب إذا أخذ .

قوله تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته أنعمها على قوم حتى يغير وأما بأنفسهم » الخ أي إن العقاب الذي يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمته الإلهية سابقة بسلبها واستحلافها ، ولانزول نعمته من النعم الإلهية ولا تتبدل نعمة و عقاباً إلا مع تبدل محلّه وهو النفوس الإنسانية ، فالنعمه التي أنعم بها على قوم إنما أفيض عليهم لما استعدوا لها في أنفسهم ، ولا يسلبونها ولا تتبدل بهم نعمة و عقاباً إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد وملاك الإفاضة وتلبسهم باستعداد العقاب .

وهذا ضابط كليّ في تبدل النعمة إلى النعمة و العقاب ، و أجمع منه قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ وإن كان ظاهره أظهر انطباقاً على تبدل النعمة إلى النعمة .

وكيف كان فقوله : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً » الخ من قبيل التعليل بأمر عام وتطبيقه على مورد الخاص أي أخذ مشركي قريش بذنوبهم ، وعقابهم بهذا العقاب الشديد ، وتبديل نعمة الله عليهم عقاباً شديداً إنما هو فرع من فروع سنة جارية إلهية هي أن الله لا يغير

نعمة أنعمها على قوم حتى يغيثوا ما بأنفسهم .

وقوله : «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تعليل آخر بعد التعليل بقوله : «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مَغِيثاً» الخ وظاهره - بمقتضى إشعار السياق - أن المراد به : وذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم وعلم بحاجتكم فاستجاب لكم فعدّ أعداءكم الكافرين بآيات الله ، ويحتمل أن يكون المراد : ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعدّ بهم على ذلك ، ويمكن الجمع بين المحتملين .

قوله تعالى : «كذّاب آل فرعون والذين من قبلهم كذّابوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم» الخ كرّر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ما تقدم فقوله : «كذّاب آل فرعون» الخ السابق تنظير لقوله : «ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظالم للعبيد» كما أن قوله : «كذّاب آل فرعون» - إلى قوله - «وكلّ كانوا ظالمين» ثانياً تنظير لقوله : «ذلك بأن الله لم يك مغيثاً نعمة» الخ .

غير أن التنظير الثاني يشتمل على نوع من الالتفات في قوله : «فأهلكناهم بذنوبهم» وقد وقع بحذائه في التنظير الأوّل : «فأخذهم الله بذنوبهم» من غير التفات ولعلّ الوجه فيه أن التنظير الثاني لما كان مسبقاً بإفادة أن الله هو المفيض بالنعمة على عباده ولا يغيثها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم ، وهذا شأن الربّ بالنسبة إلى عبده اقتضى ذلك أن يعدّ هؤلاء عبيداً غير جازين على صراط عبودية ربهم ولذلك غير بعض سياق التنظير فقال في الثاني : «كذّابوا بآيات ربهم» وقد كان بحذائه في الأوّل قوله : «كفروا بآيات الله» ولذلك التفت ههنا من الغيبة إلى التكلّم مع الغير فقال : «فأهلكناهم بذنوبهم» للدلالة على أنه سبحانه هو ربهم وهو مهلكهم ، وقد أخذ المتكلّم مع الغير للدلالة على عظمة الشأن وجلالة المقام ، وأنّ له وسائل يعملون بأمره ويجرون بمشيئته .

وقوله : «وأغرقنا آل فرعون» أظهر المفعول ولم يقل : «وأغرقناهم ليؤمنوا بالآيات» يرجع الضمير إلى آل فرعون والذين من قبلهم جميعاً .

وقوله تعالى : «وكلّ كانوا ظالمين» أي جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهي من كفّار قريش وآل فرعون والذين من قبلهم كانوا ظالمين في جنب الله .

وفيه بيان أن الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحداً ، ولا يبدل نعمته على أحد
نقمة إلا إذا كان ظالماً ظالماً يبدل نعمه الله كقراً بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا
مستحقه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن عثمان عن
سماعة قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخمس فقال : في كل ما أفاد الناس من قليل
أو كثير .

وفيه عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابنا عن العبد
الصالح قال : الخمس في خمسة أشياء : من الغنائم و الفوص و من الكنوز و من المعادن و
الملاحة يؤخذ من كل هذه الصنوف الخمس فيجعل لمن جعل الله له ، ويقسم أربعة أخماس
بين من قاتل عليه وولى ذلك .

ويقسم بينهم الخمس على ستة أسهم : سهم لله ، و سهم لرسوله ، و سهم لذوي القربى
و سهم لليتامى ، و سهم للمساكين ، و سهم لأبناء السبيل فسهم الله و سهم رسوله لأولي الأمر
من بعد رسول الله و رائة فله ثلاثة أسهم : سهمان و رائة ، و سهم مقسوم له من الله فله نصف
الخمس كلاً ، و نصف الخمس الثاني بين أهل بيته : فسهم لیتاماهم ، و سهم لمساكينهم ، و
سهم لأبناء سبيلهم يقسم بينهم على الكتاب و السنة ما يستغنون به في سنتهم فإن فضل
منهم شيء فهو للوالي ، وإن عجز أو نقص عن استغنائهم كان على الوالي أن ينفق من عنده
ما يستغنون به ، و إنما صار عليه أن يموتهم لأن له ما فضل عنهم ، و إنما جعل الله هذا
الخمس خاصة لهم دون مساكين الناس و أبناء سبيلهم عوضاً لهم عن صدقات الناس تنزيهاً
من الله لقرباتهم من رسول الله صلى الله عليه و آله و كرامة من الله لهم من أوساخ الناس فجعل لهم خاصة
من عنده و ما يفنيهم به ، أن يصيرهم في موضع الذل و المسكنة ، ولا بأس بصدقة بعضهم
على بعض .

وهؤلاء الذين جعل الله لهم الخمس هم قرابة النبي صلى الله عليه و آله الذين ذكرهم الله فقال :

«وأندر عشيرتك الأقرين» وهم بنو عبد المطلب أنفسهم الذكر منهم والأُنثى ليس فيهم من أهل بيوتات قريش ولا من العرب أحد، ولا فيهم ولا منهم في هذا الخمس من مواليتهم، وقد تحل صدقات الناس لمواليهم، وهم والناس سواء.

ومن كانت أمته من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له، وليس له من الخمس شيء لأن الله يقول، «ادعوهم لآبائهم».

وفي التهذيب بإسناده عن علي بن مهزيار قال: قال لي علي بن راشد: قلت له: أمرتني بالقيام بأمرك وأخذ حقتك فأعلمت مواليك بذلك فقال لي بعضهم: وأي شيء حقه؟ فلم أدر ما أجيبه! فقال: يجب عليهم الخمس فقلت: ففي أي شيء؟ فقال: في أمتعتهم وضياعهم قلت: والتاجر عليه والصانع بيده؟ فقال: ذلك إذا أمكنهم بعد مؤنتهم.

وفيه بإسناده عن زكريا بن مالك الجعفي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قول الله: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» فقال: خمس الله عز وجل للإمام، وخمس الرسول للإمام، وخمس ذي القربى لقرابة الرسول للإمام، واليتامى يتامى آل الرسول، والمساكين منهم، وأبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم.

وفيه بإسناده عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال له إبراهيم ابن أبي البلاد: وجب عليك زكاة؟ قال: لا ولكن يفضل ونعطي هكذا، وسئل عن قول الله عز وجل: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى» فقيل له: فما كان لله فلمن هو؟ قال للرسول، وما كان للرسول فهو للإمام. قيل: أفرأيت إن كان صنف أكثر من صنف، وصنف أقل من صنف؟ فقال: ذلك للإمام. قيل: أفرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله كيف يصنع؟ قال: إنما كان يعطي على ما يرى هو، وكذلك الإمام.

أقول: والأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام متواترة في اختصاص الخمس بالله ورسوله والإمام من أهل بيته و يتامى قرابته ومساكينهم وأبناء سبيلهم لا يتعداهم إلى غيرهم، وأنه يقسم ستة أسهم على ما مر في الروايات، وأنه لا يختص بغنائم الحرب بل يعم

كل ما يسمى غنيمة لغته من أرباح المكاسب والكنوز والغوص والمعادن والملاحة ، وفي رواياتهم - كما تقدم - أن ذلك موهبة من الله لأهل البيت بما حرم عليهم الزكوات والصدقات .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذي القربى الذين ذكر الله فكتب إليه : إننا كنا نرى أمتهم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : ويقول لمن تراه ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو لقربى رسول الله ﷺ فسمه لهم رسول الله ﷺ .

وقد كان عمر رضي الله عنه عرض علينا من ذلك عرضاً رأينا أنه دون حقنا فرددناه عليه وأبيناه أن نقبله . وكان عرض عليهم أن يعيننا كحهم ، وأن يقضي عن غارمهم ، وأن يعطي فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك .

أقول وقوله : في الرواية : وقالوا ويقول لمن تراه ، معناه : قال الذين أرسلهم نجدة الحروري لابن عباس : ويقول نجدة لمن ترى الخمس أي يسألك عن فتواك فيمن يصرف إليه الخمس .

و قوله : هو لقربى رسول الله فسمها لهم الخ ظاهره أنه فسّر ذي القربى بأقرباء النبي ﷺ ، وظاهر الروايات السابقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم فسّروا ذي القربى بالإمام من أهل البيت ، وظاهر الآية يؤيد ذلك حيث عبّر بلفظ المفرد !

وفيه أخرج ابن المنذر عن عبدالرحمان بن أبي ليلى قال : سألت علياً رضي الله عنه فقالت : يا أمير المؤمنين أخبرني : كيف كان صنع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الخمس نصيبكم؟ فقال : أمّا أبو بكر رضي الله عنه فلم يكن في ولايته أخماس ، وأمّا عمر رضي الله عنه فلم يزل يدفعه إليّ في كل خمس حتى كان خمس السوس وجند نيسابور فقال وأنا عنده : هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس وقد أحلّ ببعض المسلمين واشتدّت حاجتهم . فقالت : نعم ، فوثب العباس بن عبدالمطلب فقال : لا تعرض في الذي لنا . فقالت : ألسنا من أرفق المسلمين ، وشفع أمير المؤمنين ، فقبضه فوالله ما قبضناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان رضي الله عنه .

ثم أنشأ علي رضي الله عنه يحدث فقال : إن الله حرّم الصدقة على رسوله ﷺ فعوضه سهماً من الخمس عوضاً مما حرّم عليه ، وحرّمها على أهل بيته خاصة دون أمته فضرب لهم مع رسول الله ﷺ سهماً عوضاً مما حرّم عليهم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : رغبت لكم عن غسالة الأيدي لأن لكم في خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم .

أقول : وهو مبني على كون سهم أهل البيت هو مالذي القربى فحسب .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قسم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى على بني هاشم وبني المطلب . قال : فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه فقلنا : يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بني هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم . رأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب ؟ فقال : إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام .

وفيه أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقیل .

أقول : والروايات في هذا الباب كثيرة من طرق أهل السنة وقد اختلفت الروايات الحاكية لعمل النبي ﷺ من طرقهم بين ما مضمونه أنه عليه السلام كان يقسم الخمس على أربعة أسهم و بين ما مضمونه التقسيم على خمسة أسهم .

غير أنه يقرب من المسلم فيها أن من سهام الخمس ما يختص بقراة النبي ﷺ وهم المعنيون ببني القربى في آية الخمس على خلاف ما في الروايات المروية عن أئمة أهل البيت ﷺ .

و مما يقرب من المسلم فيها أن النبي ﷺ كان يقسمه بين المطليبين مادام حياً ، وأنه انقطع عنهم على هذا الوصف في زمن الخلفاء الثلاث ثم جرى على ذلك الأمر بعدهم .

ومن المسلم فيها أيضاً أن الخمس يختص بغنائم الحرب - على خلاف ما عليه

الروايات من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام - ولا يتعدّها إلى كل ما يصدق عليه اسم الغنيمة لغة .

وما يتعلّق بالآية من محصل البحث التفسيريّ هو الذي قدّمناه وهناك أبحاث أخرى كلاميّة أوفقيّة خارجة عن غرضنا . وهناك بحث حقوقي اجتماعي في ما يؤثّره الخمس من الأثر في المجتمع الإسلاميّ سيوافيك في ضمن الكلام على الزكاة .

بقي الكلام فيما تتضمّنه الروايات أنّ الله سبحانه أراد بتشريع الخمس إكرام أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وأسرته وترفيعهم من أن يأخذوا أوساخ الناس في أموالهم ، والظاهر أنّ ذلك مأخوذ من قوله تعالى في آية الزكاة خطاباً لنبيه صلى الله عليه وآله : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم » التوبة : ١٠٣ فإنّ التطهير والتزكية إنّما يتعلّق بما لا يخلو من دنس ووسخ ونحوهما ولم يقع في آية الخمس ما يشعر بذلك .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزاق و ابن جرير عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالقتل في آي من القرآن فكان أوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله بدرأ ، و كان رئيس المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فالتقوا يوم الجمعة ببدر لسبع أو ست عشرة ليلة مضت من رمضان ، و أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث مائة و بضعة عشر رجلاً ، والمشركون بين الألف و التسعمائة ، و كان ذلك يوم الفرقان يوم فرق الله بين الحقّ والباطل فكان أوّل قتيل قتل يومئذ مهجع مولى عمر و رجل من الأنصار ، و هزم الله يومئذ المشركين فقتل منهم زيادة على سبعين رجلاً ، وأسر منهم مثل ذلك .

و فيه أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان .

أقول : و روى مثل ذلك عن ابن جرير عن الحسن بن عليّ و عن ابن أبي شيبه عن جعفر عن أبيه ، و أيضاً عنه عن أبي بكر بن عبدالرحمان بن هشام ، و عنه عن عامر بن ربيعة البديريّ مثله لكن فيه : كان يوم بدر يوم الاثنين لسبع عشرة من رمضان .

وربّما أطلق في بعض أخبار أئمة أهل البيت عليهم السلام على التسعة عشر من رمضان

يوم يلتقي الجمعان لماعد ليلته في أخبارهم من ليلة القدر ، وهذا معنى آخر غير ما أريد في الآية من « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » ففي تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان . قلت : مامعنى قوله : يلتقي الجمعان ؟ قال : يجتمع فيها ما يريد من تقديمه وتأخيرهِ وإرادته وقضائه .

و في تفسير العياشي عن محمد بن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « و الراكب أسفل منكم » قال : أبو سفيان وأصحابه .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حي عن بينة » الآية قال : قال : يعلم من بقي أن الله نصره .

و في الدر المنثور في قوله تعالى : « وإذ يريكوهم إذالتيتم » الآية أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لابل مائة .

وفيه في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذالتيتم » الخ أخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكره الصوت عندالقتال .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن النعمان بن مقرن رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان عند القتال لم يقاتل أول النهار ، وأخره إلى أن تزول الشمس و تهب الرياح وتنزل النصر .

و في تفسير البرهان في قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم » الآية بإسناده عن يحيى بن الحسن بن فرات قال : حدثنا أبوالمقدم ثعلبة بن زيد الأنصاري قال : سمعت جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري رحمه الله يقول : تمثل إبليس في أربع صور :

تمثل يوم بدر في صورة سراقبة بن مالك بن جعشم المدلجي فقال لقريش : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلمّا تراءت الفتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم .

وتصور يوم العقبة في صورة منبّه بن الحجاج فنادى : إن تتهدأ والصباة معه عند العقبة فأدر كوهم . قال رسول الله صلى الله عليه وآله للأَنْصار : لا تخافوا فإن صوتته لن يعده .

وتصوّر في يوم اجتماع قريش في دارالندوة في صورة شيخ من أهل نجد وأشار عليهم في أمرهم فأنزّل الله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرّجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وتصوّر في يوم قبض رسول الله ﷺ في صورة المغيرة بن شعبه فقال : أيها الناس لا تجعلوا كسروانية ولا قيصرانية . وسعوها تتسع فلا تردّوا إلى بني هاشم فينظر بها الجبالي .

وفي المجمع قيل : إنهم لما التقوا كان إبليس في صفّ المشركين أخذ بيده الحارث ابن هشام فنكص على عقبيه فقال له الحارث بن هشام : يا سراقة إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحالة ؟ فقال : إنني أرى ما لا ترون ؛ فقال : والله ما نرى إلا جعاميس يشرب فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهمز الناس .

فلما قدموا مكة قالوا : هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا : إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان . قال : وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : وروى مثله ابن شهر آشوب عنهما عليهما السلام ، وفي معنى هاتين الروايتين روايات كثيرة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره .

وقد مرّ في البيان المتقدم استبعاد بعض المفسرين ذلك وتضعيفه ما ورد فيه من الروايات ، وهي إنما تثبت أمراً ممكناً غير مستحيل ، والاستبعاد الخالي لا يبنى عليه في الأبحاث العلمية ، والتمثلات البرزخية ليست بشاذة نادرة فلا موجب للإصرار على النفي كما أن الإثبات كذلك غير أن ظاهر الآية أوفق للإثبات .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان » الآيتين أخرج ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق في قوله : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض » قال : هم الفئة الذين خرجوا مع قريش احتبسهم آباؤهم فخرجوا وهم على الارتياب فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غرّ هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوهم .

وهم فئة من قريش مسمون خمسة : فيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبوقيس بن الفاكه ابن المغيرة المخزوميان ، والحارث بن زمعة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبه .
أقول : وهذا يقبل الانطباق بوجه على قوله تعالى : « والذين في قلوبهم مرض ، فحسب ، وفي بعض التفسير أن القائل : « غر هؤلاء دينهم » هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض من أهل المدينة ، ولم يخرجوا مع النبي ﷺ ، وسياق الآية الظاهر في حضورهم وقولهم ذلك عند التقاء الفئتين يأبى ذلك .

وفي رواية أبي هريرة - على ما رواه في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط عنه - ما لفظه : وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر : « غر هؤلاء دينهم » فأنزل الله : « إن يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » . والذي ذكره لا ينطبق على الآية البتة فالقرآن الكريم لا يسمي المشركين منافقين ولا ، الذين في قلوبهم مرض .

وفي تفسير العياشي عن أبي علي المحمودي عن أبيه رفعه في قول الله : بضربون وجوههم وأدبارهم ، قال : إنما أراد أستاهم . إن الله كريم يكني .

وفي تفسير الصافي عن الكافي عن الصادق عليه السلام : أن الله بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه ، وأوحى إليه : أن قل لقومك : إنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتني فأصابهم فيها سرء فتحوّلوا عما أحب إلي ما أكره إلا تحوّل لهم عما يحبون إلي ما يكرهون ، وإنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحوّلوا عما أكره إلي ما أحب إلا تحوّل لهم عما يكرهون إلي ما يحبون .

وفيه أيضاً عنه عليه السلام أنه قال : كان أبي يقول : إن الله عز وجل قضى قضاءً حتماً : لا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النعمة .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ
 مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَمَا تَقْفَنَّهُمْ فِي
 الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً
 فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 سَبَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
 الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ . اللَّهُ
 يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)
 وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ
 يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)
 وَاللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) أَلَمْ تَنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ
 مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) .

﴿ بيان ﴾

أحكام ودستورات في الحرب والسلم والمعاهدات ونقضها وغير ذلك ، وصدر الآيات يقبل الانطباق على طوائف اليهود التي كانت في المدينة وحولها وقد كان النبي ﷺ عاهدهم بعد هجرته إلى المدينة أن لا يضرّوه ولا يغدروا به ولا يعينوا عليه عدوًّا ويقرّوا على دينهم ويأمنوا في أنفسهم فنقضوا العهد نقضاً بعد نقض حتى أمر الله سبحانه بقتالهم قال أمرهم إلى ما آل إليه ، وسيجيء بعض أخبارهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

و على هذا فالآيات الأربع الأولى نازلة مع ما سبقها من الآيات ولا متصلة بها كما يعطيه سياقها وأما السبع الباقية فليست بواضحة الاتصال بما قبلها من الآيات الأربع ولا بما قبل ما قبلها .

قوله تعالى : « إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شرّ جميع الموجودات الحيّة من غير شك في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله : « عند الله » من الدلالة عليه فإنّ معناه الحكم ؛ وما يحكمه ويقضي به الله سبحانه لا يتطرق إليه خطأ وقد قال تعالى : « لا يضلّ ربّي ولا ينسى » طه : ٥٢ .

وقد افتتح هذه القطعة من الكلام المتعلّق بهم بكونهم شرّ الدوابّ عنده لأن مغزى الكلام التحرّز منهم ودفعهم ، ومن المفروض في الطباع أنّ الشرّ الذي لا يرجى معه خير يجب دفعه بأيّ وسيلة صحّت وأمكنّت فناسب ما سيأمره في حقهم بقوله : « فأما تثقنّهم في الحرب فشرّ دّ بهم من خلفهم » الخ الافتتاح ببيان كونهم شرّ الدوابّ .

وعقب قوله : « الذين كفروا » بقوله : « فهم لا يؤمنون » مبتدأ بقاء التفرّيع أي إنّ من وصفهم الذي يتفرّع على كفرهم أنّهم لا يؤمنون ، ولا يتفرّع عدم الإيمان على الكفر إلا إذا رسخ في النفس رسوخاً لا يرجى معه زواله فلامطمع حينئذ في دخول الإيمان في قلب هذا شأنه لمكان المضادة التي بين الكفر والإيمان .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بقوله : « الذين كفروا » الذين ثبتوا على الكفر ، وعند هذا

يرجع معنى هذه الآية إلى نظيرتها السابقة : « إن شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون و لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم و لو أسمعهم لتوآوا و هم معرضون » الأنفال : ٢٣ .

على أنّ الآيتين لما دلّتا على حصر الشرّ عند الله في طائفة معبّنة من الدوابّ كانت الآية الأولى مع دلالتها على كون أهلها ممن لا يؤمنون البتّة دالة على أنّ المراد بقوله في الآية الثانية : « الذين كفروا فهم لا يؤمنون » كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتّة .

قوله تعالى : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كلّ مرّة وهم لا يتّقون » بيان للذين كفروا في الآية السابقة أو بدل منهم بدل البعض من الكلّ ، و يتفرّع عليه أنّ « من » في قوله : « منهم » تبعيضية والمعنى : الذين عاهدتهم من بين الذين كفروا ، وأمّا احتمال أن يكون من زائدة والمعنى : الذين عاهدتهم ، أو بمعنى مع والمعنى : الذين عاهدت معهم : فليس بشيء .

والمراد بكلّ مرّة مرّات المعاهدة أي ينقضون عهدهم في كلّ مرّة عاهدتهم وهم لا يتّقون الله في نقض العهد أو لا يتّقونكم ولا يخافون نقض عهدكم ، وفيه دلالة على تكرّر النقض منهم .

قوله تعالى : « فأما تثقّفنّهم في الحرب فشرّ دبتهم من خلفهم لعلّهم يذكّرون » قال في المجمع الثقف الظفر والإدراك بسرعة ، و التشريد التفريق على اضطراب . انتهى ، وقوله : « فأما تثقّفنّهم » أصله إن تثقّفهم دخل « ما » التأكيد على إن الشرطيّة ليصحّح دخول نون التأكيد على الشرط والكلام مسوق للتأكيد في ضمن الشرط .

والمراد بتشريد من خلفهم بهم أن يفعل بهم من التنكيل والتشديد ما يعتبر به من خلفهم ، ويستولي الرعب والخوف على قلوبهم فيتفرّقوا وينحلّ عقد عزمهم واتّحاد إرادتهم على قتال المؤمنين وإبطال كلمة الحقّ .

وعلى هذا فالمراد بقوله : « لعلّهم يذكّرون » رجاء أن يتذكّروا ما لنقض العهد و الإفساد في الأرض والمحادّة مع كلمة الحقّ من التبعة السيئة والعاقبة المشؤومة فإنّ الله

لا يهدي القوم الفاسقين وإن الله لا يهدي كيد الخائنين .

ففي الآية إيماء إلى الأمر بقتالهم ثم التشديد عليهم والتنكيل بهم عند الظفر بهم وتفهم ، وإيماء إلى أن وراءهم من حاله حالهم في نقض العهد وتربص الدوائر على الحق وأهله .

قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » الخيانة - على ما في المجمع - نقض العهد فيما يؤتمن عليه ، وهذا معنى الخيانة في العهود والمواثيق ، وأما الخيانة بمعناها العام فهي نقض ما أُبرم من الحق في عهد أو أمانة ، والنبذ هو الإلقاء ومنه قوله : « فنبذوه وراء ظهورهم » آل عمران ١٨٧ و السواء بمعنى الاستواء والعدل .

وقوله : « وإما تخافن » كقوله في الآية السابقة : « فإما تثقفنهم » ومعنى الخوف ظهور أمارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه والحذر عنه وقوله : « إن الله لا يحب الخائنين » تعليل لقوله : « فانبذ إليهم على سواء » .

ومعنى الآية : « وإن خفت من قوم بينك وبينهم عهد أن يخونوك و ينقضوا عهدهم ولاحت آثار دالة على ذلك فانبذ وألق إليهم عهدهم وأعلمهم إلغاء العهد ليكونوا أنتم وهم على استواء من نقض العهد أو تكون مستوياً على عدل فإن من العدل المعاملة بالمثل والسواء لأنك إن قاتلتهم بغير إعلام إلغاء العهد كان ذلك منك خيانة والله لا يحب الخائنين .

وملخص الآيتين دستوران إلهيان في قتال الذين لا عهد لهم بالنقض أو بخوفه فإن كان أهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه في كل مرة فعلى ولي الأمر أن يقاتلهم ويشدد عليهم ، وإن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم ولا وثوق بعهدهم فيعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون ولا يبدء بقتالهم قبل الإعلام فإنما ذلك خيانة ، وأما إن كانوا عاهدوا ولم ينقضوا ولم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم واحترام عقدهم وقد قال تعالى : « فآتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم » التوبة : ٤ . وقال : « أو فوا بالعقود » المائدة : ١ .

قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون » القراءة المشهورة « تحسبن » بناء الخطاب ، وهو خطاب للنبي ﷺ تطيباً لنفسه وتقوية لقلبه كالخطاب

الآتي بعد عدة آيات : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ، وكالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال » .

والسبق تقدم الشيء على طالب اللحق به ، والإعجاز إيجاد العجز ، وقوله : « إنهم لا يعجزون » ، تعليل لقوله : « ولا تحسبن » ، الخ والمعنى : يا أيها النبي لا تحسبن أن الذين كفروا سبقونا فلاندركمهم ، لأنهم لا يعجزون الله وله القدرة على كل شيء .

قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » . إلى آخر الآيات الإعداد تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وإيجاد ما يحتاج إليه الشيء المطلوب في تحققه كأعداد الحطب والقود للإيقاد وإعداد الإيقاد للطبخ ، والقوة كل ما يمكن معه عمل من الأعمال ، وهي في الحرب كل ما يتمشى به الحرب والدفاع من أنواع الأسلحة ، والرجال المدربين والمعاهد الحربية التي تقوم بمصلحة ذلك كله ، والرباط مبالغة في الربط وهو أيسر من العقد يقال : ربطه يربطه ربطاً وربطاً وربطه يربطه مرابطة ورباطاً فالكل بمعنى غير أن الرباط أبلغ من الربط ، والخيل هو الفرس ، والإرهاب قريب المعنى من التخويف .

وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » أمر عام بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون إليه قبال ما لهم من الأعداء في الوجود أو في الفرض والاعتبار فإن المجتمع الإنساني لا يخلو من التآلف من أفراد أو أقوام مختلفي الطباع ومتضادي الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنة قيمة بمنافعهم إلا وهناك مجتمع آخر يضاده في منافعه ، ويخالفه في سنته ، ولا يعيشان معاً برهة من الدهر إلا وينشب بينهما الخلاف ويؤدي ذلك إلى التغلب والقهر .

فالحروب المبيدة والاختلافات الداعية إليها مما لامناص عنها في المجتمعات الإنسانية والمجتمعات هي هذه المجتمعات ، ويدل على ذلك ما نشاهده من تجهيز الإنسان في خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب والشدة في الأبدان ، والفكر العامل في القهر والغلبة ، فمن الواجب الفطري على المجتمع الإسلامي أن يتجهز دائماً بإعداد ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو مجتمعه الصالح .

و الذي اختاره الله للمجتمع الإسلامي بما أنزل عليهم من الدين الفطري الذي

هو الدين القيم هي الحكومة الإنسانية التي يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، ويراعى فيها مصلحة الضعيف والقوي والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكل على حد سواء دون الحكومة الفردية الاستبدادية التي لا تيسر إلا على ما تهواه نفس الفرد المتولّي لها الحاكم في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بما شاء وأراد ، ولا الحكومة الأكثرية التي تطابق أهواء الجمهور من الناس وتبطل منافع آخرين وترضي الأكثرين (النصف + واحد) وتضطهد وتسخط الأقلين (النصف - واحد) .

ولعلّ هذا هو السرّ في قوله تعالى : «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة» حيث وجّه الخطاب إلى الناس بعدما كان الخطاب في الآيات السابقة موجّهاً إلى النبي ﷺ كقوله : «فإما تتقنّتهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم» وقوله : «فانبذ إليهم على سواء» وقوله : «ولا تحسبنّ الذين كفروا سبقوا» وكذا في الآيات التالية كقوله : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» إلى غير ذلك .

وذلك أنّ الحكومة الإسلامية حكومة إنسانية بمعنى مراعاة حقوق كل فرد وتعظيم إرادة البعض واحترام جانبه أي من كان من غير اختصاص الإرادة المؤثّرة بفرد واحد أو بأكثر الأفراد .

فالمنافع التي يهددها عدوّهم هي منافع كل فرد فعلى كل فرد أن يقوم بالذبح عنها ، ويعدّ ما استطاع من قوّة لحفظها من الضيعة ، والإعداد وإن كان منهما لا يقوم بأمره إلا الحكومات بما لها من الاستطاعة القويّة والإمكانات البالغة لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديتهم كتعلّم العلوم الحربيّة والتدرّب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع .

وقوله تعالى : «ترهبون به عدو الله و عدوكم و آخريّن من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» في مقام التعليل لقوله : «وأعدّوا لهم» أي وأعدّوا لهم ذلك لترهبوا و تخوّفوا به عدو الله و عدوكم ، وفي عدوّهم عدو الله ولهم جميعاً بيان للواقع و تأكيد في التحريض .

وفي قوله : «وآخريّن من دونهم لا تعلمونهم» دلالة على أن المراد بالأوّلين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله ولهم ، والمراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون - على ما يعطيه إطلاق اللفظ - كل من لاخبرة للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم

في كسوة المؤمنين وصورتهم يصلون ويصومون ويحجّون ويجاهدون ظاهراً ، ومن غير المنافقين من الكفار الذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد .

والإرهاب بإعداد القوة ، وإن كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تفرّغ عليها فوائد عظيمة ظاهرة غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوة ، ولذلك أوردته بقوله : « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، ليدل على جماع الغرض .

وذلك أن الغرض الحقيقي من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة ، وحفظ المجتمع من العدو الذي يهدده في نفوسه وأعراضه وأمواله ، وباللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائرة الفساد الذي يبطل كلمة الحق ويهدم بنيان دين الفطرة الذي به يعبد الله في أرضه ويقوم ملاك العدل في عبادته .

وهذا أمر ينتفع به كل فرد من أفراد المجتمع الديني فما أنفقه فرد أو جماعة في سبيل الله ، وهو الجهاد لإحياء أمره فهو بعينه يرجع إلى نفسه وإن كان في صورة أخرى فإن أنفق في سبيله مالا أو جاهاً أو أي نعمة من هذا القبيل فهو من الإنفاق في سبيل الضروريات الذي لا يلبث دون أن يرجع إليه نفسه نفعه وما استعقبه من نماء في الدنيا والآخرة ، وإن أنفق في سبيله نفساً فهو الشهادة في سبيل الله التي تستتبع حياة باقية خالدة حقة مثلها فليعمل العاملون لا كما يفرّبه آحاد الفادين في سبيل المقاصد الدنيوية ببقاء الاسم وخلود الذكر وتمام الفخر فهؤلاء وإن تنبّهوا اليوم لهذا التعليم الإسلامي ، وأن المجتمع كنفس واحدة تشترك أعضاؤها فيما يعود إليها من نفع وضرر لكنّهم خبطوا في مسيرهم و اشتبه عليهم الأمر في تشخيص الكمال الإنساني الذي لأجله تندبه الفطرة وتدعوه إلى الاجتماع ، وهو التمتع من الحياة الدائمة ، فحسبوه الحياة الدنيا الدائرة فضاقت عليهم المسلك في أمثال التفدية بالنفس لأجل تمتع الغير بلذائذ المادة .

و بالجملة فأعداد القوة إنما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الإسلامي ومنافعه الحيوية ، والتظاهر بالقوة المعدة ينتج إرهاب العدو ، وهو أيضاً من شعب الدفع ونوع معه ، فقوله تعالى : « ترهبون به عدو الله » الخ يذكر فائدة من فوائد الإعداد الراجعة

إلى أفراد المجتمع ، وقوله : «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» يذكر أن ما أنفقوه في سبيله لا يبطل ولا يفوت بل يرجع إليهم من غير أن يفوت عن ذي حق حقه .

وهذا أعني قوله : «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله الخ أعم فائدة من مثل قوله : «وما تنفقوا من خير يوف إليكم» البقرة : ٢٧٢ فإن الخير منصرف إلى المال فلا يشمل النفس بخلاف قوله ههنا : «وما تنفقوا من شيء» .

قوله تعالى : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم» في المجمع : الجنوح الميل ، ومنه جناح الطائر لأنه يميل به في أحد شقيه ، ولا جناح عليه أي لا ميل إلى مأثم . انتهى ، والسلم بفتح السين وكسرها الصلح .

وقوله : «وتوكل على الله» من تمتع الأمر بالجنوح فالجميع في معنى أمر واحد ، والمعنى : وإن مالوا إلى الصلح والمسامحة فمل إليها وتوكل في ذلك على الله ولا تخف من أن يضطهدك أسباب خفية عنك على غفلة منك و عدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفل سبب ولا يعجزه مكر بل ينصرك ويكفيك وهذا هو الذي يثبتته قوله في الآية التالية «وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله» .

وقد تقدم فيما أسلفناه من معنى التوكل على الله أنه ليس اعتماداً عليه سبحانه بل لقاء الأسباب الظاهرية بل سلب الاعتماد القطعي على الأسباب الظاهرية لأن الذي يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها ، والسبب التام الذي لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذي يحمل إرادته سبحانه .

فالتوكل هو توجيه الثقة والاعتماد إلى الله سبحانه الذي بمشيئته يدور رحى الأسباب عامة ، ولا ينافيه أن يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللاحقة عليه من غير أن يلغى شيئاً منها فيركب مطية الجهل .

قوله تعالى : «وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين» الآية متصلة بما قبلها وهي بمنزلة دفع الدخل ، وذلك أن الله سبحانه لما أمر نبيه ﷺ بالجنوح للسلم إن جنحوا له ولم يرض بالخدعة لأنها من الخيانة في

حقوق المعاشرة والمواصلة للعامة والله لا يحب الخائنين كان أمره بالجنوح المذكور مظنة سؤال وهو أن من الجائز أن يكون جنوحهم للمسلم خديعة منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم في شرائط وأحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأننا أمرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك أن يخدعوك فإن حسبك الله وقد قال تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره » .

وهذا مما يدل على أن هناك أسباباً وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعية العادية تجري على ما يوافق صلاح العبد المتوكل إذا خاتته الأسباب الطبيعية العادية ولم تساعده على مطلوبه الحق .

وقوله : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين » بمنزلة الاحتجاج على قوله : « فإن حسبك الله » بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى وهي أنه أيدته بنصره وأيده بالمؤمنين وألف بين قلوبهم وهي شيء متباغضة .

قوله تعالى : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله آلف بينهم » الخ قال الراغب : الألف اجتماع مع التيام يقال : ألفت بينهم ، ومنه الألفة ، ويقال : للمألوف ألف وآلف قال تعالى : « إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » انتهى .

أورد سبحانه في جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه أنه كفى نبيه ﷺ بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم ، والكلام مطلق والملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين وإن كانت الآية أظهر انطباقاً على الأنصار حيث أيد الله بهم نبيه ﷺ فأووه ونصروه وآلف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم وقد نشبت فيهم الحروب المبيدة وكانت قائمة على ساقها دهرأ طويلاً وهي حرب « بغاث » بين الأوس والخزرج حتى اصطالحوا بنزول الإسلام في دارهم وأصبحوا بنعمته إخواناً .

وقد امتن الله بتأليفه بين قلوب المسلمين في مواضع من كلامه وبين أهمية موقعه بمثل قوله : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله آلف بينهم إنه عزيز حكيم » .

وذلك أن الإنسان مغطور على حبّ النعم الحيويّة التي تتمّ بها حياته لا بغية له دونها ولا يريد في الحقيقة شيئاً ولا يقصده إلا لينتفع به في نفسه وما ربّما يلوح أنه يريد نفعاً عائداً إلى غيره فالتأمّل الدقيق يكشف عن اشتماله على نفع عائِد إليه نفسه ، وإذ كان يحبّ الوجدان فهو يبغض فقدان .

وبهذين الوصفين الغريزيّين أعنى الحبّ والبغض يتمّ له أمر الحياة ولو أنه أحبّ كلّ شيء ومنها الأضداد والمتناقضات لبطلت الحياة ولو أنه أبغض كلّ شيء حتّى المتناقضات لبطلت الحياة ، وقد فطره الله سبحانه على الحياة الاجتماعيّة ؛ لقصور ما عنده من القوى والأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج إليه من ضروريّات حياته ومن الضروريّ أن الاجتماع لا يتمّ إلا باختصاص كلّ فرد بما يحرم عنه آخرون من مال أو جاه أو زينة أو جمال أو كلّ ما يتنافس فيه الطباع الإنسانيّ أو يتعلّق به الهوى النفسانيّ على اختلاف فيه بالزيادة والنقيصة .

وهذا أوّل ما يودع أنواع العداوة والبغضاء في القلوب والشحّ في النفوس ثمّ ما ينبسط بينهم من وجوه الحرمان بالظلم والعدوان وبغي البعض على البعض في دم أو عرض أو مال أو غير ذلك ممّا يتنعمون به ويتنافسون فيه ويعملون لأجله ، تثير في داخل نفوسهم كلّ بغضاء وشنآن .

وهذا كلّهُ أوصاف وغمائر باطنيّة في الجماعة لا تلبث دون أن تظهر في أعمالهم و تتلافى في أفعالهم ويتماسّ بعضها بعضاً بينهم في مسير حياتهم وفي البلوى التي تتعقب الفتن والمصائب الاجتماعيّة التي تميد النفوس وتمهلك الحرث والنسل ، وقد شهدت بذلك الحوادث الجارية على توالي القرون والأجيال .

ومهما ظننت الأمم المجتمعّة أن بغيتها في اجتماعها هي التمتعّ من العيشة الماديّة المحدودة بالحياة الدنيويّة فلا سبيل إلى قلع مادّة هذا النساد من أصلها وقطع منابته فإنّ الدار دار التراحم ، والمجتمع قائم على قاعدة الاختصاص ، والنفوس مختلفة في الاستعداد ، والحوادث الواقعة والعوامل المؤثرة والأحوال الخارجة دخيلة في معاشهم وحياتهم .

قال تعالى : إنّ الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشرّ جزوعاً وإذا مسّه الخير

منوعاً ، المعارج : ٢١ ، وقال : « إن النفس لأماراة بالسوء ، يوسف : ٥٣ ، وقال : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، هود : ١١٩ ، إلى غير ذلك من الآيات .

وغاية ما يمكن للإنسان في بسط الألفة وإرضاء القلوب المشحونة بالعداوة والبغضاء أن يقنعهم أو يسكتهم ببذل ما يحبون من مال أو جاه أو سائر النعم الدنيوية المحبوبة عندهم غير أنه إنما ينفع في موارد جزئية خاصة ، وأما العداوة و البغضاء العامتان فلا سبيل إلى إزالتها عن القلوب ببذل النعمة فإنه لا يبطل غريزة الاستزادة والشح الملتب في كل نفس بما يشاهد من المزايا الحيوية عند غيره .

على أن من النعم ما لا يقبل إلا الاختصاص والانفراد كالملك والرئاسة العالية وأمور أخرى تجري مجراها حتى أن الأمم الراقية ذوي المدنية والحضارة لم يتمكنوا من معالجة هذا الداء إلا بما يزول به بعض شدته ، ويستريح جثمان المجتمع من بعض عذابه ، وأما البغضات المتعلقة بالأموال التي تختص به بعض مجتمعات كالرئاسة والملك فهي على حالها تتسدد بشررها القلوب ولا يزال يأكل بعضها بعضاً .

على أن ذلك ينحصر فيما بينهم وأما المجتمعات الخارجة من مجتمعهم فلا يعاب بحالهم ولا يعتنى من منافعهم الحيوية إلا بما يوافق منافع أولئك وإن أعيتهم طوارق البلاء وعفاهم الدهر بالعناء .

وقد من الله على الأمة الإسلامية إذ أزال الشح عن نفوسهم وألّف بين قلوبهم بمعرفة إلهيته علمه إياهم وبشّه فيما بينهم ببيان أن الحياة الإنسانية حياة خالدة غير محصورة في هذه الأيام القلائل التي سيفنى ويبقى الإنسان ولا خبر عنها ، وأن سعادة هذه الحياة الدائمة غير المتمتع بلذائذ المادة والرعي في كلال الخسة بل هي حياة واقعية وعيشة حقيقية يحيى ويعيش بها الإنسان في كرامة عبودية الله سبحانه ، ويتنعم بنعم القرب والزلفى ثم يتمتع بما تيسر له من متاع الحياة الدنيا مما ساقه إليه الحظ أو الاكتساب عارفاً بحقوق النعمة ثم ينتقل إلى جوار الله ويدخل دار رضوانه ويخالط هناك الصالحين من عباده ، و يحيى حق الحياة قال تعالى : « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع »

الرعد : ٢٦ ، وقال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي
الحيوان لو كانوا يعلمون ، العنكبوت : ٦٤ وقال : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد
إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم
بمن اهتدى ، النجم : ٣٠ .

فعلى المسلم أن يؤمن بربه ويتربى بتربيته ، ويعزم عزمه ويجمع بغيته على ما عند
ربه فإنما هو عبد مدبر لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ومن كان هذا
وصفه لم يكن له شغل إلا بربه الذي بيده الخير والشر والنفع والضر والغنى والفقر
والموت والحياة ، وكان عليه أن يسير مسير الحياة بالعلم النافع والعمل الصالح فما سعد
به من مزايا الحياة الدنيا فموهبة من عند ربه ، وما حرم منه احتسب عند ربه أجره ، وما
عند الله خير وأبقى .

وليس هذا من إلقاء الأسباب في شيء ولا إبطالاً للفطرة الإنسانية الداعية إلى العمل
والاكتساب ، المتأدية إلى التوسل بالفكر والإرادة ، المحرصة إلى الاجتهاد في تنظيم العوامل
والعلل ، الموصلة إلى المقاصد الإنسانية والأغراض الصحيحة الحيوية فقد فصلنا القول في
توضيح ذلك في موارد متفرقة من هذا الكتاب .

وإذا تسنن المسلمون بهذه السنة الإلهية ، وحوّلوا هوى قلوبهم عن ذلك التمتع
المادّي الذي ليس إلا بغية حيوانية وغرضاً مادياً إلى هذا التمتع المعنوي الذي لا
تزاحم فيه ولا حرمان عنده ، ارتفعت عن قلوبهم العداوة والبغضاء ، وخلصت نفوسهم من الشح
والرین ، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وأفلحوا حق الفلاح قال : « يا أيها الذين آمنوا
اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا
وإذ كروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، آل
عمران : ١٠٣ وقال : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » الحشر : ٩ .

قوله تعالى : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » تطيب لنفس
النبي ﷺ ، وقد قال تعالى قبله : « فإن حسبك الله هو الذي أيديكم بنصره وبالمؤمنين »
فالمراد - والله أعلم - يكفيك الله بنصره وبمن اتبعك من المؤمنين ، وليس المراد أن هناك

سبعين كافرين أو سبباً كافياً ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كافٍ فالتوحيد القرآني^١ يأبى ذلك .

وربما قيل : إنَّ المعنى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله : « من اتبعك » على موضع الكاف من حسبك .

والكلام على أيِّ حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيدُه السياق والقرائن الخارجة فإنَّ تأثير المؤمنين في كفايتهم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو في القتال على ما يسبق إلى الذهن .

وذكر بعضهم : أنَّ الآية نزلت بالبيداء قبل غزوة بدر ، وعلى هذا لا اتصال لها بما بعدها ، وأما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به .

قوله تعالى : « يا أيها النبي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ » إلى آخر الآية . التحريض والتحضيض والترغيب والحض والحث بمعنى والفقهاء أبلغ وأغزر من الفهم ، وقوله : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » أي من الذين كفروا كما قيّد به الألف بعداً ، وكذلك قوله : « وإن يكن منكم مائة » أي مائة صابرة كما قيّد بها « عشرون » قبلاً .

وقوله : « بأنهم قوم لا يفقهون » الباء للسببية أو الآلة ، والجملة تعليلية متعلّقة بقوله : « يغلبوا » أي عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا ؛ ومائة صابرة منكم يغلبون ألفاً من الذين كفروا كل ذلك بسبب أنَّ الكفار قوم لا يفقهون . وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين هو الذي أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرين من هؤلاء المائتين من أولئك على ما بني عليه الحكم في الآية فإنَّ المؤمنين إنما يقدمون فيما يقدمون عن إيمان بالله وهو القوة التي لا يعادله ولا يقاومه أي قوة أخرى لا يقتناه على الفقه الصحيح الذي يوصفهم بكلِّ سجيّة نفسانية فاضلة كالشجاعة والشهامة والجرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثقة بالله واليقين بأنّه على إحدى الحسنين إن قتل ففي

الجنة وإن قتل في الجنة ، وأن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار وهو الفناء لا مصداق له .

وأما الكفار فإنما اتكأهم على هوى النفس ، واعتمادهم على ظاهر ما يسوِّله لهم الشيطان ، والنفوس المعتمدة على أهوائها لا تتفق للغاية وإن اتفقت أحياناً فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذي يراه فناء ، وما أندر ما تثبتت النفس على هواها حتى حال ما تهتد بالموت وهي على استقامة من الفكر بل تميل بأذى ربح مخالف ، وخاصة في المخاوف العامة والمهاول الشاملة كما أثبتته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر وهم ألف بقتل سبعين منهم ، ونسبة السبعين إلى الألف قريبة من نسبة الواحد إلى أربعة عشر فكان انهزامهم في معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلاً من مقاتل واحد ، وليس ذلك إلا لفقته المؤمنين الذي يستصحب العلم والإيمان ، وجهل الكفار الذي يلازمه الكفر والهوى .

قوله تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم ألف صابر يغلبوا ألفين من الذين كفروا على وزان ما مرت في الآية السابقة .

وقوله : « وعلم أن فيكم ضعفاً » المراد به الضعف في الصفات الروحية ولا محالة ينتهي إلى الإيمان فإن الإيقان بالحق هو الذي ينبعث عنه جميع السجايا الحسنة الموجبة للفتح والظفر كالشجاعة والصبر والرأي المصيب وأما الضعف من حيث العدة والقوة فمن الضروري أن المؤمنين لم يزالوا يزيدون عدة وقوة في زمن النبي ﷺ .

وقوله : « بإذن الله » تقييد لقوله : « يغلبوا » أي إن الله لا يشاء خلافه والحال أنكم مؤمنون صابرون ، وبذلك يظهر أن قوله : « والله مع الصابرين » يفيد فائدة التعليل بالنسبة إلى الإذن .

وقوله تعالى في الآية السابقة تعليلاً للحكم : « بأنهم قوم لا يفقهون » وكذا في هذه الآية : « وعلم أن فيكم ضعفاً » « والله مع الصابرين » وعدم الفقه والضعف الروحي والصبر من العلة والأسباب الخارجية المؤثرة في الغلبة والظفر والفوز بلا شك يدل على أن الحكم في الآيتين مبني على ما اعتبر من الأوصاف الروحية في الفئتين : المؤمنين والكفار ،

وأن القوى الداخلة الروحية التي اعتبرت في الآية الأولى ما في المؤمن الواحد منها غالبية على القوى الداخلة الروحية في عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير إليه بقوله : « الآن خفف الله عنكم » لا يربو ما في المؤمن الواحد منها - من متوسطي المؤمنين - إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوة من أثرها بنسبة الثمانين في المائة ، وتبدلت العشرون والمئتان في الآية الأولى إلى المائة والمائتين في الآية الثانية ، و المائة والألف في الأولى إلى الألف والألفين في الثانية .

والبحث الدقيق في العوامل المولدة للسجايا النفسانية بحسب الأحوال الطارئة على الإنسان في المجتمعات يهدي إلى ذلك فإن المجتمعات المنزلية والأحزاب المنعقدة في سبيل غرض من الأغراض الحيوية دنيوية أو دينية في أول تكوّنها ونشأتها تحسّن بالموانع المضادة والمحن الهادمة لبنينها من كل جانب فتتنبه قواها الدافعة للجهاد في سبيل هدفها المشروع عندها ، ويستيقظ ما نامت من نفسانياتها للتحذّر من المكارم والتفدية في طريق مطلوبها بالمال والنفس .

ولا تزال تجاهد وتفدي ليلها ونهارها ، وتتقوى وتتقدم حتى تمهد لنفسها حياة فيها بعض الاستقلال ، و يصفولها الجوّ بعض الصفاء ويكثر جمعها ويضرب بجرّ أنها الأرض أخذت بالاستفادة عن فوائد جهدها و التنعم بنعمة الراحة ، والتوسع في متسع الأمان ، وشرعت القوى الروحية الباسطة الباعثة للعمل في الخمود .

على أن المجتمع وإن قلّت أفراده لا يخلو من اختلاف في الإيمان ، والسجايا الروحية الجميلة من قوى فيها ضعيف ، وكلّما كثرت الأفراد ازداد ضعفاء الإيمان والذين في قلوبهم مرض والمنافقون فتنزّلت القوى الروحية في الفرد المتوسط وارتفعت كفة الميزان عمداً كانت عليه من الثقل .

والجماعات الدينية والأحزاب الدنيوية في ذلك على السواء والسنة الطبيعية الجارية في النظام الإنساني تجري على الجميع على نسق واحد ، وقد أثبتت التجربة القطعية أن المجتمعات المؤتلفة لغرض هامّ كلّما قلّت أفرادها وقويت رقبائها ومزاجها ، وأحاطت بها المحن والغتن كانت أكثر نشاطاً للعمل وأحد في الأثر وكلّما كثرت أفرادها وقلّت مزاجاتها

والموانع الحائلة بينها وبين مقاصدها ومطالبها كانت أكثر خموداً وأقل تيقظاً وأسفه حليماً .
 والتدبر الكافي في مغازي النبي ﷺ ينور ذلك فهذه غزوة بدر غلب فيها المسلمون
 وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً على ما بهم من رثالة الحال وقلة العدة وفقد السلاح والقوة كفار
 قريش وهم يعدلون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون على ما لهم من العزة والشوكة والقوة
 ثم ماجرى على المسلمين في غزوة أحد ثم في غزوة الخندق ثم في غزوة خيبر ثم في غزوة
 حنين وهي أعجبها وقد ذكرها الله سبحانه بما لا يبقى لباحث ريباً في ذلك إذ قال : « و يوم
 حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئاً و ضاقت الأرض بما رحبت ثم و ليتم
 مدبرين » إلى آخر الآيات .

فآية تدلّ أولاً على أن الإسلام كان كلما زاد في زمن النبي ﷺ عزّة وشوكة
 ظاهرة زادت نقصاً وخموداً في قوى المسلمين الروحية العامة ودرجة إيمانهم وسجاياهم
 الجميلة النفسانية المعنوية باطنياً حتى استقرت بعد غزوة بدر - بقليل أو كثير - على خمس
 ما كانت عليه قبلها كما يشير إليه بعض الإشارات قوله تعالى في الآيات التالية : « ما كان لنبي
 أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز
 حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » الآيات

و ثانياً : أن الظاهر أن الآيتين نزلتا دفعة واحدة فإيهما وإن كانتا تخبران عن
 حال المؤمنين في زمانين مختلفين كما يشير إليه قوله في الآية الثانية : « الآن خفف الله عنكم »
 لكن الآيتين تقيسان كما مرّ طبع قوى المؤمنين الروحية في زمانين مختلفين ، وسياق الثانية
 بالنظر إلى هذا القياس بحيث لا يستقلّ عن الأولى ، ووجود حكيمين مختلفين في زمانين
 لاوجب أن ينزل الآية المتضمنة لأحدهما في زمان غير زمان نزول الأخرى المتضمنة
 للآخر .

نعم لو كانت الآيتان مقصورتين في بيان الحكم التكليفي فحسب كان الظاهر نزول
 الثانية بعد زمان نزلت فيه الأولى .

وثالثاً : أن ظاهر قوله تعالى : « الآن خفف الله عنكم » كما قيل كون الآيتين
 مسوقتين لبيان الحكم التكليفي لأن التخفيف لا يكون إلا بعد التكليف فاللفظ لفظ الخبر

والمراد به الأمر ومحصل المراد في الآية الأولى : ليثبت الواحد منكم للعشرة من الكفار وفي الآية الثانية : الآن خفف الله في أمره فليثبت الواحد منكم للآيتين من الكفار .
واختصاص التخفيف بباب التكليف - كما قيل - وإن أمكنت المناقشة فيه لكن ظهور الآيتين في وجود حكمين مختلفين مترتبين بحسب الزمان أحدهما أخف من الآخر لا ينبغي الارتباب فيه .

ورابعاً : أن ظاهر التعليل في الآية الأولى بالفقه ، وفي الآية الثانية بالصبر مع تقييد المقاتل من المؤمنين في الآيتين جميعاً بالصبر يدل على أن الصبر يرجح الواحد في قوة الروح على مثليه ، والفقه يرجحه فيها على خمسة أمثاله فإذا اجتمعا في واحد يرجح على عشرة أمثاله نفسه ، والصبر لا يفارق الفقه وإن جاز العكس .
وخامساً : أن الصبر واجب في القتال على أي حال .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير البيضاوي في قوله تعالى : «الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة» هم يهود بني قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالؤوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا : نسينا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق ، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم .

أقول : وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد ، وروي عن سعيد بن جبير أن الآية نزلت في سنة رھط من اليهود منهم ابن تابوت . وإيضاح ما تشير إليه الآية من نقض اليهود ميثاق النبي ﷺ مرة بعد مرة وما قاساه من المحن من ناحيتهم يحتاج إلى سير إجمالي فيما جرى بينه ﷺ وبينهم من الأمر بعد هجرته ﷺ إلى المدينة إلى سبع سنين من الهجرة .

وقد كانت طوائف من اليهود هاجرت من بلادها إلى الحجاز وتوطنوا بها وبنوا فيها الحصون والفلاع ، وزادت نفوسهم وكثرت أموالهم وعظم أمرهم وقد مرت في ذيل قوله

تعالى : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» البقرة : ٨٩ في الجزء الأول من الكتاب روايات في بدء مهاجرتهم إلى الحجاز وكيفية نزولهم حول المدينة وبشارتهم الناس بالنبي ﷺ .

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ودعاهم إلى الإسلام استنكفوا عن الإيمان به فصالح يهود المدينة وعاهدهم بكتاب كتب بينه وبينهم وهم ثلاثة رهط حول المدينة : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة أما بنو قينقاع فنكثوا العهد في غزوة بدر فسار إليهم النبي ﷺ في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة بعد بضعة وعشرين يوماً من وقعة بدر فتحصنوا في حصونهم فحاصرهم أشد الحصار ، وبقوا على ذلك خمسة عشر يوماً .

ثم نزلوا على حكم النبي ﷺ في نفوسهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم فأمر بهم فكثفوا ، وكلم عبد الله بن أبي بن سلول النبي ﷺ وألح عليه وكانوا حلفاء فوهمهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها فخرجوا إلى أزدعات الشام معهم نسائهم وذراريهم ، وقبض منهم أموالهم غنيمة الحرب ، وكانوا ستامة مقاتل من أشجع اليهود . وأما بنو النضير فأتهم كادوا النبي ﷺ إذ خرج إليهم في نفر من أصحابه بعد أشهر من غزوة بدر ، وكلمهم أن يعينوه في دية نفر أورشليم من الكلابيين قتلهم عمرو بن أمية الضمري فقالوا : نفعنا يا أبا القاسم اجلس هنا حتى نقضي حاجتك ، و خلا بعضهم ببعض فتأمرؤا بقتله واختاروا من بينهم عمرو بن جحاش أن يأخذ حجر رحي فيصعد فيلقه على رأسه ويشدخه به وخذّهم سلام بن مشكم وقال لهم : لا تفعلوا ذلك فوالله ليخبرن بما همتم به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه .

فجاءه الوحي وأخبره ربه بما همموا به فقام ﷺ من مجلسه مسرعاً وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه واستفسروه عن قيامه وتوجهه فأخبرهم بما هممت به بنو النضير ، وبعث إليهم من المدينة أن اخرجوا من المدينة ولا تسانا كنوني بها ، وقد أجلبتكم فمن وجدته بعد ذلك بها منكم ضربت عنقه فأقاموا أياماً يتجهزون للخروج .

وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي أن لا تخرجوا من دياركم فإنّ معي ألفين يدخلون

معكم حصنكم ويموتون دونكم ، وينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، وأرضاهم بذلك .

فبعث رئيسهم حُيَيِّ بن أخطب إلى النبي ﷺ يقول : إنا لانخرج من ديارنا فاصنع ما بدالك فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر أصحابه ، وأمر علياً عليه السلام بحمل الراية والسير إليهم فساروا وأحاطوا بديارهم ، وغدربهم عبدالله بن أبي ، ولم ينصرهم بنو قريظة ولا حلفاؤهم من غطفان .

وقد كان النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزعوا من ذلك وقالوا : يا محمد لاتقطع فإن كان لك فخذ ، وإن كان لنا فاتر كهلنا . ثم قالوا له بعد أيام : يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا أموالنا قال : لا ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك وبقوا أياماً على ذلك ثم رضوا وسألوه ذلك قال : لا ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً ، ومن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه فخرجوا فوق قوم منهم إلى فدك ووادي القرى ، وقوم إلى أرض الشام ، وكان مالهم فيئاً لله ورسوله من غير أن ينال شيئاً من ذلك جيش الإسلام ، وقصتهم مذكورة في سورة الحشر ، ومن كيد بني النضير للنبي ﷺ تحزيب الأحزاب من قريش و غطفان وغيرهم عليه عليه السلام .

وأما بنو قريظة فقد كانوا على الصلح والسلام حتى وقعت غزوة الخندق وقد كان حُيَيِّ بن أخطب رئيس بني النضير ركب إلى مكة وحث قريشاً على النبي ﷺ وحزب الأحزاب ، وفي ذلك ركب إلى بني قريظة وجاءهم في ديارهم فلم ينزل يوسوس إليهم وبعزهم وبلح عليهم ويكلمهم رئيسهم كعب بن أسد في ذلك ونقض العهد ومناجزة النبي ﷺ حتى أرضاهم بذلك واشتروطوا عليه أن يدخل في حصنهم فيصيبه ما أصابهم فقبل ودخل .

فنقضوا العهد ومالوا إلى الأحزاب الذين حاصروا المدينة وأظهروا سب النبي ﷺ وأحدثوا ثلثة أخرى

فلما فرغ النبي ﷺ من أمر الأحزاب أتاه جبرئيل بوحي من الله يأمره بالمسير إليهم فسار إليهم ويحمل رايته علي عليه السلام ونازل حصون بني قريظة ، وحصرهم خمسة وعشرين يوماً .

فلما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يختاروا أحد ثلاث خصال : إما أن يسلموا و يدخلوا في دين محمد ، وإما أن يقتلوا ذراريهم و يخرجوا إليه بسيوفهم مصلته يناجزونه حتى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم ، وإما أن يهجموا عليه و يكبسوه يوم السبت لأنهم - يعني المسلمين - قد آمنوا أن يقاتلوهم فيه !

فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهم فبعثوا إلى النبي ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره في الأمر ؛ وكان أبو لبابة مناصحاً لهم لأن عياله و ذريته و ماله كانت عندهم .

فأرسله إليهم فلما رأوه قاموا إليه يبكون ، وقالوا له : كيف ترى أن تنزل على حكم محمد ؟ قال : نعم وأشار بيده إلى حلقه : أنه الذبح ، قال أبو لبابة : فوالله ما زلت قدمي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله ، وأوحى الله إلى نبيي ﷺ في أمر أبي لبابة .

فندم أبو لبابة و مضى على وجهه حتى أتى المسجد و ربط نفسه على سارية من سواري المسجد تائباً لله ، و حلف ألا يحلّه إلا النبي ﷺ أو يموت فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : دعوه حتى يتوب الله عليه ثم إن الله تاب عليه و أنزل توبته و حلّه النبي ﷺ

ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ ، وكانوا موالي أوس فكلّمته أوس في أمرهم مستشفعين و آل الأمر إلى تحكيم سعد بن معاذ الأوسي في أمرهم و رضوا و رضي به النبي ﷺ فأحضر سعد و كان جريحاً .

ولما كلّم سعد رحمه الله في أمرهم قال : لقد آن لسعد أن لا يأخذه في الله لومة لائم ثم حكم فيهم بقتل الرجال و سبي النساء و الذراري و أخذ الأموال فأجري عليهم ما حكم به سعد فضربت أعناقهم عن آخرهم ، و كانوا ستمائة مقاتل أو سبعمائة ، و قيل أكثر ، و لم ينج منهم إلا نفر يسير آمنوا قبل تقيلهم ، و هرب عمرو بن سعدى منهم و لم يكن داخلهم معهم في نقض العهد ، و سبيت النساء إلا امرأة واحدة ضربت عنقها وهي التي طرحت على رأس خلاص بن السويد بن الصامت رحي فقتلته .

ثم أجلي النبي ﷺ من كان بالمدينة من اليهود ثم سار ﷺ إلى يهود خيبر لما كان من كيدهم و سعيهم في حث الأحزاب عليه و تأليفهم من جميع القبائل العربية لحر به فنازل

حصونهم وحصرهم أياماً ، وأرسل النبي ﷺ إلى قتالهم أبابكر في جمع يوماً فانهمز ثم عمر بن الخطاب في جمع يوماً فانهمز

وعند ذلك قال النبي ﷺ : «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كره غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه» ولما كان من غداً أعطى الراية علياً ﷺ وأرسله إلى قتال القوم فتقدم إليهم وقتل مرجأ الفارس المعروف منهم ، وهزمهم وقلع يده باب حصنهم وفتح الله على يده الحصن ، و كان ذلك بعد صلح الحديبية في المحرم سنة سبع من الهجرة .

ثم أجلى النبي ﷺ من بقي من اليهود وقد نصح لهم قبل ذلك أن يبيعوا أموالهم وبأخذوا أثمانها . انتهى ما أردنا تلخيصه من قصة اليهود مع النبي ﷺ .

وفي تفسير العياشي عن جابر في قوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الآياتة نزلت في بني أمية هم شر خلق الله هم الذين كفروا في باطن القرآن ، وهم الذين لا يؤمنون » . أقول : وروى مثله القمي عن أبي حمزة عنه ﷺ ، وهو من باطن القرآن كما صرح به في الرواية ليس بالظاهر .

وفي الكافي بإسناده عن سهل بن زياد عن بعض أصحابه عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله ﷺ قال قال : رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : من إذا ائتمن خان ، وإن حدث كذب ، وإذا وعد أخلف إن الله عز وجل قال في كتابه : « إن الله لا يحب الخائنين » ، وقال : « أن لعنة الله على الكاذبين » ، وفي قوله عز وجل : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً »

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الآية قال : قال : السلاح .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن عيسى عمن ذكره عن أبي عبدالله ﷺ في الآية قال سيف وترس .

وفي الفقيه عن الصادق ﷺ مرسل في الآية قال : منه الخضاب بالسواد .

وفي الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر ﷺ : دخل قوم على الحسين بن علي ﷺ

فأوه مختضباً بالسواد فسألوه عن ذلك فمدّ يده إلى لحيته ثم قال : أمر رسول الله ﷺ في غزاة غزاها أن يختضبوا بالسواد ليقووا به على المشركين .
وفي تفسير العياشي عن جابر الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» قال : الرمي .

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن عبد الله بن المغيرة رفعه عنه ﷺ ، و الزمخشري في ربيع الأبرار عن عقبه بن عامر عنه ، و السيوطي في الدر المنثور عن أحمد و مسلم و أبي داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم والبيهقي عن عقبه بن عامر الجهني عنه ﷺ .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبه بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير والذي يجهز به في سبيل الله ، والذي يرمي به في سبيل الله .

وقال : ارموا واركبوا ، وأن ترموا خير من أن تركبوا ، وقال : كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة : رميه عن قوسه ، وتأديبه فرسه ، و ملاعبته أهله فانتهن من الحق ، ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها .

أقول : وفي هذه الملعاني روايات أخر ، وخاصة في الخيل و الرمي و الروايات على أي حال من باب عد المصديق .

وفي الدر المنثور أخرج سعد والحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع في معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن منده والرويانى في مسنده وابن مردويه وابن عساكر عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ قال : في قوله : «وآخرين من دونهم لاتعلمونهم» الله يعلمهم ، قال : هم الجن ، ولاتخبل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق .

أقول : وفي معناها روايات أخر ، ومحصل الروايات ربط قوله : «وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم» بقوله : «ومن رباط الخيل» وهي من قبيل الجري وليس من التفسير في

شيء ، والمراد من الآية بظاهرها العدو من الإنسان كالكفار والمنافقين .

وفيه أخرج ابن مردويه عن عبدالرحمان بن أبزي أن النبي ﷺ كان يقرء : « وإن جنحوا للسلم .

وفيه أخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » قال : نسختها هذه الآية : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر - إلى قوله - صاغرون » .

أقول : ورد في نسخها بآية البراءة : « اقاتلوا المشركين حيث وجدتموهم » والآية لا تخلو عن إيماء إلى كون الحكم مؤجلاً حيث قال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » قلت : ما السلم ؟ قال : الدخول في أمرنا ، وفي رواية أخرى : الدخول في أمرك . **أقول :** وهو من الجري .

وفي الدر المنثور أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال : مكتوب على العرش : لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدهته بعلي ؛ وذلك قوله : « هو الذي أيده بنصره وبالمؤمنين » .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن أبي هريرة ، وأبو نعيم في حلية الأولياء بإسناده عنه ، وكذا ابن شهر آشوب مسنداً عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله . وفي تفسير البرهان عن شرف الدين النجفي قال : تأويله ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء بطريقه عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب ، وهو المعني بقوله : المؤمنين .

أقول : ولفظ الآية لا يساعد على ذلك اللهم إلا أن يكون المراد بالاتباع تمام الاتباع الذي لا يشذ عنه شأن من الشؤون ، و من للتبعيض دون البيان إن ساعد عليه السياق .

وفي الدر المنثور أخرج البزار عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون :

فدانتصف القوم منّا اليوم ، وأنزل الله : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .
أقول : وروى هذا المعنى في روايات أخر ، و الاعتبار لا يساعد عليه فإنّ الزمان
الذي أسلم فيه لم يكن على نعت يصحح الخطاب بمثل قوله : « يا أيها النبي حسبك الله ومن
اتبعتك من المؤمنين » ، واليوم يوم الفتنة والعسرة ، وقد دام الحال على ذلك بعده سنين متمادية ،
وما كان النبي ﷺ يومئذ يحتاج إلى شيء يعينه العدة ، وفي هذه الروايات أنه كان تمام
الأربعين أو رابع أربعين . على أن الظاهر أن الآية مدنيّة من جملة آيات سورة
الأنفال .

وفيه أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزهري في قوله : « يا أيها النبي حسبك
الله ومن اتبعك من المؤمنين » قال : نزلت في الأنصار .

أقول : وسياق الآية في عدم المساعدة عليه كالروايتين السابقتين اللهم إلا أن يكون
المراد نزولها يوم آمن به الأنصار أو يوم تابعوه ، والظاهر أن الآية نزلت في تطيب نفس النبي
ﷺ بجميع من كان معه من المؤمنين : مهاجريهم وأنصارهم ، وهي توطئة وتمهيد لما
في الآية التالية من الأمر بتحرير المؤمنين على القتال .

وفي تفسير القمّي قال : قال : كان الحكم في أول النبوة في أصحاب رسول الله ﷺ أن
الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشرة من الكفار فإن هرب منهم فهو الفار من الزحف ،
والمائة يقاتلون ألفاً .

ثم علم الله أن فيهم ضعفاً لا يقدرّون على ذلك فأنزل الله : « الآن خفف الله عنكم
وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » ففرض عليهم أن يقاتل أقل
رجل من المؤمنين رجلين من الكفار فإن فرّ منهما فهو الفار من الزحف فإن كانوا ثلاثة من
الكفار وواحد من المسلمين ففرّ المسلم منهم فليس هو الفار من الزحف .

أقول : وفي تفسير العياشي عن الحسين بن صالح عن الصادق عن عليّ عليه السلام ما
يقرب منه ، وروى ما في معناها في الدر المنثور بطرق عديدة عن ابن عباس وغيره .

وفي الدر المنثور أخرج الشيرازي في الألقاب وابن عديّ والحاكم وصححه عن ابن
عمر أن رسول الله ﷺ قرأ : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً » رفع

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَبْتَغَى فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ
 الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ
 فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ
 خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا
 خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

﴿بيان﴾

عتاب من الله سبحانه لأهل بدر حين أخذوا الأسرى من المشركين ثم اقترحوا على
 رسول الله ﷺ أن لا يقتلهم و يأخذ منهم الفداء ليصلح به حالهم ويتقوا و بذلك على أعداء
 الدين ، و قد شدّد سبحانه في العقاب إلا أنه أجابهم إلى مقترحهم وأباح لهم التصرف من
 الغنائم . وهي تشمل الفداء

وفي آخر الآيات ما هو بمنزلة التطميع و الوعد الجميل للأسرى إن أسلموا و
 الاستغناء عنهم إن أرادوا خيانة النبي ﷺ .

قوله تعالى : « وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبتغي في الأرض » إلى
 آخر الآيات الثلاث ، الأسر : الشدّ على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له كما
 قيل ، و الأسير هو المشدود عليه ، وجمعه الأسرى و الأسراء و الأسارى و الأسارى ، وقيل
 الأسارى جمع وعلى هذا فالسبي أعم مورداً من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج إلى
 شدّ كالنزاري .

و الثخن بالكسر فالفتح الغلظ ، و منه قولهم : أثنخته الجراح و أثخنه المرض قال

الراغب في المفردات : يقال : ثخن الشيء فهو ثخين إذا غلظ فلم يسئل ولم يستمر في ذهابه ،
ومنه استعير قولهم : أثنخته ضرباً و استخفافاً قال الله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له
أسرى حتى يشخن في الأرض » « حتى إذا أثنختموهم فشدوا الوثاق » فالمراد بالثخان
النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت ، بعد ما كان رقيقاً
سائلاً مخشياً الزوال بالسيلان .

والعرض ما يطرء على الشيء و يسرع فيه الزوال ، و لذلك سمى به متاع الدنيا
لدثورته و زواله عما قليل ، والحلال وصف من الحل مقابل العقد والحرمة كأن الشيء
الحلال كان معقوداً عليه محرماً منه فحل بعد ذلك ؛ وقد مر معنى الطيب وهو الملازمة
للطبع .

وقد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على أنها إنما نزلت بعد وقعة
بدر تعاتب أهل بدر و تبيح لهم الغنائم .

والسبب في اختلافهم ماورد في سبب نزولها ومعاني جملها من الأخبار المختلفة ، ولو
صححت الروايات لكان التأمل فيها قاضياً بتوسّع عجيب في نقل الحديث بالمعنى حتى
ربما اختلفت الروايات كالأخبار المتعارضة .

فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها فمن ظاهر في أن العتاب والتهديد متوجه إلى
النبي ﷺ والمؤمنين جميعاً ، أو إلى النبي و المؤمنين ماعدا عمر ، أو ماعدا عمر وسعد بن
معاذ ، أو إلى المؤمنين دون النبي أو إلى شخص أو أشخاص أشاروا إليه بالفداء بعد ما
استشارهم .

ومن قائل : إن العتاب إنما هو على أخذهم الفداء ، أو على استحلالهم الغنيمة قبل
الإباحة من جانب الله ، و النبي ﷺ يشار كهم في ذلك لما أنه بدء باستشارتهم مع أن
القوم إنما أخذوا الفداء بعد نزول الآيات لا قبله حتى يعاتبوا عليه ، و النبي ﷺ
أجل من أن يجوز في حقه استحلال شيء قبل أن يأذن الله له فيه و يوحى بذلك إليه ،
وحاشا ساحة الحق سبحانه أن يهدد نبيه بعذاب عظيم ليس من شأنه أن ينزل عليه من غير
جرم أجرمه وقد عصمه من المعاصي ، والعذاب العظيم ليس ينزل إلا على جرم عظيم لا كما

قيل : إن المراد به الصغائر .

فألذي ينبغي أن يقال : إن قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » أن السنة الجارية في الأنبياء الماضين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم وظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفوا عن محادة الله ورسوله ، و كانوا لا يأخذون أسرى حتى يثخنوا في الأرض ، ويستقر دينهم بين الناس فلا مانع بعد ذلك من الأسر ثم المن أو الفداء كما قال تعالى فيما يوحى إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما علا أمر الإسلام واستقر في الحجاز و اليمن : « فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء » سورة محمد : ٤ .

و العتاب على ما يهدي إليه سياق الكلام في الآية الأولى إنما هو على أخذهم الأسرى كما يشهد به أيضاً قوله في الآية الثانية : « لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » أي في أخذكم و إنما كانوا أخذوا عند نزول الآيات الأسرى دون الفداء و ليس العتاب على استباحة الفداء أو أخذه كما احتمل .

بل يشهد قوله في الآية التالية : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً و اتقوا الله إن الله غفور رحيم » - حيث افتتحت بفاء التفريع التي تفرع معناها على ما تقدمها - : على أن المراد بالغنيمة ما يعم الفداء ، و أنهم اقترحوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يقتل الأسرى و يأخذ منهم الفداء كما سألوهم عن الأنفال أو سألوهم أن يعطيهموها كما في آية صدر السورة و كيف يتصور أن يسألوه الأنفال ، و لا يسألوه أن يأخذ الفداء و قد كان الفداء المأخوذ - على ما في الروايات - يقرب من مائتين وثمانين ألف درهم ؟

فقد كانوا سألو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعطيهم الغنائم ، و يأخذ لهم منهم الفداء فعاتبهم الله من رأس على أخذهم الأسرى ثم أباح لهم ما أخذوا الأسرى لاجله وهو الفداء لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاركهم في استباحة الفداء و استشارهم في الفداء و القتل حتى يشار بهم في العتاب المتوجه إليهم .

ومن الدليل من لفظ الآية على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشار بهم في العتاب أن العتاب

في الآية متعلق بأخذ الأسرى وليس فيها ما يشعر بأنه استشارهم فيه أورضي بذلك ولم يرد في شيء من الآثار أنه صلى الله عليه وسلم وصّاهم بأخذ الأسرى ولا قال قولاً يشعر بالرضا بذلك بل كان ذلك مما أقدمت عليه عامة المهاجرين والأنصار على قاعدتهم في الحروب : إذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو الفداء فقد ورد في الآثار أنهم بالغوا في الأسر وكان الرجل يقي أسيره أن يناله الناس بسوء إلا علي عليه السلام فقد أكثر من قتل الرجال ولم يأخذ أسيراً .

فمعنى الآيات : « ما كان لنبي » ولم يعهد في سنة الله في أنبيائه « أن يكون له أسرى » ويحق له أن يأخذهم ويستدر على ذلك شيئاً « حتى يشخن » ويغلف « في الأرض » ويستقر دينه بين الناس « تريدون » أتم معاشر أهل بدر - وخطاب الجميع بهذا العموم المشتمل على عتاب الجميع لكون أكثرهم متلبسين باقتراح الفداء على النبي صلى الله عليه وسلم « عرض الدنيا » ومتاعها السريع الزوال « والله يريد الآخرة » بتشريع الدين والأمر بقتال الكفار ، ثم في هذه السنة التي أخبر بها في كلامه ؛ « والله عزيز » لا يغلب « حكيم » لا يلفو في أحكامه المتقنة .

« ولولا كتاب من الله سبق » يقتضي أن لا يعذبكم ولا يهلككم ، وإنما أبهم لأن الإبهام أنسب في مقام المعاتبة ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن ، ولا يتعين له فيهمون عنده أمره « لمستكم فيما أخذتم » أي في أخذكم الأسرى فإن الفداء والغنيمة لم يؤخذوا قبل نزول الآيات وإخبارهم بحليتها وطيبها « عذاب عظيم » وهو كما تقدم يدل على عظم المعصية لأن العذاب العظيم إنما يستحق بالمعصية العظيمة « فكلوا مما غنمتم » وتصرفوا فيما أحرزتم من الفائدة سواء كان مما تسلطتم عليه من أموال المشركين أو مما أخذتم منهم من الفداء « حلالاً طيباً » أي حالكونه حلالاً طيباً باحة الله سبحانه « واتقوا الله إن الله غفور رحيم » وهو تعليل لقوله : « فكلوا مما غنمتم » الخ أي غفرنا لكم ورحمناكم فكلوا مما غنمتم أو تعليل لجميع ما تقدم أي لم يعذبكم الله بل أباحه لكم لأنه غفور رحيم .

قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى » إلى آخر الآية

كون الأسرى بأيديهم استعارة لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون في يد الإنسان يقلبه كيف يشاء .

وقوله : «إن يعلم الله في قلوبكم خيراً» كناية عن الإيمان أو اتباع الحق الذي يلازمه الإيمان فإنه تعالى يعدهم في آخر الآية بالمغفرة ، ولامغفرة مع شرك قال تعالى : «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» النساء : ٤٧ .

ومعنى الآية : يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم وأخذت منهم الفداء : إن ثبت في قلوبكم الإيمان وعلم الله منكم ذلك - ولا يعلم إلا ما ثبت وتحقق - يؤتكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء ويغفر لكم والله غفور رحيم .

قوله تعالى : «وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم» الخ أمكنه منه أي أقدره عليه ، وإنما قال أولاً : «خيانتك» ثم قال : «خانوا الله» لأنهم أرادوا بالقدية أن يجمعوا الشمل ثانياً ويعودوا إلى محاربتهم عليه السلام ، وأما خيانتهم لله من قبل فهي كفرهم وإصرارهم على أن يطفؤوا نور الله وكيدهم ومكرهم .

ومعنى الآية : إن آمنوا بالله وثبت الإيمان في قلوبهم آتاهم الله خيراً مما أخذ منهم وغفر لهم ، وإن أرادوا خيانتك والعود إلى ما كانوا عليه من العناد والفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم وأقدرك عليهم وهو قادر على أن يفعل بهم ذلك ثانياً ، والله عليهم بخيانتهم لو خانوا حكيم في إمكانك منهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى» الخ قال : كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين قتل منهم علي بن أبي طالب عليه السلام سبعة وعشرين ^(١) ، وكان الأسرى أيضاً سبعين ، ولم يؤسر أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجمعوا الأسرى ، وقرنوهم في الجبال ، وساقوهم على أقدامهم ، وقتل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسعة رجال منهم

(١) ولم يأسر أحداً على ما في الروايات .

سعد بن خيثمة وكان من النقباء من الأوس .

قال : وعن محمد بن إسحاق قال : استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً : أربعة من قريش ، و سبعة من الأنصار ، وقيل : ثمانية ، و قتل من المشركين بضعة و أربعون رجلاً^(١) .

قال : وعن ابن عباس : قال : لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أوّل الليلة فقال له أصحابه : مالك لا تنام ؟ فقال ﷺ : سمعت أئني عمي العباس في وثاقه ، فأطلقوه فسكت فنام رسول الله ﷺ .

قال : و روى عبيدة السلماني عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر في الأسارى : إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم ، وكانت الأسارى سبعين فقالوا : بل نأخذ الفداء فنستمتع به ونتقوى به على عدونا ، وليستشهد منا بعدتهم قال عبيدة طلبوا الخيرتين كلتيهما^(٢) فقتل منهم يوم أحد سبعون :

وفي كتاب علي بن إبراهيم : لما قتل رسول الله ﷺ النضر بن الحارث وعقبه بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى فقالوا : يا رسول الله قتلنا سبعين وهم قومك وأسرناك أتجدد أصلهم فخذ يا رسول الله منهم الفداء ، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش فلما طلبوا إليه و سألوه نزلت الآية : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى » الآيات فأطلق لهم ذلك .

و كان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم و أقله ألف درهم فبعثت قريش بالفداء أوّلاً فأوّل ما فبعثت زينب بنت رسول الله ﷺ من فداء زوجها أبي العاص بن الربيع ، و بعثت فلاندا لها كانت خديجة جهزت بها ، وكان أبو العاص ابن أخت خديجة ، فلما رأى رسول الله ﷺ تلك الفلانة قال : رحم الله خديجة هذه فلاندهي جهزت بها فأطلقه رسول الله ﷺ بشرط أن يبعث إليه زينب ، و لا يمنعها من اللحوق به فعاهده على ذلك و وفي له .

(١) وهؤلاء هم الذين ضبط علماء الآثار أسماءهم غير من لم يضبط اسمه .

(٢) لكن قوله تعالى في عتابهم « تريدون عرض الدنيا » بخطي . عبيدة في قوله .

قال : وروي أن النبي ﷺ كره أخذ الفداء حتى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه فقال : يا رسول الله هذا أول حرب لقينا فئمة المشركين ، والإثنان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقد مهم واضرب أعناقهم ، ومكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، ومكّني من فلان أضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وقال أبو بكر : أهلك وقومك استأن بهم واستبقهم وخذ منهم فدية فيكون لنا قوة على الكفار قال ابن زيد فقال رسول الله ﷺ : لو نزل عذاب من السماء ما نجا منكم أحد غير عمر وسعد بن معاذ .

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام : كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية ، والأوقية أربعون مثقالاً إلا العباس فإن فداءه كان مائة أوقية ، وكان أخذ منه حين أسر عشرون أوقية ذهباً فقال النبي ﷺ : ذلك غنيمة ففاد نفسك وابني أخيك نوفلاً وعقيلاً فقال : ليس معي شيء . فقال : أين الذهب الذي سلّمته إلى أم الفضل وقلت : إن حدث بي حدث فهو لك وللفضل وعبد الله وقثم . فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : الله تعالى فقال : أشهد أنك رسول الله والله ما أطلع على هذا أحد إلا الله تعالى .

أقول : و الروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق الفريقين تر كنا إيرادها بإشاراً للاختصار .

وفي قرب الإسناد للحميري عن عبد الله بن ميمون عن جعفر عن أبيه عليه السلام قال : أوتي النبي ﷺ بمال دراهم فقال النبي ﷺ للعباس : يا عباس ابسط رداءً وخذ من هذا المال طرفاً فبسط رداءً وأخذ منه طائفة ثم قال رسول الله ﷺ : يا عباس هذا من الذي قال الله تبارك وتعالى : « يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم » قال : نزلت في العباس ونوفل وعقيل .

وقال : إن رسول الله ﷺ نهى يوم بدر أن يقتل أحد من بني هاشم وأبو البختري فأسروا فأرسل علياً فقال : انظر من ههنا من بني هاشم ؟ قال : فمر على عقيل بن أبي طالب فحاد عنه قال فقال له : يا بن أم علي أما والله لقد رأيت مكاني .

قال : فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا أبو الفضل في يد فلان ، وهذا عقيل في

يد فلان ، وهذا نوفل في يد فلان يعني نوفل بن الحارث فقام رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى عقيل فقال : يا أبا يزيد قتل أبو جهل ! فقال : إذاً لا تنازعوا في تهامة . قال : إن كنتم أنتمم القوم وإلا فاركبوا أكتافهم .

قال : فجيء بالعباس فقيل له : اهد نفسك وافد ابن [ابني ظ] أخيك فقال : يا محمد تتركني أسأل قريشاً في كفي؟ فقال ﷺ له : أعط مما خلفت عند أم الفضل وقلت لها إن أصابني شيء في وجهي فأنقيه على ولدك ونفسك . قال : يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ قال : أتاني به جبرئيل . فقال : ومحلوفة ما علم بهذا إلا أنا وهي . أشهد أنك رسول الله . قال : فرجع الأسارى كلهم مشركين إلا العباس وعقيل ونوفل بن الحارث ، وفيهم نزلت هذه الآية : « قل لمن في أيديكم من الأسرى » . الآية .

أقول : وروى في الدر المنثور هذه المعاني بطرق مختلفة عن الصحابة وروى نزول الآية في العباس و ابني أخيه عن ابن سعد و ابن عساكر عن ابن عباس ، وروى مقدار الفدية التي فدي بها عن كل رجل من الأسارى ، وقصة فدية العباس عنه وعن ابني أخيه الطبرسي في مجمع البيان عن الباقر عليه السلام كما في الحديث .



إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا
مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ
النُّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ
بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) .

﴿بيان﴾

الآيات تختتم السورة ، و يرجع معناها نوع رجوع إلى ما افتتحت به السورة
وفيها إيجاب الموالاة بين المؤمنين إلا إذا اختلفوا بالمهاجرة وعدمها وقطع موالاة الكافرين .
قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا - إلى قوله - أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ »
المراد بالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا : الطائفة الأولى من المهاجرين قبل نزول السورة بدليل ما
سيذكر من المهاجرين في آخر الآيات ، والمراد بالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا : هم الأنصار الَّذِينَ
آوَوْا النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ وَنَصَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وكان ينحصر المسلمون يومئذ
في هاتين الطائفتين إلا قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر .

وقد جعل الله بينهم ولاية بقوله : « أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ » والولاية أعم من

ولاية الميراث و ولاية النصرة و ولاية الأمن، فمن آمن منهم كافرأ كان نافذاً عند الجميع؛ فالبعض من الجميع وليّ البعض من الجميع كالمهاجر هو وليّ كل مهاجر وأنصاري، والأ نصاريّ وليّ كل أنصاريّ ومهاجر، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية .

فلا شاهد على صرف الآية إلى ولاية الإزث بالمواخاة التي كان النبي ﷺ جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين والأنصار وكانوا يتوارثون بها زماناً حتى نسخت .

قوله تعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا » إلى آخر الآية ، معناه واضح وقد نفيت فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين غير المهاجرين إلا ولاية النصرة إذا استنصروهم بشرط أن يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق .

قوله تعالى : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » أي إن ولايتهم بينهم لا تتعدأهم إلى المؤمنين فليس للمؤمنين أن يتولّوهم ، وذلك أن قوله ههنا في الكفار : « بعضهم أولياء بعض » كقوله في المؤمنين : « أولئك بعضهم أولياء بعض » إنشاء و تشريع في صورة الإخبار ، وجعل الولاية بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذكرناه من نفي تعدأه عنهم إلى المؤمنين .

قوله تعالى : « إن اتفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » إشارة إلى مصلحة جعل الولاية على النحو الذي جعلت ، فإن الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية سيما المجتمع الإسلامي الذي أسس على اتباع الحق و بسط العدل الإلهي كما أن تولي الكفار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسر في عفائدهم وأخلاقهم ، و تفسد سيرة الإسلام المبنيّة على الحق بسيرهم المبنيّة على اتباع الهوى وعبادة الشيطان ، وقد صدق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت إليه هذه الآية .

قوله تعالى : « والذين آمنوا وهاجروا » إلى آخر الآية إثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافاً حقاً ، ووعد لهم بالمغفرة والرزق الكريم .

قوله تعالى : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » خطاب للمهاجرين الأولين والأنصار وإلحاق من آمن وهاجر وجاهد معهم بهم فيشار كونهم في الولاية .

قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » ، إلى آخر الآية .
جعل للولاية بين أولي الأرحام والقربات ، وهي ولاية الإرث فإن سائر أقسام الولاية لا ينحصر فيما بينهم .

والآية تنسخ ولاية الإرث بالموأخاة التي أجزاها النبي ﷺ بين المسلمين في أول الهجرة ، وتثبت الإرث بالقرباة سواء كان هناك ذو سهم أو لم يكن أو كان عصبه أو لم يكن فالآية مطلقة كما هو ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن الباقر عليه السلام أنهم كانوا يتوارثون بالموأخاة .

أقول : ولا دلالة فيه على أن الآية نزلت في ولاية الأخوة .

في الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : الخال والخالة يرثان إذا لم يكن معهما أحد إن الله يقول : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

أقول : ورواه العياشي عن أبي بصير عنه مراسلاً .

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » أن بعضهم أولى بالميراث من بعض لأن أقربهم إليه أولى به . ثم قال أبو جعفر عليه السلام ، إنهم أولى بالميت ، وأقربهم إليه أمه وأخوه وأخته لأمه وابنه أليس الأم أقرب إلى الميت من إخوانه وأخواته ؟

وفيه عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما اختلف علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان في الرجل يموت وليس له عصبه يرثونه وله ذوو قرابة لا يرثونه : ليس له بينهم مفروض ، فقال علي عليه السلام ميراثه لذوي قرابته لأن الله تعالى يقول : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وقال عثمان أجعل ميراثه في بيت مال المسلمين ولا يرثه أحد من قرابته .

أقول : والروايات في نفي القول بالعصبه والاستناد في ذلك إلى الآية كثيرة من أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » فتر كوا ذلك وتوارثوا بالنسب .

وفي المعاني بإسناد فيه رفع عن موسى بن جعفر عليه السلام فيما جرى بينه وبين هارون وفيه : قال هارون : فلم ادعيتم أنفسكم ورثتم رسول الله والعم يحجب ابن العم ، وقبض رسول الله وقد توفي أبو طالب قبله والعباس عمه حي - إلى أن قال - فقلت : إن النبي لم يورث من لم يهاجر ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر فقال : ما حججتك فيه ؟ قلت : قول الله تبارك وتعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » و إن عمي العباس لم يهاجر فقال : إنني سأملك يا موسى هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا أم أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء ؟ فقلت . اللهم لا وما سألتني عنها إلا أمير المؤمنين . الحديث .

أقول : ورواه المفيد في الاختصاص .



سورة التوبة مدنيّة وهي مائة وتسع وعشرون آية

بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا
 فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ مُخْزِي
 الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
 مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحْدًا فَأَتِمُوا الْبَيْعَةَ عَاهِدَهُمْ إِلَى مَدَّتَيْهِمْ
 إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
 عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ
 بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَسَدُوا
 عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
 فَخَوانَكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ

مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا إِيْمَانَ لَهُمْ
 لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٤) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
 وَهُمْ بَدُوكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤)
 فَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمِ
 مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ
 يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
 تَعْمَلُونَ (١٦) .

﴿ بيان ﴾

الآيات مفتحة قبيل من الآيات سموها سورة التوبة أو سورة البراءة ، وقد اختلفوا
 في كونها سورة مستقلة أو جزء من سورة الأنفال ، واختلاف المفسرين في ذلك ينتهي
 إلى اختلاف الصحابة ثم التابعين فيه ، وقد اختلف في ذلك الحديث عن أئمة أهل البيت
عليهم السلام غير أن الأرجح بحسب الصناعة ما يدل من حديثهم على أنها ملحقة بسورة
 الأنفال .

والبحث عن معاني آياتها وما اشتملت عليه من المضامين لا يهدي إلى غرض واحد
 متعين على حد سائر السور المشتملة على أغراض مشخصة تؤمها أوائلها وتنعطف إليها
 أو آخرها ، فأولها آيات تؤذن بالبراءة وفيها آيات القتال مع المشركين ، والقتال مع أهل
 الكتاب ، وشطر عظيم منها يتكلم في أمر المنافقين ، وآيات في الاستنهاض على القتال وما
 يتعرض لحال المخلفين ، وآيات ولاية الكفار ، وآيات الزكاة وغير ذلك ، ومعظمها ما يرجع
 إلى قتال الكفار وما يرجع إلى المنافقين .

وعلى أي حال لا يترتب من جهة التفسير على هذا البحث فائدة مهمة وإن أمكن ذلك من جهة البحث الفقهي الخارج عن غرضنا .

قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » قال الراغب : أصل البرء والبراء والتبري : التفصي مما يكره مجاورته ، ولذلك قيل : برأت من المرض وبرأت من فلان وتبرأت ، وأبرأته من كذا و برأته ، ورجل بري وقوم برآء و بريؤون قال تعالى : براءة من الله ورسوله . انتهى .

والآية بالنسبة إلى الآيات التالية كالعنوان المصدر به الكلام المشير إلى خلاصة القول على نهج سائر السور المفصلة التي تشير الآية والآيتان من أولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها .

والخطاب في الآية للمؤمنين أو للنبي ﷺ ولهم على ما يدل عليه قوله : « عاهدتم » وقد أخذ الله تعالى ومنه الخطاب ، ورسوله ﷺ وهو الواسطة ، والمشر كون وهم الذين أريدت البراءة منهم ، ووجه الخطاب ليبلغ إليهم جميعاً في الغيبة ، وهذه الطريقة في الأحكام والفرامين المراد إيصالها إلى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم والأمر .

والآية تتضمن إنشاء الحكم والقضاء بالبراءة من هؤلاء المشركين وليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي ﷺ في البراءة فإن دأب القرآن أن ينسب الحكم التشريعي المحض إلى الله سبحانه وحده ، وقد قال تعالى : « ولا يشرك في حكمه أحداً » الكهف : ٢٦ . ولا ينسب إلى النبي ﷺ إلا الحكم بالمعنى الذي في الولاية والسياسة وقطع الخصومة .

فالمراد بالآية القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين وليس رفعاً جزافياً وإبطالاً للعهد من غير سبب يبيح ذلك فإن الله تعالى سيدكر بعد عدة آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذي عاهدوه وقد فسق أكثرهم ولم يراعوا حرمة العهد ونقضوا ميثاقهم ، وقد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابلة نقضاً بنقض حيث قال : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » الأنفال : ٥٨ فأباح إبطال العهد عند مخافة الخيانة ولم يرض مع ذلك إلا بإبلاغ النقض إليهم لئلا يؤخذوا على الغفلة

فيكون ذلك من الخيانة المحظورة .

ولو كان إبطالاً لعهدهم من غير سب مباح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم وبين من لم يدم عليه وقد قال تعالى مستثنياً : «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين» .

ولم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون أن ضرب لهم أجلاً ليفكروا في أمرهم ويرتاؤا رأيهم ولا يكونوا مأخوذِينَ بالمباغثة والمفاجأة .

فمحصّل الآية الحكم ببطلان العهد ورفع الأمان عن جماعة من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه أكثرهم ولم يبق إلى من بقي منهم وثوق مطمئن به النفس إلى عهدهم وتعتمد على يمينهم وتأمين شرهم وأنواع مكرهم .

قوله تعالى : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين » السياحة هي السير في الأرض والجري ولذلك يقال للماء الدائم الجرية في ساحة : السائح .

وأمرهم بالسياحة أربعة أشهر كناية عن جعلهم في مأمن في هذه البرهة من الزمان وتركهم بحيث لا يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء مع ما في قوله : « واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين » من إعلامهم أن الأصلح بحالهم رفض الشرك ، والإقبال إلى دين التوحيد ، وموعظتهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار والتعرض للخزي الإلهي .

وقد وجهه في الآية الخطاب إليهم بالإلتفات من الغيبة إلى الخطاب لما في توجيه الخطاب القاطع والإرادة الجازمة إلى الخصم من الدلالة على بسط الاستيلاء والظهور عليه واستدلاله واستحقار ما عنده من قوة وشدة .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في المراد بقوله : « أربعة أشهر » والذي يدل عليه السياق ويؤيده اعتبار إصدار الحكم وضرب الأجل ليكونوا في فسحة لاختيار ما وجدوه من الحياة أو الموت أنفع بحالهم : أن تبدى الأربعة الأشهر من يوم الحج الأكبر الذي

يذكره الله تعالى في الآية الثمانية فإن يوم الحج الأكبر هو يوم الإبلان والإيدان والأنسب بضرب الأجل الذي فيه نوع من التوسعة للمحكوم عليهم وإتمام الحجّة، أن تبتدىء من حين الإعلام والإيدان .

وقد اتفقت كلمة أهل النقل أن الآيات نزلت سنة تسع من الهجرة فإذا فرض أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر العاشر من ذي الحجّة كانت الأربعة الأشهر هي عشرون من ذي الحجّة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشرة أيام من ربيع الآخر .

وعند قوم أن الأربعة الأشهر تبتدء من يوم العشرين من ذي القعدة وهو يوم الحج الأكبر عندهم فالأربعة الأشهر هي عشرة أيام من ذي القعدة وذو الحجّة والمحرم وصفر وعشرون من ربيع الأول ، وسيأتي ما فيه .

وذكر آخرون : أن الآيات نزلت أول شوال سنة تسع من الهجرة فتكون الأربعة الأشهر هي شوال وذو القعدة وذو الحجّة والمحرم فتتقضي بانقضاء الأشهر الحرم ، وقد حداهم إلى ذلك القول بأن المراد بقوله تعالى فيما سيأتي : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا » الأشهر الحرم المعروفة : ذو القعدة وذو الحجّة والمحرم فيوافي انسلخ الأشهر الحرم انقضاء الأربعة الأشهر ، وهذا قول بعيد عن الصواب لا يساعد عليه السياق وقريضة الملقام كما عرفت .

قوله تعالى : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله » الأذان هو الإعلام ، وليست الآية تكررأ لقوله تعالى السابق « براءة من الله ورسوله » فإن الجمليتين وإن رجعتا إلى معنى واحد وهو البراءة من المشركين إلا أن الآية الأولى إعلام البراءة وإبلاغه إلى المشركين بدليل قوله في ذيل الآية : « إلى الذين عاهدتم من المشركين » بخلاف الآية الثانية فإن وجه الخطاب فيه إلى الناس ليعلموا براءة الله ورسوله من المشركين ، ويستعدوا ويتهيؤوا لإفناز أمر الله فيهم بعد انسلخ الأشهر الحرم بدليل قوله : « إلى الناس » وقوله تفرعاً : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » إلى آخر الآية .

وقد اختلفوا في تعيين المراد بيوم الحج الأكبر على أقوال :

منها : أنه يوم النحر من سنة التسع من الهجرة لأنه كان يوماً اجتمع فيه المسلمون والمشركون ولم يحج بعد ذلك العام مشرك ، وهو المؤيد بالأحاديث المرسنة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والأنسب بأذان البراءة ، والاعتبار يساعده عليه لأنه كان أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون والمشركون من أهل الحج عامة بمنى وقد ورد من طرق أهل السنة روايات في هذا المعنى غير أن مدلول جملها أن الحج الأكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنة ولم يثبت من طريق النقل تسمية على هذا النحو .

ومنها : أنه يوم عرفة لأن فيه الوقوف ، والحج الأصغر هو الذي ليس فيه وقوف وهو العمرة ، وهو استحسان لا دليل عليه ، ولا سبيل إلى تشخيص صحته .
ومنها : أنه اليوم الثاني ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه وسقم هذا الوجه ظاهر .

ومنها : أنه جميع أيام الحج كما يقال : يوم الجمل ويوم صفين ، ويوم بغات ، وبراد به الحين والزمان ، وهذا القول لا يقابل سائر الأقوال كل المقابلة فإنه إنما يبين أن المراد باليوم جميع أيام الحج ، وأما وجه تسمية هذا الحج بالحج الأكبر فيمكن أن يوجهه ببعض ما في الأقوال السابقة كما في القول الأول .

و كيف كان فالاعتبار لا يساعده على هذا القول لأن وجود يوم بين أيام الحج يجتمع فيه عامة أهل الحج يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر بصرف قوله : « يوم الحج الأكبر » إلى نفسه ، ويمنع شموله لسائر أيام الحج التي لا يجتمع فيها الناس ذلك الاجتماع .

ثم التفت سبحانه إلى المشركين ثانياً وذكّرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيرة من أمرهم كما ذكرهم بذلك في الآية السابقة بقوله : « واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين » غير أنه زاد عليه في هذه الآية قوله : « فإن تبتم فهو خير لكم » ليكون تصريحاً بما لوّح إليه في الآية السابقة فإن التذكير بأنهم غير معجزين لله إنما كان بمنزلة العظة وبذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة باختيار البقاء على الشرك والتولي عن الدخول في دين التوحيد ففي التردد تهديد ونصيحة وعظة

ثم التفت سبحانه إلى رسوله فخطبه أن يبشّر الذين كفروا بعذاب أليم فقال :
 « وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم ، والوجه في الالتفات الذي في قوله : « فإن تبتم فهو
 خير لكم ، الخ ما تقدّم في قوله : « فسيحوا في الأرض » الخ ، و في الالتفات الذي في قوله :
 « وبشّر الذين كفروا » الخ أنه رسالة لا تتم إلا من جهة مخاطبة النبي ﷺ .

قوله تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا
 عليكم أحداً » الخ استثناء من عموم البراءة من المشركين والمستثنون هم المشركون الذين
 لهم عهد لم ينقضوه لاستتقياً ولا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم وإتمام عهدهم
 إلى مدتهم .

وقد ظهر بذلك أن المراد من إضافة قوله : « ولم يظاهروا عليكم أحداً » إلى قوله :
 « لم ينقصوكم شيئاً » استيفاء قسمي النقض وهما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين ،
 والنقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض أعداء المسلمين عليهم كما مداد مشركي مكة
 بني بكر على خزاعة بالسلاح ، وكانت بنو بكر في عهد قريش وخزاعة في عهد النبي ﷺ
 فحاربوا فأعانت قريش بني بكر على خزاعة ونقضت بذلك عهد حديبية الذي عقده بينهم
 وبين النبي ﷺ ، وكان ذلك من أسباب فتح مكة سنة ثمان .

وقوله تعالى : « إن الله يحب الملتقين » في مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم
 ينقضه المعاهد المشرك ، وذلك يجعل احترام العهد وحفظ الميثاق أحد مصادر بق التقوى المطلق
 الذي لا يزال يأمر به القرآن وقد صرح به في نظائر هذا المورد كقوله تعالى : « ولا
 يجرمناكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » المائدة : ٩ وقوله : « ولا
 يجرمناكم شأن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » و تعاونوا على البر
 والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله » المائدة : ٣ .

وبذلك يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالملتقين الذين يتقون نقض العهد من
 غير سبب ، وذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامّة كالحقيقة الثانية في القرآن
 فيحتاج إرادة خلافه إلى قرينة صارفة .

قوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم

وخذوهم واحصرهم واقعدوا لهم كل مرصد، أصل الانسلاخ من سلخ الشاة وهو نزع جلدها عنها، وانسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه، والحصر هو المنع من الخروج عن محيط، والمرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب.

قال الراغب: الرصد الاستعداد للترقب يقال: رصد له وترصد وأرصدته له قال عز وجل: «وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل»، وقوله عز وجل: «إن ربك لبا المرصاد» تنبيهاً أنه لا ملجأ ولا مهرب، والرصد يقال للراصد الواحد والجماعة الراصدين وللمرصد واحد أو جمعاً، وقوله تعالى: «يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً» يحتمل كل ذلك، والمرصد موضع الرصد. انتهى.

والمراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر: أشهر السياحة التي ذكرها الله سبحانه في قوله: «فسبحوا في الأرض أربعة أشهر» وجعلها أجلاً مضرراً للمشركين لا يتعرض فيها لحالهم وأما الأشهر الحرم المعروفة أعني ذالقعدة وذالحجّة والمحرم فإنها لا تنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشر ذي الحجّة بوجه كما تقدمت الإشارة إليه.

وعلى هذا فالآم في الأشهر الحرم للعهد الذكري أي إذا انسلاخ هذه الأشهر التي ذكرناها وحرمانها للمشركين لا يتعرض لحالهم فيها فاقتلوا المشركين الخ.

ويظهر بذلك أن لوجه لحمل قوله: «فإننا انسلاخ الأشهر الحرم» على انسلاخ ذي القعدة وذي الحجّة والمحرم بأن يكون انسلاخ الأربعة الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقاً عليه أو يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذاً على نحو الإشارة إلى انقضاء الأربعة الأشهر وإن لم ينطبق الأشهر على الأشهر فإن ذلك كله مما لا سبيل إليه بحسب السياق وإن كان لفظ الأشهر الحرم في نفسه ظاهراً في شهر رجب وذي القعدة وذي الحجّة والمحرم.

وقوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» محقق للبراءة منهم ورفع الاحترام عن نفوسهم بإهدار الدماء فلا مانع من أي نازلة نزلت بهم، وفي قوله: «حيث وجدتموهم» تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا في حل أو حرم بل ولو ظفر بهم في الشهر الحرام - بناء على تعميم «حيث» للزمان والمكان كليهما - فيجب على

المسلمين كائنين من كانوا إذا ظفروا بهم أن يقتلوهم، كان ذلك في الحل أو الحرم وفي الشهر الحرام أو غيره .

وإنما أمر بقتلهم حيث وجدوا للمتوسل بذلك إلى إيرادهم مورد الفناء والانقراض، وتطبيب الأرض منهم، وإنجاء الناس من مخالطتهم ومعاشرتهم بعد ماسح وأبيح لهم ذلك في قوله: « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » .

و لازم ذلك أن يكون كل من قوله: « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقوله: « وخذوهم » وقوله: « واحصروهم » وقوله: « واقعدوا لهم كل مرصد » بياناً لنوع من الوسيلة إلى إفناء جمعهم وإنفاذ عددهم، ليتفصلي المجتمع من شرهم .

فإن ظفروا بهم وأمكن قتلهم قتلوا، وإن لم يمكن ذلك قبض عليهم وأخذوا، وإن لم يمكن أخذهم حصروا وحبسوا في كهفهم ومنعوا من الخروج إلى الناس ومخالطتهم، وإن لم يعلم محلهم قعد لهم في كل مرصد ليظفروا بهم فيقتلوا أو يؤخذوا .

ولعل هذا المعنى هو مراد من قال: إن المراد: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم أوخذوهم واحصروهم على وجه التخيير في اعتبار الأصلح من الأمرين، وإن كان لا يخلو عن تكلف من جهة اعتبار الأخذ والحصر والقعود في كل مرصد أمراً واحداً في قبال القتل، وكيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى .

وأما قول من قال: إن في قوله: « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم » تقديماً وتأخيراً، والتقدير: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم فهو من التصرف في معنى الآية من غير دليل مجوز، والآية وخاصة ذيلها يدفع ذلك سياقاً .

ومعنى الآية: فإذا انسلخ الأشهر الحرم وانقضت الأربعة الأشهر التي أمهلناهم بها بقولنا: « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » فأفنوا المشركين بأي وسيلة ممكنة رأيتموها أقرب وأوصل إلى إفناء جمعهم وإحياء رسمهم من قتلهم أينما وجدتموهم من حل أو حرم ومتى ماظفرتهم بهم في شهر حرام أو غيره، ومن أخذهم أو حصروهم أو القعود لهم في كل مرصد حتى يفتنوا عن آخرهم .

قوله تعالى: « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله

غفور رحيم ، اشترط في معنى الغاية للحكم السابق ، والمراد بالتوبة معناها اللغوي وهو الرجوع أي إن رجعوا من الشرك إلى التوحيد بالإيمان ونصبوا لذلك حجة من أعمالهم وهي الصلاة والزكاة والتمروا أحكام دينكم الراجعة إلى الخلق والخلق جميعاً فخلّوا سبيلهم . وتخليّة السبيل كناية عن عدم التعرّض لسالكيه وإن عادت مبتذلة بكثرة التداول كأن سبيلهم مسدودة مشغولة بتعرّض المتعرّضين فإذا خلّي عنها كان ذلك ملازماً أو منطبقاً على عدم التعرّض لهم .

وقوله : « إن الله غفور رحيم » تعليل لقوله : « فخلّوا سبيلهم » إمّا من جهة الأمر الذي يدلّ عليه بصورته أو من جهة المأمور به الذي يدلّ عليه بما دته أعني تخليّة سبيلهم : والمعنى على الأوّل : وإنما أمر الله بتخليّة سبيلهم لأنّه غفور رحيم يغفر لمن تاب إليه ويرحمه .

وعلى الثاني : خلّوا سبيلهم لأنّ تخليّتكم سبيلهم من المغفرة والرحمة ، وهما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفة ربكم ، وأظهر الوجهين هو الأوّل .

قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام الله » إلى آخر الآية ، الآية تتضمن حكم الإجارة لمن استجار من المشركين لأن يسمع كلام الله ، وهي بما تشتمل عليه من الحكم وإن كانت معترضة أو كالمعترضة بين ما يدلّ على البراءة ورفع الأمان عن المشركين إلا أنّها بمنزلة دفع الدخّل الواجب الذي لا يجوز إهماله فإنّ أساس هذه الدعوة الحقّة وما يصاحبها من الوعد والوعيد والتبشير والإنذار ، وما يترتب عليه من عقد العقود وإبرام العهود أو النقض والبراءة وأحكام القتال كلّ ذلك إنّما هو لصرف الناس عن سبيل الغي والضلال إلى صراط الرشدي والهدى ، وإنجائهم من شقاء الشرك إلى سعادة التوحيد .

ولازم ذلك الاعتناء التام بكلّ طريق يرجى فيه الوصول إلى هداية ضالّ والفوز بإحياء حقّ وإن كان يسيراً قليلاً فإنّ الحقّ حقّ وإن كان يسيراً ، والمشرك غير المعاهد وإن أبرأه الله منه الذمّة وأهدر دمه ورفع الحرمة عن كلّ ما يعود إليه من مال وعرض لكنّه تعالى إنّما فعل به ذلك ليحيى حقّ ويبطل باطل فإذا رجي منه الخير منع ذلك من أيّ

قصد سيئ يقصد به حتى يحصل اليأس من هدايته وإنجائه .
 فإذا استجار المشرك لينظر فيما تندب إليه الدعوة الحقّة ويتسبّعها إن اتضحت له
 كان من الواجب إجارته حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل وتمّ عليه الحجّة
 فإذا تمادى بعد ذلك في ضلاله وأصرّ في استكباره صار ممّن ارتفع عنه الأمان و برأت منه
 الذمّة ووجب تطيب الأرض من فذارة وجوده بأية وسيلة أمكنت وأيّ طريق كان أقرب
 وأسهل وهذا هو الذي يفيد قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى
 يسمع كلام الله ثمّ أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » الآية بما يكتنف به من
 الآيات .

فمعنى الآية : إن طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن
 تأمنه في جوارك ليحضر عندك ويكلّمك فيما تدعو إليه من الحقّ الذي يتضمّنه كلام الله
 فأجره حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل ثمّ أبلغه مأمنه حتى يملك منك
 أمناً تامّاً كاملاً ، وإنما شرع الله هذا الحكم وبذل لهم هذا الأمان التامّ لأنّهم قوم
 جاهلون ولا بأس على جاهل إذا رجي منه الخير بقبول الحقّ لو وضح له .
 وهذا غاية ما يمكن مراعاته من أصول الفضيلة وحفظ الكرامة ونشر الرحمة والرأفة
 وشرافة الإنسانية اعتبره القرآن الكريم ، وندب إليه الدين القويم .
 وقد بان بما قدّمناه أولاً : أنّ الآية مخصّصة لعموم قوله في الآية السابقة : « فاقتلوا
 المشركين حيث وجدتموهم » .

وثانياً : أنّ قوله : « حتى يسمع كلام الله » غاية للاستجارة والإجارة فيتغيّأ به
 الحكم ، فلاستئمان إنّما كان لسمع كلام الله و استفسار ما عند الرسول من موادّ الرسالة
 فيتقدّر الأمان الذي يعطاه المستجير المستأمن بقدره فإذا سمع من كلام الله ما يقبّل به
 الرشد من الغيّ و يتميّز به الهدى من الضلال انتهت مدّة الإستجارة وحنّ أن يردّ
 المستجير إلى مأمنه والمكان الخاصّ به الذي هو في أمن فيه ، لا يهدّده فيه سيوف المسلمين
 ليرجع إلى حاله الذي فارقه ، ويختار لنفسه ما يشاء على حرّية من المشيئة والإرادة .
 وثالثاً : إنّ المراد بكلام الله مطلق آيات القرآن الكريم ، نعم يتقيّد بما ينفع

المستجير من الآيات التي توضح له أصول المعارف الإلهية ومعالم الدين و الجواب عما يختلج في صدره من الشبهات كل ذلك بدلالة المقام و السياق .
وبذلك يظهر فساد ما قيل : إن المراد بكلام الله آيات التوحيد من القرآن ، وكذا ما قيل : إن المراد به سورة براءة أو خصوص ما بلغوه في الموسم من آيات صدر السورة فإن ذلك كله تخصيص من غير مخصص .

ورابعاً : أن المراد بسمع كلام الله الوقوف على أصول الدين ومعامله و إن أمكن أن يقال : إن لاستماع نفس كلام الله فيما إذا كان المستجير عربياً يفهم الكلام الإلهي دخلاً في ذلك أما إذا كان غير عربي ولا يفهم الكلام العربي فالاستفاد من السياق أن الغاية في حقه مجرد تفقه أصول الدين ومعامله

وخامساً : أن الآية محكمة غير منسوخة ولا قابلة له لأن من الضروري البين من مذاق الدين ، وظواهر الكتاب و السنة أن لا مؤاخذه قبل تمام الحجّة ، ولا تشديد أي تشديد كان إلا بعد البيان فالجاهل السالك في سبيل الفحص أو المستعلم للحق المستفهم للحقيقة لا يرد خائباً ولا يؤخذ غافلاً فعلى الإسلام والمسلمين أن يعطوا كل الأمان من استأمنهم ليستحضر معارف الدين ويستعلم أصول الدعوة حتى يتسبعا إن لاحت له فيها لوائح الصدق ، وهذا أصل لا يقبل بطلاناً ولا تغييراً مادام الإسلام إسلاماً فالآية محكمة غير قابلة للنسخ إلى يوم القيامة .

ومن هنا يظهر فساد قول من قال : إن قوله : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » الآية منسوخة بالآية الآتية : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » الآية .

وسادساً : أن الآية إنما توجب إجارة المستجير إذا استجار لامرديني يرجى فيه خير الدين ، وأما مطلق الاستجارة للعرض ديني ولا نفع عائد إليه فلا دلالة لها عليه أصلاً بل الآيات السابقة الآمرة بالتشديد عليهم في محلها .

وسابعاً : أن قوله في تتميم الأمر بالإجارة : « ثم أبلغه مأمنه » مع تمام قوله : « فأجره حتى يسمع » بدونه في الدلالة على المقصد يدل على كمال العناية بفتح باب

الهداية على وجوه الناس ، والتحفّظ على حرّية الناس في حياتهم و أعمالهم الحيويّة ، و الإغماض في طريقه عن كلّ حكم حتميّ وعزيمة قاطعة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ، ولا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وثامناً : أن الآيّة - كما قيل - تدلّ على أن الاعتقاد بأصل الدين يجب أن يكون من عام يقينيّ لا يداخله شكّ ولا يمازجه ريب ولا يكفي فيه غيره ولو كان الظنّ الراجح ، وقد ذمّ الله تعالى اتباع الظنّ ، و ندب إلى اتباع العلم في آيات كثيرة كقوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٦ وقوله : « إن يتبعون إلا الظنّ وإن الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً » النجم : ٢٨ وقوله : « و ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » الزخرف : ٢٠ .

ولو كفى في أصل الدين الاعتقاد التقليديّ لم يستقم الحكم بإجارة من استجار لتفهّم أصول الدين ومعارفه لجواز أن يكلف بالتقليد والكفّ عن البحث عن أنه حقّ أو باطل هذا .

ولكنّ المقدار الواجب في ذلك أن يكون عن علم قطعيّ سواء كان حاصلًا عن الاستدلال بطرق فنيّة أو بغير ذلك من الوجوه المفيدة للعلم ولو على سبيل الاتفاق ، وهذا غير القول بأنّ الاستدلال على أصول المعارف لا يصحّ إلا من طريق العقل فإنّ صحّة الاستدلال أمر ، وجواز الاعتماد على العلم بأيّ طريق حصل أمر آخر .

قوله تعالى : « كيف يكون للمشرّكين عهد عند الله وعند رسوله » الآيّة ، تبين و توضيح لما مرّ إجمالاً من الحكم بنقض عهد المشرّكين ممّن لا وثوق بوفائه بعهد ، وقتلهم إلى أن يؤمنوا بالله ويخضعوا لدين التوحيد ، واستثناء من لم ينقض العهد وبقي على الميثاق حتّى ينقضي مدّة عهدهم .

فالآيّة وما يتلوها إلى تمام ستّ آيات تبين ذلك و توضح الحكم واستثناء ما استثنى منه والغاية والمغنيّ جميعاً .

فقوله : « كيف يكون للمشرّكين عهد عند الله وعند رسوله » استفهام في مقام الإنكار ، وقد بادرت الآيّة إلى استثناء الذين عاهدوهم من المشرّكين عند المسجد الحرام

لكونهم لم ينقضوا عهداً ولم يسأهلوا فيما واثقوا به بدليل قوله تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » و ذلك أن الاستقامة لمن استقام والسلم لمن يسالم من لوازم التقوى الديني ، و لذلك علل قوله ذلك بقوله : « إن الله يحب المتقين » كما جاء مثله بعينه في الآية السابقة : « فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

قوله تعالى : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولازمة » إلى آخر الآية قال الرابع في المفردات : الإلّ كلّ حالة ظاهرة من عهد حلف، وقرابة مثلّ : تلمع فلا يمكن إنكاره قال تعالى : لا يرقبون في مؤمن إلا ولازمة ، و ألّ الفرس : أسرع ، حقيقته لمع ، و ذلك استعارة في باب الإسراع نحو برق وطار . انتهى .

وقال أيضاً : الذمام - بكسر الهمزة - ما يذمّ الرجل على إضاعته من عهد ، و كذلك الذمة والذمة ، وقيل : لى ذمة فلا تهتكها ، وأذهب مذمتهم بشيء : أي أعطهم شيئاً ملأهم من الذمام . انتهى وهو ظاهر في أن الذمة مأخوذة من الذمّ بالمعنى الذي يقابل المدح .

ولعلّ إلقاء المقابلة في الآية بين الإلّ و الذمة للدلالة على أنّهم لا يحفظون في المؤمنين شيئاً من الموائيق التي يجب رقبها وحفظها سواء كانت مبنية على أصول واقعية تكوينية كالقرابة التي توجب بوجه على القريب رعاية حال قريبه ، أو على الجعل و الاصطلاح كالعهود والموائيق المعقودة بحلف ونحوه .

وقد كررت لفظة « كيف » للتأكيد و لرفع الإبهام في البيان الناشئ من تخلل قوله : « إلا الذين عاهدتم » الآية بطولها بين قوله : « كيف يكون للمشركين » الآية وقوله : « وإن يظهروا عليكم » الآية .

فمعنى الآية : كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله والحال أنّهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم على الأمر لا يحفظوا ولا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً من العهود يرضونكم بالكلام المدلس والقول المزوّق ، وبأبى ذلك قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون .

و من هنا ظهر أن قوله : « يرضونكم بأفواههم » من المجاز العقليّ نسب فيه الإرضاء إلى الأفواه وهو في الحقيقة منسوب إلى القول و الكلام الخارج من الأفواه المكوّن فيها .

وقوله : « يرضونكم » الآية تعليل لا نكار وجود العهد للمشر كين و لذلك جبي به بالفصل ، والتقدير : كيف يكون لهم عهد وهم يرضونكم بأفواههم و تأتي قلوبهم وأكثروهم فاسقون .

وأما قوله : « وأكثروهم فاسقون » ففيه بيان أن أكثرهم ناقضون للعهد والميثاق بالفعل من غير أن ينتظروا ظهورهم جميعاً عليكم فالآية توضح حال أحادهم وجميعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير أن يرقبوا في مؤمن إلا ولازمة ، ولو أنهم ظهروا عليكم جميعاً لم يرقبوا فيكم إلا والذمة .

قوله تعالى : « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً » إلى آخر الآيتين ، بيان وتفسير لقوله في الآية السابقة : « وأكثروهم فاسقون » وكأن قوله : « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً » إلى آخر الآية توطئة وتمهيد لقوله في الآية الثانية : « لا يرقبون في مؤمن إلا ولازمة » . وبذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد والذمة دون الفسق بمعنى الخروج عن زي عبودية الله سبحانه وإن كان الأمر كذلك .

وقوله : « وأولئك هم المعتدون » كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحية و أعمالهم الجسميّة ، وتفيد الجملة مع ذلك جواباً عن سؤال مقدر أو ما يجري مجراه والمعنى إذا كان هذا حالهم وهذه أفعالهم فلا تحسبوا أن لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فأولئك هم المعتدون عليكم لما أضروه من العداوة والبغضاء وما أظهره أكثرهم في مقام العمل من الصدق عن سبيل الله ، وعدم رعاية قرابة ولا عهد في المؤمنين .

قوله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة » إلى آخر الآيتين ، الآيتان بيان تفصيلي لقوله فيما تقدم : « فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزين الله » . والمراد بالتوبة بدلالة السياق الرجوع إلى الإيمان بالله وآياته ، ولذلك لم يقتصر على التوبة فقط بل عطف عليها إقامة الصلاة التي هي أظهر مظاهر عبادة الله ، وإيتاء الزكاة الذي هو أقوى أركان المجتمع الديني ، وقد أشير بهما إلى نوع الوظائف الدينية التي بآياتها يتم الإيمان بآيات الله بعن الإيمان بالله عز اسمه فهذا معنى قوله : « تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

وأما قوله : « فأخوانكم في الدين » فإمراده بيان التساوي بينهم وبين سائر المؤمنين في الحقوق التي يعتبرها الإسلام في المجتمع الإسلامي : لهم ما للمسلمين وعلينهم ما على المسلمين .

وقد عُبِّرَ في الآية عن ذلك بالأخوة في الدين وقال في موضع آخر : « إنما المؤمنون إخوة » الحجرات : ١٠ اعتباراً بما بينهم من التساوي في الحقوق الدينية فإن الأخوين شقيقان اشتقاً من مادة واحدة وهما لذلك متساويان في الشؤون الراجعة إلى ذلك في مجتمع المنزل عند والدهما الذي هو رب البيت ، و في مجتمع القرابة عند الأقرباء والعشيرة .

و إذ كان لهذا المعنى المسمى بلسان الدين أحكام و آثار شرعية اعتنى بها قانون الإسلام فهو اعتبار حقيقة لنوع من الأخوة بين أفراد المجتمع الإسلامي لها آثار مترتبة كما أن الأخوة الطبيعية فيما اعتبرها الإسلام لها آثار مترتبة عقلانية و دينية وليست تسمية ذلك أخوة مجردة استعارة لفظية عن عناية مجازية ، وفيما نقل عن النبي ﷺ : قوله « المؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدواحدة على من سواهم .

وقوله : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إثمهم لأيمان لهم » الآية ، يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم و ذكر أنهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلا ولا زمة فإنهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد ، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحانه بقوله : « وإن نكثوا أيمانهم » الآية .

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولي الأمر من المسلمين عهد و أيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم ، أي ينقضون عهدهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم و ألغى أيمانهم و سماهم أئمة الكفر لأنهم السابقون في الكفر بآيات الله يتبعهم غيرهم ممن يليهم ، يقاتلون جميعاً لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان و نقض العهود .

قوله تعالى : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول » الآية وما بعدها إلى تمام أربع آيات تحريض للمؤمنين و تهيبج لهم على قتال المشركين ببيان ما

أجرموا به في جنب الله وخانوا به الحق والحقيقة ، وعدّ خطاياهم و طغياناتهم من نكث الأيمان والهيم بإخراج الرسول والبدء بالقتال أوّل مرة .

ثمّ بتعريف المؤمنين أنّ لازم إيمانهم بالله الذي يملك كلّ خير و شرّ ونفع و ضرّ أنّ لا يخشوا إلاّ إياه إن كانوا مؤمنين به ففي ذلك تقوية لقلوبهم و تشجيعهم عليهم ، و ينتهي إلى بيان أنّهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له و القطع من المشركين حتّى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن المتحقّق في إيمانه .

قوله تعالى : « فأتلوهم يعدّ بهم الله بأيديكم » إلى آخر الآيتين . أعاد الأمر بالقتال لأنّه صار من جهة ما تقدّم من التحريض و التحضيص أوقع في القبول فإنّ الأمر الأوّل كان ابتدائياً غير مسبوق بتمهيد و توطئة بخلاف الأمر الثاني الوارد بعد اشتداد الاستعداد و كمال التهيؤ من المأمورين .

على أنّ ما أتبع به الأمر من قوله : « يعدّ بهم الله بأيديكم و يخزهم » - إلى قوله - و يذهب غيظ قلوبهم ، يؤكّد الأمر و يفري المأمورين على امثاله و إجرائه على المشركين فإنّ تذكّرهم أنّ قتل المشركين عذاب إلهي لهم بأيدي المؤمنين ، وأنّ المؤمنين أياد مجرية لله سبحانه وأنّ في ذلك خزيّاً للمشركين و نصرة من الله للمؤمنين عليهم و شفاء لصد و رقوم مؤمنين و إنزهاً لغيظ قلوبهم ، يجزئهم للعمل و ينشّطهم و يصفّي إرادتهم .
وقوله : « و يتوب الله على من يشاء » الآية بمنزلة الاستثناء لئلاّ يجري حكم القتال على إطلاقه .

قوله تعالى : « أم حسبتم أن تتركوا و لمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم » إلى آخر الآية بمنزلة تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال و فيه بيان حقيقة الأمر ، و محصّله أنّ الداردار الامتحان و الابتلاء فإنّ نفوس الآدميين تقبل الخير و الشرّ و السعادة و الشقاوة فهي في أوّل كينونتها ساذجة مبهمّة ، و مراتب القرب و الزلفى إنّما تبذل بإزاء الإيمان الخالص بالله و آياته ، ولا يظهر صفاء الإيمان إلاّ بالامتحان الذي يورد المؤمن مقام العمل ، ليميز الله بذلك الطيب من الخبيث ، و الصافي الإيمان ممن ليس عنده إلاّ مجرّد الدعوى أو المزعومة .

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدّعون أنفسهم باعوا أنفسهم و أموالهم لله بأن لهم الجنة ، وابتلوا بمثل القتال الذي يميّز به الصادق من الكاذب و يفصل الذي قطع روابط المحبة و الصلة من أعداء الله سبحانه ممن في قلبه بقايا من ولايتهم و مودتهم حتى يحيى هؤلاء و يهلك أولئك .

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا إليه و يتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم و حقيقة إيمانهم و يحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلا بحجة الحق .
فقوله : « أم حسبتم أن تتركوا ، أي بل أظننتم أن تتركوا على ما أنتم عليه من الحال و لمّا تظهر حقيقة صدقكم في دعوى الإيمان بالله و بآياته .

وقوله : « و لمّا يعلم الله » الآية أي و لمّا يظهر في الخارج جهادكم و عدم اتخاذكم من دون الله و لارسله و لا المؤمنين وليجة فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها وقد مرّ نظير الكلام مع بسط مسأفي تفسير قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية آل عمران : ١٥٢ في الجزء الرابع من الكتاب . و من الدليل على هذا الذي ذكرنا في معنى العلم قوله في ذيل الآية : « والله خبير بما تعملون » .

و الوليجة على ما في مفردات الراغب كل ما يتخذة الإنسان معتمداً عليه و ليس من أهله

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « براءة من الله و رسوله » حدّثني أبي عن محمد بن الفضل عن ابن أبي عمير عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة .

قال : و كان رسول الله ﷺ لمّا فتح مكة لم يمنع المشركين الحجّ في تلك السنة ، و كان سنة من العرب في الحجّ أنّه من دخل مكة و طاف البيت في ثيابه لم يحلّ له إمساكها ، و كانوا يتصدّقون بها و لا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوباً و يطوف فيه ثمّ يردّه ، و من لم يجده عارية و لا كرى و لم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عرباناً .

فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوباً غارية أو كرى فلم تجده فقالوا لها : إن طف في ثيابك احتجت أن تتصدق في بها فقالت : كيف أتصدق وليس لي غيرها ؟ فطافت بالبيت عريانة و أشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها و الأخرى على دبرها وقالت شعراً :

اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدامنه فلا أحله

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة فقالت : إن لي زوجاً .

وكانت سيرة رسول الله ﷺ قبل نزول سورة براءة أن لا يقاتل إلا من قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراده ، وقد كان أنزل عليه [في] ذلك «فإن اعترلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً» فكان رسول الله ﷺ لا يقاتل أحداً قد تنحى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين من اعترله و من لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله ﷺ يوم فتح مكة إلى مدة : منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فقال الله عز وجل : «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد هذه أشهر السياحة : عشر بن من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر .

فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله ﷺ إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقراها على الناس بمنى يوم النحر فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال : يا بني لا يؤدّي عنك إلا رجل منك .

فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليّاً في طلب أبي بكر فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أنزل الله في شيئاً ؟ فقال : لا إن الله أمرني أن لا يؤدّي عني إلا أنا أو رجل مني .

وفي تفسير العياشي عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أن رسول الله بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقراها على الناس فنزل جبرئيل فقال : لا يبلغ عنك إلا علي فدعا رسول الله ﷺ عليّاً وأمر أن يركب ناقته العضباء ، وأمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءة ويقراها على الناس بمكة فقال أبو بكر : أسخط ؟ فقال : لا إلا أنه أنزل عليه أنه لا

يبلغ إلا رجل منك .

فلما قدم على مكة و كان يوم النحر بعد الظهر وهو يوم الحج الأكبر قام ثم قال : إني رسول رسول الله إليكم فقرأها عليهم : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » عشرين من ذي الحجة و المحرم و صفر و شهر ربيع الأول و عشراً من شهر ربيع الآخر ، وقال : لا يطوف بالبيت عريان ولا عريانة ولا مشرك بعدها العام ، و من كان له عهد عند رسول الله ﷺ فمدته إلى هذه الأربعة أشهر .
أقول : المراد تعيين المدة للعهود التي لامدة لها بقرينة ماسياتي من الرواية ، و أما العهود التي لها مدة فاعتبارها إلى مدتها مدلول لنفس الآيات الكريمة .

وفي تفسير العياشي و المجمع عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : خطب علي عليه السلام بالناس و اخترط سيفه وقال : لا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يحجنن بالبيت مشرك ، و من كانت له مدة فهو إلى مدته ، و من لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر ، و كان خطب يوم النحر ، و كانت عشرون من ذي الحجة و المحرم و صفر و شهر ربيع الأول و عشر من شهر ربيع الآخر ، وقال : يوم النحر يوم الحج الأكبر .

أقول : و الروايات من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذه المعاني فوق حد الإحصاء .
وفي الدر المنثور أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة علي النبي ﷺ دعا أبا بكر رضي الله عنه ليقراها على أهل مكة ثم دعاني فقال لي : أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه .

ورجع أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله نزل في شيء ؟ قال : لا ولكن جبريل جاءني فقال : لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك .

وفيه أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر رضي الله عنه ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث علياً رضي الله عنه على أثره فأخذها منه فكان أبا بكر وجد في نفسه فقال النبي ﷺ : يا أبا بكر إنه لا يؤدّي عنّي إلا أنا أو رجل منّي .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي رافع رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه براءة إلى الموسم فأتى جبرئيل عليه السلام فقال : إنه لا يؤدبها إلا أنت أو رجل منك فبعث علياً رضي الله عنه على أثره حتى لحقه بين مكة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس في الموسم .

وفيه أخرج ابن حبان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه يؤدب عنه براءة فلما أرسله بعث إلى علي رضي الله عنه فقال : يا علي لا يؤدبني إلا أنا أو أنت فحمله على ناقته العضباء فسار حتى لحق بأبي بكر رضي الله عنه فأخذ منه براءة .

فأتى أبو بكر النبي ﷺ وقد دخله من ذلك مخافة أن يكون قد أنزلت فيه شيء فلما أتاه قال : مالي يا رسول الله ؟ قال : خير أنت أخي وصاحبني في الغار وأنت معي على الحوض غير أنه لا يبلغ عني إلا رجل مني .

أقول : وهناك روايات أخرى في معنى ما تقدم ، وقد نقل في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب أنه رواه الطبرسي ، والبلاذري ، والترمذي ، والواقدي ، والشعبي ، والسدي ، والثعلبي ، والواحدي ، والقرطبي ، والقشيري ، والسمعاني ، وأحمد بن حنبل ، وابن بطنة ، ومحمد بن إسحاق ، وأبو يعلى الموصلي ، والأعمش ، وسماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير ، وأبي هريرة ، وأنس ، وأبي رافع ، وزيد بن نفيح ، وابن عمر ، وابن عباس ، واللفظ له : إنه لما نزل : « براءة من الله ورسوله إلى تسع آيات أنفذ النبي ﷺ أبا بكر إلى مكة لأدائها فنزل جبرئيل وقال : إنه لا يؤدبها إلا أنت أو رجل منك فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أركب ناقتي العضباء والحق أبا بكر وخذ براءة من يده .

قال : ولما رجع أبو بكر إلى النبي ﷺ جزع وقال : يا رسول الله إنك أهملتي لأمر طالت الأعناق فيه فلما توجهت إليه رددتني منه ؟ فقال ﷺ : الأمين هبط إلي عن الله تعالى : أنه لا يؤدبني منك إلا أنت أو رجل منك ؛ وعلي مني ولا يؤدبني عني إلا علي .

وفيما نقلناه من الروايات وما تر كناه منها وهو أكثر وفيما سيجيء في هذا الباب نكتتان أصليتان .

إحدهما : أن بعث النبي ﷺ علياً ببراءة وعزله أبا بكر إنما كان بأمر من ربه بنزول جبرئيل : «إنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» ولم يقيد الحكم في شيء من الروايات ببراءة أو نقض العهد فلم يرد في شيء منها : لا يؤدي براءة أو لا ينقض العهد إلا أنت أو رجل منك فلا دليل على تقييده ببراءة على ما وقع في كثير من التفاسير ؛ ويؤيد الإطلاق ما سيأتي .

وثانيتها : أن علياً ﷺ كما كان ينادي ببراءة ، كذلك كان ينادي بحكم آخر وهو أن من كان له مدة فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر ؛ وهذا أيضاً مما يدل عليه آيات براءة .

وبحكم آخر وهو أنه لا يطوفن بالبيت عريان ، وهو أيضاً حكم إلهي مدلول عليه بقوله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » الأعراف : ٣١ وقد ورد في بعض الروايات ذكر الآية مع الحكم كما سيجيء .

وحكم آخر أنه لا يطوف أو لا يحج البيت مشرك بعد هذا العام وهو مدلول قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » التوبة : ٢٨ .

وهناك أمر خامس ذكر في بعض روايات الباب أنه ﷺ كان ينادي به وهو أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن وهذا وإن لم يذكر في سائر الروايات ، والاعتبار لا يساعد على ذلك لنزول آيات كثيرة مكّية ومدنية في ذلك وخفاء الأمر في ذلك على المشركين إلى سنة تسع من الهجرة كالمحال عادة لكن ذلك أيضاً مدلول للآيات الكرّمة^(١) ، وعلى أي حال لم تكن رسالة علي ﷺ مقصوداً على تأدية آيات براءة بل لها ولتبلغ ثلاثة أو أربعة أحكام قرآنية أخرى ، وجميع مشمول لما أنزل به جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله : أنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك ، إذ لا دليل على تقييد الكلام

(١) وأما على ما في بعضها بدلا من ذلك : « لا يدخل الكعبة - أو البيت - إلا مؤمن » فالحكم المستفاد منه نظير الحكم بأنه لا يطوفن بالبيت مشرك حكم ابتدائي .

على إطلاقه أصلاً .

وفي الدر المنثور أخرج الترمذي وحسنه و ابن أبي حاتم والحاكم وصححه و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر رضي الله عنه وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات ثم أتبعه علياً رضي الله عنه وأمره أن ينادي بها فانطلقا فحجبا فقام علي رضي الله عنه في أيام التشريق فنادى : أن الله بريء من المشركين ورسوله فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ولا يحجبن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا المؤمنون فكان علي رضي الله عنه ينادي بها .

أقول : والخبر قريب المضمون مما استفدناه من الروايات .

وفيه أخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن أبا بكر رضي الله عنه أمره أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر . قال أبو هريرة : ثم أتبعنا النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر رضي الله عنه على الموسم كما هو - أو قال : على هيئته . -

أقول : وقد ورد من عدة من طرق أهل السنة : أن النبي استعمل أبا بكر على الحج عامه ذلك فكان هو أمير الحاج وعلي ينادي ببراءة وقد روت الشيعة أنه ﷺ استعمل للإمارة علياً كما أنه حمله تأدية آيات براءة وقد ذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان ورواه العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام ، وربما تأيد ذلك بما ورد أن علياً كان يقضي في سفره ذلك ، و أن النبي ﷺ دعا له في ذلك إذ من المعلوم أن مجرد الرسالة بتأدية براءة لا تتضمن الحكم بالقضاء بين الناس ، وأوفق ما يكون ذلك في تلك الأيام بالإمارة ، والرواية ما سيأتي :

في تفسير العياشي عن الحسن عن علي عليه السلام أن النبي ﷺ حين بعثه ببراءة قال : يا نبي الله إنني لست بلسن ولا بخطيب قال عليه السلام : يا أباي الله ما بي إلا أن أذهب بها أو تذهب أنت قال : فإن كان لابد فسأذهب أنا قال : فانطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك ثم وضع يده على فمه فقال : انطلق واقرها على الناس ، وقال عليه السلام : الناس

سيتقاضون إليك فإذا أتاك الخصمان فلا تقض لواحد حتى تسمع الآخر فإنه أجدر أن تعلم الحق .

أقول : وهذا المعنى مروى من طرق أهل السنة كما في الدر المنثور عن أبي الشيخ عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ببراءة فقلت : يا رسول الله تبعثني وأنا غلام حديث السن وأسال عن القضاء ولا أدري ما أجيب ؟ قال : ما بد من أن تذهب بها أو أذهب بها قلت : إن كان لا بد أنا أذهب ، قال : انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك ثم قال : انطلق واقرها على الناس .

إلا أن اشتمال الرواية على لفظ اليمن يسيء الظن بها إذ من البين من لفظ آيات براءة أنها مقررة على أهل مكة يوم الحج الأكبر بمكة وأين ذلك من اليمن وأهلها وكان لفظ الرواية كان : « إلى مكة » فوضع موضع « إلى اليمن » تصحيحاً لما اشتملت عليه من حديث القضاء .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنت مع علي رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ ، بعث علياً بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى عهده ، وأن الله ورسوله بريء من المشركين .

أقول : وهذا المعنى مروى عن أبي هريرة بعدة طرق بألفاظ مختلفة لا تخلو من شيء في متنها - على ما سيجي - - وأمتن الروايات متناهذه التي أوردناها .

وفيه أخرج أحمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فكنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أمره أو أجله إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك .

أقول : وفي متن الرواية اضطراب بين ، أمّا أولاً : فلاشتمالها على النداء بأنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وقد سبق أنه نزلت في معناه آيات كثيرة مكّية ومدنية منذ سنين

وقد سمعها الحضريّ والبدويّ والمشرک والمؤمن فأنيّ حاجة متصوّرة إلى إبلاغها أهل الجمع .

وأما ثانياً : فلأنّ النداء الثاني أعني قوله : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد الخ لا ينطبق لا على مضامين الآيات ولا على مضامين الروايات المتظافرة السابقة ، على أنه قد جعل فيه البراءة بعد مضي أربعة أشهر .
وأما ثالثاً : فلما سنذكره ذيلاً .

وفيه أخرج البخاريّ ومسلم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجّة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ثمّ أذرف النبيّ ﷺ بعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وفي تفسير المنار عن الترمذيّ عن ابن عباس أنّ النبيّ ﷺ بعث أبا بكر - إلى أن قال - فقام عليّ أيام التشريق فنادى : ذمّة الله وذمّة رسوله بريئة من كلّ مشرك فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجّسنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلاّ كلّ مؤمن فكان عليّ ينادي بها فإذا حجّ قام أبو هريرة فنادى بها .
وفيه أيضاً عن أحمد والنسائيّ - من طريق محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ببراءة فكننا ننادي أن لا يدخل الجنة إلاّ كلّ نفس مسلمة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحجّ بعد العام مشرك فكنّا ننادي حتّى صحل صوتي .

أقول : قد عرفت أنّ الذي وقع في الروايات على كثرتها في قصة بعث عليّ و عزل أبي بكر من كلمة الوحي الذي نزل به جبرئيل على النبيّ ﷺ هو قوله : « لا يؤدّي عنك إلاّ أفت أو رجل منك » ، وكذا ما ذكره النبيّ ﷺ حين أجاب أبا بكر لما سأله عن سبب عزله ، إنّما هو متنّ ما أوحى إليه الله سبحانه أو قوله - وهو في معناه - : « لا يؤدّي عنّي إلاّ أنا أو رجل منّي » .

و كيفما كان فهو كلام مطلق يشمل تأدية براءة و كل حكم إلهي احتاج النبي ﷺ إلى أن يؤدّيه عنه مؤدّ غيره ، ولا دليل لامن متون الروايات ولا غيرها يدل على اختصاص ذلك ببراءة ، وقد اتضح أن المنع عن طواف البيت عرباناً والمنع عن حج المشركين بعد ذلك العام و كذا تأجيل من له عهد إلى مئة أو من غير مئة كل ذلك أحكام إلهية نزل بها القرآن فمما معنى إرجاع أمرها إلى أبي بكر أو نداء أبي هريرة بها وحده أو نداءه ببراءة و سائر الأحكام المذكورة في الجمع إذ أصبح عليّ ﷺ حتى يصلح صوته من كثرة النداء ؟ ولو جاز لأبي هريرة أن يقوم بها و الحال هذه فلم لم يجز لأبي بكر ذلك ؟

نعم أبدع بعض المفسرين كابن كثير و أتراهنا وجهاً وجهوا به ما تضمنته هذه الروايات انتصاراً لها وهو أن قوله : « لا يؤدّي عني إلا أنا أو رجل مني » مخصوص بتأدية براءة فقط من غير أن يشمل سائر الأحكام التي كان ينادي بها عليّ ﷺ ، و أن تعيينه ﷺ عليّاً بتبليغ آيات براءة أهل الجمع إنما هو لما كان من عادة العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته و مراعاة هذه العادة الجارية هي التي دعت النبي ﷺ أن يأخذ براءة - وفيها نقض ما للمشركين من عهد - من أبي بكر و يسلمها إلى عليّ ﷺ ليستحفظ بذلك السنة العربية فيؤدّ بها عنه بعض أهل بيته .

قالوا : وهذا معنى قوله ﷺ لما سأله أبو بكر قائلاً : يا رسول الله هل نزل في شيء ؟ قال : « لا ولكن لا يؤدّي عني إلا أنا أو رجل مني » ومعناه أنني إنما عزلتكم و نصبت عليّاً لذلك لئلا أنقض هذه السنة العربية الجارية .

ولذلك لم ينفصل أبو بكر من شأنه فقد كان قلده إمامة الحاج و كان لأبي بكر مؤذنون يؤذنون بهذه الأحكام كأبي هريرة و غيره من الرجال الذين لم يذكر أسماءهم في الروايات ، وكان عليّ ﷺ أحد من عنده لهذا الشأن ، ولذا ورد في بعضها : أنه خطب بمنى و لما فرغ من خطبته التفت إلى عليّ ﷺ وقال : قم يا عليّ و أدّ رسالة رسول الله ﷺ . وهذا ما ذكره و وجهوا به الروايات .

والباحث الناقد إذا راجع هذه الآيات و الروايات ثم تأمل ماجرت من المشاجرات الكلامية بين الفريقين : أهل السنة و الشيعة في باب الأفضلية لم يرتب في أنفسهم خلطوا بين

البحث التفسيري الذي شأنه تحصيل مداليل الآيات القرآنية ، والبحث الروائي الذي شأنه نقد معاني الأحاديث وتمييز غشها من سمينها ، وبين البحث الكلامي الناظر في أن أبا بكر أفضل من علي أو علياً أفضل من أبي بكر؟ وفي أن إمامة الحاج أفضل أو الرسالة في تبليغ آيات براءة؟ و لمن كان إمامة الحج؟ إن ذاك لأبي بكر أو لعلي؟ أما البحث الكلامي فلسنا نشتغل به في هذا المقام فهو خارج عن غرضنا ، وأما البحث الروائي أو التفسيري فيما يرتبط به الآيات إلى أسباب نزولها مما يتعلّق بمعاني الآيات فالذي ينبغي أن يقال بالنظر إليه أنهم أخطؤوا في هذا التوجيه .

فليت شعري من أين تسلّموا أن هذه الجملة التي نزل بها جبرئيل : « إنه لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك » مقيّدة بنقض العهد لا يدلّ على أزيد من ذلك ، ولا دليل عليه من نقل أو عقل فالجملة ظاهرة أتمّ ظهور في أن ما كان على رسول الله ﷺ أن يؤدّ به لا يجوز أن يؤدّ به إلا هو أو رجل منه سواء ، كان نقض عهد من جانب الله كما في مورد براءة أو حكماً آخر إلهياً على رسول الله ﷺ أن يؤدّ به ويبلغه .

وهذا غير ما كان من أقسام الرسالة منه ﷺ مما ليس عليه أن يؤدّ به بنفسه الشريفة كالكتب التي أرسل بها إلى الملوك والأمم والأقوام في الدعوة إلى الإسلام وكذا سائر الرسائل التي كان يبعث بها رجالاً من المؤمنين إلى الناس في أمور يرجع إلى دينهم والإمارات والولايات ونحو ذلك .

ففرق جلّي بين هذه الأمور وبين براءة ونظائرها فإن ما تنضمّنه آيات براءة و أمثال النهي عن الطواف عرياناً ، والنهي عن حجّ المشركين بعد العام أحكام إلهية ابتدائية لم تبلغ بعد ولم تؤدّ إلى من يجب أن تبلغه ، وهم المشركون بمكة والحجّاج منهم ، ولا رسالة عن الله في ذلك إلا لرسوله ، وأما سائر الموارد التي كان يكتفي النبي ﷺ ببعث الرسل للتبليغ فقد كانت مما فرغ ﷺ فيها من أصل التبليغ والتأدية ، بتبليغه من وسعه تبليغه ممن حضر كالدعوة إلى الإسلام وسائر شرائع الدين ، وكان يقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » ثم إذا مسّت الحاجة إلى تبليغه بعض من لا وثوق عادة ببلوغ الحكم إليه

أولا أثر لمجرد البلوغ إلا أن يعتني لشانه بكتاب أرسول توسل عند ذلك إلى رسالة أو كتاب كما في دعوة الملوك .

وليتأمل الباحث المنصف قوله : « لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك » فقد قيل : « لا يؤدّي عنك إلا أنت » ولم يقل : « لا يؤدّي إلا أنت أو رجل منك » حتى يفيد اشتراك الرسالة ، ولم يقل : « لا يؤدّي منك إلا رجل منك » حتى يشمل سائر الرسائل التي كان ﷺ يقلدها كل من كان من صالحى المؤمنين فإتّما مفاد قوله : « لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك » أن الأمور الرساليّة التي يجب عليك نفسك أن تقوم بها لا تقوم بها غيرك عوضاً عنك إلا رجل منك أي لا يخلّفك فيما عليك كالتأدية الابتدائيّة إلا رجل منك .

ثم ليت شعري ما الذي دعاهم إلى أن أهملوا كلمة الوحي التي هي قول الله نزل به جبرئيل على النبي ﷺ : « لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك » وذكرها مكانها أنه « كانت السنّة الجارية عند العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته » تلك السنّة العربيّة التي لا خبر عنها في أيامهم ومغازيهم ولا أثر إلا ما ذكره ابن كثير و نسبه إلى العلماء عند البحث عن آيات برائة !

ثم لو كانت سنّة عربيّة جاهليّة على هذا النعت فما وزنها في الإسلام وما هي قيمتها عند النبي ﷺ وقد كان ينسخ كل يوم سنّة جاهليّة وينقض كل حين عادة قوميّة ، ولم تكن من جملة الأخلاق الكريمة أو السنن والعادات النافعة بل سليقة قبائليّة تشبه سلائق الأشراف وقد قال ﷺ يوم فتح مكّة عند الكعبة على مارواه أصحاب السير « ألا كل مائرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » .

ثم لو كانت سنّة عربيّة غير مذمومة فهل كان رسول الله ﷺ زهل عنها و نسيها حين أسلم الآيات إلى أبي بكر وأرسله ، وخرج هو إلى مكّة حتى إذا كان في بعض الطريق ذكر ﷺ ما نسيه أو ذكره بعض من عنده بما أهمله و زهل عنه من أمر كان من الواجب مراعاته ؟ وهو ﷺ المثل الأعلى في مكارم الأخلاق واعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم و حسن التدبير ، و كيف جاز لهؤلاء المذكرين أن يغفلوا عن ذلك و ليس من الأمور التي يغفل عنها وتخفى عادة فإتّما الذهول عنه كغفلة المقاتل عن سلاحه ؟

وهل كان ذلك بوحى من الله إليه أنه يجب له أن لا يلغى هذه السنة العربية الكريمة ، وأن ذلك أحد الأحكام الشرعية في الباب وأنه يحرم على ولي أمر المسلمين أن ينقض عهداً إلا بنفسه أو بيد أحد من أهل بيته ؟ وما معنى هذا الحكم ؟
 أو أنه حكم أخلاقي اضطر إلى اعتباره لما أن المشركين ما كانوا يقبلون هذا النقص إلا بأن يسمعه من النبي ﷺ نفسه أو من أحد من أهل بيته ؟ وقد كانت السيطرة يومئذ له ﷺ عليهم ، والزمام بيده دونهم ، والإبلاغ بإبلاغ .
 أو أن المؤمنين المخاطبين بقوله : «عاهدتم» وقوله : « و أذان من الله و رسوله إلى الناس » ، وقوله : « فافتلوا المشركين » ما كانوا يعتبرون هذا النقص نقضاً دون أن يسمعه منه صلى الله عليه وآله أو من واحد من أهل بيته وإن علموا بالنقض إذا سمعوا الآيات من أبي بكر ؟

ولو كان كذلك فكيف قبله واعتبره نقضاً من سمعه من أبي هريرة الذي كان ينادي به حتى صحل صوته ؟ وهل كان أبو هريرة أقرب إلى علي وأمس به من أبي بكر إلى رسول الله ﷺ فالحق أن هذه الروايات الحاكية لنداء أبي هريرة وغيره غير سديدة لا ينبغي الركون إليها .

قال صاحب المنار في تفسيره : جملة الروايات تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع ، وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم ممنوعون منه بعد ذلك العام ثم أرفه بعلي ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ، و أن العهود الموقفة أجلها نهاية وقتها ، و يتلو عليهم الآيات المتضمنة لمسألة نبذ العهود و ما يتعلق بها من أول سورة براءة .

وهي أربعون أو ثلاث و ثلاثون آية ، و ما ذكر في بعض الروايات من التردد بين ثلاثين و أربعين فتعير بالأعشار مع إلغاء كسرها من زيادة و نقصان .

و ذلك لأن من عادة العرب أن العهود و نبذها إنما تكون من عاقدها أو أحد عصبته القريبة ، و أن علياً كان مختصاً بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر الذي كان يساعده على ذلك و يأمر بعض الصحابة كأبي هريرة بمساعدته . انتهى .

وقال أيضا : إن بعض الشيعة يكبرون هذه المزية لعلي عليه السلام كعادتهم ويضيفون إليها ما لا تصح به رواية ، ولا تؤيده دراية فيستدلون بها على تفضيله على أبي بكر رضي الله عنهما وكونه أحق بالخلافة منه ، ويزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم عزل أبا بكر من تبليغ سورة براءة لأن جبرئيل أمره بذلك ، وأنه لا يبلغ عنه إلا هو أو رجل منه ولا يخصون هذا النبي بتبليغ نبي العهود وما يتعلق به بل يجعلونه عاماً لأمر الدين كله .

مع استفادة الأخبار الصحيحة بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة كالجهاد في حمايته والدفاع عنه ، وكونه فرصة لأفضلية فقط ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على مسمع الألوف من الناس : « ألا فليبلغ الشاهد الغائب » وهو مكرر في الصحيحين وغيرهما ، وفي بعض الروايات عن ابن عباس : « فوالذي نفسي بيده إنها لو وصيته إلى أمته » فليبلغ الشاهد الغائب ، الخ وحديث : « بلغوا عني ولو آية » رواه البخاري في صحيحه والترمذي ، ولولا ذلك لما انتشر الإسلام ذلك الانتشار السريع في العالم . بل زعم بعضهم - كما قيل - أنه صلى الله عليه وسلم عزل أبا بكر من إمارة الحج وولاهها علياً ، وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها الخاص والعام .

والحق أن علياً كرم الله وجهه كان مكلفاً بتبليغ أمر خاص ، وكان في تلك الحجة تابعاً لأبي بكر في إمارته العامة في إقامة ركن الإسلام الاجتماعي العام حتى كان أبو بكر يعين له الوقت الذي يبلغ ذلك فيه فيقول : يا علي قم فبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم التصريح به في الروايات الصحيحة كما أمر بعض الصحابة بمساعدته على هذا التبليغ كما تقدم في حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما . ثم ساق الكلام واستدل بإمارة أبي بكر في تلك الحجة - وضم إليها صلته موضع النبي صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته - على تقدمه وأفضليته من جميع الصحابة على من سواه انتهى .

أمّا قوله : مع استفادة الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة إلى آخر

ما قال فيكشف عن أنه لم يحصل معنى كلمة الوحي : « لا يؤدّي عنك إلا أمت أو رجل منك » حقّ التحصيل ، ولم يفرّق بين قولنا : « لا يؤدّي منك إلا رجل منك » وبين قوله : « لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك » فزعم أن الكلام بإطلاقه يمنع عن كلّ تبليغ ديني يتصدّاه غير النبي ﷺ أو رجل منه فدفع ذلك باستفاضة الأخبار بوجود تبليغ الدين على المسلمين كافةً وقيد به إطلاق قوله : « لا يؤدّي عنك » الخ فجعله خاصاً بتبليغ نبد العهد بعد تحويل الحكم الإلهي إلى سنة عربية جاهلية .

وقد ساقه اشتباه معنى الكلمة إلى أن زعم أن إبقاء الكلام على إطلاقه مشاؤه الغفلة عن أمر هو كالضروريّ عند عامة المسلمين أعني وجوب التبليغ العامّ حتّى استدلّ على ذلك بما في الصحيحين وغيرهما من قوله ﷺ : « فليبلغ الشاهد الغائب » ، وقد عرفت ما هو حقّ المعنى لكلمة الوحي .

وأما قوله : « بل زعم بعضهم كما قيل أنه عزل أبابكر من إمارة الحجّ وولاه علياً وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها العامّ والخاصّ ، فليس ذلك زعماً من البعض ولا بهتاناً كما بهته بل رواية روتها الشيعة وقد أوردناها في ضمن الروايات المتقدمة .

وليس التوغّل في مسألة الإمارة ممّا يهمنّا في تفهّم معنى قوله : « لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك » فإمارة الحاجّ سواء صحّت لأبي بكر أو لعليّ ، دلّت على فضل أولم تدلّ إنّما هي من شعب الولاية الإسلامية العامة التي شأنها التصرف في أمور المجتمع الإسلاميّ الحيويّة ، وإجراء الأحكام و الشرائع الدينيّة ، ولا حكومة لها على المعارف الإلهيّة وموادّ الوحي النازلة من السّماء في أمر الدين .

إنّما هي ولا يقرّ رسول الله ﷺ ينصب يوماً أبابكر أو علياً لإمارة الحاجّ ، ويؤمّر يوماً أسامة على أبي بكر وعامة الصحابة في جيشه ، ويؤمّر يوماً ابن أمّ مكتوم على المدينة وفيها من هو أفضل منه ، ويؤمّر هذا مكّة بعد فتحها ، وذاك اليمن ، وذلك أمر الصدقات ، وقد استعمل ﷺ أبا رجانة الساعديّ أوسباع بن عرفطة الغفاريّ على ما في سيرة ابن هشام على المدينة عام حجة الوداع ، وفيها أبو بكر لم يخرج إلى الحجّ على ما

رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم وإنما تدل على إزعانه ﷺ بصلاحيته من نصبه لأمر لتصديقه وإدارة رحاه .

وأما الوحي السماوي بما يشتمل عليه من المعارف والشرائع فليس للنبي ﷺ ولا لمن دونه صنع فيه ، ولا تأثير فيه مما له من الولاية العامة على أمور المجتمع الإسلامي بإطلاق أو تقيد أو إعضاء أو نسخ أو غير ذلك ، ولا تحكم عليه سنة قومية أو عادة جارية حتى توجب تطبيقه على ما يوافقها أو قيام العصبة مقام الإنسان فيما يهتمه من أمر .

والخلط بين البابين يوجب نزول المعارف الإلهية من أوج ملوها وكرامتها إلى حضيض الأفكار الاجتماعية التي لا حكومة فيها إلا للرسوم والعادات والاصطلاحات ، فيعود الإنسان يفسر حقائق المعارف بما يسعه الأفكار العامة ويستعظم ما استعظمه المجتمع دون ما عظمه الله ، ويستصغر ما استصغره الناس حتى يقول القائل في معنى كلمة الوحي إنه عادة عربية محترمة .

وأنت إذا تأملت هذه القصة - أخذ آيات براءة من أبي بكر وإعطائها علياً على ما تفصّلها الروايات - وجدت فيها من مساهلة الرواة وتوسّعهم في حفظ القصة بما لها من الخصوصيات - إن لم يستند إلى غرض آخر - أمراً عجبياً ففي بعضها - وهو الأكثر - أنه ﷺ بعث أبا بكر بالآيات ثم بعث علياً وأمره أن يأخذها منه ويتلوها على الناس فرجع أبو بكر النخ ، وفي بعضها أنه بعث أبا بكر بإمارة الحج ثم بعث علياً بعده بآيات براءة ، وفي بعضها : أن أبا بكر أمره بالتبليغ وأمر بعض الصحابة أن يشاركه في النداء حتى آل الأمر إلى مثل ما رواه الطبري وغيره عن مجاهد في قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » إلى أهل العهد خزاعة ومدالج ومن كان له عهد وغيرهم . أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ثم قال : إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك فأرسل أبا بكر وعلياً فظافا في الناس بندي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يبيعون بها وبال موسم كلّه فأذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر وهي الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات : عشرون

من آخر ذي الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الأول^(١) ثم عهد لهم و آذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا .

وإذا كان هذا هو الحال فما معنى قوله : « بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عملية عرفها العام و الخاص » ؟ فإن كان يعني : عرفها العام و الخاص في عصر النبي ﷺ ممن شاهد الأمر أو سمع ذلك ممن شاهد و وصفه فما ذا ينفعنا ذلك ؟ وإن كان يعني : أن العام و الخاص ممن يلي عهد النبي ﷺ أو يلي من يليه عرفا ذلك ولم يشك أحد في ذلك فهذا حال الروايات المنقولة عنهم لا يجتمع على كلمة . منها ما يحكي أن علياً اختص بتأدية براءة و أخرى تدل على أن أبا بكر شاركه فيه ، و أخرى تدل على أن أبا هريرة شاركه في التأدية ورجال آخرون لم يسموا في الروايات .

ومنها ما يدل على أن الآيات كانت تسع آيات ، و أخرى عشر ، و أخرى ست عشرة ، و أخرى ثلاثين ، و أخرى ثلاثاً و ثلاثين ، و أخرى سبعاً و ثلاثين ، و أخرى أربعين ، و أخرى سورة براءة .

و منها ما يدل على أن أبا بكر ذهب لوجهه أميراً على الحاج ، و أخرى على أنه رجع حتى أو له بعضهم كابن كثير أنه رجع بعد إتمام الحج ، و آخرون أنه رجع ليسأل النبي ﷺ عن سبب عزله ، و في رواية أنس الآتية أنه صلى الله عليه و آله بعث أبا بكر ببراءة ثم دعاه فأخذها منه .

و منها ما يدل على أن الحجّة وقعت في ذي الحجّة وأن يوم الحج الأكبر تمام أيام تلك الحجّة أو يوم عرفة أو يوم النحر أو اليوم التالي ليوم النحر أو غير ذلك و أخرى أن أبا بكر حج في تلك السنة في ذي القعدة .

و منها ما يدل على أن أشهر السياحة تأخذ من شوال ، و أخرى من ذي القعدة ، و أخرى من عاشر ذي الحجّة ، و أخرى من الحادي عشر من ذي الحجّة و غير ذلك . و منها ما يدل على أن الأشهر الحرم هي ذو القعدة و ذو الحجّة و المحرم من

تلك السنة ، و أخرى على أنها أشهر السياحة تبتدى من يوم التبليغ أو يوم النزول .
فهذا حال اختلاف الروايات ، و مع ذلك كيف يستقيم دعوى أنه أمر عرفه العام
و الخاص ، و بعض الاحتمالات السابقة و إن كان قولاً من مفسري السلف إلا أن المفسرين
يعاملون أقوالهم معاملة الروايات الموقوفة .

و أما قوله : و الحق أن علياً كان مكلفاً بتبليغ أمر خاص وكان في تلك الحجة
تابعاً لأبي بكر في إمارته إلى آخر ما قال فلاريب أن الذي بعث به النبي ﷺ علياً
من الأحكام كان أمراً خاصاً و هو تلاوة آيات براءة و سائر ما يلحق بها من الأمور
الأربعة المتقدمة غير أن الكلام في أن كلمة الوحي : « لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل
منك » لا تختص في دلالتها بتأدية آيات براءة على ما تقدم بيانه فلا ينبغي الخلط
بين ما يدل عليه الكلمة و بين ما أمر به علي في خصوص تلك السفارة .

و أما قوله : و كان في تلك الحجة تابعاً الخ فأمر استفاده من كلام أبي هريرة و
ما يشبهه ، و قد عرفت الكلام فيه .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و الترمذي و حسنه و أبو الشيخ و
ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : بعث النبي ﷺ علياً و سلم ببراءة مع أبي بكر
رضي الله عنه ثم دعاه فقال : لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي فدعا علياً
فأعطاه إياه .

أقول : ذكر صاحب المنار في بعض كلامه : أن قوله ﷺ : « أو رجل مني »
في رواية السدي قد فسرتها الروايات الأخرى عند الطبري و غيره بقوله صلى الله عليه
وسلم : « أو رجل من أهل بيتي » و هذا النص الصريح يبطل تأويل كلمة « مني » بأن
معناها أن نفس علي كنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم و أنه مثله و أنه أفضل من
كل أصحابه - انتهى - .

والذي أشار إليه من الروايات هو ما رواه قبلاً بقوله : و أخرج أحمد بسند حسن
عن أنس أن النبي ﷺ علياً و سلم بعث ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال :
لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي فبعث بها مع علي .

وهذه بعينها - على ما لا يخفى - هي الرواية السابقة التي أوردناها عن أنس ، و قد وقع فيها « أو رجل من أهلي » ، وإن اختلف لفظا الروايتين بما عملت فيهما يد النقل بالمعنى .

و أول ما في كلامه : أن اللفظ : « أو رجل مني » لم يقع في رواية واحدة موقوفة هي رواية السدي التي استضعفها قبيل ذلك بل الأصل في ذلك كلمة الوحي التي أثبتتها معظم الروايات الصحيحة على بلوغ كثرتها ، والروايات الأخر المشتملة على قوله : « من أهل بيتي » وهو يستكثرها إنما هي رواية أنس - على ما عثرنا عليها - وقد وقع في بعض ألفاظها قوله « من أهلي » مكان « من أهل بيتي » .

والثاني : أن الرواية - كما اتضح لك - منقولة بالمعنى ، ومع ذلك لا يصلح ما وقع فيها من بعض الألفاظ لتفسير ما اتفقت عليه معظم الروايات الصحيحة الواردة من طرق الفريقين من لفظ الوحي المنقول فيها .

على أن قوله : « من أهل بيتي » في هذه لوصول لتفسير ما وقع في سائر الروايات من لفظ « رجل منك » أو « رجل مني » لكان الواقع في رواية أبي سعيد الخدري السابقة من قوله ﷺ : « يا علي إنه لا يؤدي عني إلا أنا وأنت » مفسراً لما في رواية أنس : « إلا رجل من أهل بيتي » أو « إلا رجل من أهلي » وما في سائر الروايات : « إلا رجل منك » أو « إلا رجل مني » .

فيعود هذه الألفاظ كناية عن شخص علي عليه السلام ، بل الكناية بما لها من المعنى مشيرة إلى أنه من نفس النبي ﷺ ، ومن أهله ومن أهل بيته جميعاً ، وهذا عين ما فر منه وزيادة .

والثالث : أن استفادة كونه عليه السلام بمنزلة نفسه عليه السلام ليست بمستندة إلى مجرد قوله ﷺ : « رجل مني » كما حسبه فإن مجرد قول القائل : فلان مني لا يدل على تنزيله منزلته في جميع شؤون وجوده و مماثلته إياه ، وإنما يدل على نوع من الاتصال والاتباع كما في قول إبراهيم عليه السلام : « فمن تبعني فإنه مني » إبراهيم : ٣٦ إلا بنوع من القرينة الدالة على عناية كلامية كقوله تعالى : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .

بل إنما استفيد ذلك من قوله : « رجل منّي » أو « رجل منك » بمعونة قوله : « لا يؤدي عنك إلا أنت » على البيان الذي تقدم وعلى هذا فلو كان هناك قوله : « لا يؤدي عني إلا رجل من أهلي أو رجل من أهل بيتي » لاستفيد منه عين ما استفيد من قوله : « لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك » وقوله : « لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل منّي » مضافاً ^(١) إلى أنه صلى الله عليه وسلم عدّه منه في خطابه أبا بكر وهو أيضاً منه بالاتباع .

والرابع : أنه أهمل في البحث الروايات الصحيحة المستفيضة أو المتواترة التي تدل على أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم هم علي وفاطمة والحسنان على ما تقدم في أخبار آية المبالغة وسيجيء معظمها في أخبار آية التطهير إن شاء الله تعالى .

ولا رجل في أهل بيته صلى الله عليه وسلم إلا علي عليه السلام فيؤول الأمر إلى كون اللفظ كناية عن علي عليه السلام فيرجع إلى ما تقدم من الوجه .

وأما ما احتمله من المعنى فهو أن المراد بأهل بيته عامة أقربائه من بني هاشم أو بنو هاشم ونسأوه فينزل اللفظ منزلة عادية من غير أن يحمل شيئاً من المزية ، والمعنى لا يؤدي بهذا العهد عني إلا رجل من بني هاشم ، والقوم يرجعون غالباً في مفاهيم أمثال هذه الألفاظ إلى ما يعطيه العرف اللغوي في ذلك من غير توجه إلى ما اعتبره الشرع ، وقد تقدم نظير ذلك في معنى الابن والبنت حيث حسبوا أن كون ابن البنت ابناً للرجل وعدمه مرجعه إلى بحث لغوي يعين كون الابن يصدق بحسب الوضع اللغوي على ابن البنت مثلاً أولاً يصدق عليه ، وجميع ذلك يرجع إلى الخلط بين الأبحاث اللفظية والأبحاث المعنوية ، وكذا الخلط بين الأبحاث الاجتماعية والأبحاث الدينية السماوية على ما تقدمت الإشارة إليه .

وأعجب من الجميع قوله : وهذا النص الصريح يبطل تأويل كلمة « منّي » فإن مراده بدلالة السياق أن كلمة « من أهل بيتي » نص صريح في أن المراد برجل منّي

(١) وفي رواية الحاكم الاتية عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه عنه صلى الله عليه وآله فيما قاله لأهل الطائف : « والذي نفسي بيده لتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة أولاً بعنن عليكم رجلاً مني أو كنفسى فرأى الناس أنه يعني أبا بكر أو عمر فأخذ بيد علي فقال : « هذا » دلالة على هذا الفهم من جهة ما فيها من الترديد .

رجل من بني هاشم ، ولا ندرى أيّ نصوصيّة أوصراحة لكلمة « أهل البيت » في بني هاشم بعد ما تكاثرت الروايات أنّ أهل بيت النبي ﷺ هم علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام ثمّ في قوله : « أهل بيتي » بمعنى بني هاشم أنّ المراد بكلمة « منّي » هو ذلك !!

وفي تفسير العيّاشيّ عن زرارة وجران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » قال : عشرين من ذي الحجّة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشراً من ربيع الآخر .

أقول : وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد من الأربعة الأشهر هو ذلك روى ذلك الكليني والصدوق والعيّاشيّ والقاسمي وغيرهم في كتبهم وروى ذلك من طرق أهل السنة ، وهناك روايات أخرى من طرقهم في غير هذا المعنى حتّى وقع في بعضها أنّ أبا بكر حجّ بالناس عام تسع في شهر ذي القعدة ، وهي غير متأيّدة ولذلك أغمضنا عنها .

وفي تفسير العيّاشيّ عن حكيم بن جبیر عن عليّ بن الحسين عليهما السلام في قوله تعالى : « وأذان من الله ورسوله » قال : الأذان أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : وروى هذا المعنى أيضاً عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام ، وعن جابر عن جعفر بن محمد وأبي جعفر عليهما السلام ، ورواه القاسمي عن أبيه عن فضالة عن أبان بن عثمان عن حكيم بن جبیر عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : وفي حديث آخر قال : كنت أنا الأذان في الناس ، ورواه الصدوق أيضاً بإسناده عن حكيم عنه عليهما السلام ، ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن عليّ بن الحسين عليهما السلام ، وقال في تفسير البرهان : قال السديّ و أبو مالك و ابن عباس و زين العابدين : الأذان هو عليّ بن أبي طالب فأدى به .

و في تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن الفضيل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الحجّ الأكبر فقال : عندك فيه شيء ؟ فقلت : نعم كان ابن عباس يهول : الحجّ الأكبر يوم عرفة يعني أنّه من أدرك يوم عرفة إلى طلوع الشمس من يوم النحر فقد أدرك الحجّ ، ومن فاتته ذلك فاتته الحجّ فجعل ليلة عرفة لما قبلها وما بعدها ، والدليل

على ذلك أنه من أدرك ليلة النحر إلى طلوع الفجر فقد أدرك الحجّ وأجزى عنه من عرفة .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : قال أمير المؤمنين عليه السلام الحجّ الأكبر يوم النحر واحتجّ بقول الله عزّ وجلّ : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » فهي عشرون من ذي الحجّة والمحرّم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشر من شهر ربيع الآخر ، ولو كان الحجّ الأكبر يوم عرفة لكان السحّ أربعة أشهر ويوماً ، واحتجّ بقوله عزّ وجلّ : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر » و كنت أنا الأذان في الناس .

قلت : فما معنى هذه اللفظة : الحجّ الأكبر ؟ فقال : إنّما سمّي الأكبر لأنّها كانت سنة حجّ فيها المسلمون والمشرّكون ، ولم يحجّ المشرّكون بعد تلك السنة . وفيه عنه بإسناده عن معاوية بن عمّار قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن يوم الحجّ الأكبر فقال : يوم النحر والأصغر العمرة .

أقول : وفي الرواية مضافاً إلى تفسير اليوم بيوم النحر إشارة إلى وجه تسمية الحجّ بالأكبر ، وقد أطبقت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام إلا ما شدّت على أن المراد بيوم الحجّ الأكبر في الآية هو يوم الأضحى عاشر ذي الحجّة وهو يوم النحر ، ورووا ذلك عن عليّ عليه السلام .

وروى هذه الرواية الكلينيّ في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام ، وروى ذلك أيضاً بإسناده عن زريح عنه عليه السلام ، وكذا الصدوق بإسناده إلى زريح عنه عليه السلام ، ورواه العياشيّ عن عبد الرحمن وابن أذينة و الفضيل بن عياض عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن أبي أوفى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال يوم الأضحى : هذا يوم الحجّ الأكبر .

وفيه أيضاً أخرج البخاريّ تعليقاً وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجّة التي حجّ فقال : أيّ يوم هذا ؟

قالوا : يوم النحر قال : هذا يوم الحج الأكبر .

أقول : وروي ذلك بطرق مختلفة عن علي عليه السلام و ابن عباس و مغيرة بن شعبه و أبي جحيفة و عبدالله بن أبي أوفى ، وقد روي بطرق مختلفة أخرى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه يوم عرفة ، و كذا روي ذلك عن علي و ابن عباس و ابن الزبير ، و روي عن سعيد ابن المسيب أنه اليوم التالي ليوم النحر ، و روي أنه أيام الحج كلها ، و روي أنه الحج في العام الذي حج فيها أبو بكر ، و هذا الوجه الأخير لا يأبى الانطباق على ما تقدم من الحديث عن الصادق عليه السلام أنه سمي الحج الأكبر لما حج في تلك السنة المسلمون و المشركون جميعاً .

وفي تفسير العياشي ، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » قال : هي يوم النحر إلى عشر مضين من شهر ربيع الآخر .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » أخرج الحاكم و صححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه رضي الله عنه قال : افتتح رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة ثم انصرف إلى الطائف فحاصروهم ثمانية أو سبعة ثم ارتحل غدوة و روحة ثم نزل ثم هجر .

ثم قال : أيها الناس إنني لكم فرط ، و إنني أوصيكم بعترتي خيراً موعداً لكم الحوض ، و الذي نفسي بيده لتقيم الصلاة و لتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلاً مني أو كنفسى فليضربن أعناق مقاتلهم و ليسين ذراريهم . فرأى الناس أنه يعني أبابكر أو عمر رضي الله عنهما فأخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : هذا .

أقول : يعني عليه السلام به الكفر .

و في تفسير العياشي في حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام « فإن تابوا » يعني فإن آمنوا فأخوانكم في الدين .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و إن أحد من المشركين استجارك فأجره » الآية قال : قال : إقرء عليه و عرفه ثم لا تتعرض له حتى ترجع إلى مأمنه .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير القشيري: « إن رجلاً قال لعليّ
يا بن أبي طالب فمن أراد منّا أن يلقي رسول الله في بعض الأمر من بعد انقضاء الأربعة
فليس له عهد؟ قال عليّ: بلى لأنّ الله قال: « وإن أحد من المشركين استجارك
فأجره، الآية. »

وفي الدر المنثور في قوله تعالى: « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم » الآية أخرج
ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه أنهم ذكروا عنده
هذه الآية فقال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

وفيه أخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن زيد بن وهب في قوله:
« فقاتلوا أئمة الكفر » قال: كنّا عند حذيفة رضي الله عنه فقال: ما بقي من أصحاب هذه
الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة. فقال أعرابي: إنكم أصحاب عهد تخبروننا
بأمور لاندري ماهي؟ فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك
الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده.
وفي قرب الإسناد للحميري: حدّثني عبد الحميد وعبد الصمد بن محمد جميعاً عن حنّان
ابن سدير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: دخل عليّ أناس من أهل البصرة فسألوني
عن طلحة والزبير فقلت لهم: كانوا ^(١) من أئمة الكفر إن عليّاً يوم البصرة لما صفّ
الخيال قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتّى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم.

فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون عليّ جوراً في حكم؟ قالوا:
لا. قال: فحيفاً في قسم؟ قالوا: لا. قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم
فنقمتم عليّ فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا. قال فأقمت فيكم الحدود وعطّلتها في غيركم؟ قالوا:
لا. قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث إنني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم
أجد إلا الكفر أو السيف.

ثمّ نسي إلى أصحابه فقال إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: « وإن نكثوا أيمانهم
من بعد عهدهم و طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون »

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : والذي فلق الحبة و برء النسمة و اصطفى محمداً بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية و ما قوتلوا منذزلت .

أقول : ورواه العياشي عن حسان بن سدير عنه عليه السلام .

وفي أمالي المفيد بإسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله : عذرني الله من طلحة والزبير ، بايعاني طائعين غير مكرهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية : « و إن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم و طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن و أبي الطفيل و الحسن البصري مثله ، و رواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن . وفي حديثه قال بكير : فسألت عنها أبا جعفر عليه السلام فقال : صدق الشيخ هكذا قال علي . هكذا كان .

وفي الدر المنثور أخرج ابن اسحاق و البيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم و المسور بن مخرمة قالا : كان في صلح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية بينه و بين قريش أن من شاء أن يدخل في عقد النبي صلى الله عليه وسلم و عهده دخل فيه ، و من شاء أن يدخل في عهد قريش و عهدهم دخل فيه فتوالت خزاعة فقالوا : ندخل في عهد محمد و عهده ، و توالت بنو بكر فقالوا : ندخل في عهد قريش و عهدهم فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً .

ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عهد قريش و عهدهم و ثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و عهده ليلاً بماء لهم يقال له : الوثير قريب من مكة فقالت قريش ما يعلم بنا محمد وهذا الليل و ما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع و السلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

و ركب عمرو بن سالم عند ما كان من أمر خزاعة و بني بكر بالوثير حتى قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه و سلم بأبيات أنشده إياها :

- يارب^(١) إنني ناشدُ محمدًا * حلف أئبنا و أئبه الأئملا
 قد كنتم ولدا و كنتا والدا * ثمت أئمنا فلم فنزع يدا
 فانصر هداك الله نصرأ أعتدا * و ادع عبدا لله يأتوا مددا
 فيهم رسول الله قد تجردا * إن سيم خسفاً وجهه تربدا
 في فيلق كالبحر يجري مزبدا * إن قريشأ أخلفوك الموعدا
 و نقضوا ميثاقك المؤكدا * و جعلوا لي في كداء رُصدا
 وزعموا أن لست أدعوا أحدا * وهم أذلّ و أقلّ عددا
 هم بيئتونا بالوتير هُجدا * و قتلونا رُكعا و سُجدا^(٢)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت يا عمرو بن سالم فما برح حتى مرت غمامة في السماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه السحابة لتشهد^(٣) بنصر بني كعب ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله الناس بالجهاد و كتتمهم مخرجه ، و سأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبعثهم في بلادهم .

أقول : أورد الرواية في الدر المنثور بعد ما روى بطرق عن مجاهد و عكرمة أن قصة نقض قريش عهد الحديدية وإعانتهم بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله كان هو السبب لنزول قوله تعالى : « ألا تقاتلون قوماً - إلى قوله - ويشف صدور قوم مؤمنين » وهم خزاعة .

ولو كان الأمر على ما ذكروا كانت الآية : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم » - إلى تمام ثلاث آيات بل أربع - على ما يعطيه السياق مما نزل قبل فتح مكة فتكون نازلة قبل آيات برائة لأحالة .

لكن القصة التي رواها ابن اسحاق و البيهقي على اعتبارها لمكان المسورين مخرمة لاتصرح بنزول الآيات في ذلك ، وماراها مجاهد وعكرمة لا اعتماد عليه لمكان الوقف والانتطاع ، وسيق الآيات لا يأتى نزولها مع ما تقدم عليها واتصالها بها على ما لا يخفى .

(١) في الدر المنثور : لاهم .

(٢) الايات منقولة على ما يطابق نسخة السيرة لابن هشام لكثرة الغلط في نسخة الدر المنثور .

(٣) لتسهل . نسخة سيرة النبي .

و الذي ذكر فيها من قوله : « و نكثوا أيمانهم و همّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أوّل مرّة » ، وإن كان يشير إلى صفات قريش الخاصة بهم لكن من الجائز أن تكون الآية مشيرة إلى حلفاء قريش وجيرانهم ممن لم يؤمنوا بعد فتح مكّة وهم لا تجادلهم مع قريش واتّصل بهم بهم وصفوا بما يوصف به قريش بالأصالة .
واعلم أن هناك روايات متفرقة من طرق أهل البيت عليهم السلام تطبق الآيات على ظهور المهدي عليه السلام ، وهي من الجري .

﴿ كلام في معنى العهد وأقسامه وأحكامه ﴾

فدّمنا في أوائل الجزء السادس من الكتاب كلاماً في معنى العقد والعهد ونستأنف البيان ههنا في معنى ما تمدّم وما يستتبعه من الأقسام والأحكام بنقير آخر في فصول :

١- قد لاح لك من تضاعيف الأبحاث المتقدّمة في هذا الكتاب أن الإنسان في مسير حياته لا يزال بصوّر أعماله وما يتعلّق به أعماله من المادّة تصوّر الأمور الكونيّة ويمثلها بها ويجري بينها أحكام الأمور الكونيّة وآثارها من القوانين العامّة الجارية في الكون بحسب ما يناسب أغراضه الحيويّة كما أنه يأخذ مثلاً أصواتاً متفرقة هي الزاي والياء والدال ، و يؤلّفها بشكل مخصوص و يعمل لفظ « زيد » ثم يفترض أنه زيد الإنسان الخارجي فيسميه به ثم كلّما أراد أن يحضر زبداً في ذهن مخاطبه ألقى إليه لفظ « زيد » فكان ممثلاً لعين زيد عنده ، وحصل بذلك غرضه .

و إذا أراد أن يدير أمراً لا يدور إلا بعمل عدّة مؤتلفة من الناس اختار جماعة وافترضهم واحداً كالإنسان الواحد ، وفرض واحداً منهم للباقيين كما يفرض الرأس لبدن الإنسان ويسميه رئيساً ، وفرض كلاً من الباقيين كما يفرض العضو من البدن ذي الأعضاء و يسميه عضواً ثم يرتب على الرأس أحكام الرأس الخارجي ، و على العضو آثار العضو الخارجي وعلى هذا القياس .

و إلى هذا يؤول جميع أفكار الإنسان الاجتماعية بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط من التصورات والتصديقات إذا حللت تحليلاً صحيحاً كما تؤول إليه أنظاره الفرديّة فيما يرتبط بأعماله وأفعاله .

الإنسان شديد الاهتمام بعقد العقود وتمثيل العهود وما يرتبط بها من الحلف واليمين والبيعة ونحو ذلك ، والعامل الأوليّ في ذلك أنّ الإنسان لا همّ له إلاّ التحفظ على حياته والوصول إلى مزاياها والتمتع بالسعادة التي تستعقبها لو جرت على حقيقة مجراها .

فأيّ بغية من مبتغياته وجدها وسلط عليها أخذ في التمتع منها بما يناسبها من التمتع كالأكل والشرب وغيرهما بما جهّز به من أدوات التمتع ، ودفع كلّ ما يمنعه من التمتع لو عرض هناك مانع عارض ورأى أنّه إنّما وفق لذلك في ضوء ما أوتيّه من السلطة :

وقد أوتي الإنسان سلعة الفكر وبذلك يدبّر أمّرياته ويصلح شأن معاشه فيعمل ليومه ويمهّد لغيره ، و أعماله التي هي تصرفات منه في المادة أو عائدة إلى ذلك في عين أنّها جميعاً متوقّفة على انبساط سلطته على الفعل وإحاطته بكلّ ما يتعلّق به عمله، مختلفة في أنّ بعضها يتمّ بالسلطة المقصورة على الفعل مقدار زمانه كمن صادف غذاء وهو جوعان فتناوله فأكله ، فإنّه لا يتوقّف على سلطة أوسع من زمان العمل ، ولا على تمهيد و تقدمة .

و بعضها - وهو جلّ الأعمال الإنسانية الاجتماعية - يتوقّف على سلطة وسيعة تنبسط على العمل في وقته وعلى زمان قبله فقط أو على زمان قبله وبعده، لحاجته إلى مقدّمات يمهّدها له ، وتدبير سابق بقدره لوجوده، فما كلّ عمل يعمله الإنسان بصدفة، بل جلّ الأمور الحيويّة من شأنها أن يتهيّأ الإنسان له قبل أوّانه .

ومن التهيّؤ له أن يتهيّأ لجمع أسبابه ونظم الوسائل التي يتوسّل بها إليه وأن يتهيّأ لرفع موانعه التي من شأنها أن تزاخمه في وجوده وعند حصوله ، فالإنسان لا يوفق

لعمل ولا ينجح في مسعاه إلا إذا كان في أمن من أن تفوته الأسباب أو تعارضه الموانع والمزاحمات .

والتنبه لهذه الحقيقة هو الذي بعث الإنسان إلى أن يأخذ أمناً من رقبائه في الحياة : أن يعينوه فيما يحتاج من الأمور إلى معين مشارك ، أو أن لا يمانعوه من العمل فيما يتوقف إلى ارتفاع الموانع وزوالها .

فالإنسان وهو يريد أن يتخذ لباساً يلبسه من مادة بسيطة كالقطن أو الصوف ، والأمر متوقف على أعمال كثيرة يعملها الغزال والنساج والخياط ومن يصنع لهم أدوات الغزل والنسيج والخياطة ، لا يتم له ما يريد من اتخاذ اللباس ولا ينجح سعيه إلا إذا كان في أمن من ناحية هؤلاء الرقباء : أن يعملوا على ما يريد ولا يخلّوه وحده فيخيب سعيه ويخسر في عمله .

وكذا الإنسان القاطن في أرض أو الساكن في دار لا يتم له سكناه إلا مع الأمن من ممانعة الناس ومزاحمتهم له في سكناه والتصرف فيه بما يصلح به لذلك .

وهذا هو الذي هدى الإنسان إلى اعتبار العقد وإبرام العهد ، فهو يأخذ ما يريد من العمل ويربطه بما يعينه عليه من عمل غيره ويعقدهما : يمثل به عقد الحبال الذي يفيد اتصال بعض أجزائها ببعض وعدم تخلف بعضها عن بعض ، ومثله العهد الذي يعهده إليه غيره أن يساعده في ما يريد من الأمر أو أن لا يمانعه في ذلك .

وإلى ذلك يؤول أمر عامة العقود لعقد النكاح وعقد البيع والشري وعقد الإجارة ، ويصدق عليها العهد بمعناها العام وهو أن يعطي الإنسان لغيره قولاً أو كتاباً أن يعينه على كذا أو أن لا يمنعه من كذا إلى أجل مضروب أو لا إلى أجل .

والكلام في المقام في العهد الذي لم يختص باسم خاص كعقد البيع والنكاح وغيرهما من عقود المعاملات فهي خارجة من غرضنا ولها في المجتمعات الإنسانية أحكام خاصة وآثار وخواص مخصوصة بل الكلام في العهد بمعنى ما يعقد الإنسان لغيره من الإعانة أو عدم الممانعة في متفرقات المقاصد الاجتماعية ، وما يجعله لذلك من الآثار لمن يعاهد غيره أن يعطيه كل سنة كذا مالاً ليستعين به على حوائجه ، ويأخذ منه كذا مالاً

أو نفعاً ، أو يعاهده أن لا يزاخمه في عمله أو لا يمانعه في مسيره إلى أجل كذا أو لا إلى أجل ، وهو نوع إحكام وإبرام لا ينتقض إلا بنقض أحد الطرفين أو بنقضهما معاً .

وربما زيد على إحكام العهد بالحلف وهو أن يقيد المعاهد ما يعطيه من العهد ويربطه بأمر عظيم شأنه يقدره ويحترمه كأنه يجعل ما له من الحرمة والعزة رهناً يرهن به عهده يمثل به أنه لو نقضه فقد أذهب حرمة يقول المعاهد : والله لا أخوننك ، ولعمري لأساعدنك ، وأقسم لأصرنك ، يمثل به أنه لو أخلف وعده ونقض عهده فقد أبطل حرمة ربه ، أو حرمة عمره أو حرمة قسمه فلا مروءة له .

وربما أبرم العهد والميثاق بالبيعة والصفقة : يضع المعاهد يده في يد معاهده يمثل به أنه أعطاه يده التي بها يفعل ما يفعل فلا يفعل ما يكره معاهده لأن يده قبضة يده .

٢- العهود والمواثيق كما تمسها حياة الإنسان الذي هو فرد المجتمع كذلك تمسها حياة المجتمع فليس المجتمع إلا المجتمع من أفراد الإنسان ، حياته مجموع حياة أجزائه ، وأعماله الحيوية مجموع أعمال أجزائه وله من الخير والشر والنفع والضر والصحة والسقم والنشوء والرشد والاستقامة والانحراف والمعادة والشقاوة والبقاء والزوال مجموع ما لأجزائه من ذلك .

فالمجتمع إنسان كبير لها من مقاصد الحياة ما للإنسان الصغير ، ونسبة المجتمع إلى المجتمع تقرب من نسبة الإنسان الفرد إلى الإنسان الفرد فهو يحتاج في ركوب مقاصده وإتيان أعماله من الأمن والسلامة إلى مثل ما يحتاج إليه الإنسان الفرد بل الحاجة فيه أشد وأقوى لأن العمل يعظم بعظمة فاعله وعظمة غرضه ، والمجتمع في حاجة إلى الأمن والسلام من قبل أجزائه لئلا يتلاشى ويتفرق ، وإلى الأمن والسلام من قبل رقبائه من سائر المجتمعات .

وهل هذا جرى ديدن المجتمعات الإنسانية على ما بأيدينا من تاريخ الأمم والأقوام الماضية ، وما نسمعه أو نشاهده من الملل الحاضرة فلم يزل ولا يزال المجتمع من المجتمعات الإنسانية في حاجة قائمة إلى أن يعاهد غيره في بعض شؤون حياته السياسية أو الاقتصادية

أو الثقافية أو غيرها ، فلا يصفو الجوَّ للإقدام على شيء من مقاصد الحياة أو التقدم في شيء من مآربها إلا بالاعتضاد بالأعضاء و الأمن من معارضة الموانع .

٣- : الإسلام بما أنه متعرّض لأمر المجتمع كالفرد ، ويهتم بإصلاح حياة الناس العامة كاهتمامه بإصلاح حياة الفرد الخاصة فنسب فيه كليات ما يرجع إلى شؤون الحياة الاجتماعية كالجهاد والدفاع ومقاتلة أهل البغي والنكث، والصلح والسلام والعهود والمواثيق وغير ذلك .

والعهد الذي نتكلّم فيه قد اعتبره اعتباراً تاماً وأحكامه إحكاماً يعدّ نقضه من طرف أهله من أكبر الإثم إلا أن ينقضه المعاهد الآخر فيقابل بالمثل فإنّ الله سبحانه أمر بالوفاء بالعهود والعقود ، وضمّ نقض العهود والمواثيق زمناً بالغاً في آيات كثيرة جداً قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » المائدة : ١ ، وقال : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه - إلى أن قال - أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » الرعد : ٢٥ ، وقال : « وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً ، أسرى : ٣٤ إلى غير ذلك .

ولم يبح نقض العهود والمواثيق إلا فيما يبيحه حقّ العدل وهو أن ينقضه المعاهد المقابل نقضاً بالبغي والعتوّ أو لا يؤمن نقضه لسقوطه عن درجة الاعتبار ، وهذا ممّا لا اعتراض فيه لمعترض ولا لوم للائم قال تعالى : « وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين » الأنفال : ٥٨ فأجاز نقض العهد عند خوف الخيانة ولم يرض بالنقض من غير إخبارهم به واعتيالهم وهم غافلون دون أن قال : « فانبذ إليهم على سواء » فأوجب أن يخبروهم بالنقض المتقابل احترازاً من رذيلة الخيانة .

وقال : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » براءة : ٢ فلم يرض بالبراءة دون أن وسّع عليهم أربعة أشهر حتّى يكونوا على مهل من التفكير في أمرهم والتردّي في شأنهم فيروا رأيهم على حرّية من الفكر فإنّ شأواً آمنوا ونجوا وإن لم يشاؤوا قتلوا وفنوا ، وقد كان من حسن أثر هذا التأجيل أن آمنوا فلم ينفوا .

وقد تمسّ سبحانه هذه الفائدة أحسن إتمام بقوله بعد إعلام البراءة : « وإنّ أحد من

المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ،
التوبة : ٦ .

وقال مستثنياً الموفين بعهدهم من المشركين : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله
وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله
يحب المتقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمّة يرضونكم بأفواههم
وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون » التوبة : ٨ وقد علّل الاستقامة لمن استقام بأنّه من التقوى
- ذاك التقوى لا دعوة في الدين إلا إليه - وأن الله يحب المتقين ، وهذا تعليل حيّ إلى
يوم القيامة .

وقال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » البقرة : ١٩٤
وقال : « ولا يجرمكم شأن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على
البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » المائدة : ٢ .

وأما النقض الابتدائيّ من غير نقض من العدو المعاهد فلا يجوز له في هذا الدين
الخنيف أصلاً ، وقد تقدّم قوله تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » الآية وقال :
« ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » البقرة : ١٩٠ .

وعلى ذلك جرى عمل النبي ﷺ أيام حياته فقد عاهد بني قينقاع و بني قريظة و
غيرهم من اليهود ولم ينقض إلا بعد ما نقضوا ، وعاهد قريشاً في الحديبية ولم ينقض حتى
نقضوا بإظهار بني بكر على خزاعة وقد كانت خزاعة في عهد النبي ﷺ ، و بنو بكر في
عهد قريش .

وأما النقض من غير نقض فلا مبيح له في الإسلام وإن كان الوفاء مما يفوت على
المسلمين بعض منافعهم ، ويجلب إليهم بعض الضرر وهم على قدرة من حفظ منافعهم بالبأس
والقوة أو أمكنهم الاعتذار ببعض ما تصوّر لهم الحجّة ظاهراً وتصرف عنهم اللوم والعذل
فإن مدار الأمر على الحقّ ، والحق لا يستعقب شرّاً ولا ضراً إلا على من انحرف عنه
وأوى إلى غيره .

٤- المجتمعات الإنسانية سيّما الرأفة المتمدّنة منها غير المجتمع الديني لا هدف

لاجتماعهم ولا غرض لسنتهم الجارية إلا التمتع من مزايا الحياة المادية ما قدروا عليه فلا موجب لهم للتحفظ على شيء أزيد مما بأيديهم من القوانين العملية النازمة لشتات مقاصدهم الحيوية .

ومن الضروري أن الظرف الذي هذا شأنه لا قيمة فيها للمعنويات إلا بمقدار ما يوافق المقاصد الحيوية المادية فالفضائل والريائل المعنوية كالصدق والفتوة والمرورة ونشر الرحمة والرفقة والإحسان و أمثال ذلك لا اعتبار لها إلا بمقدار ما درت بها منافع المجتمع ، ولم يتضرر روا بها لولم تعتبر ، وأما فيما ينافي منافع القوم فلا موجب للعمل بها بل الموجب لخلافها .

ولذلك ترى المؤتمرات الرسمية و أولياء الأمور في المجتمعات لا يرون لأنفسهم وظيفة إلا التحفظ على منافع المجتمع الحيوية ، وما يعقد فيها من العهود والمواثيق إنما يعقد على حسب مصلحة الوقت ، ويوزن بزنة ما عليه الدولة المعاهدة من القوة والعدة ، وما عليه المعاهد المقابل من القوة والعدة في نفسه و بما يضاف إليه من سائر المقتضيات المنضمة إليه المعينة له .

فما كان التوازن على حالة التعادل كان العهد على حاله ، وإذا مالت كفة الميزان للدولة المعاهدة على خصمه أبطلت اعتبار العهد بأعداء مصطنعة واتهامات مقتعلة للتوسل إلى نقضه ، وإنما يراد بتقديم الأعداء أن يتحفظ على ظاهر القوانين العالمية التي لا عقبى لنقضها والتخلف عنها إلا ما يهدد حياة المجتمع أو بعض منافع حياتهم ، ولو لا ذلك لم يكن ما يمنع النقض ولو من غير عذر إذا اقتضته منافع المجتمع القوي الحيوية .

وأما الكذب أو الخيانة أو التعدي لما يتخذها الغير منافع لنفسه فليس مما يمنع مجتمعاً من المجتمعات من حيازة ما يراه نافعاً لشأنه إن الأخلاق والمعنويات لا أصالة لها عندهم وإنما تعتبر على حسب ما تقدّر غاية المجتمع و غرضه الحيوي وهو التمتع من الحياة .

وأنت إذا تتبعته الحوادث العامة بين المجتمعات سابقها ولاحقها وخاصة الحوادث

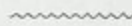
العالمية الجارية في هذا العصر الأخير عثرت على شيء كثير من العهود الموثقة و نقوضها على ما وصفناه .

وأما الإسلام فلم يعد حياة الإنسان المادية حياة له حقيقية ، ولا التمتع من مزاياها مساعدة له واقعية ، وإنما يرى حياته الحقيقية حياته الجامعة بين المادة والمعنى ، وسعادته الحقيقية اللازم إحرارها ما يسعده في دنياه وأخراه .

ويستوجب ذلك أن يبني قوانين الحياة على الفطرة والخلفة دون ما يعده الإنسان صالحاً لحال نفسه ، و يؤسس دعوته الحقمة على اتباع الحق والاهتداء به دون اتباع الهوى والافتداء بما يميل إليه الأثرية بعواطفهم وإحساساتهم الباطنة قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ وقال : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين^(١) الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » التوبة : ٣٣ ، وقال : « بل أتيناهم بالحق » المؤمنون : ٩٠ ، وقال : « ولو أتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » المؤمنون : ٢٨ .

ومن لوازم ذلك أن يراعي حق الاعتقاد وفضيلة الخلق وصالح العمل جميعاً فلا غنى للمادة عن المعنى ولا غنى للمعنى عن المادة فمن الواجب رعاية جانب الفضائل الإنسانية نفعت أو ضرت والتجنب عن الرذائل نفعت أو ضرت لأن ذلك من اتباع الحق ، وحاشا أن يضر إلا من انحرف عن ميزانه وتخطى ما يخط له الحق .

ومن هنا ما نرى أن الله سبحانه ينقض عهد المشركين لنقضهم عهده و يستعمل الرحمة بإمهالهم أربعة أشهر ، و يأمر بالاستقامة لمن استقام في عهده من المشركين وقد استدلهم الحوادث يومئذ وضعفوا دون شوكة الإسلام ، و كذا يأمر نبيه ﷺ إن خاف من قوم خيانه أن ينقض عهدهم لكن يأمره بإعلامهم ذلك وبعلمه بأنه لا يحب الخيانة .



(١) ظاهرا لاية كون الاضافة حقيقية لا من اضافة الوصوف الى صفته .

﴿ كَلام في نسبِة الاعمال الى الاسباب طولاً ﴾

تقدّم في مواضع من هذا الكتاب أنّ الذي تنتجّه الأبحاث العقليّة أنّ الحوادث كما أنّ لها نسبة إلى أسبابها القريبة المتّصلة بها كذلك لها نسبة إلى أسبابها القصوى التي هي أسباب لهذه الأسباب فالحوادث أفعال لها في عين أنّها من أفعال أسبابها القريبة المباشرة للعمل فإنّ الفعل كالحركة مثلاً يتوقّف على فاعله المحرك ويتوقّف على محرك محرّكه بعين ما يتوقّف على محرّكه ، نظير العجلة المحركّة للأخرى المحركّة لثالثة وليست من الحركة بالعرض .

فالفعل نسبة إلى فاعله ، وله انتساب إلى فاعل فاعله بعين هذه النسبة التي إلى فاعله لا بنسبة أخرى منفصلة عنها مستقلّة بنفسها غير أنّها إذا انتسب إلى فاعل الفاعل عاد الفاعل القريب بمنزلة الآلة بالنسبة إلى فاعل الفاعل أي واسطة محضة لا استقلال لها في العمل بمعنى أنّها لا يستغني في تأثيره عن فاعل الفاعل إذ فرض عدمه يساوق انعدام الفاعل وانعدام أثره .

وليس من شرط الواسطة أن تكون غير ذات شعور بفعلها أو غير مختارة فإنّ الشعور الذي يؤثر به الفاعل الشاعر في فعله لم يوجد هو لنفسه وإنّما أوجد فيه فاعله الذي أوجد الفاعل وشعوره ، وكذلك الاختيار لم يوجد الفاعل المختار لنفسه وإنّما أوجد الفاعل الذي أوجد الفاعل المختار ، وكما يتوقّف الفعل في غير موارد الشعور والاختيار إلى فاعله ، ويتوقّف بعين هذا التوقّف إلى فاعل فاعله ، كذلك يتوقّف الفعل الشعوريّ والفعل الاختياريّ إلى فاعله ويتوقّف بعين هذا التوقّف إلى فاعل فاعله الذي أوجد لفاعله الشعور والاختيار .

ففاعل الفاعل الشاعر أو المختار أراد من الفاعل الشاعر أو المختار أن يفعل من طريق شعوره فعلاً كذا أو يفعل باختياره فعلاً اختيارياً كذا فقد أريد الفعل من طريق الاختيار لأنّه أريد الفعل وأهمّل الاختيار الذي ظهر به فاعله فافهم ذلك فلا تنزل قدم بعد ثبوتها .

وعلى هذه الحقيقة يجري الناس بحسب فهمهم الغريزي فينسبون الفعل إلى السبب البعيد كما ينسبونه إلى السبب القريب المباشر بما أنه أثر مترشح منه يقال : بنى فلان داراً ، وحفر بئراً وإتما باشر ذلك البناء والحفار ، ويقال : جلد الأمير فلاناً ، وقتل فلاناً ، وأسر فلاناً ، وحارب قوماً كذا ، وإتما باشر الجلد جلده ، و القتل سيافه ، و الأسر جلاوزته ، والمحاربة جنده ، ويقال ، أحرق فلان ثوب فلان ، وإتما أحرقه النار ، وشفى فلان مريضاً كذا وإتما شفاه الدواء الذي ناوله وأمره بشربه واستعماله .
ففي جميع ذلك يعتبر أمر الأمر أو توسل المتوسل تأثيراً منه في الفاعل القريب ثم ينسب الفعل المنسوب إلى الفاعل القريب إلى الفاعل البعيد ، وليس أصل النسبة إلا نسبة حقيقية من غير مجاز قطعاً .

ومن قال من علماء الأدب وغيرهم أن ذلك كله من المجاز في الكلمة لصحة سلب الفعل عن الفاعل البعيد فإن مالك البناء لم يضع لبنة على لبنة وإتما هو شأن البناء الذي باشر العمل ! إتما أراد الفعل بخصوصية صدور عن الفاعل المباشر و من المسلم أن المباشرة إتما هو شأن الفاعل القريب ، ولا كلام لنا فيه ، وإتما الكلام فيما يتصور له من الوجود المتوقف إلى فاعل موجد ، وهذا المعنى كما يقوم بالفاعل المباشر لذلك يقوم بعين هذا القيام بفاعل الفاعل .

واعتبار هذه النكتة هو الذي أوجب لهم أن يميزوا بين الأعمال وينسبوا بعضها إلى الفاعل القريب والبعيد معاً ، ولا ينسبوا بعضها إلا إلى الفاعل القريب المباشر للعمل فما كان منها يكشف بمفهومه عن خصوصيات المباشرة والاتصال بالعمل كالأكل بمعنى الالتقام والبلع والشرب بمعنى المص والتجرع والقعود بمعنى الجلوس ونحو ذلك لم ينسب إلا إلى الفاعل المباشر فإذا أمر السيد خادمه أن يأكل غذاء كذا ويشرب شراباً كذا ويقعد على كرسي كذا قيل : أكل الخادم وشرب وقعد ولا يقال : أكله سيده و شربه وقعد عليه ، وإتما يقال : تصرف في كذا إناستعمل كذا أو أنفق كذا ونحو ذلك لما ذكرناه ،

وأما الأعمال التي لا تعتبر فيها خصوصيات المباشرة والحركات المادية التي

تقوم بالفاعل المباشر للحركة كالقتل والأسر والإحياء والإماتة والإعطاء والإحسان والإكرام ونظائر ذلك فإنها تنسب إلى الفاعل القريب والبعيد على السوية بل ربما كانت نسبتها إلى الفاعل البعيد أقوى منها إلى الفاعل القريب كما إذا كان الفاعل البعيد أقوى وجوداً وأشد سلطة وإحاطة .

فهذا ما ينتجه البحث العقلي ويجري عليه الإنسان بفهمه الغريزي، والقرآن الكريم يصدق ذلك أوضح تصديق كقوله تعالى في الآيات السابقة : « قاتلوهم يعدّ بهم الله بأيديكم ويخزهم وينصرهم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم » الآية ١٦ . حيث نسب التعذيب الذي تباشره أيدي المؤمنين إلى نفسه بجعل أيديهم بمنزلة الآلة .

ونظيره قوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » الصافات : ٩٦ فإن المراد بما تعملون إما الأصنام التي كانوا يعملونها من الحجارة أو الأخشاب أو الفلزات فإنما يريد به المادة بما عليها من عمل الإنسان ففيه نسبة الخلق إلى الأعمال كنسبته إلى فواعلها ، وإما نفس الأعمال فالأمر أوضح .

ويقرب من ذلك قوله تعالى : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تر كبون » الزخرف ١٢ ففيه نسبة الخلق إلى الفلك والفلك بما هي من عمل الإنسان .

هذا فيما نسب فيه الخلق إلى الأعمال الصادرة عن الشعور والإرادة ، وأما الأفعال التي لا تتوقف في صدورنا على شعور وإرادة كالأفعال الطبيعية فقد ورد نسبتها إلى الله سبحانه في آيات كثيرة جداً لاجتياجنا إلى إحصائها كإحياء الأرض وإنبات النبات وإخراج الحب وإمطار السماء وإجراء الأنهار وتسيير الفلك التي تجري في البحر بأمره إلى غير ذلك .

ولامتنافاة في جميع هذه الموارد بين انتساب الأمر إليه تعالى وانتسابه إلى غيره من الأسباب والعلل الطبيعية وغيرها إذ ليست النسبة عرضية تزامم إحدى النسبتين الأخرى بل هي طولية لا محذور في تعلقها بأزيد من طرف واحد .

وقد تقدم في مطاوي أبحاثنا السابقة دفع ما اشتبه على الماديين من إسناد الحوادث العامة كالسيول والزلازل والجذب والوباء والطاعون إلى الله سبحانه مع الحصول على

أسبابها الطبيعية اليوم حيث خلطوا بين العلل والأسباب العرضية والطولية ، و حسبوا أن استنادها إلى عللها الطبيعية يبطل ما أثبتته الكتاب العزيز و أذعن به الإلهيون من استنادها إلى مسبب الأسباب الذي إليه يرجع الأمر كله .

وللأشاعرة والمعتزلة بحث غريب في الآية السابقة : « قاتلوهم يعدّ بهم الله بأيديكم » وما يناظرها من الآيات ، أورده الرازي في تفسيره نوره ملخصاً .

قال : استدلت الأشاعرة بقوله تعالى : « قاتلوهم يعدّ بهم الله بأيديكم » الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله ، وأن الناس مجبرون في أفعالهم غير مختارين فإن الله سبحانه يخبر فيها أنه هو الذي يعدّ ب المشركين بقتل بعضهم و جرح آخرين بأيدي المؤمنين ويدلّ ذلك على أن أيدي المؤمنين كسيوفهم ورماحهم آلات محضة لا تأثير لها أصلاً وإنما الفعل لله سبحانه ، وأن الكسب الذي يعدّ مناطاً للتكليف اسم لا مسمى له .

وهذه الآية أقوى دلالة على المطلوب من دلالة مثل قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » إذ فيه إثبات الرمي على النبي ﷺ وإن كان مع ذلك نفي عنه وإثبات لإسناده إلى الله سبحانه لكن الآية أعني قوله : « قاتلوهم يعدّ بهم الله بأيديكم » إثبات للتعذيب على الله سبحانه وجعل أيدي المؤمنين التي لهم آلات في الفعل لا تأثير لها وفيها أصلاً .

وأجاب عنه الجبائي من المعتزلة : بأنه لو جاز أن يقال : إن الله يعدّ بالكافرين بأيدي المؤمنين بحقيقة ما ادعى له من المعنى لجاز أن يقال : إنه يعدّ بالمؤمنين بأيدي الكافرين ، وإنه تعالى يكذب أنبياءه بالسنتهم ، ويلعن المؤمنين و يسبهم بأفواههم لأنه تعالى خالق لذلك كله ، وإن لم يجز ذلك علمنا أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، وإنما أعمالهم خلق أنفسهم .

وبذلك يعلم أن إسناد التعذيب في الآية إليه تعالى بنوع من التوسع لأنه إنما تحقق عن أمره ولطفه كما أنه تعالى ينسب جميع الطاعات والحسنات إلى نفسه لتحقيقها عن أمره وتوفيقه .

وأجاب عنه الرازي بأن أصحابنا يلتزمون جميع ما ألزم به الجبائي وأصحابه

من لزوم إسناد القبائح إليه تعالى ويعتقدون به لباً وإن كانوا لا ينطقون به لساناً أدباً مع الله سبحانه انتهى ملخصاً .

والأبحاث التي قدّمناها في هذا الكتاب حول هذه المعاني تكفي لإيضاح الحق وإنارته في هذا المقام ، والكشف عما وقع فيه الفريقان جميعاً .

أمّا ما ذكرته الأشاعرة والتزموا به فإنّما أوقعهم في ذلك ما ذهبوا إليه من نفي رابطة العليّة والمعلوليّة من بين الأشياء وقصرها فيما بينه تعالى وبين خلقه عامّة فلا سبب في الوجود لا استقلالاً ولا بالوساطة غيره تعالى ، وأمّا رابطة السببيّة التي بين الأشياء أنفسها فإنّما هي سببيّة بالاسم فقط لا بالحقيقة ، وإنّما هي العادة الإلهيّة جرت بإيجاد ما نسّميتها مسببات غيب ما نسّميتها أسباباً فما بينها وبينه تعالى سببيّة حقيقيّة ، وما بينها أنفسها يعود إلى الاتفاق الدائم أو الأكثري .

ولازم ذلك إبطال العليّة والسببيّة من أصلها ، وببطلانها يبطل ما أثبتوه من انحصار السببيّة فيه تعالى إذ لو جاز أن يكون نسبة كل شيء إلى كل شيء نسبة واحدة من غير اختلاف بالتأثير والتأثر لم يبق للإنسان ما يتنبّه به لأصل معنى السببيّة فلا سبيل له إلى إثبات سببيّته تعالى لكل شيء .

على أن الإنسان يترقّب حوادث من حوادث أخرى ، ويقطع بالنتائج عن مقدّماتها وينفي حياته على التعليم والتربية ، وعلى تقديم الأسباب طمعاً في مسبباتها سواء اعترف بالصانع أو لم يعترف ، ولا يتمّ له شيء من ذلك إلا عن إزعاج فطري بأصل العليّة والمعلوليّة ، ولو أجازت الفطرة الإنسانيّة بطلان ذلك وجريان الحوادث على مجرد الاتفاق اختلّ نظام حياته ببطلان سعيه الفكري والعملية ، وانسدّ طريق إثبات سبب ما فوق طبيعة الحوادث .

على أن الكتاب العزيز يجري في بياناته على تصديق أصل العليّة والمعلوليّة ، و ينسب كلّ حسنة إليه تعالى و ينفي استناد السيئات والمعاصي إليه و بسمّيه بكلّ اسم أحسن و يصفه بكلّ وصف جميل ، و ينفي عنه كلّ هزل و عبث و لغو و لهو و جزاف ، ولا يتمّ

شيء من ذلك إلا على أصل العليّة والمعلوليّة ، وقد تقدّم في الأبحاث السابقة ما يتبيّن به ذلك كلّهُ .

وقد ذهب طائفة من المادّيّين وخاصة أصحاب المادّيّة المتحوّلة إلى عين ما ذهب إليه الأشاعرة من ثبوت الجبر و نفي الاختيار عن الأفعال الإنسانيّة ، وإنّما الفارق بين قوليّ الطائفتين هو أنّ الأشاعرة بنوا ذلك على سببيّة الواجب تعالى المنحصرة واستنتجوا من ذلك بطلان السببيّة الاختياريّة وانتفاءها عن الإنسان ، والمادّيّون بنوه على معلوليّة الأفعال الإنسانيّة لمجموع الحوادث المحتفّة بالفعل التي هي علّة حدوثه ، ولا معنى للعلّيّة إلاّ بالإيجاب ، فالإنسان موجب في فعله مجبر عليه

وقد فات منهم أنّ الذي نسبة المعلول إليه بالإيجاب إنّما هو العلّة التامة ، وهي مجموع الحوادث المتقدّمة على المعلول التي لا يتوقّف هو في وجوده على شيء و راءها ، وبوجودها جميعاً لا يبقى له إلاّ أن يوجد ، وأمّا بعض أجزاء العلّة التامة فإنّما نسبة المعلول إليه بالإمكان لا بالوجوب لتوقّف وجوده على أشياء أخرى و راءه فلا يتحقّق بوجود الجزء المفروض جميع ما يتوقّف عليه وجوده حتّى يعود واجباً وجوده .

والأفعال الإنسانيّة يتوقّف في وجودها على الإنسان وإرادته وعلى أمور غير محصورة أخرى من المادّة والشرائط الزمانيّة والمكانيّة فهي إذا نسبت إليها جميعاً كانت النسبة الحاصلة نسبة الوجوب والضرورة ، وأمّا إذا نسبت إلى الإنسان وحده أو إلى الإنسان المرید فقد نسبت إلى جزء العلّة التامة وعادت النسبة إلى الإمكان دون الوجوب ، فالأفعال الإراديّة الإنسانيّة اختياريّة أي إنّها يمكنه أن يفعل وأن لا يفعل فإن فعله فبمشيئته وإرادته ، وإن لم يفعل فلم يختره ولم يردّه وإنّما اختار وأراد شيئاً آخر ، لكنّها لا تقع في الخارج إلاّ واجبة لاستنادها حينئذ إلى جميع أجزاء عللها .

فهؤلاء خلطوا في كلامهم بين النسبتين فوضعوا النسبة الوجوبيّة التي للفعل إلى مجموع أجزاء عللها التامة موضع النسبة الإمكانية التي للفعل إلى بعض أجزاء عللته التامة وهي التي تسمّى في الإنسان بالاختيار على نحو من العناية .

وأما ما ذكره المعتزلة أنّه لو جاز كونه تعالى هو الفاعل للفعل الذي أتى به المؤمنون

وهو التعذيب ، وليس لهم إلا مقام الآلية المحضة من غير تأثير لجاز إسناد تعذيب الكفار للمؤمنين وتكذيبهم للأنبياء ولعنهم المؤمنين أيضاً إليه ، وهو باطل قطعاً فأفعال العباد مخلوقة لهم لا صنع لله تعالى فيها .

فيه أن المألزمة حقّة لكن بطلان التالي لا يستلزم كون الأفعال مخلوقة لهم لانسبة لها إلى الله سبحانه أصلاً لجاوز كونها منسوبة إليه تعالى بعين ما ينتسب به إليهم فإنهم فاعلون لها و هو فاعل الفاعلين فينتسب إليهم بالصدور عن الفاعل المباشر ، و ينتسب إليه بالصدور عن الفاعل الذي هو فاعله والنسبتان في الحقيقة نسبة واحدة مختلفة بالقرب والبعد وانتفاء الوساطة وثبوتها ، ولا يستلزم ذلك اجتماع فاعلين مستقلين على فعل واحد لكونهما طوليين لا عرضيين .

فان قلت : فيبقى محذور استناد الحسنات والسيئات والإيمان والكفر إليه تعالى في محله .

قلت : كلاً وإنما ينتسب إليه أصل وجودها ، وأما عنوان الفعل الذي يشير إلى جهة قيام الحركة والسكون بالموضوع المتحرك كالنكاح والزنا والأكل المحرم والمحلل وإنما ينسب إلى الإنسان لكونه هو الموضوع المادي الذي يتحرك بهذه الحركات : وأما الذي يوجد هذا المتحرك الذي من جملة آثاره حر كته وليس بنفسه متحركاً بها وإنما يوجدها إيجاباً إذا تمت شرائطها وأسبابها فلا يتصف بأنواع هذه الحركات حتى يتصف بفعل النكاح أو الزنا أو أي فعل قائم بالإنسان .

نعم هناك عناوين عامّة لا تستتبع معنى الحركة والمادة ، لا مانع من إسنادها إلى الإنسان وإليه سبحانه إذا لم يستلزم محذوراً كالهداية والإضلال إذا لم يكن إضلالاً ابتدائياً ، وكالتعذيب والابتلاء ، فقتل المؤمن للكافر تعذيب إلهي للكافر ، وقتل الكافر للمؤمن بلاء حسن للمؤمن يستوجب به أجراً حسناً عند الله ، وعلى هذا القياس .

على أن الذي ذهب إليه المعتزلة يوقعهم فيما وقعت فيه الأشاعرة وهو انسداد طريق إثبات الصانع عليهم فإنه لو جاز أن يوجد في العالم حادث من الحوادث عن سبب له وينقطع عما وراء سببه ذلك انقطاعاً تاماً لا تأثير له فيه جاز في كل ما فرض من الحوادث

أن يستند إلى ما يليه من غير أن يرتبط بشيء آخر وراهم ، ومن الجائز أن يفنى الفاعل ويبقى أثره فمن الجائز أن يستند كل ما فرض معلولاً إلى فاعل له غير واجب الوجود ومن الجائز أن يستند كل عالم مفروض إلى عالم قبله هو فاعله وقد فنى قبله على ما هو المشهود من حوادث هذا العالم المولّد بعضها بعضاً : والمتولّد بعضها عن بعض ، ولا يلزم محذور التسلسل لعدم تحقق سلسلة ذات أجزاء في وقت من الأوقات إلا في الذهن .
وفي كلامهم مفسد كثيرة أخرى مبينة في المحلّ المربوط به ، وقد تقدّم في الكلام على نسبة الخلق إليه تعالى في الجزء السابع من الكتاب ما ينفع في هذا المقام .

وكيف يسع لمسلم موحد أن يثبت مع الله سبحانه خالقاً آخر بحقيقة معنى الخلق والإيجاد وقد قال الله سبحانه : « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو » المؤمن : ٦٢ وقد كرّر ذلك في كلامه ، وليس في تجاهه إلا نسبة أفعال الإنسان إليه من غير قطع رابطتها إليه تعالى بل مع إثبات النسبة بدليل آيات القدر ودلالة العقل على أن لفعل الفاعل نسبة إلى فاعل فاعله بحسب ما يليق بساحته .

فالحق أن للأفعال الإنسانية نسبة إلى فواعلها بالمباشرة ، ونسبة إليه تعالى بما يليق بساحته قدسه قال تعالى : « كلاً نمدّه هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » أسرى : ٢٠ .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ
 أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ
 مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ
 فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ
 عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)
 يُعْشِرُهُم بِرِزْقِهِمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ
 فِيهَا أَبَدًا إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
 وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَٰئِكَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
 وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا
 أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) .

﴿ بيان ﴾

آيات تبين أن الأعمال إنما تكون حية مرضية إذا صدرت عن حقيقة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وإلا فإِنَّمَا هي حبط لا تهدي صاحبها إلى سعادة، وأن من لوازم

الإيمان بحقيقته قصر الولاية والحب والوداد في الله ورسوله .

وهي ظاهرة الاتصال والارتباط فيما بينها أنفسها ، وأما اتصالها بما تقدمها من الآيات فليس بذلك الوضوح ، وما ذكره بعض المفسرين في وجه اتصالها بما قبلها لا يخلو من تكلف .

قوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر » العمارة ضد الخراب يقال : عمر الأرض إذا بنى بها بناء ، وعمر البيت إذا أصلح ما أشرف منها على الفساد ، والتعمير بمعناه ومنه العمر لأنه عمارة البدن بالروح ، و العمرة بمعنى زيارة البيت الحرام لأن فيها تعمييره .

و المسجد اسم مكان بمعنى المحل الذي يتعلّق به السجدة كالبيت الذي يبني ليسجد فيه الله تعالى ، وأعضاء السجدة التي تتعلّق بها السجدة نوع تعلّق وهي الجبهة والكفان و الركبتان ورؤوس إبهامي القدمين .

و قوله : « ما كان للمشركين » الآية لنفي الحق والملك فإن اللام للملك والحق ، والنفي الحالي للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق وهو حق أن يعمرُوا مساجد الله ويرموا ما استرم منها أو يزورها كقوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسمى » الأنفال : ٦٧ و قوله : « و ما كان لنبي أن يفعل » آل عمران : ١٦١ - .

و المراد بالعمارة في قوله : « أن يعمرُوا » إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عمارة المسجد بالزيارة فإن المراد بمساجد الله هي المسجد الحرام و كل مسجد لله ولا عمرة في غير المسجد الحرام ، و الدخول في المساجد للعبادة فيها وإن أمكن أن يسمى عمارة و زيارة لكن التعبير المعهود عن القرآن فيه الدخول .

على أن في قوله في الآية الآتية : « أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، تأييداً لما لكون المراد بالعمارة هو إصلاح البناء دون زيارة البيت الحرام .

و المراد بمساجد الله بيوت العبادة المبنية لله لكن السياق يدل على أن المراد نفي جواز عمارتهم للمسجد الحرام ، ويؤيده قراءة من قرء « أن يعمرُوا مسجد الله » بالأفراد .

ولا ضير في التعبير بالجمع والمقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام ، والتعليل الوارد في الآية غير مقيّد بخصوص المسجد الحرام فالكلام في معنى : ما كان لهم أن يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد والمساجد من شأنها ذلك .
وقوله : « شاهدین علی أنفسهم بالكفر » المراد بالشهادة أدائها وهو الاعتراف إما قولاً كمن يعترف بالكفر لفظاً ، وإما فعلاً كمن يعبد الأصنام ويتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهادة والملاك واحد .

فمعنى الآية : لا يحق ولا يجوز للمشركين أن يرموا ما استرم من المسجد الحرام كسائر مساجد الله والحال أنهم معترفون بالكفر بدلالة قولهم أو فعلهم .
قوله تعالى : « أولئك حبطت أعمالهم وفي النارهم خالدون » في مقام التعليل لما أُفيد من الحكم في قوله : « ما كان » النخ ولذلك جيء به بالفصل دون الوصل .
و المراد بالجملة الأولى بيان بطلان الأثر وارتفاعه عن أعمالهم ، والعمل إنما يؤتى به للتوسل به إلى أثر مطلوب ، وإذ كانت أعمالهم حابطة لأثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها ، والأعمال العبادية كعمارة مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه و يرجى من أثرها وهو السعادة والجنة ، والعمل الحابط لا يتعقب سعادة ولا جنة البتة .
و المراد بالجملة الثانية بيان ظرفهم الذي يستقرّون فيه لولا السعادة والجنة و هو النار فكأنه قيل : أولئك لا يهديهم أعمالهم العبادية إلى الجنة بل هم في النار الخالدة ، ولا تفيد لهم سعادة بل هم في الشقاوة المؤبدة .

وفي الآية دلالة على أصلين لطيفين من أصول التشريع :

أحد هما : أن تشريع الجواز بالمعنى الأعمّ الشامل للمواجبات والمستحبات والمباحات يتوقف على أثر في الفعل ينتفع به فاعله فاللغو مشروعاً في الدين ، وهذا أصل يؤيدّه العقل ، وهو منطبق على الناموس الجاري في الكون : أن لا فعل إلا لنفع عائد إلى فاعله .

و ثانيهما : أن الجواز في جميع مواردّه مسبوق بحقّ مجعول من الله لفاعله في أن

يأتي بالفعل من غير مانع .

قوله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، الآية السياق كاشف عن أن الحصر من قبيل قصر الأفراد كأن متوهماً يتوهم أن للمشركين والمؤمنين جميعاً أن يعمروا مساجد الله فأفرد و قصر ذلك في المؤمنين ، و لازم ذلك أن يكون المراد بقوله : « يعمر » إنشاء الحق و الجواز في صورة الإخبار دون الإخبار ، وهو ظاهر .
و قد اشترط سبحانه في ثبوت حق العمارة و جوازها أن يتصف العاشر بالإيمان بالله واليوم الآخر فبال ما نفى عن المشركين أن يكون لهم ذلك ولم يقنع بالإيمان بالله وحده لأن المشركين يدعون به تعالى بل شفع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به ، و بذلك يختص حق العمارة و جوازها بأهل الدين السماوي من المؤمنين .

و لم يقنع بذلك أيضاً بل ألحق به قوله : « و أقام الصلاة و آتى الزكاة و لم يخش إلا الله » لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك أن يقترفه ، و من كان تاركاً للفروع المشروعة في الدين و خاصة الركنين : الصلاة و الزكاة فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرد الإيمان بالله و اليوم الآخر وإن كان مسلماً ، إذا لم ينكرها بلسانه ، ولو أنكرها بلسانه أيضاً كان كافراً غير مسلم .

و قد خص من بينها الصلاة و الزكاة بالذكر لكونهما الركنين الذين لاغنى عنهما في حال من الأحوال .

و بما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر أن المراد بقوله : « ولم يخش إلا الله » الخشية الدينية وهي العبادة دون الخشية الغريزية التي لا يسلم منها إلا المقتربون من أولياء الله كالأنبيا قال تعالى : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله » الأحزاب : ٣٩ .

و الوجه في التكنية عن العبادة بالخشية أن الأعراف عند الإنسان من علة اتخاذ الإله للعبادة الخوف من سخطه أو الرجاء لرحمته ، و رجاء الرحمة أيضاً يعود بوجه إلى الخوف من انقطاعها وهو السخط فمن عبد الله سبحانه أو عبد شيئاً من الأصنام فقد دعاه إلى ذلك إما الخوف من شمول سخطه أو الخوف من انقطاع نعمته و رحمته فالعبادة ممثلة

للخوف والخشية مصداق لها لتمثيلها إيمانها ، وبينهما حالة الاستلزام ، ولذلك كُنِيَ بها عنها ، فالعنى - والله أعلم - ولم يعبد أحداً من دون الله من الآلهة .

وقوله : « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » أي أولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يعبدوا أحداً غير الله سبحانه يرجى في حقهم أن يكونوا من المهتدين ، وهذا الرجاء قائم بأنفسهم أو بأنفس المخاطبين بالآية ، وأمّا هو تعالى فمن المستحيل أن يقوم به الرجاء الذي لا يتم إلا مع الجهل بتحقيق الأمر المرجو الحصول .

وإنما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله واليوم الآخر حقيقة وحققه أعماله العبادية فقد اهتدى حقيقة لأن حصول الاهتداء مرة أو مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين ، واستقرار صفة الاهتداء ولزومها له ، فالتلبس بالفعل الواقع مرة أو مرات غير التلبس بالصفة اللازمة فأولئك حصول الاهتداء لهم محقق و أمّا حصول صفة المهتدين فهو مرجو التحقيق لا محقق .

وقد تحصل من الآية أن عمارة المساجد لا تحقق ولا تجوز لغير المسلم أمّا المشركون فلعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، و أمّا أهل الكتاب فلا أن القرآن لا يعد إيمانهم بالله إيماناً قال تعالى « إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقا » النساء : ١٥١ ، وقال أيضا في آية ٢٩ من السورة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب » الآية .
قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله » الآية السقاية كالحكاية والجنابة والنكابة مصدر يقال : سقى يسقي سقاية .

والسقاية أيضا الموضع الذي يسقى فيه الماء ، والإناء الذي يسقى به قال تعالى : « جعل السقاية في رحل أخيه » يوسف : ٧٠ ، وقد رووا في الآثار أن سقاية الحاج كانت إحدى الشؤون الفاخرة والمآثر التي يباهى بها في الجاهلية ، وأن السقاية كانت حياضاً من أدم على عهد قصي بن كلاب أحد أجداد النبي ﷺ التوضع بفناء الكعبة ، ويستقى فيها

الماء العذب من الآبار على الإبل ، ويسقى الحاج فجعل قصي أمر السقاية عند وفاته لابنه عبد مناف ولم يزل في ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب .

وسقاية العباس هو الموضع الذي كان يسقى فيه الماء في الجاهلية والإسلام وهو في جهة الجنوب من زمزم بينهما أربعون ذراعاً ، وقد بني عليه بناء هو المعروف اليوم بسقاية العباس .

والمراد بالسقاية في الآية - على أي حال - معناها المصدرية وهو السقي ، ويؤيده مقابلتها في الآية عمارة المسجد الحرام والمراد بها المعنى المصدرية قطعاً بمعنى الشغل .

وقد قوبل في الآية سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام بمن آمن بالله و اليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، ولا معنى لدعوى المساواة بين الإنسان و بين عمل من الأعمال كالسقاية و العمارة أو نفيها فالمعادلة و المساواة إما بين عمل وعمل ، أو بين إنسان ذي عمل و إنسان ذي عمل .

ولذلك اضطرّ المفسرون إلى القول بأن تقدير الكلام : أ جعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الآخر حتى يستقيم السياق .

وأوجب منه النظر في قيود الكلام المأخوذة في الآية الكريمة فقد أخذ في أحد الجانبين سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام وحدهما من غير أي قيد زائد ، وفي الجانب الآخر الإيمان بالله و اليوم الآخر و الجهاد في سبيل الله و إن شئت فقل : الجهاد في سبيل الله مع اعتبار الإيمان معه .

وهو يدل على أن المراد بالسقاية و العمارة خاليتين من الإيمان ، و يؤيده قوله تعالى في ذيل الآية : « و الله لا يهدي القوم الظالمين » على تقدير كونه تعريضاً لأهل السقاية و العمارة لاتعريضاً لمن يسوي بينهما كما يتبادر من السياق .

وهذا يكشف أولاً عن أن هؤلاء الذين كانوا يسوون بين كذا و كذا و بين كذا إنما كانوا يسوون بين عمل جاهلي خال عن الإيمان بالله و اليوم الآخر كالسقاية و العمارة من غير أن يكون عن إيمان ، و بين عمل ديني عن إيمان بالله و اليوم الآخر كالجهاد في سبيل الله عن إيمان ، أي كانوا يسوون بين جسد عمل لاهية فيه و بين عمل حي طيب

نفعه فأنكره الله عليهم .

وثانياً : أن هؤلاء المسوين كانوا من المؤمنين يسوون بين عمل من غير إيمان، كان صدر عنهم قبل الإيمان أو صدر عن مشرك غيرهم ، و بين عمل صدر عن مؤمن بالله عن محض الإيمان حال إيمانه كما يشهد به سياق الإنكار وبيان الدرجات في الآيات .

بل يشعر بل يدل ذكر نفس السقاية و العمارة من غير ذكر صاحبهما على أن صاحبيهما كانا من أهل الإيمان عند التسوية فلم يذكر أحفظاً لكرامتهما وهما مؤمنان حين الخطاب ووقاية لهما بالنظر إلى التعريض الظاهر الذي في آخر الآية من أن يسمياً ظالمين .

بل يدل قوله تعالى في الآية التالية في مقام بيان أجر هؤلاء المجاهدين في سبيل الله عن إيمان : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » على أن طرفي التسوية في قوله : « أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ » و عمارة المسجد الحرام كمن آمن ، الآية كانا من أهل مكة ، وأن أهل أحد الطرفين وهو الذي آمن و جاهد كان ممن أسلم و هاجر ، و أهل الطرف الآخر أسلم ولم يهاجر فإن هذا هو الوجه في ذكره تعالى أولاً الإيمان والجهاد في أحد الطرفين ثم إضافة الهجرة إلى ذلك عند ما أُعيد ثانياً ، وقد ذكر تعالى السقاية و العمارة في الجانب الآخر ولم يزد على ذلك شيئاً لا أولاً ولا ثانياً فماهذه القيود بلاغية في قوله الفصل .

و هذا كله يؤيد ماورد في سبب نزول الآية أن الآيات نزلت في العباس وشيبة و علي عليه السلام حين تفاخروا فذكر العباس سقاية الحاج ، وشيبة عمارة المسجد الحرام ، و علي الإيمان و الجهاد في سبيل الله فنزلت الآيات و سيجيء الرواية في البحث الروائي المتعلق بالآيات .

و كيف كان فالآية وما يتلوها من الآيات تبيين أن الزنة و القيمة إنما هو للعمل إذا كان حياً بولوج روح الإيمان فيه وأما الجسد الخالي الذي لا روح فيه ولا حياة له فلا وزن له في ميزان الدين ولا قيمة له في سوق الحقائق فليس للمؤمنين أن يُعتبروا مجرد دهباً كل

الأعمال ، ويجعلوها ملاكات للفضل وأسباباً للقرب منه تعالى إلا بعد اعتبار حياتها بالإيمان والخلوص .

ومن هذه الجهة ترتبط الآية : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام » وما بعدها من الآيات بالآيتين اللتين قبلها : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر » إلى آخر الآيتين .

وبذلك كلّه يظهر أولاً أن قوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » جملة حالية تبيّن وجه الإنكار لحكمهم بالمساواة في قوله : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن » الآية .

وثانياً أن المراد بالظلم هو ما كانوا عليه من الشرك في حال السقاية والعمارة لاحكمهم بالمساواة بين السقاية والعمارة وبين الجهاد عن إيمان .

و ثالثاً : أن المراد نفي أن ينفعهم العمل و يهديهم إلى السعادة التي هي عظم الدرجة والفوز والرحمة والرضوان والجنة الخالدة .

قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » إلى آخر الآية بيان لحقّ الحكم الذي عند الله في المسألة بعد إنكار المساواة ، وهو أن الذي آمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ما استطاع يبذل ما عنده من مال و نفس ، أعظم درجة عند الله وإنما عبّر في صورة الجمع - الذين آمنوا الخ - إشارة إلى أن ملاك الفصل هو الوصف دون الشخص . وما تقدّم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله ، قرينة على أن المراد بالقياس الذي يدلّ عليه أفعال التفضيل في قوله : « أولئك أعظم درجة » الخ هو أن بين الفريقين اشتراكاً في الدرجات غير أن درجة من جاهد عن إيمان أعظم ممن سقى وعمر .

بل المراد بيان أن النسبة بينهما نسبة الأفضل إلى من لا فضل له كالمقايسة المأخوذة بين الأكثر والأقلّ فإنها تستدعي وجود حدّ متوسط بينهما يقاسان إليه فهناك ثلاثة أمور أمر متوسط يؤخذ مقياساً معدّلاً وآخر يكون أكثر منه ، وآخر يكون أقلّ منه فاذا قيس الأ أكثر من الأقلّ كان الأ أكثر مقياساً إلى ما لا كثرة فيه أصلاً .

فقوله : « أولئك أعظم درجة عند الله » أي بالقياس إلى هؤلاء الذين لا درجة لهم أصلاً ، وهذا نوع من الكناية عن أن لا نسبة حقيقة بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلاً .

ويدل على ذلك أيضاً قوله : « وأولئك هم الفائزون » بما يدل على انحصار الفوز فيهم وثبوتها لهم على نهج الاستقرار .

قوله تعالى : « يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وحنّات » إلى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل في حقهم بيان وتفصيل لما ذكر في الآية السابقة من فوزهم جيء به بلسان التبشير .

فالعنى « يبشّرهم » أي هؤلاء المؤمنين « ربهم برحمة منه » عظيمة لا يقدر قدرها « ورضوان » كذلك « وحنّات لهم فيها » في تلك الجنّات « نعيم مقيم » لا يزول ولا ينفد حالكونهم « خالدين فيها أبداً » لا ينقطع خلودهم بأجل ولا أمد .

ثم لما كان المقام مقام التعجب والاستبعاد لكونها بشارة بأمر عظيم لم يعهد في ما نشاهده من أنواع النعيم الذي في الدنيا ، رفع الاستبعاد بقوله : « إن الله عنده أجر عظيم » .

وسيوافيك الكلام في توضيح معنى رحمته تعالى ورضوانه فيما سيمر من موضع مناسب وقد تقدّم بعض الكلام فيهما .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء » إلى آخر الآية نهى عن تولّي الكفار ولو كانوا آباء وإخواناً فإنّ الملاك عام ، والآية التالية تنهى عن تولّي الجميع غير أن ظاهر لفظ الآية النهي عن اتّخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر ورجّحوه على الإيمان .

وإنما ذكر الآباء والإخوان دون الأبناء والأزواج مع كون القبيلين وخاصة الأبناء محبوبين عندهم كآباء والإخوان لأنّ التولّي يعطي للولي أن يداخل أمور وليه ويتصرّف في بعض شؤون حياته ، وهذا هو المحذور الذي يستدعي النهي عن تولّي الكفار حتّى لا يداخلوا في أمورهم الداخلية ولا يأخذوا بمجامع قلوبهم ، ولا يكف المؤمنون

ولا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم ويضرهم ، ومن المعلوم أن النساء والذراري لا يترقب منهم هذا الأثر السيئ إلا بواسطة ، فلذلك خص النهي عن التولي بالآباء والإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم في قلوب المؤمنين وتصرفهم في شؤونهم .

وقد ورد النهي عن اتخاذ الكفار أولياء في مواضع من كلامه تقدم بعضها في سورة المائدة وآل عمران والنساء والأعراف وفيها إنذار شديد وتهديدات بالغة كقوله تعالى : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » المائدة : ٥١ ، وقوله : « ويحذركم الله نفسه » آل عمران : ٢٨ ، وقوله : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » آل عمران : ٢٨ ، وقوله : « أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » النساء : ١٤٤ .

وأذنهم في الآية التي نحن فيها بقوله : « ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » ولم يقل : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » ، إذ من الجائز أن يتوهم بعض هؤلاء أنه منهم لأنهم آباؤه وإخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثراً جديداً يبعثه نحو رفض الولاية . وكيف كان فقوله : « ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » بما في الجملة من المؤكدات كاسمية الجملة ، ودخول اللام على الخبر وضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم واستقراره فيهم ، وقد كرر الله في كلامه أن الله لا يهدي القوم الظالمين ، وقال في نظير الآية من سورة المائدة : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » فهؤلاء محرومون من الهداية الإلهية لا ينفعهم شيء من أعمالهم الحسنة في جلب السعادة إليهم ، والسماحة بالفوز والفلاح عليهم .

قوله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ، إلى آخر الآية التفت من مخاطبتهم إلى مخاطبة النبي ﷺ إيماءً إلى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن قلوبهم مائلة إلى الاشتغال بما لا ينفع معه النهي عن تولي آباءهم وإخوانهم الكافرين ، وإيجاد الداعي في نفوسهم إلى الصدور عن أمر الله ورسوله ، وقتال الكافرين جهاداً في سبيل الله وإن كانوا آباءهم وإخوانهم .

والذي يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله ورسوله والجهاد في سبيل الله ، وقد عدَّ الله سبحانه أصول ما يتعلق به الحب النفساني من زينة الحياة الدنيا ، وهي الآباء

والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة - وهؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعي بقراية نسبية قريبة أو بعيدة أو سببية - والأموال التي اكتسبوها وجمعوها ، والتجارة التي يخشون كسادها والمساكن التي يرضونها - وهذه أصول ما يقوم به المجتمع في المرتبة الثانية - .

وذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين ، وقدّموا حكم هؤلاء الأمور على حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله فليترّبصوا ولينتظروا حتّى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ومن المعلوم أنّ الشرط أعني قوله : « إن كان آباؤكم - إلى قوله - في سبيله » في معنى أن يقال : إن لم تنتهوا عمّا ينهاكم عنه من اتّخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء باتّخاذكم سبباً يؤدّي إلى خلاف ما يدعوكم إليه ، وإهمالكم في أمر غرض الدين وهو الجهاد في سبيل الله .

فقوله في الجزء : « فترّبصوا حتّى يأتي الله بأمره » لا محالة إمّا أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلثة وسقوط غرض في ظرف مخالفتهم ، وإمّا عذاب يأتيهم عن مخالفة أمر الله ورسوله والإعراض عن الجهاد في سبيله .

غير أنّ قوله تعالى في ذيل الآية : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » يعرض لهم أنّهم خارجون حينئذ عن زيّ العبوديّة ، فاسقون عن أمر الله ورسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم ويوفّقهم لنصرة الله ورسوله ، وإعلاء كلمة الدين وإحياء آثار الشرك .

فذيل الآية يهدي إلى أنّ المراد بهذا الأمر الذي يأمرهم الله أن يترّبصوا حتّى يأتي به أمر منه تعالى ، متعلّق بنصرة دينه وإعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى في سورة المائدة بعد آيات ينهى فيها عن تولّي الكافرين : « يا أيّها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » المائدة : ٥٤

و الآية بقيورها و خصوصياتها - كما ترى - تنطبق على ما تفيدہ الآية التي نحن فيها .

فالمراد - والله أعلم - إن اتخذتم هؤلاء أولياء ، واستنكفتم عن إطاعة الله و رسوله و الجهاد في سبيل الله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، و يبعث قوماً لا يحبون إلا الله ، ولا يوالون أعداءه و يقومون بنصرة الدين و الجهاد في سبيل الله أفضل قيام فأنتم إذا فاسقون لا ينتفع بكم الدين ، ولا يهدي الله شيئاً من أعمالكم إلى غرض حق و سعادة مطلوبة .

وربما قيل : إن المراد بقوله : « فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » الإشارة إلى فتح مكة ، وليس بسديد فإن الخطاب في الآية للمؤمنين من المهاجرين و الأنصار و خاصة المهاجرين ، و هؤلاء هم الذين فتح الله مكة بأيديهم ، ولا معنى لأن يخاطبوا و يقال لهم : إن كان آباؤكم و أبناءكم الخ أحب إليكم من الله و رسوله و جهاد في سبيله فواليتموهم و استنكفتم عن إطاعة الله و رسوله و الجهاد في سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكة بأيديكم و الله لا يهدي القوم الفاسقين ، أو فتربصوا حتى يفتح الله مكة و الله لا يهديكم مكان فسقكم فتأمل .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير البرهان في قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج » الآية عن أمالي الشيخ بإسناده عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد يرفعه إلى أبي نذر - في حديث الشورى - فيما احتج به عليّ عليه السلام على القوم : وقال لهم في ذلك : فهل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية « أجعلتم سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الآخر و جاهد في سبيل الله » غيري ؟ قالوا : لا .

و في تفسير القمي قال : و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب عليه السلام : « الذين آمنوا و هاجروا - إلى قوله -

الفائزون، ثم وصف مال علي عليه السلام عنده فقال: يبشرونهم برحمة منه ورضوان وجنة لهم فيها نعيم مقيم .

وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينا شيبة والعباس يتفاخران إذ مر عليهما علي بن أبي طالب قال : بما تقتخران ؟ قال العباس : لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاج ، وقال شيبة : أوتيت عمارة المسجد الحرام ، وقال علي : و أنا أقول لكما لقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا فقلا : و ما أوتيت يا علي ؟ قال : ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله تبارك و تعالی ورسوله .

فقام العباس مغضباً يجر ذنبه حتى دخل على رسول الله ﷺ فقال : أما ترى ما استقبلني به علي ؟ فقال : ادعوا لي علياً فدعي له فقال : ما حملك يا علي علي ما استقبلت به عمك ؟ فقال : يا رسول الله صدقته الحق فإن شاء فليغضب ، وإن شاء فليرض . فنزل جبرئيل عليه السلام و قال : يا محمد ربك يقرء عليك السلام و يقول : اتل عليهم : « أجعلتم سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الآخر - إلى قوله - إن الله عنده أجر عظيم » .

و في تفسير الطبري بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال : افتخر طلحة بن شيبة و العباس و علي بن أبي طالب فقال طلحة : أنا صاحب البيت معي مفتاحه ، وقال العباس : و أنا صاحب السقاية و القائم عليها فقال علي : ما أدري ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس ، و أنا صاحب الجهاد فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج » الآية كلها .

و في الدر المنثور أخرج الفاريابي عن ابن سيرين قال : قدم علي بن أبي طالب مكة فقال للعباس : أي عم ألا تهاجر ؟ ألا تلحق برسول الله ﷺ ؟ فقال : أعمر المسجد الحرام و أحجب البيت فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج » الآية ، و قال لقوم قد سماهم : ألا تهاجرون ؟ ألا تلحقون برسول الله ﷺ ؟ فقالوا : نقيم مع إخواننا و عشائرنا و مساكننا فأنزل الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم ، الآية كلها » .

و فيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أُسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقي الحاجّ ونفكّ العاني^(١) فأَنْزَلَ اللهُ : « أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ ، الْآيَةَ يَعْنِي أَنْ ذَلِكَ كَانَ فِي الشَّرْكَ فَلَا أَقْبَلُ مَا كَانَ فِي الشَّرْكَ .

وفيه أخرج مسلم و أبو داود وابن جرير وابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان والطبراني وأبو الشيخ و ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفْرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ لِلَّهِ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ ، وَقَالَ آخَرٌ : بَلْ عَمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَقَالَ آخَرٌ : بَلِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا قُلْتُمْ .

فزجرهم عمر و قال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فَأَنْزَلَ اللهُ : « أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

أقول : قال صاحب المنار في تفسيره بعد إيراد هذه الروايات الأربع الأخيرة : والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده وموافقة متنه لما دلّت عليه الآيات من كون موضوعها في المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابه - من أعمال البر البدنية الهيئته المستلذّة - وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة ، وهي أشقّ العبادات النفسية البدنية المالية ، والآيات تتضمن الردّ عليها كلّها . انتهى .

أمّا ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها بصحة السند ففيه أوّلاً أنّ رواية القرظي أيضاً في مضمونها موافقة لرواية الحاكم في المستدرک وقد صحّحها . وثانياً : أنّ روايات التفسير إذا كانت آحاداً لاحجّية لها إلا ما وافق مضامين الآيات بقدر ما يوافقها على ما بيّن في فنّ الأصول فإنّ الحجّية الشرعية تدور مدار الآثار الشرعية المترتبة فتتخصر في الأحكام الشرعية وأمّا ما رواها كالروايات الواردة في القصص والتفسير الخالي

عن الحكم الشرعي فلاحجية شرعية فيها .

وأما الحجية العقلية أعني العقلانية فلا مسرح لها بعد توافر الدس والجعل في الأخبار سيما أخبار^(١) التفسير والقصص إلا ما تقوم قرائن قطعية يجوز التعويل عليها على صحته متنه ، ومن ذلك موافقة متنه لطواغر الآيات الكريمة .

فألذي بهم الباحث عن الروايات غير الفقيهية أن يبحث عن موافقتها للكتاب فإن وافقتها فهي الملاك لاعتبارها ولو كانت مع ذلك صحيحة السند فإنما هي زينة زينت بها وإن لم توافق فلا قيمة لها في سوق الاعتبار .

وأما ترك البحث عن موافقة الكتاب ، والتوغّل في البحث عن حال السند - إلا ما كان للتوسّل إلى تحصيل القرائن - ثم الحكم باعتبار الرواية بصحة سندها ثم تحميل ما يدلّ عليه متن الرواية على الكتاب ، واتخاذها تبعاً لذلك كما هو دأب كثير منهم فمما لا سبيل إليه من جهة الدليل .

وأما ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها من جهة المتن مبيّناً ذلك بأن الآيات تدلّ على أن موضوع المساواة أو المفاضلة كان بين خدمة البيت أو حجابته وهي من أعمال البر البدنية الهينة المستلذّة ، وبين الإيمان والجهاد والهجرة وهي من أعمال البر النفسية والبدنية الشاقّة ، والآيات تتضمّن الردّ عليها كلّها . انتهى .

ففيه أوّلاً : أن الذي ذكره من مدلول الآيات مشترك بين جميع ما أورده من

الروايات :

أما رواية ابن عباس التي مضمونها وقوع الكلام في المساواة أو المفاضلة حين أسر العباس يوم بدر بين العباس وبين المسلمين حيث عيروه فقد ذكر فيها صريحاً المقايسة بين الإسلام والهجرة والجهاد وبين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد و فكّ العاني ، وهناك روايات آخر في معناها .

وأما رواية ابن سيرين الدالة على وقوع النزاع بين عليّ و العباس بمكّة حين دعاه إلى الهجرة واللحق بالنبي ﷺ فأجابه بأن له عمارة المسجد الحرام و حجابة

(١) وقد اعترف في مواضع من كلامه ونقل عن احمد انه قال : لا أصل لها .

البيت وقد روى هذا المعنى ابن مردويه عن الشعبي وفيها : أن العباس قال لعلي : أنعم النبي ﷺ ، وأنت ابن عمه ، وإلي سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج ، الآية .

ورواه أيضاً ابن أبي شيبه وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن عبيدة وفيها : أن العباس قال لعلي : أولست في أفضل من الهجرة ؟ ألسنت أسقي الحاج وأعمر المسجد الحرام فنزلت هذه الآية .

وعلى أي حال فالواقع في هذه الرواية أيضاً المقايسة بين السقاية وعمارة و بين الهجرة وما يترتب عليها مما يستلزمه اللحق بالنبي ﷺ كالجهاد وغيره من الأعمال الشريفة الدينية .

وأما رواية الفرطي وما في معناها كالذي رواه الحاكم وصححه ، وما رواه عبد الرزاق عن الحسن قال : نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة (١) تكلموا في ذلك ، وكذا رواية النعمان التي تقدمت فكون المنازعة فيها في السقاية وعمارة والإيمان والجهاد ظاهر فإذا كان الحال هذا الحال فأى مزية في رواية النعمان بن بشير توجب اختصاصها بموافقة الكتاب من بين سائر الروايات .

وثانياً : أن قوله : إن موضوع المفاضلة هي أعمال البر الهينة المستلذة كالسقاية والحجامة وأعمال البر الشاقة كالإيمان والهجرة والجهاد لا يوافق ما يدل عليه الآيات فإنها كما تقدم ظاهرة الدلالة على أن المقايسة كانت بينهم بين أجساد الأعمال الخالية عن روح الإيمان وليست من البر حينئذ وبين أعمال حية بولوج روح الإيمان فيها كالهجرة والجهاد عن إيمان بالله واليوم الآخر .

فالأيات تدل على أنهم كانوا يسوون أو يفضلون غير أعمال البر كالسقاية وعمارة من غير إيمان على أعمال البر كالجهاد عن إيمان وهجرة والهجرة عن إيمان فأين ما ذكره من أعمال البر الهينة قبالة أعمال البر الشاقة ؟ (٢) .

(١) ابن شيبه ظ .

(٢) نعم زعم هو أن السقاية وعمارة من العباس في حال شركه من أعمال البر كما زعمه العباس غير أن الآيات بنزولها نهت العباس أنه كان قد أخطأ في مزعمته كما يشعر به ذيل رواية ابن عباس ولم يقنعه هو لما تنبه له العباس رضي الله عنه .

ودلالة الآيات - بما فيها من القيود المأخوذة - على ذلك بمكان من الظهور والجلالة فقد قيّد الجهاد فيها بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وأطلق السقاية والعمارة من غير تقييد بالإيمان ثم قال تعالى : « لا يستوون عند الله » ثم زاد : « والله لا يهدي القوم الظالمين » و حاشا أن يكون الآتي بأعمال البرّ عند الله من القوم الظالمين المحرومين عن نعمة الهداية الإلهية .

حتى لو فرض أن المراد بالظالمين أولئك المسوّون أو المفضلون من المؤمنين للسقاية والعمارة على الجهاد فإنّ المؤمن على إيمانه إذا حكم بمثل هذا الحكم فإنّما هو خاط يهتدي إزاء ذلك على الصواب لا ظالم محروم من الهداية فافهم ذلك .
وثالثاً : ما تقدّم من أن قوله : « كمن آمن بالله » الآية وقوله : « لا يستوون » الآية دليل على أن للشخص دخلاً فيما تتضمن الآيات من الحكم .

والتدبر في الآيات الكريمة والتأمل فيما ذكرناه هنا وهناك يوضح للباحث الناقد أن أضعف الروايات وأبعدها من الانطباق على مضمون الآيات هي رواية النعمان بن بشير فإنّها لا تقبل الانطباق على الآيات الكريمة بما فيها من القيود المأخوذة .
ويليها في الضعف رواية ابن سيرين وما في معناها من الروايات فإنّ ظاهرها أن العباس إنّما دعي إلى الهجرة وهو مسلم فافتخر بالسقاية والحجّابة والآيات لا تساعد على ذلك كما مرّ .

على أن الواقع في رواية ابن سيرين ذكر العباس للسقاية وحجّابة البيت ولم يكن له حجّابة إنّما هي السقاية .

ويليها في الضعف رواية ابن عباس فظاهرها أن المقايسة إنّما كانت بين الأعمال فقط والآية لا تساعد على ذلك .

على أن فيها أن العباس ذكر فيما ذكر سقاية الحاجّ وعمارة المسجد وفكّ العاني وهو الأسير . ولو كان لذكر في الآية ، وقد وقع في رواية ابن جرير وأبي الشيخ عن الضحاك في هذا المعنى قال : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك . فقال العباس : أما والله لقد كنّا نعمر المسجد الحرام ، ونفكّ العاني ، ونحجّب

البيت ونسقي الحاج فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج » الآية ، والكلام في فك العاني وحجابه البيت الواقعين فيها كالكلام في سابقها .

فأسلم الروايات في الباب وأقربها إلى الانطباق على الآيات مضموناً رواية القرظي وما في معناها كرواية الحاكم في المستدرک ورواية عبدالرزاق عن الحسن ورواية أبي نعيم وابن عساكر عن أنس الآتية ، وقد تقدم توضيح ذلك .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة و ابن عساكر عن أنس قال : قعد العباس وشيبة صاحب البيت يفتخران فقال العباس : أنا أشرف منك أنا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصي أبيه ، و ساقى الحجيج ، فقال شيبة : أنا أشرف منك أنا أمين الله على بيته وخازنه أفلا ائتمنك كما ائتمنني ؟

فاطلع عليهما علي فآخبراه بما قالا فقال علي : أنا أشرف منكما أنا أول من آمن وهاجر فانطلق ثلاثتهم إلى النبي ﷺ فأخبروه فما أجابهم بشيء فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيام فأرسل إليهم فقرأ عليهم : « أجعلتم سقاية الحاج » و عمارة المسجد الحرام ، إلى آخر العشر .

وفي تفسير القمي عن أبيه عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام : قال : نزلت في علي والعباس وشيبة . قال العباس : أنا أفضل لأن سقاية الحاج بيدي ، وقال شيبة : أنا أفضل لأن حجابه البيت بيدي ، وقال علي : أنا أفضل فإنني آمنت قبلكما ثم هاجرت وجاهدت فرضا رسول الله ﷺ فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج » - إلى قوله - إن الله عنده أجر عظيم ، .

أقول : ورواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام مثله ، وفيه عثمان بن أبي شيبة مكان شيبة .

وفي الكافي عن أبي علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما في قول الله : « أجعلتم سقاية الحاج » و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، نزلت في حمزة وعلي و جعفر و العباس و شيبة . إنهم فخرُوا بالسقاية والحجابه فأنزل الله عز ذكره : « أجعلتم سقاية الحاج » و

عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وكان عليّ وحمة و جعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله . لا يستوون عند الله .

أقول : ورواه أيضاً العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام مثله .
والرواية لاثلاث ما يثبتها النقل القطعي فقد كان حمزة من المهاجرين الأولين لحق برسول صلوات الله عليه ثم استشهد في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، وقد كان جعفر هاجر إلى الحبشة قبل هجرة النبي صلوات الله عليه ثم رجع إلى المدينة أيام فتح خيبر وقد استشهد حمزة قبل ذلك بمدة فلو كان من الخمسة اجتماع على التفاخر فقد كان قبل الهجرة النبوية و حينئذ فما معنى ما وقع في الرواية : « وكان عليّ وحمة و جعفر هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله » ؟

وإن كان المراد بالنزول فيهم انطباق الآية عليهم على سبيل الجري فقد كان العباس مثلهم فإنه آمن يوم أُسر ببدر ثم حضر بعض غزوات النبي صلوات الله عليه .

و في تفسير البرهان عن الجمع بين الصحاح الستة للعبيدي في الجزء الثاني من صحيح النسائي بإسناده قال : افتخر طلحة بن شيبه من بني عبدالدار والعباس بن المطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة : بيدي مفتاح البيت ولو أشاء بت فيه ، وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد ، وقال عليّ : ما أدري ما تقولان ؟ لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأُنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام » الآية .

أقول : المراد بالصلاة ستة أشهر قبل الناس التقدم في الإيمان بالله على ما تعرضت له الآية وإلا كان من الواجب أن تذكر في الآية ، وقد ذكر ثالث القوم طلحة بن شيبه ، وقد تقدم في بعضها أنه شيبه ، وفي بعضها أنه عثمان بن أبي شيبه .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » قال : الإيمان ولاية علي بن أبي طالب .

أقول : هو من باطن القرآن مبني على تحليل معنى الإيمان إلى مراتب كماله .

و في تفسير القميّ : لما أذن أمير المؤمنين أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك جزعت قريش جزعاً شديداً ، و قالوا : زهبت تجارتنا و ضاعت عيالنا و خربت دورنا فأنزل الله في ذلك : « قل - يا محمد - إن كان آباؤكم و أبناءكم و إخوانكم و أزواجكم و عشيرتكم - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

أقول : و على هذا كان من الحريّ أن يفسر قوله في الآية : « حتّى يأتي الله بأمره » بتدارك ما ينزل بهم من الكساد وفتح باب الرزق عليهم من وجه آخر كما وقع مثله في قوله تعالى في ضمن الآيات التالية : « يا أيّها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » التوبة : ٢٨ .

بل اتحد حينئذ موردا الآيتين ، و لسان الرفق و كرامة الخطاب بمثل قوله : « يا أيّها الذين آمنوا » يأتي أن يكون الخطاب بقوله : « إن كان آباؤكم و أبناءكم » الآية متوجهاً إليهم بأعيانهم على ما في آخرها من الخشونة في قوله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

على أن الآية تذكر حبّ الآباء و الإخوان و العشيرة و الأموال التي اقترفوها ، ولم يذكر شيء منها في الرواية ، ولا حسبت قريش ضيعة بالنسبة إليها فما معنى ذكرها في الآية و التهديد على اختيار حبّها على حبّ الله و رسوله ؟ و ما معنى ذكر الجهاد في سبيله في الآية ؟ فافهم ذلك .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد و البخاريّ عن عبد الله بن هشام قال : . كنّا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطّاب فقال : والله لأنّ يا رسول الله أحبّ إليّ من كلّ شيء إلا من نفسي . فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبْتَ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَدْيَنَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى قصة غزوة حنين وتمتن بما نصر الله فيه المؤمنين كسائر المواطن من الغزوات التي نصرهم الله بعجيب نصرته على ضعفهم وقتلهم ، وأظهر أعاجيب آياته بتأييد نبيه ﷺ وإنزال جنود لم يروها وإنزال السكينة على رسوله والمؤمنين وتعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين .

وفيها الآية التي تحرّم على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجرة ، وهي العام الذي أذن فيه عليّ عليه السلام ببراءة ، ومنع طواف البيت عرفاناً ، و دخول المشركين في المسجد الحرام .

قوله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين - إلى قوله - ثم وليتم مدبرين ، المواطن جمع موطن وهو الموضع الذي يسكنه الإنسان و يتوطن فيه . و حنين اسم واد بين مكة والطائف وقع فيه غزوة حنين قاتل فيه النبي ﷺ هو ازن وثقيف

وكان يوماً شديداً على المسلمين انهزموا أولاً ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا .
والإعجاب الإسرار والعجب سرور النفس بما يشاهده نادراً ، و الرحب السعة في
المكان وضده الضيق .

وقوله : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة
ومواضع متعددة يدل السياق على أنها مواطن الحروب كوقائع بدر وأحد والخندق وخيبر
وغيرها ، ويدل السياق أيضاً أن الجملة كالمقدمة المهمة لقوله : « ويوم حنين إذ أعجبتكم
كثرتكم ، الآية فإن الآيات الثلاث مسوقة لتذكير قصة وقعة حنين ، وعجيب ما أفاض
الله عليهم من نصرته وخصهم به من تأييده فيها .

وقد استظهر بعض المفسرين كون الآية وما يتلوها إلى تمام الآيات الثلاث تسمية
لقول النبي ﷺ فيما أمره ربه أن يواجه به المؤمنين في قوله : « قل إن كان آباؤكم ،
الآية وتكلف في توجيهه الفصل الذي في قوله : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » .

ولا دليل من جهة اللفظ على ذلك بل الدليل على خلافه فإن قصة حنين وما
يشتمل عليه من الامتنان بنصر الله وإنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الكافرين و
التوبة على من يشاء أمر مستقل في نفسه زوهمية في ذاته وهو أهم هدفاً من قوله تعالى :
« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » الآية أو هو مثله لا يقصر عنه فلا معنى لإتباعه إياه
وعطفه عليه في المعنى .

وحينئذ لو كان مما يجب أن يخاطب به القوم لكان من الواجب أن يقال : « و قل
لهم لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » الآية ، على ما جرى عليه القرآن في نظائره كقوله
تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم بوحى إلي أنما إليكم إله واحد إلى أن قال - قل أنتم
لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » حم السجدة : ٩ وغيره من الموارد .

على أن سياق الآيات وما يجب أن تشتمل عليه من الالتفات وغيره - لو كانت الآيات
مقولة للقول - لاتلائم كونها مقولة للقول السابق .

والخطاب في قوله : « لقد نصركم الله » وما يتلوه من قوله : « إن أعجبتكم كثرتكم ،
الآية للمسلمين وهم الذين يؤلفون مجتمعاً إسلامياً واحداً حضروا بوحدتهم هذه الوحدة

أمثال وقائع بدر وأحد والخندق وخيبر وأحنيماً وغيرها .

وهؤلاء فيهم المنافقون و الضعفاء في الإيمان و المؤمنون صدقاً على اختلافهم في المنازل إلا أن الخطاب متوجه إلى الجميع باعتبار اشتماله على من يصح أن يخاطب بمثل قوله : « إن أعجبتكم كثرتكم » إلى آخر الآية .

وقوله : « ويوم حنين » أي و يوماً وقعت فيه القتال بينكم و بين أعدائكم بوادي حنين ، وإضافة اليوم إلى أمكنة الوقائع العظيمة شائع في العرف كما يقال : يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق نظير إضافته إلى الجماعة المتلبسين بذلك كيوم الأحزاب ويوم تميم ، وإضافته إلى نفس الحادثة كيوم فتح مكة .

وقوله : « إن أعجبتكم كثرتكم » أي أسرتكم الكثرة التي شاهدتموها في أنفسكم فانقطعتم عن الاعتماد بالله والثقة بأيده وقوته واستندتم إلى الكثرة فرجوتهم أن ستدفع عنكم كيد العدو وتهزم جمعهم ، وإنما هو سبب من الأسباب الظاهرية لا أثر فيها إلا ما شاء الله الذي إليه تسبب الأسباب .

وبالنظر إلى هذا المعنى أردف قوله : « إن أعجبتكم كثرتكم » بقوله : « فلم تغن عنكم شيئاً » أي اتخذتموها سبباً مستقلاً دون الله فأنساكم الاعتماد بالله ، وركنتم إليها فبان لكم ما في وسع هذا السبب الموهوم وهو أن لاغنى عنده حتى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئاً لانصراً ولا شيئاً آخر .

وقوله : « وضافت عليكم الأرض بما رحبت » أي مع ما رحبت ، وهو كناية عن إحاطة العدو بهم إحاطة لا يجدون مع ذلك مأمناً من الأرض يستقرون فيه ولا كهفاً يأوون إليه فيقيمهم من العدو ، أي فررتهم فراراً لا تلوون على شيء .

فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصة الأحزاب : « إن جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإن زاعت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنوننا » الأحزاب : ١٠ .

وقول بعضهم : أي ضافت عليكم الأرض فلم تجدوا موضعاً تفرّون إليه . غير

وقوله : « ثم وليتم مدبرين » أي جعلتم العدو يلي أديباركم وهو كناية عن الانهزام وهذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم و الانقطاع من ربهم قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأديبار ومن يولهم يومئذ دبره - إلى أن قال - فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم و بس المصير » الأنفال : ١٦ و قال أيضا : « و لقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديبار و كان عهد الله مسؤولاً ، الأحزاب : ١٥ .

فهذا كله أعني ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم و فرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم ، و وقوفهم هذا الموقف الذي يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم و اطمئنانهم إلى هذه الأسباب السرايية التي لا تغني عنهم شيئاً . و الله سبحانه بسعة رحمته و عظم منته امتن عليهم بنصره و إنزال سكينته و إنزال جنود لم يروها ، و تعذيب الكافرين ، و وعد مجمل بمغفرته : وعد أليس بالماقطوع و جوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم ، و لا بالماقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل وعداً يحفظ فيهم الاعتدال و التوسط بين صفتي الخوف و الرجاء ، و يرببهم تربية حسنة تعددهم و تهيئهم للسعادة الواقعية .

و قد أغرب بعض المفسرين في تفسير الآية مستظهراً بما جمع به بين الروايات على اختلافها فأصر على ما ملخصه أن المسلمين لم يفرّوا على جبن ، و إنما انكشفوا عن موضعهم لما فاجأهم من شدّ كتاب ثقيف و هوا زن عليهم شدّ رجل واحد فاضطربوا اضطرابة زلزلتهم و كشفتهم عن موضعهم دفعة واحدة و هذا أمر طبيعي في الإنسان إذا فاجأه الخطر و دهمته بليّة دفعة و من غير مهل اضطربت نفسه و خلى عن موضعه .

و يشهد به نزول السكينة على رسول الله ﷺ و عليهم جميعاً فقد كان الاضطراب شمله و إياهم جميعاً ، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابه ما أصابه من الاضطراب و القلق حزناً و أسفاً مما وقع ، و المسلمون شملهم ذلك لما فوجئوا به من حملة الكتاب حملة رجل واحد .

و من الشواهد أنهم بمجرد ما سمعوا نداء الرسول ﷺ و نداء العباس بن عبد

المطلب يرجعوا من فورهم و هزموا الكفار بالسكينة النازلة عليهم من عند الله تعالى .
ثم ذكر ما نزل من الآيات في صفة الصحابة كآية بيعة الرضوان ، و قوله تعالى :
« محمد رسول الله و الذين معه أشدء على الكفار » الآية ، و قوله : « إن الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة » الآية ، و ماورد من طريق الرواية في مدح
صحابه النبي ﷺ . انتهى .

و الذي أورده من الخلط بين البحث التفسيري الذي لاهم له إلا الكشف عما يدل
عليه الآيات الكريمة ، و بين البحث الكلامي الذي يرام به إثبات ما يدعيه المتكلم في
شيء من المذاهب من أي طريق أمكن من عقل أو كتاب أو سنة أو إجماع أو المختلط
منها و البحث التفسيري لا يبيح لباحثه شيئاً من ذلك ، ولا تحمیل أي نظر من الأنظار
العلمية على الكتاب الذي أنزله الله تبيانا .

أما قوله : إنهم لم يفروا جيناً و لاخذ لاناً للنبي ﷺ ، وإنما كان انكشافاً
لأمر فاجأهم فاضطربوا و زلزلوا ففروا ثم كرّوا فهذا مما لا يندفع به صريح قوله تعالى :
« ثم ولّيتهم مدبرين » مع اندراج هذا الفعل منهم تحت كلفة قوله تعالى في آية تحريم
الفرار من الزحف : « فلا تولّوهم الأدبار و من يولّهم يومئذ دبره - إلى أن قال - فقدباء
بغضب من الله » الآية .

ولم يقيد سبحانه النهي عن تولية الأدبار بأنه يجب أن يكون عن جبن أو لغرض
الخدلان ، ولا استثنى من حكم التحريم كون الفرار عن اضطراب مفاجيء ، ولا أورد في
استثنائه إلا ما ذكره بقوله : « إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة » و ليس هذان
المستثنيان في الحقيقة من الفرار من الزحف ،

ولم يورد تعالى أيضا فيما حكى من عهدهم شيئاً من الاستثناء إذ قال : « و لقد كانوا
عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار و كان عهد الله مسؤولاً » الأحزاب : ١٥ .

و أما استشهاده على ذلك بأن الاضطراب كان مشتركا بينهم وبين النبي ﷺ ،
و استدلاله على ذلك بقوله تعالى : « ثم أنزل الله سكينة على رسوله و على المؤمنين » حيث
إن نزول السكينة بعد انكشافهم بزمان - على ما تدل عليه كلمة ثم - يلازم نزول

الاضطراب عند ذلك على النبي ﷺ و إن كان عن حزن و أسف إذ لا يتصور في حقه ﷺ التزلزل في ثباته و شجاعته .

فلننظر فيما اعتبره للنبي ﷺ من الحزن و الأسف هل كان ذلك حزناً و أسفاً على ما وقع من الأمر من انهزام المسلمين و ما ابتلاهم الله به من الفتنة و المحنة جزاءً لما أعجبوا من كثرة عددهم ، و بالجملته حزناً مكروهاً عند الله ؟ فقد نزهه الله عن ذلك و أدبه بما نزل عليه من كتابه و علمه من علمه ، وقد أنزل عليه مثل قوله عز من قائل : « ليس لك من الأمر شيء ، آل عمران : ١٢٨ ، وقال : « سنقرؤك فلا تنسى » الأعلى : ٦ .

ولم يرد في شيء من روايات القصة أنه ﷺ زال عن مكانه يومئذ أو اضطرب اضطراباً مما نزل على المسلمين من الوهن و الانهزام .

و إن كان ذلك حزناً و أسفاً على المسلمين لما أصابهم من ناحية خطاهم في الاعتماد بغير الله و الركون إلى سراب الأسباب الظاهرة ، و الذهول عن الاعتصام بالله سبحانه حتى أوقعهم في خطيئة الفرار من الزحف لما كان هو ﷺ عليه من الرأفة و الرحمة بالمؤمنين فهذا أمر يوجب الله سبحانه و قد مدح رسوله ﷺ به إذ قال : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » التوبة : ١٢٨ .

و ليس يزول مثل هذا الأسف و الحزن بنزول السكينة عليه ، ولا أن السكينة لو فرض نزولها لأجله مما حدث بعد وقوع الانهزام حتى يكون النبي ﷺ خالياً عنها قبل ذلك بل كان ﷺ على بينة من ربه مندبثه الله إلى أن قبضه إليه ، وكانت السكينة بهذا المعنى نازلة عليه حيناً بعد حين .

ثم السكينة التي نزلت على المؤمنين ماهي ؟ و ماذا يحسبها ؟ أكانت هي الحالة النفسانية التي تحصل من السكون و الطمأنينة كما فسرها بها و استشهد عليه بقول صاحب المصباح : إنها تطلق على الرزانة و المهابة و الوقار حتى كانت ثبات الكفار و سكونهم في مواقفهم الحربية عن سكينة نازلة إليهم ؟ فإن كانت السكينة هي هذه فقد كانت في أول الواقعة عند كفار هوازن و ثقيف خصماء المسلمين ثم تركتهم و نزلت على عامة جيش المسلمين من مؤمن ثبت مع رسول الله ﷺ و من مؤمن لم يثبت و اختار الفرار على الفرار ،

ومن منافق ومن ضعيف الإيمان مريض القلب فإنهم جميعاً رجعوا ثانياً إلى النبي ﷺ ،
و ثبتوا معه حتى هزموا العدو فهم جميعاً أصحاب السكينة أنزلها الله إليهم فما باله تعالى
يقصر إنزال السكينة على رسوله و على المؤمنين إذ يقول : « ثم أنزل الله سكينته على
رسوله و على المؤمنين ؟ »

على أنه إن كانت السكينة هي هذه ، و هي مبتدلة بمبدولة لكل مؤمن و كافر فما
معنى ما امتن الله به على المؤمنين بما ظاهره أنها عطية خاصة غير مبتدلة ؟ ولم يذكرها
في كلامه إلا في موارد معدودة - بضعة موارد - لا تبلغ تمام العشرة .

وبذلك يظهر أن السكينة أمر واء السكون والثبات لأن لها معنى في اللغة أو
العرف وراء مفهوم الحالة النفسانية الحاصلة من السكون والطمأنينة بل بمعنى أن الذي
يريدته تعالى من السكينة في كلامه له مصداق غير المصداق الذي نجده عند كل شجاع
باسل له نفس ساكنة وجاش مربوط ، وإنما هي نوع خاص من الطمأنينة النفسانية له
نعت خاص وصفة مخصوصة .

كيف ؟ و كلما ذكرها الله سبحانه في كلامه امتناناً بها على رسوله و على المؤمنين
خصها بالإنزال من عنده فهي حالة إلهية لا ينسى العبد معها مقام ربه لا كما عليه عامة
الشجعان أولوا لشدة والبسالة المعجبون ببسالتهم المعتمدون على أنفسهم .

وقد احتفت في كلامه بأوصاف و آثار لا تعم كل وقار وطمأنينة نفسانية كما قال
في حق رسوله : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه و أيده
بجنود لم تروها » التوبة : ٤٠ وقال تعالى في المؤمنين « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك
تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » الفتح : ١٨ فذكر أنه إنما
أنزل السكينة عليهم لما علمه من قلوبهم فنزلها يحتاج إلى حالة قلبية طاهرة سابقة يدل
السياق على أنها الصدق ونزاهة القلب عن إبطان نية الخلاف .

وقال أيضاً : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم
و لله جنود السماوات والأرض » الفتح : ٤ فذكر أن من أثرها زيادة الإيمان مع الإيمان
وقال أيضاً : « إن جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته

على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها ، الفتح : ٢٦ ، والآية - كما ترى - تذكر أن نزول السكينة من عنده تعالى مسبوق باستعداد سابق وأهليّة وأحقية قبلية وهو الذي أُشير إليه في الآية السابقة بقوله : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة » . وتذكر أن آثارها لزوم كلمة التقوى ، وطهارة ساحة الانسان عن مخالفة الله ورسوله باقتراف المحارم وورود المعاصي .

وهذا كالمفسّر يفسّر قوله في الآية الأخرى : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم فازدادوا الإيمان مع الإيمان بنزول السكينة هو أن يكون الإنسان على وقاية إلهية من اقتراف المعاصي وهتك المحارم مع إيمان صادق بأصل الدعوة الحقّة .

وهذا نعم الشاهد يشهد أوّلاً : أن المراد بالمؤمنين في قوله في الآية المبجوث عنها « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » غير المنافقين وغير مرضى القلوب وضعفاء الإيمان ، ولا يبقى إلا من ثبت من المؤمنين مع النبي ﷺ ، وهم ثلاثة أو أربعة أو تسعة أو عشرة أو ثمانون أو دون المائة على اختلاف الروايات في إحصائهم ، ومن فرّوا فكشف عن النبي ﷺ أوّلاً ثم رجع وقاتل ثانياً وفيهم جلّ أصحاب النبي ﷺ وعدة من خواصهم .

فهل المراد بالمؤمنين الذين نزلت عليهم ، جميع من ثبت مع النبي ﷺ و من فرّوا أوّلاً ثم رجع ثانياً ، أو أنهم هم الذين ثبتوا معه من المؤمنين حتّى نزل النصر ؟ الذي يستفاد من آيات السكينة أن نزولها متوقف على طهارة قبلية وشفاء نفسيّ سابق حتّى يقرّها الله تعالى بالسكينة ، وهؤلاء كانوا مقترفين لكبيرة الفرار من الزحف آثمين قلوباً ، ولا محلّ لنزول السكينة على من هذا شأنه فإن كانوا ممن نزلت عليهم السكينة كان من الواجب أن يندموا على ما فعلوا ، ويتوبوا إلى ربهم توبة نصوحاً بقلوب صادقة حتّى يعلم الله ما في قلوبهم فينزل السكينة عليهم فيكونون أذنبوا أوّلاً ثم تابوا ورجعوا ثانياً فأنزل الله سكينته عليهم ونصرهم على عدوهم ، ولعلّ هذا هو الذي يشير إليه التراخي المفهوم من قوله تعالى « ثم أنزل الله سكينته عليهم » حيث عبر بـ « ثم » . هذا لكن يبقى عليه أوّلاً : أنه كان من اللازم على هذا أن يتعرّض في الكلام لتوبتهم

فيختص حينئذ قوله : « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » على الكفار الذين أسلموا بعد منهم ، ولا أثر من ذلك في الكلام ولا قرينة تخص قوله : « ثم يتوب الله » الخ بالكافرين الذين أسلموا بعد ، فافهم ذلك .

وثانياً : أن في ذلك غمضاً عن جميل السمي والمحنة الحسنة التي امتحن بها أولئك النفر القليل الذي ثبتوا مع النبي ﷺ حين تركه جموع المسلمين بين الأعداء وانهمزوا فارتين لا يلوون على شيء ، ومن المستبعد من دأب القرآن أن يهمل أمر من تحمّل محنة في ذات الله ، وألقى نفسه في أشق المهالك ابتغاء مرضاته - وهو شاكر عليم - فلا يحمد ولا يشكر سعيه .

والمعهود من دأب القرآن أنه إذا عمّ قوماً بعتاب أو توبيخ و ذم ، و فيهم من هو بريء من استحقاق اللوم أو العتاب أو طاهر من دنس الإثم والخطيئة أن يستثنيه منهم و يخصه بجميل الذكر ، و يحمد على عمله و إحسانه كما نراه كثيراً في الخطابات التي تعمم اليهود أو النصارى عتاباً أو زمماً أو توبيخاً فإنه تعالى يخاطبهم بما يخاطب و يوبخهم و ينسب إليهم الكفر بآياته و التخلف عن أوامره و نواهيهم ثم يمدح منهم الأقلين الذين آمنوا به بآياته و أطاعوه فيما أراد منهم .

وأوضح من ذلك ما يتعرّض من الآيات لوقعة أحد ، و تمتن على المؤمنين بما أنزل الله عليهم من النصر والكرامة ، و يعاتبهم على ما أظهروه من الوهن والفشل ثم يستثني الثابتين منهم على أقدام الصدق ، و بعدهم وعداً حسناً إذ قال مرة بعد مرة : « وسيجزى الله الشاكرين » آل عمران : ١٤٤ ، « و سنجزى الشاكرين » آل عمران : ١٤٥ .

ونجد مثله في ما يذكره الله سبحانه من أمر وقعة الأحزاب فإن في كلامه عتاباً شديداً لجمع من المؤمنين ، و توبيخاً و زمماً للمنافقين و الذين في قلوبهم مرض حتى قال فيما قال : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأعداء وكان عهد الله مسؤولاً » الأحزاب : ١٥ ثم إنه تعالى ختم القصة بمثل قوله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدّلوا تبديلاً » الأحزاب : ٢٣ .

فما باله تعالى لم يتعرّض لحالهم في قصة حنين ، وليست بأهون من غيرها ، ولا

خصهم بشيء من الشكر ، ولا حمدهم بما يمتنون به من لطيف حمده تعالى كغيرهم في غيرها .

فهذا الذي ذكرناه مما يقرب إلى الاعتبار أن يكون المراد بالمؤمنين الذين ذكر نزول السكينة عليهم هم الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ، وأما سائر المؤمنين ممن رجع بعد الانكشاف فهم تحت شمول قوله : « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » يشمل من شملته العناية منهم كما يشمل من شملته العناية والتوفيق من كفار هوازن وثقيف ومن الطلقاء والذين في قلوبهم مرض . هذا ما يهدي إليه البحث التفسيري ، وأما الروايات فلها شأنها وسيأتي طرف منها .

وأما ما ذكره من شهادة رجوعهم من فورهم حين سمعوا نداء النبي صلى الله عليه وسلم ونداء العباس فذلك مما لا يبطل ما قدمناه من ظهور قوله تعالى : « ثم وليتم مدبرين » إذا انضم إلى قوله : « إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » الآية في أن ما ظهر منهم في الواقعة من الفعل كان فراراً من الزحف فعلموه عن جبن أو تعمد في خذلان أو عن قلق واضطراب وتزلزل .

وأما ما ذكره من الآيات التي تمدحهم وتذكر رضی الرب عنهم واستحقاقهم جزيل الأجر من ربهم . ففيه أن هذه المحامد مقيسة فيها بقبور لا يتحتم معها الأمر فإن الآيات إنما تحمد من تحمده منهم لما به من نعوت العبودية كالإيمان والإخلاص والصدق والنصيحة والمجاهدة الدينية فالحمد باق ما بقيت الصفات ، والوعد الحسن على اعتباره ما ثبت فيهم النعوت والأحوال الموجبة له فإذا زالت لحادثة أو خطيئة زال بتبعه . وليس ما عندهم من مبادي الخير والبركات بأعظم ولأهم مما عند الأنبياء من صفة العصمة يستحيل معها صدور الذنب منهم وقد قال الله تعالى بعد ثناء طويل عليهم : « ولو أشر كوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ .

وقد قال تعالى قبال ما ظننوا أنهم مصونون عن ما يكرهونه من أقسام المجازاة كرامة لإسلامهم كما ظن نظيره أهل الكتاب : « ليس بأمانيتكم ولا أمانتي » أهل الكتاب من يعمل سوء يجزيه » النساء : ١٢٣ .

والذي ورد في بيعة الرضوان من قوله : « لقد رضي الله » فإنما رضاه تعالى من صفاته الفعلية التي هي عين أفعاله الخارجية منتزعة عنها فهو عين ما أفاض عليهم من الحالات الطاهرة النفسية التي تستعقب بطباعها جزيل الجزاء وخير الثواب إن بقيت أعمالهم على ماهي عليها وإن تغيرت تغير الرضى سخطاً و النعمة نعمة ولم يأخذ أحد عليه تعالى عهداً أن لا يخلف عهده فيحمله على السعادة والكرامة أحسن أو أساء ، أطاع أو عصى ، آمن أو كفر .

وليس رضى الرب من صفاته الذاتية التي يتصف بها في ذاته فلا يعرضه تغير أو تبدل ولا يطرء عليه زوال أو دثور .

قوله تعالى : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين » إلى آخر الآية السكينة - كما تقدم - حالة قلبية توجب سكون النفس و ثبات القلب ملازمة لازدياد الإيمان مع الإيمان ولكلمة التقوى التي تهدي إلى الورع عن محارم الله على ما تفسرها الآيات .

وهي غير العدالة التي هي ملكة نفسانية تردع عن ركوب الكبائر والإصرار على الصغائر فإن السكينة تردع عن الصغائر والكبائر جميعاً .

وقد نسب الله السكينة في كتابه إلى نفسه نسبة تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح إلى نفسه دون العدالة و وصفها بالإنزال فلها اختصاص عندى به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدّها من جنوده كقوله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السماوات والأرض » الفتح : ٨ . وفي غير واحد من الآيات المشتملة على ذكر السكينة ذكر الجنود كقوله : « فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنود لم تروها » التوبة : ٤٠ و كما في الآية المطبوح عنها : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها »

والذي يفهم من السياق أن هذه الجنود هي الملائكة النازلة إلى المعركة ، أو أن يقال من جملتها الملائكة النازلة والذي ينتسب إلى السكينة والملائكة أن يعذب بهم الكفار ويسدّد ويسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصة قصة أحد ، و

آيات في أول سورة الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقة الحال إن شاء الله تعالى .
وقد تقدم في قوله تعالى : « فيه سكينه من ربكم » البقرة : ٢٤٨ في الجزء الثاني من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينه الإلهيه من الكلام مما لا يخلو من نفع في هذا المقام .
قوله تعالى : « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » قد تقدم مراراً أن التوبه من الله سبحانه هي الرجوع إلى عبده بالعنايه و التوفيق أولاً ثم بالعمو والمغفرة ثانياً ، ومن العبد الرجوع إلى ربه بالندامة والاستغفار ، ولا يتوب الله على من لا يتوب إليه .

والإشارة في قوله : « من بعد ذلك » على ما يعطيه السياق إلى ما ذكره في الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون إلى غير الله سبحانه ومعصيتهم بالفرار و التولي ثم إنزال السكينه وإنزال الجنود وتعذيب الذين كفروا .

والملائم لذلك أن يكون الموصول في « من يشاء » شاملاً للمسلمين والكافرين جميعاً فقد ذكر من الفريقين جميعاً ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا ، وهو من الكفار كفرهم ومن المسلمين خطيئتهم و معصيتهم ، ولا وجه لتخصيص التوبه على بعضهم مع ما في آيات التوبه من عموم الحكم و سعته ولم يقيد في هذه الآية المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين : المسلمين أو الكافرين مع وجود المقتضي فيهما جميعاً .

ومما ذكرنا يظهر فساد ما فسره به بعضهم الآية مع قصر الإشارة على التعذيب إذ قال : إن معناها ثم يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام وهم الذين لم يحط بهم خطيئات جهالة الشرك وخرافات من جميع جوانب أنفسهم ، ولم يختم على نفوسهم بالإصرار على الجحود والتكذيب أو الجمود على ما ألفوا بمحض التقليد . انتهى .

وقد عرفت أن تخصيص الآية بما ذكر والتصرف في سائر قيوده كقصر الإشارة على التعذيب وغير ذلك مما لا دليل عليه البتة .

والوجه في التعبير بالاستقبال في قوله : « ثم يتوب الله » الإشارة إلى انفتاح باب التوبه دائماً ، وجرمان العنايه و فيضان العفو والمغفرة الإلهيه مستمرّاً بخلاف ما يشير

إليه قوله : « فأنزل الله سكينته ، الآية فإن ذلك أمور محدودة غير جارية .
قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشرك نجس فلا يقربوا المسجد
الحرام بعد عامهم هذا ، قال في المجمع : كل مستقذر نجس يقال : رجل نجس وامرأة
نجس وقوم نجس لأنه مصدر ، وإذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل : رجس نجس
بكسر النون - قال : والعيلة الفقر يقال عال يعيل إذا افتقر . انتهى .

و النهي عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفي يفيد أمر
المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام ، وفي تعليقه تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم
نجساً اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام ، وهي
كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتنب ملاقاتهم بالطوبة وغير ذلك .
والمراد بقوله : « عامهم هذا » سنة تسع من الهجرة ، وهي السنة التي أذن فيها علي
عليه السلام بالبراءة ، ومنع طواف البيت عرياناً ، وحج المشركين البيت .

وقوله : « وإن خفتم عيلة ، الآية أي وإن خفتم في إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا
عن الحج ، ويتعطل أسواقكم ، وتذهب تجارتكم فتفتقروا وتعيلوا فلا تخافوا فسوف يغنيكم
الله من فضله ، ويؤمنكم من الفقر الذي تخافونه .

وهذا وعد حسن منه تعالى فيه تطيب نفوس أهل مكة ومن كان له تجارة هناك
بالموسم ، وكان حاضر العالم الإسلامي يبشّرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الإسلام
تعلو كلمته ، وينتشر صيته حالاً بعد حال ، وكانت عامّة المشركين في عتبة الاستئصال بعد
إيدان براءة لم يبق لهم إلا أربعة أشهر إلا شزيمة قليلة من العرب كان النبي صلى الله عليه وآله
عاهدهم عند المسجد الحرام إلى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول
الإسلام .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي عن علي بن إبراهيم عن بعض أصحابه ذكره قال : لما سمّ المتوكل نذر إن عوفي أن يتصدق بمال كثير فلمّا عوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير فاختلّفوا عليه فقال بعضهم : مائة ألف . وقال بعضهم : عشرة آلاف فقالوا فيه أقاويل مختلفة فاشتبه عليه الأمر .

فقال رجل من ندمائه يقال له : صفوان : ألا تبعث إلى هذا الأسود فاسأله عنه ؟ فقال له المتوكل : من تعني ويحك ؟ فقال : ابن الرضا . فقال له : وهو يحسن من هذا شيئاً ؟ فقال : إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا وكذا وإلا فاضربني مائة مفرعة فقال المتوكل رضيت . يا جعفر بن محمود اذهب إلى أبي الحسن علي بن محمد فاسأله عن حدّ المال الكثير فقال له : الكثير ثمانون .

فقال له جعفر بن محمود : يا سيدي إنّه يسألني عن العلة فيه فقال له أبو الحسن عليه السلام : إن الله عزّ وجلّ يقول : لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، فعددنا تلك المواطن فكان ثمانين .

أقول : ورواه القميّ أيضاً في تفسيره و بعض أصحابه الذي ذكر في الرواية أنّه سمّاه هو محمد بن عمرو على ما ذكره في التفسير . ومعنى الرواية أنّ الثمانين من مصاديق الكثير بدلالة من الكتاب لأنّ الكثير معناه الثمانون وهو ظاهر .

وفي المجمع ذكر أهل التفسير وأصحاب السير أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكة خرج منها متوجّهاً إلى حنين لقتال هوازن وثقيف في آخر شهر رمضان أو في شوال في سنة ثمان من الهجرة ، وقد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصريّ ، و ساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ونزلوا بأوطاس .

قال وكان دريد بن الصمة في القوم ، وكان رئيس جيشهم ، وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر فقال : بأيّ واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لاحزن ضرس ، ولا سهل دهنس مالي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وخوار البقر وثغاء الشاة وبكاء

الصبيان ؟ فقالوا : إن مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم وأموالهم ونسائهم ليقاتل كل منهم عن أهله وما له فقال دريد : راعي ضأن ورب الكعبة .

ثم قال : ائتوني بما لك فلمّا جاءه قال : يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك ، و هذا يوم له ما بعده ، ردّ قومك إلى عليا بلادهم ، و الق الرجال على متون الخيل فإنّه لا ينفعك إلا رجل بسيفه و فرسه فإن كانت لك لحق بك من وراك ، وإن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك و عيالك ؛ فقال له مالك : إنك قد كبرت و ذهب علمك و عقلك .

و عقد رسول الله ﷺ لواءه الأكبر و دفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و كل من دخل مكة برأية أمره أن يحملها ، و خرج بعد أن أقام بمكة خمسة عشر يوماً ، و بعث إلى صفوان بن أمية فاستعار منه مائة درع فقال صفوان : عارية أم غصب ؟ فقال ﷺ عارية مضمونة مؤداة فأعاره صفوان مائة درع و خرج معه ، و خرج من مسلمة الفتح الفارجل ، و كان ﷺ دخل مكة في عشرة آلاف رجل و خرج منها في اثني عشر ألفاً .

و بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه فأتته إلى مالك بن عوف وهو يقول لقومه : ليصير كل رجل منكم أهله و ماله خلف ظهره ، و اكسروا جفون سيوفكم ، و اكمنوا في شعاب هذا الوادي و في السحر فإن كان في غبش الصباح فاحملوا حملة رجل واحد فهدوا القوم فإن تمّداً لم يلق أحداً يحسن الحرب .

و لما صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الغداة انحدر في وادي حنين فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية ، و انهزمت بنو سليم و كانوا على المقدمة و انهزم ما وراءهم ، و خلى الله تعالى بينهم و بين عدوهم لإعجابهم بكثرتهم و بقي علي رضي الله عنه و معه الراية يقاتلهم في نفر قليل و مرّ المنهزمون برسول الله ﷺ لا يلبون على شيء .

و كان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ ، و الفضل عن يمينه ، و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره ، و نوفل بن الحارث و ربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم ؛ و عاشرهم أيمن بن أم أيمن ، و في ذلك يقول العباس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة * و قد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
و قولي إذا ما الفضل كرّ بسيفه * على القوم أخرى يا بني ليرجعوا

و عاشرنا لاقى الحمام بنفسه * لما ناله في الله لا يتوجع
و لما رأى رسول الله ﷺ هزيمة القوم عنه قال للعباس - وكان جهورياً صيماً -
اصعد هذا الطرب فناد : يا معشر المهاجرين والأنصار يا أصحاب سورة البقرة يا أهل بيعة
الشجرة إلى أين تفرّون ؟ هذا رسول الله .

فلما سمع المسلمون صوت العباس تراجعوا وقالوا : لبّيك لبّيك ، وتبادر الأ نصار
خاصّة وقاتلوا المشركين حتّى قال رسول الله ﷺ : الآن حمي الوطيس . أنا النبي
لا كذب^(١) أنا ابن عبد المطلب ، ونزل النصر من عند الله ، وانهمزت هوازن هزيمة قبيحة
ففرّوا في كلّ وجه ، ولم يزل المسلمون في آثارهم .

و فرّ مالك بن عوف فدخل حصن الطائف ، وقتل منهم زهاء مائة رجل ، و أغنم
الله المسلمين أموالهم ونساءهم ، وأمر رسول الله ﷺ بالذري والموال أن تحدر إلى الجعرانة ،
و ولي على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي .

و مضى رسول الله ﷺ في أثر القوم فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف فحاصر أهل
الطائف بقية الشهر فلما دخل ذو القعدة انصرف وأتى الجعرانة ، و قسم بها غنائم حنين
و أوطاس .

قال سعيد بن المسيّب : حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال : لما التقينا
نحن و أصحاب رسول الله ﷺ لم يقفوا لنا حلب شاة فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم حتّى
إن اتهمنا إلى صاحب البغلة الشهباء يعني رسول الله ﷺ فتلقانا رجال بيض الوجوه
فقالوا لنا : شأهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا فكانوا إياها يعني الملائكة .

قال الزهري : و بلغني أن شيبه بن عثمان قال : استدبرت رسول الله ﷺ وأنا
أريد أن أقتله بطلحة بن عثمان و عثمان بن طلحة وكانا قد قتلنا يوم أحد فأطلع الله رسوله
على ما في نفسي فالتفت إليّ و ضرب في صدري ، وقال : أعيذك بالله يا شيبه فأرعدت فرائصي
فنزطت إليه وهو أحب إليّ من سمعي و بصري فقلت : أشهد أنك رسول الله ، و أن الله
أطلعك على ما في نفسي .

(١) غير كذب خ .

وقسم رسول الله ﷺ الغنائم بالجعرانة ، وكان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاة ما لا يدري عدته .

قال أبو سعيد الخدري : قسم رسول الله ﷺ للمتألفين من قريش ومن سائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأ نصار منها شيء قليل ولا كثير فمضى سعد بن عبادَةَ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأ نصار وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء فقال ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ فقال : ما أنا إلا امرؤ من قومي فقال رسول الله ﷺ : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فجمعهم فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر الأ نصار أولم آتكم ضلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأ نصار ؟ فقالوا : وما نقول ؟ وبماذا نجيبك ؟ المنّ لله ولرسوله . فقال رسول الله ﷺ : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم : جئتنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمنّاك ، ومخذولاً فنصرناك . فقالوا : المنّ لله ولرسوله .

فقال رسول الله ﷺ : وجدتم في أنفسكم يا معشر الأ نصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام . أفلا ترضون يا معشر الأ نصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأ نصار شعباً لسلكت شعب الأ نصار ولو لا الهجرة لكنت امراً من الأ نصار . اللهم ارحم الأ نصار وأبناء الأ نصار وأبناء الأ نصار فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله قسماً ثم تفرقوا .

وقال أنس بن مالك : وكان رسول الله ﷺ أمر منادياً فنادى يوم أوطاس : ألا لا توطأ الجبال حتى يضعن ، ولا غير الجبال حتى يستبرأن بحيضة .

ثم أقبلت وفود هوازن وقدمت على رسول الله ﷺ بالجعرانة مسلمين فقام خطيبهم وقال : يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك فلو أننا ملحننا ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما و أنت خير المكفولين ثم أنشد أبياتاً .

فقال ﷺ : أيّ الأمرين أحبّ إليكم : السبي أو الأموال ؟ قالوا : يا رسول الله خيرتنا بين الحسب و بين الأموال ، والحسب أحبّ إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير فقال رسول الله ﷺ : أمّا الذي لبني هاشم فهو لكم و ساكلم لكم المسلمين وأشفع لكم فكلموهم وأظهروا إسلامكم .

فلما صلى رسول الله ﷺ الهجرة قاموا فتكلموا فقال النبي ﷺ : قد رددت الذي لبني هاشم والذي بيدي عليهم فمن أحبّ منكم أن يعطي غير مكروه فليفعل ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء وعليّ فداؤهم فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلا قليلاً من الناس سألو الفداء .

وأرسل رسول الله ﷺ إلى مالك بن عوف وقال : إن جئتني مسلماً رددت إليك أهلك ومالك ولك عندي مائة ناقة فخرج إليه من الطائف فردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله علي من أسلم من قومه .

أقول : وروى القمّي في تفسيره مثله ولم يرومانسب من الرجز إليه ﷺ وكذا ما أسنده إلى راو معين كالمسيب والزهري وأنس وأبي سعيد ، وروي هذه المعاني بطرق كثيرة من طرق أهل السنّة .

وفي رواية علي بن إبراهيم القمّي زيادة يسيرة هي ما يأتي :

قال علي بن إبراهيم : فلما رأى رسول الله ﷺ الهزيمة ركض يحوم على بقلته قد شهر سيفه (١) فقال : يا عباس اصعد هذا الطرب و ناد : يا أصحاب [سورة] البقرة يا أصحاب الشجرة إلى أين تفرّون ؟ هذا رسول الله .

ثم رفع رسول الله ﷺ يده وقال : اللهم لك الحمد ولك الشكر وإليك المشتكى وأنت المستعان فنزل إليه جبرئيل فقال : يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى بن عمران حين فلق الله له البحر ونجّاه من فرعون .

ثم قال رسول الله ﷺ لأبي سفيان بن الحارث : ناولني كفاً من حصي فناوله فرماه في وجوه المشركين ثم قال : شأهت الوجوه . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لاتعبد لاتعبد .

(١) وفي نسخة البحار : ركض نحو علي بقلته فرآه قد شهر سيفه .

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم وهم ينادون :
لبسك ومرّوا برسول الله ﷺ واستحيوا أن يرجعوا إليه ولحقوا بالراية فقال رسول الله
صلى الله عليه وآله للعباس : من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ فقال : يا رسول الله هؤلاء الأنصار
فقال رسول الله ﷺ : الآن همي الوطيس فنزل النصر من السماء وانهمزت هوازن .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن محمد بن عبيد الله بن عمير الليثي قال : كان مع
النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار و ألف من جهينة ، وألف من مزينة و ألف من
أسلم و ألف من غفار و ألف من أشجع و ألف من المهاجرين و غيرهم فكان معه عشرة
آلاف و خرج باثني عشر ألفاً وفيها قال الله تعالى في كتابه : « و يوم حنين إذ أعجبتكم
كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً » .

وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق قال : فلما انهزم الناس ، و رأى من كان مع
رسول الله ﷺ من جفاه أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن :
فقال أبو سفيان بن حرب : لانتهي هزيمتهم دون البحر . و إن الألام لمعه في
كنانته وصرخ جبلته بن الحنبل قال ابن هشام : كلدة بن الحنبل - و هو مع أخيه صفوان بن
أمية مشرك في المدّة التي جعل له رسول الله ﷺ - : الأبطال السحر اليوم ، فقال له صفوان
اسكت فض الله فاك فوالله لأن يرثني رجل من قريش أحب إليّ من أن يرثني رجل من هوازن .
قال ابن إسحاق : و قال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبدالدار : قلت :
اليوم أدرك ثأري - وكان أبوه قتل يوم أحد - اليوم أقتل محمدًا قال : فأدرت رسول الله ﷺ
لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذاك فعلمت أنه ممنوع مني .

﴿ فهرس أسامي شهداء حنين ﴾

في سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق : وهذه تسمية من استشهد يوم حنين من

المسلمين :

من قريش ثم من بني هاشم أيمن بن عبيد ومن بني أسد بن عبد العزى يزيد بن

زمنة بن الأسود بن المطلب بن أسد جمع به فرس يقال له الجناح فقتل .

و من الأنصار سراقه بن الحارث بن عديّ من بني العجلان ومن الأشعريّين أبو عامر الأشعريّ .

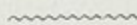
أقول : وأمّا الثبوت مع رسول الله ﷺ فقد عدّوا في بعض الروايات ثلاثة و في بعضها أربعة و في بعضها تسعة عشرهم أيمن بن عبيد - وهو ابن أمّ أيمن - و في بعضها ثمانين و في بعضها : دون المائة .

والمعتمد من بينها ما روي عن العباس أنّهم كانوا تسعة عشرهم أيمن وله في ذلك شعر تقدّم نقله وذلك أنّه كان ممّن ثبت مع النبي ﷺ طول الواقعة و شاهد ما كان من الأمر وهو الذي كان ينادي المنهزمين ويستلحقهم بأمر النبي ﷺ وقد باهى بما قاله من الشعر .

ومن الممكن أن يثبت جمع بعد انهزام الناس هنيئته ثمّ يلحقوا بالمنهزمين أو يرجع جمع قبل رجوع غيرهم فيلحقوا بالراية فيعدّوا ممّن ثبت وقاتل فالحرب العوان لا يجري على ما يجري عليه السلم من النظم .

ومن هنا يعلم ما في قول بعضهم : أنّ الأرجح رواية الثمانين كما عن عبدالله بن مسعود وإليها يرجع ما رواه ابن عمر أنّهم كانوا دون المائة فإنّ الحجّة لمن حفظ على من لم يحفظ انتهى ماخصاً .

وذلك أنّ كون الحجّة لمن حفظ على من لم يحفظ حقّ لكنّ الحفظ في حال الحرب على ما فيه من التحوّل السريع في الأوضاع الحاضرة غير الحفظ في غيره فلا يعتمد إلا على ما شهدت القرائن لصحته وأيد الاعتبار وثاقه حفظه وقد كان العباس مأموراً بما من شأنه حفظ هذا الشأن وما يرتبط به .



قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
 عَنْ يَدِهِمْ صَاحِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرًا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
 ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتِلِهِمُ اللَّهُ
 أَنِّي يُفْسِكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ
 ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ
 وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
 عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ
 الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
 أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَ
 ظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

﴿ بيان ﴾

الآيات تأمر بقتال أهل الكتاب ممن يمكن تبقيته بالعجزية وتذكر أموراً من
 وجوه انحرافهم عن الحق في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما
 حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب » أهل الكتاب هم
 اليهود والنصارى على ما يستفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم وكذا المجوس على

ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد »
الحج : ١٧ حيث عدوا في الآية مع سائر أرباب النحل السماوية في قبائل الذين أشركوا ، والصابئون كما تقدم طائفة من المجوس صبوا إلى دين اليهود فاتخذوا طريقاً بين الطريقين .

والسياق يدل على أن لفظة « من » في قوله : « من الذين أتوا الكتاب » بيانية لا تبعية فإن كلاً من اليهود والنصارى والمجوس أمة واحدة كالمسلمين في إسلامهم وإن تشعبوا شعباً مختلفة وتفرقتوا فرقاً متشتتة اختلط بعضهم ببعض ولو كان المراد قتال البعض وإثبات الجزية على الجميع أو على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في إفادة ذلك إلى بيان غير هذا البيان يحصل به الغرض .

و حيث كان قوله : « من الذين أتوا الكتاب » بياناً لما قبله من قوله : « الذين لا يؤمنون » الآية فالأوصاف المذكورة أوصاف عامة لجميعهم وهي ثلاثة أوصاف وصفهم الله سبحانه بها : عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وعدم تحريم ما حرم الله ورسوله وعدم التدبير بدين الحق .

فأول ما وصفهم به قوله : « الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » وهو تعالى ينسب إليهم في كلامه أنهم يثبتونه إلهاً وكيف لا ؟ وهو يعدّهم أهل الكتاب ، وما هو إلا الكتاب السماوي النازل من عند الله على رسول من رسله ويحكي عنهم القول أولاً ثم القول بالالوهية في مئات من آيات كتابه .

و كذا ينسب إليهم القول باليوم الآخر في أمثال قوله : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » البقرة : ٨٠ ، وقوله : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » البقرة : ١١١ .

غير أنه تعالى لم يفرق في كلامه بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله والكفر بالله كفر بالأمرين جميعاً ، وحكم فيمن فرق بين الله ورسوله فآمن ببعض دون بعض أنه كافر كما قال : « إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن

يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً « النساء : ١٥٠ .

فعدّ أهل الكتاب ممن لم يؤمن بنبوّة محمد ﷺ كفاراً حقاً وإن كان عندهم إيمان بالله واليوم الآخر، لا بلسان أنفسهم كفروا بآية من آيات الله وهي آية النبوة بل بلسان أنفسهم كفروا بالإيمان بالله فلم يؤمنوا بالله واليوم الآخر كما أن المشركين أرباب الأصنام كفروا بالله إذ لم يوحدوه وإن أثبتوه إلهاً فوق الآلهة .

على أنهم يقرّرون أمر المبدء والمعاد تقريراً لا يوافق الحق بوجه كقولهم بأن المسيح ابن الله وعزيراً ابن الله يضاھوون في ذلك قول الذين كفروا من أرباب الأصنام والأوثان إن من الآلهة من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله ، وقول اليهود في المعاد بالكرامة وقول النصارى بالتفدية .

فالظاهر أن نفي الإيمان بالله واليوم الآخر عن أهل الكتاب إنما هو لكونهم لا يرون ماهو الحق من أمر التوحيد والمعاد وإن أثبتوا أصل القول باللوھية لأن من ينكر القول باللوھية الله سبحانه أو ينكر المعاد فإنهم قائلون بذلك على ما يحكيه عنهم القرآن وإن كانت التوراة الحاضرة اليوم لاخبر فيها عن المعاد أصلاً .

ثم وصفهم ثانياً بقوله : « ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله » وذلك كقول اليهود بإباحة أشياء عدّها وذرّها لهم القرآن في سورتي البقرة والنساء وغيرهما وقول النصارى بإباحة الخمر ولحم الخنزير ، وقد ثبت تحريمهما في شرائع موسى وعيسى ومحمد ﷺ ، وأكلهم أموال الناس بالباطل كما سينسبه إليهم في الآية الآتية : « إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » .

والمراد بالرسول في قوله : « ما حرّم الله ورسوله » إمّا رسول أنفسهم الذي قالوا بنبوّةه كموسى ﷺ بالنسبة إلى اليهود ، وعيسى ﷺ بالنسبة إلى النصارى فالمعنى لا يحرّم كل أمة منهم ما حرّمه عليهم رسولهم الذي قالوا بنبوّةه ، واعترفوا بحقانيّته ، وفي ذلك نهاية التجرّي على الله ورسوله واللعب بالحق والحقيقة .

وإمّا النبيّ محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يحلّ

لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .
ويكون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم ما حرم الله ورسوله بفرض تأنيبهم والظعن
فيهم ولبعث المؤمنين وتبجيلهم على قتالهم لعدم اعتنائهم بما حرم الله ورسوله في شرعهم
واسترسالمهم في الوقوع في محارم الله وهتك حرمانه .

وربما أيد هذا الإحتمال أن لو كان المراد بقوله : « ورسوله » رسول كل أمة
بالنسبة إليها كموسى بالنسبة إلى اليهود وعيسى بالنسبة إلى النصارى كان من حق الكلام
أن يقال : « ولا يحرمون ما حرم الله ورسله » على ما هو دأب القرآن في نظائره للدلالة
على كثرة الرسل كقوله : « ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » النساء : ١٤٩ ، وقوله :
« قالت رسلكم أفي الله شك » إبراهيم : ١٠ ، وقوله : « وجاءتهم رسلكم بالبينات
يونس : ١٣ .

على أن النصارى رفضوا محرمات التوراة والإنجيل فلم يحرموا ما حرم موسى
وعيسى عليهما السلام ، وليس من حق الكلام في مورد هذا شأنه : أنهم لا يحرمون ما حرم الله
ورسوله .

على أن المتدبر في المفاسد العامة الإسلامية لا يشك في أن قتال أهل الكتاب
حتى يعطوا الجزية ليس لغرض تمتع أولياء الإسلام ولا المسلمين من متاع الحياة الدنيا
واسترسالمهم وانهما كهم في الشهوات على حد المترفين من الملوك والرؤساء المسرفين من
أقوياء الأمم .

وإنما غرض الدين في ذلك أن يظهر دين الحق وسنة العدل وكلمة التقوى
على الباطل والظلم والفسق فلا يعترضها في مسيرها اللعب والهوى فتسلم التربية الصالحة
المصلحة من مزاحمة التربية الفاسدة المفسدة حتى لا ينجر إلى أن تجذب هذه إلى جانب ،
وتلك إلى جانب ، فيتشوش أمر النظام الإنساني إلا أن لا يرتضي واحد أو جماعة التربية
الإسلامية لنفسه أو لأنفسهم فيكونون أحراراً فيما يرتضونه لأنفسهم من تربية دينهم
الخاصة على شرط أن يكونوا على شيء من دين التوحيد ، وهو اليهودية أو النصرانية
أو المجوسية ، وأن لا يتظاهروا بالمزاحمة ، وهذا غاية العدل والنصفة من دين الحق الظاهر
على غيره .

وأما الجزية فهي عطية مالية مأخوذة منهم مصروفة في حفظ ذمتهم وحسن إدارتهم ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها حقّة أو باطلّة .

و من هذا البيان يظهر أن المراد بهذه المحرّمات : المحرّمات الإسلامية التي عزم الله أن لا تشيع في المجتمع الإسلامي العالمي كما أن المراد بدين الحق هو الذي بعزم أن يكون هو المتبع في المجتمع .

ولازم ذلك أن يكون المراد بالمحرّمات : المحرّمات التي حرّمها الله ورسوله محمد ﷺ الصادر بالدعوة الإسلامية ، وأن يكون الأوصاف الثلاثة : «الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» الآية في معنى التعليل تفيد حكمة الأمر بقتال أهل الكتاب .

وبذلك كلّه يظهر فساد ما أُورد على هذا الوجه أنه لا يعقل أن يحرم أهل الكتاب على أنفسهم ما حرّم الله ورسوله علينا إلا إذا أسلموا ، وإنّما الكلام في أهل الكتاب لا في المسلمين العاصين .

وجه الفساد أنه ليس من الواجب أن يكون الغرض من قتالهم أن يحرموا ما حرّم الإسلام وهم أهل الكتاب بل أن لا يظهر في الناس التبرّز بالمحرّمات من غير مانع يمنع شيوعها والاسترسال فيها كشرب الخمر و أكل لحم الخنزير و أكل المال بالباطل على سبيل العلن بل يقاتلون ليدخلوا في الذمّة فلا يتظاهروا بالفساد ، و يحتسب الشرّ فيما بينهم أنفسهم .

و لعلّه إلى ذلك الإشارة بقوله : « وهم صاغرون » على ما سيجيء في الكلام على ذيل الآية .

ثمّ وصفهم ثالثاً بقوله : « ولا يدينون دين الحق » أي لا يأخذونه ديناً وسنة حيوية لأنفسهم .

و إضافة الدين إلى الحق ليست من إضافة الموصوف إلى صفته على أن يكون المراد الدين الذي هو حق بل من الإضافة الحقيقية ، والمراد به الدين الذي هو منسوب إلى الحق لكون الحق هو الذي يقتضيه للإنسان و يبعثه إليه ، و كون هذا الدين يهدي إلى الحق و يوصل متبّعيه إليه فهو من قبيل قولنا طريق الحق و طريق

الضلال بمعنى الطريق الذي هو للحقّ والطريق الذي هو للضلال أي إن غايته الحقّ أو غايته الضلال .

وذلك أنّ المستفاد من مثل قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ وقوله : « إنّ الدين عند الله الإسلام » آل عمران : ١٩ وسائر ما يجري هذا المجرى من الآيات أن لهذا الدين أصلاً في الكون والخلقة والواقع الحقّ ؛ يدعو إليه النبي ﷺ ، ويندب الناس إلى الإسلام والخضوع له ويسمى امتخاذه سنة في الحياة إسلاماً لله تعالى فهو يدعو إلى ما لا مناص للإنسان عن استجابته والتسليم له وهو الخضوع للسنة العملية الاعتبارية التي يهدي إليها السنة الكونية الحقيقية ، وبعبارة أخرى التسليم لإرادة الله التشريعية المنبثقة عن إرادته التكوينية .

وبالجملة للحقّ الذي هو الواقع الثابت دين وسنة ينبعث منه كما أن للضلال والغى ديناً يدعو إليه ، والأوّل اتباع للحقّ كما أن الثاني اتباع للمهوى قال تعالى : « ولو اتبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض » .

والإسلام دين الحقّ بمعنى أنه سنة التكوين والطريقة التي تنطبق عليها الخلقة وتدعو إليها الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . فتلخص مما تقدم أولاً : أن المراد بعدم إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر عدم تلبسهم بالإيمان المقبول عند الله ، وعدم تحريمهم ما حرّم الله ورسوله عدم مبالاتهم في التظاهر باقتراف المناهي التي يفسد التظاهر بها المجتمع البشري ويخيب بها سعي الحكومة الحقّة الجارية فيه ، وعدم تدينهم بدين الحقّ عدم استمانهم بسنة الحقّ المنطبقة على الخلقة والمنطبقة عليها الخلقة والكون .

وثانياً : أن قوله : « الذين لا يؤمنون بالله » إلى آخر الأوصاف الثلاثة مسوق لبيان الحكمة في الأمر بقتالهم ويترتب عليه فائدة التحريض والتحضيض عليه .
وثالثاً : أن المراد قتال أهل الكتاب جميعاً لا بعضهم بجعل « من » في قوله : « من الذين أتوا الكتاب » للتبويض .

قوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » قال الراغب في المفردات : الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة ، وتسميتها بذلك للاجتراء بها في حقن دمهم . انتهى .

و في المجمع : الجزية فعلة من جزى يجزي مثل العقدة والجلسة وهي عطية مخصوصة جزاء لهم على تمسكهم بالكفر عقوبة لهم . عن علي بن عيسى . انتهى .
والاعتماد على ما ذكره الراغب فإنه المتأيد بما ذكرناه آنفاً أن هذه عطية مالية مصروفة في جهة حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحسن إدارتهم .

وقال الراغب أيضاً : الصغر والكبر من الأسماء المتضادة التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض فالشيء قد يكون صغيراً في جنب الشيء وكبيراً في جنب آخر - إلى أن قال - يقال : صغر صغراً - بالكسر فالفتح - في ضد الكبير وصغر صغراً وصغاراً - بالفتحتين فيهما - في الذلة . والصاغر الراضي بالمنزلة الدنيا : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » انتهى .

والاعتبار بما ذكر في صدر الآية من أوصافهم المقتضية لقتالهم ثم إعطاؤهم الجزية لحفظ ذمتهم يفيد أن يكون المراد بصغارهم خضوعهم للسنة الإسلامية والحكومة الدينية العادلة في المجتمع الإسلامي فلا يكافؤوا المسلمين ولا يبارزوهم بشخصية مستقلة حرة في بث ما تهواه أنفسهم وإشاعة ما اختلقته هوساتهم من العقائد والأعمال المفسدة للمجتمع الإنساني مع ما في إعطاء المال بأيديهم من الهوان .

فظاهر الآية أن هذا هو المراد من صغارهم لإهانتهم والسخرية بهم من جانب المسلمين أو أولياء الحكومة الدينية فإن هذا مما لا يحتمله السكينة والوقار الإسلامي وإن ذكر بعض المفسرين .

واليد : الجارحة من الإنسان وتطلق على القدرة والنعمة فإن كان المراد به في قوله : « حتى يعطوا الجزية عن يد » هو المعنى الأول فالمعنى حتى يعطوا الجزية متجاوزة عن يدهم إلى يدكم ، وإن كان المراد هو المعنى الثاني فالمعنى : حتى يعطوا الجزية عن قدرة وسلطة لكم عليهم وهم صاغرون غير مستعلين عليكم ولا مستكبرين .

فمعنى الآية - والله أعلم - قاتلوا أهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً مقبولاً غير منحرف عن الصواب ولا يحرّمون ما حرّمه الإسلام ممّا يفسد اقترافه المجتمع الإنساني ولا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقة الإلهية فأتلوهم ودموموا على قتالهم حتّى يصغروا عندكم ويخضعوا لحكومتكم ، ويعطوا في ذلك عطية مالمية مضرّوبة عليهم يمثّل صغارهم ، ويصرف في حفظ ذمتهم وحقق دمائهم وحاجة إدارة أمورهم .

قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » إلى آخر الآية المضاهاة المشاكلة . والإفك على ما ذكره الراغب كلّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه بمعنى « يؤفكون » يصرفون في اعتقادهم عن الحقّ إلى الباطل . وقوله : « وقالت اليهود عزير ابن الله » عزير هذا هو الذي يسمّيه اليهود عزرا غيرت اللفظة عند التعريب كما غير لفظ « يسوع » فصار بالتعريب « عيسى » ولفظ « يوحنا » فصار كما قيل « يحيى » .

وعزرا هذا هو الذي جدّد دين اليهود وجمع أسفار التوراة وكتبها بعد ما افتقدت في غائلة بخت نصر ملك بابل الذي فتح بلادهم وخرّب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم ووزاريتهم والباقيين من ضعفائهم وسبّهم معه إلى بابل فبقوا هناك ما يقرب من قرن ثمّ لما فتح « كورش » ملك إيران بابل شفع لهم عنده عزرا وكان ذاوجه عنده فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم وأن يكتب لهم التوراة ثانياً بعد ما افتقدوا نسخها وكان ذلك في حدود سنة ٤٥٧ قبل المسيح على ما ذكروا فراجت بينهم ثانياً ما جمعه عزرا من التوراة وإن كانوا افتقدوا أيضاً في زمن أنتيوكس صاحب سورية الذي فتح بلادهم حدود سنة ١٦٦ ق م وتتبّع مسألتهم فأحرق ما وجدّه من نسخ التوراة وقتل من وجدت عنده أو أخذت عليه على ما في كتب التاريخ .

ولمّا نالهم من خدمته عظّموا قدره واحترموا أمره وسمّوه ابن الله ولا ندرى أكان دعاؤه بالبنوة بالمعنى الذي يسمّي به النصارى المسيح ابن الله - والمراد أن فيه شيئاً من جوهر الربويّة أو هو مشتقّ منه أو هو هو ؟ - أو أنّها تسمية تشرّيفيّة كما قالوا : نحن أبناء الله وأحبّاءه ؟ وإن كان ظاهر سياق الآية التالية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من

دون الله والمسيح بن مريم « الآية يؤيد الثاني على ماسياتي .

وقد ذكر بعض المفسرين : أن هذا القول منهم : «عزير ابن الله» كلمة تكلم بها بعض اليهود ممن في عصره صلى الله عليه وسلم لاجمع اليهود فنسب إلى الجميع كما أن قولهم : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وكذا قولهم : « يد الله مغلولة » مما قاله بعض يهود المدينة ممن عاصر النبي صلى الله عليه وسلم فنسب في كلامه تعالى إلى جميعهم لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر ، والجميع زورأي متوافق الأجزاء وروية متشابهة التأثير .

وقوله : « وقالت النصارى المسيح ابن الله » كلمة قالتها النصارى ، وقد تقدم الكلام فيها وفي ما يتعلق بها في قصة المسيح صلى الله عليه وسلم من سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب .

وقوله : « يضاهوون قول الذين كفروا من قبل » تنبىء الآية عن أن القول بالبنوة منهم مضاهاة ومشاكلة لقول من تقدمهم من الأمم الكافرة وهم الوثنيون عبدة الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله ، و من هي إلهة أم إله أو زوجة إله ، وكذا القول بالثالوث مما كان دائراً بين الوثنيين من الهند والصين ومصر القديم وغيرهم وقد مر نبذة من ذلك فيما تقدم من الكلام في قصة المسيح في ثالث أجزاء هذا الكتاب .

وتقدم هناك أن تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية : « يضاهوون قول الذين كفروا من قبل » وقد اعتنى جمع ^(١) من محققي هذا العصر بتطبيق ما تضمنته كتب القوم أعني العهدين : العتيق والجديد على ما حصل من مذاهب البوذيين والبرهائيين فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حدوا النعل بالنعل حتى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل فلم يسبق ذلك ريباً لأبي باحث في أصالة قوله تعالى : « يضاهوون » الآية في هذا الباب .

ثم دعا عليهم بقوله : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » و ختم به الآية .

(١) Buddhist and Christian Gospels Edmuds A. J. 2V. Philadelphia 1908

قوله تعالى : « اتخذوا أجبازهم و رهبانهم أرباباً من دون الله و المسيح بن مريم » الأجباز جمع حبر يفتح الحاء و كسرهما وهو العالم و غلب استعماله في علماء اليهود و الرهبان جمع راهب وهو المتلبس بلباس الخشية و غلب على المتنسكين من النصارى . و اتخذهم الأجباز و الرهبان أرباباً من دون الله هو إصغائهم لهم و إطاعتهم من غير قيد و شرط و لا يطاع كذلك إلا الله سبحانه .

و أما اتخذهم المسيح بن مريم رباً من دون الله فهو القول بألوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى ، و في إضافة المسيح إلى مريم إشارة إلى عدم كونهم محققين في هذا الاتخاذ لكونه إنساناً ابن امرأة .

و لكون الإتيانين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخذهم الأجباز و الرهبان أرباباً من دون الله أولاً ثم عطف عليه قوله : « و المسيح بن مريم » .

و الكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا يخلو عن دلالة على أن قولهم ببنوّة عزير و بنوّة المسيح على معنيين مختلفين ، وهو البنوّة التشريعية في عزير و البنوّة بنوع من الحقيقة في المسيح ﷺ فإن الآية أهملت ذكر اتخذهم عزيراً رباً من دون الله ، ولم يذكر مكانه إلا اتخذهم الأجباز و الرهبان أرباباً من دون الله .

فهو ربّ عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوّة ذلك أو لأنه من أجبازهم وقد أحسن إليهم في تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره و أما المسيح فبنوته غير هذه البنوّة .

وقوله : « و ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو » جملة حالية أي اتخذوا لهم أرباباً و الحال هذه .

و في الكلام دلالة أولاً : على أن الاتخاذ بالربوبيّة بواسطة الطاعة كالإتيان بها بواسطة العبادة فالطاعة إذا كانت بالاستقلال كانت عبادة ، و لازم ذلك أن الربّ الذي هو المطاع من غير قيد و شرط و على نحو الاستقلال إليه ، فإن الإله هو المعبود الذي من حقه أن يعبد ، يدل على ذلك كله قوله تعالى : « و ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » حيث يدل الربّ بالإله ، و كان مقتضى الظاهر أن يقال و ما أمروا إلا ليتخذوا رباً واحداً

فالاتخاذ للربوبية بواسطة الطاعة المطلقة عبادة ، واتخاذ الرب معبوداً اتخذ له إلهاً فافهم ذلك .

وثانياً : على أن الدعوة إلى عبادة الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى : « لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ . وقوله : « فلا تدع مع الله إلهاً آخر » الشعراء : ٢١٣ وأمثال ذلك كما أريد بها قصر العبادة بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أريد قصر الطاعة فيه تعالى . وذلك أنه تعالى لم يؤاخذهم في طاعتهم لأجبارهم و رهبانهم إلا بقوله عز من قائل : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو » .

وعلى هذا المعنى يدل قوله تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » يس : ٦١ ، وهذا باب ينفتح منه ألف باب .

وفي قوله : « لا إله إلا هو » تتميم لكلمة التوحيد التي يتضمنها قوله : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » فإن كثيراً من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهة كثيرة ، وهم مع ذلك لا يخصصون بالعبادة إلا واحداً منها فعبادة إله واحد لا يتم به التوحيد إلا مع القول بأنه لا إله إلا هو .

وقد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشارة إلى مغايرة ما بينهما وأن قصر العبادة بكلام معنيها عليه هو معنى الإسلام له سبحانه الذي لا مفر منه للإنسان ؛ فيما أمر به نبيه ﷺ من دعوة أهل الكتاب بقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران : ٦٤ .

وقوله تعالى في ذيل الآية : « سبحانه عما يشركون » تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبية الأجر والرهبان ، وقولهم بربوبية المسيح عليه السلام من الشرك .

والآية بمنزلة البيان التعليلي لقوله تعالى في أول الآيات : « الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فإن اتخذ إله أو آلهة دون الله سبحانه لا يجمع الإيمان بالله ، ولا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلا الله .

قوله تعالى : « يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم » إلى آخر الآية الإطفاء

إخماد النار أو النور ، والباء في قوله : « بأفواههم » ، لآلة أو السبيبة .
 وإنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذي يتوسل به إلى إخماد الأنوار والسرّج يكون
 بالأفواه قال في المجمع : وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم
 لأنّ الفم يؤثّر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة . انتهى .
 وقال في الكشف : مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب
 بحال من يريد أن ينفع في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده ، ويبلغه الغاية
 القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه . انتهى ، والآية إشارة إلى حال الدعوة
 الإسلامية ، وما يريد منه الكافرون ، وفيها وعد جميل بأن الله سيقمّ نوره .

قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه
 ولو كره المشركون » ، الهدى الهداية الإلهية التي قارنها برسوله ليهدي بأمره ، ودين
 الحق هو الإسلام بما يشتمل عليه من العقائد والأحكام المنطبقة على الواقع الحق .
 والمعنى أن الله هو الذي أرسل رسوله وهو محمد ﷺ مع الهداية - أو الآيات و
 البيّنات - ودين فطري ليظهر وينصر دينه الذي هو دين الحق على كلّ الأديان ولو
 كره المشركون ذلك .

وبذلك ظهر أن الضمير في قوله : « ليظهره » ، راجع إلى دين الحق كما هو المتبادر
 من السياق ، وربما قيل : إن الضمير راجع إلى الرسول ، والمعنى ليظهر رسوله ويعلمه معالم
 الدين كلّها وهو بعيد .

وفي الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب والإشارة إلى وجوب ذلك
 عليهم مالا يخفى فإنهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين في العالم البشري فلا بدّ
 من السعي والمجاهدة في ذلك ، وأن أهل الكتاب يريدون أن يطفئوا هذا النور بأفواههم
 فلا بدّ من قتالهم حتّى يفنوا أو يستبقوا بالجزية والصغار ، وأن الله سبحانه يأبى إلا أن
 يتمّ نوره ، ويريد أن يظهر هذا الدين على غيره فالدائرة بمشيئة الله لهم على أعداءهم فلا
 ينبغي لهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون

أموال الناس بالباطل و يصدون عن سبيل الله ، الظاهر أن الآية إشارة إلى بعض التوضيح لقوله في أول الآيات : ولا يجرّون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ، كما أن الآية السابقة كالتوضيح لقوله فيها : «الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» .
 أمّا إيضاح قوله تعالى : « ولا يجرّون ما حرّم الله ورسوله » بقوله : «إن كثيراً من الأخبار والرهبان لياً كلون أموال الناس بالباطل ، فهو إيضاح بأوضح المصدايق و أهمّها تأثيراً في إفساد المجتمع الإنساني الصالح ، وإبطال غرض الدين .
 فالقرآن الكريم يعدّ لأهل الكتاب وخاصة لليهود جرائم وآثاماً كثيرة مفصلة في سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها لكنّ الجرائم و التعديّات الماليّة شأنها غير شأن غيرها ، وخاصة في هذا المقام الذي تعلق الغرض بإفساد أهل الكتاب المجتمع الإنساني الصالح لو كانوا مبسوطي اليد واستقلالهم الحيوي قائماً على ساق ، ولا مفسد للمجتمع مثل التعدي المالي .

فإنّ أهمّ ما يقوم به المجتمع الإنساني على أساسه هو الجهة الماليّة التي جعل الله لهم قياماً فجعل المآثم والمساوي والجنايات والتعديّات و المظالم تنتهي بالتحليل إمّا إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصب وسائر التعديّات الماليّة ، وإمّا إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف والإسراف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن ، و الاسترسال في الشهوات وهتك الحرمات ، وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم .
 و تنتهي جميع المفاصد الناشئة من الطريقتين كليهما بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم في حيازة الأموال واقتناء الثروة ، والأحكام المشرّعة لتعديل الجهات المملّكة المميّزة لأكل المال بالحقّ من أكله بالباطل؛ فإذا اختل ذلك و أزعمت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال ، وتوقّ إلىه من الثروة بأيّ طريق أمكن لقن ذلك إيّاها أن يظفر بالمال ويقبض على الثروة بأيّ طريق ممكن حقّ أو باطل ، و أن يسعى إلى كلّ مشتهى من مشتهيات النفس مشروع أو غير مشروع أدّى إلى ما أدّى ، وعند ذلك يقوم البلوى بمشوّ الفساد وشيوع الانحطاط الأخلاقي في المجتمع ، و انقلاب

المحيط الإنساني إلى محيط حيواني ردي لأهم فيه إلا البطن ومادونه ولا يملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية ولا تفقه فيه لحكمة ولا إصغاء إلى موعظة .

ولعل هذا هو السبب الموجب لاختصاص أكل المال بالباطل بالذكر ، وخاصة من الأخبار والرهبان إليهم تربية الأمة وإصلاح المجتمع .

وقد عدّ بعضهم من أكلهم أموال الناس بالباطل ما يقدمه الناس إليهم من المال حبساً لهم لتظاهرهم بالزهد والتبسك ، وأكل الربا والسحت ، وضبطهم أموال مخالفيهم وأخذهم الرشا على الحكم ، وإعطاء أوراق المغفرة وبيعها ، ونحو ذلك .

والظاهر أن المراد بها أمثال أخذ الرشوة على الحكم كما تقدم من قصتهم في تفسير قوله تعالى : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » الآية المائدة : ٤١ في الجزء الخامس من الكتاب .

ولولم يكن من ذلك إلا ما كانت تأتي به الكنيسة من بيع أوراق المغفرة لكفى به مقتاً ولوماً .

وأما ما ذكره من تقديم الأموال إليهم لتزهدهم ، وكذا تخصيصهم بأوقاف ووصايا ومبرات عامة فليس بمعذور من أكل المال بالباطل ، وكذا ما ذكره من أكل الربا والسحت فقد نسبه تعالى في كلامه إلى عامة قومهم كقوله تعالى : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه » النساء : ٦١ وقوله : « سماعون للكذب أكالون للسحت » المائدة : ٤٢ . وإنما كلامه تعالى في الآية التي نحن فيها فيما يخص أخبارهم ورهبانهم من أكل المال بالباطل لاما يعمهم وعامتهم .

إلا أن الحق أن زعماء الأمة الدينية ومربّيتهم في سلوك طريق العبودية المعتنين بإصلاح قلوبهم وأعمالهم إذا انحرفوا عن طريق الحق إلى سبيل الباطل كان جميع ما أكلوه لهذا الشأن واستدروه من منافعهم سحتاً محرماً لا يبيحه لهم شرع ولا عقل .

وأما إيضاح قوله تعالى : « ولا يدينون دين الحق » بقوله : « ويصدون عن سبيل الله » فهو أيضاً مبني على ما قدمناه من النكتة في توصيفهم بالأوصاف الثلاثة التي ثالثها قوله : « ولا يدينون دين الحق » وهو بيان ما يفسد من صفاتهم وأعمالهم المجتمع الإنساني

ويسدّ طريق الحكومة الدينية العادلة دون البلوغ إلى غرضها من إصلاح الناس وتكوين مجتمع حيّ فعّال بما يليق بالإنسان الفطريّ المتوجّه إلى سعادته الفطريّة .
ولذا خصّ بالذكر من مفسد عدم تديّنهم بدين الحقّ ما هو العمدة في إفساد المجتمع الصالح ، وهو صدّهم عن سبيل الله ومنعهم الناس عن أن يسلكوه بما قدروا عليه من طرقه الظاهرة والخفيّة ، ولا يزالون مصرّين على هذه السليقة منذ عهد النبي ﷺ حتّى اليوم .

قوله تعالى : «والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» قال الراغب : الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه ، وأصله من كنزت التمر في الوعاء ، وزمن الكنز وقت ما يكنز فيه التمر ، وناقاة كنازمكنزة اللحم ، وقوله «والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» أي يدخرونها انتهى .

ففي مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز وأدخاره ومنعه من أن يجري بين الناس في وجوه المعاملات فينمو نماءً حسناً ، ويعمّ الانتفاع به في المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ ، وذاك بالردّ ، وذلك بالعمل عليه وقد كان دأبهم قبل ظهور البنوك والمخازن العامّة أن يدفنوا الكنوز في الأرض سترّاً عليها من أن تقصد بسوء .

والآية وإن اتّصلت في النظم اللفظي بما قبلها من الآيات الدائمة لأهل الكتاب والمؤبّخة لأخبارهم ورهبانهم في أكلمهم أموال الناس بالباطل والصدّ عن سبيل الله إلا أنه لا دليل من جهة اللفظ على نزولها فيهم واختصاصها بهم البتّة .

فلا سبيل إلى القول بأنّ الآية إنّما نزلت في أهل الكتاب وحرمت الكنز عليهم ، وأمّا المسلمون فهم وما يقتنون من ذهب وفضّة يصنعون بأموالهم ما يشاؤون من غير بأس عليهم .

والآية توعد الكافرين بإعادة أشديداً ، ويهدّدهم بعذاب شديد غير أنّها تفسّر الكنز المدلول عليه بقوله : «الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» بقوله : « وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » فتدلّ بذلك على أنّ الذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكفّ عن إنفاقه في سبيل الله إذا كان هناك سبيل .

وسبيل الله على ما يستفاد من كلامه تعالى هو ما توقّف عليه قيام دين الله على ساقه وأن يسلم من انهدام بنيانه كالجهاد وجميع مصالح الدين الواجبة حفظها ، وشؤون مجتمع المسلمين التي يفسخ عقد المجتمع لو انفسخت ، والحقوق المالية الواجبة التي أقام الدين بها صلب المجتمع الديني ، فمن كنز زهياً أو فضة والحاجة قائمة والضرورة عاكفة فقد كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله فليبشّر بعذاب أليم فإنّه آثر نفسه على ربّه وقدّم حاجة نفسه أو ولده الاحتمالية على حاجة المجتمع الديني القطعية .

ويستفاد هذا ممّا في الآية التالية من قوله : « هذا ما كنزتم لأنفسكم » فإنّه يدلّ على أن توجّه العتاب عليهم لكونهم خصّوه بأنفسهم وآثروها فيما خافوا حاجتها إليه على سبيل الله الذي به حياة المجتمع الإنساني في الدنيا والآخرة ، وقد خانوا الله ورسوله في ذلك من جهة أخرى وهي الستر والتغيب إذ لو كان ظاهراً جارياً على الأيدي كان من الممكن أن يأمره ولي الأمر بانفاقه في حاجة دينية قائمة لكن إذا كنز كنزاً وأخفى عن الأنظار لم يلتفت إليه ، وبقيت الحاجة الضرورية قائمة في جانب والمال المكنوز الذي هو الوسيلة الوحيدة لرفع الحاجة في جانب مع عدم حاجة من كنزه إليه .

فالآية إنّما تنهى عن الكنز لهذه الغنصية التي هي إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجة إليه على سبيل الله مع قيام الحاجة إليه ، و ناهيك أن الإسلام لا يحدّد أصل الملك من جهة الكمية بحدّ فلو كان لهذا الكانز أضعاف ما كنزه من الذهب والفضة ولم يدّخرها كنزاً بل وضعها في معرض الجريان يستفيد به لنفسه الوفاً وألوفاً ، ويفيد غيره ببيع أو شراء أو عمل وغير ذلك لم يتوجّه إليه نهى ديني لأنّه حيث نصبها على أعين الناس وأجراها في مجرى النماء الصالح النافع لم يخفها ولم يمنعها من أن يصرف في سبيل الله فهو وإن لم ينفقها في سبيل الله إلاّ أنّه بحيث لو أراد وليّ أمر المسلمين لأمره بالانفاق فيما يرى لزوم الانفاق فيه فليس هو إذا لم ينفق وهو بمرأى ومسمع من وليّ الأمر بخائن ظلوم .

فالآية ناظرة إلى الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الانفاق في الحقوق المالية الواجبة لا بمعنى الزكاة الواجبة فقط بل بمعنى يعمّها وغيرها من كل ما يقوم عليه ضرورة

المجتمع الديني من الجهاد وحفظ النفوس من الهلكة ونحو ذلك .

وأما الإنفاق المستحب كالتوسعة على العيال ، وإعطاء المال وبذله على الفقراء في الزائد على ضرورة حياتهم فهو وإن أمكن أن يطلق عليه فيما عندنا الإنفاق في سبيل الله إلا أن نفس أدلته المبينة لاستحبابه تكشف عن أنه ليس من هذا الإنفاق في سبيل الله المذكور . في هذه الآية فكنز المال وعدم إنفاقه إنفاقاً مندوباً مع عدم سبيل ضروري ينفق فيه ليس من الكنز المنهي عنه في هذه الآية فهذا ما تدل عليه الآية الكريمة ، وقد طال فيها - لما يتعلق به من بعض الأبحاث الكلامية - المشاجرة بين المفسرين ، وسنورد فيه كلاماً بعد الفراغ عن البحث الروائي المتعلق بالآيات إن شاء الله تعالى .

وقوله في ذيل الآية : « فبشّرهم بعذاب أليم » إبعاد بالعذاب يدل على تحريمه

الشديد .

قوله تعالى : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم » إلى آخر الآية . إجماع الشيء جعله حاراً في الإحساس والإجماع عليه الإيقاد ليتسخن والإجماع فوق التسخين ، والكوي الصاق الشيء الحار بالبدن .

والمعنى : أن ذلك العذاب المبشّر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنم فتكون محماة بالنار فتلصق بجاهاهم و جنوبهم و ظهورهم ، و يقال لهم عند ذلك : « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » : فقد عاد عذاباً عليكم تعذبون به .

ولعل تخصيص الجباه و الجنوب و الظهر لأنهم خضعوا لها وهو السجدة التي تكون بالجباه ولازوا إليها واللوازم بالجنوب . واتسكؤوا عليها والاتسكاء بالظهور ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث الأسياف الذي ذكره عن أبيه قال : و أما السيوف الثلاثة المشهورة فسيوف علي مشركي العرب ، قال الله

عز وجل : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

قال : والسيف الثاني على أهل الذمّة قال الله عز وجل : « و قولوا للناس حسناً ، نزلت هذه الآية في أهل الذمّة ثم نسخها قوله عز وجل : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون » فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منه إلا الجزية أو القتل ومالهم فيء وذراريهم سبي ، وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم ، وحرمت أموالهم ، وحلت لنا منّا كحتهم .

ومن كان منهم في دار الحرب حلّ لنا سبيهم وأموالهم ، ولم يحلّ منا كحتهم ، ولم يقبل إلا الدخول في دار الإسلام أو الجزية أو القتل .

وفيه بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جرت السنة أن لا تؤخذ الجزية من المعتوه ولا من المغلوب على عقله .

وفيه بإسناده عن أبي يحيى الواسطي عن بعض أصحابنا قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المجوس أكان لهم شيء ؟ فقال : نعم أما بلغك كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أهل مكّة : أن أسلموا وإلا نابذتكم بحرب فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : أن خذنا الجزية ودعنا على عبادة الأوثان . فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وآله : إنني لست آخذ الجزية إلا من أهل الكتاب .

فكتبوا إليه يريدون بذلك تكذيبه : زعمت أنك لا تأخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ثم أخذت الجزية من مجوس هجر . فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وآله إن المجوس كان لهم نبي فقتلوه وكتاب أحرقوه . أتاهاهم نبيهم بكتابتهم في اثني عشر ألف جلد ثور .

أقول : وفي هذه المعاني روايات أخرى مودعة في جوامع الحديث واستيفاء الكلام في مسائل الجزية والخراج وغيرها في الفقه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن عساكر عن أبي امامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : القتال قتالان : قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون ، وقاتل الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله فإذا فاءت أعطيت العدل .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، الآية قال : نزلت هذه حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك .

أقول : وقد تقدمت الروايات في ذيل آية المباهلة أن النبي ﷺ أقر الجزية على نصارى نجران ، وكان ذلك على ما دل عليه أمثل الروايات سنة ست من الهجرة قبل غزوة تبوك بسنين ، وكذا دعوته ﷺ ملوك الروم ومصر والعجم وهم من أهل الكتاب كانت سنة ست .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن الزهري قال : أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس أهل هجر ومن يهود اليمن ونصاراهم من كل حالم دينار .
وفيه أخرج مالك والشافعي وأبو عبيد في كتاب الأموال وابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه أن عمر بن الخطاب استشار الناس في المجوس في الجزية فقال عبدالرحمان بن عوف سمعت رسول الله ﷺ يقول : سنوا بهم سنة أهل الكتاب .

وفيه أخرج عبدالرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن أخذ الجزية من المجوس فقال : والله ما على الأرض اليوم أحد أعلم بذلك مني إن المجوس كانوا أهل كتاب يعرفونه ، وعلم يدرسونه فشرب أميرهم الخمر فسكر فوق على أخته فرآه نفر من المسلمين فلما أصبح قالت أخته : إنك قد صنعت بها كذا وكذا ، وقد آك نفر لا يستررون عليك فدعا أهل الطمع ثم قال لهم : قد علمتم أن آدم ﷺ فدأنكح بنيه بناته .
فجاء أولئك الذين رأوه فقالوا : ويل للأبعد إن في ظهرك حد الله فقتلهم أولئك الذين كانوا عنده ثم جاءت امرأة فقالت له : بلى قد رأيتك فقال لها : ويحالبغي بني فلان قالت : أجل والله فدكانت بغية ثم تاب فقتلها ، ثم أسرى على ما في قلوبهم وعلى كتبهم فلم يصبح عندهم شيء .

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله » الآية عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا : عزير ابن الله ، واشتد غضب الله على النصارى حين قالوا : المسيح ابن الله ، واشتد

غضب الله على من أراق دمي وآذاني في عترتي .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري في تاريخه عن أبي سعيد الخدري قال : لما كان يوم أحد شج رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت ربايته فقام رسول الله ﷺ يومئذ رافعاً يديه يقول : إن الله عز وجل اشتد غضبه على اليهود أن قالوا : عزيز ابن الله ، واشتد غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله وإن الله اشتد غضبه على من أراق دمي وآذاني في عترتي .

أقول : وقد روي في الدر المنثور وغيره عن ابن عباس وكعب الأحبار والسدي وغيرهم روايات في قصة عزيز هي أشبه بالإسرائيليات ، والظاهر أن الجميع تنتهي إلى كعب .

وفي الاحتجاج للطبرسي عن علي بن أبي طالب قال : « قاتلم الله أنى يؤفكون » أي لعنهم الله أنى يؤفكون فسمي اللعنة قتلاً ، وكذلك : « قتل الإنسان ما كفره » أي لعن الإنسان .

أقول : وروي ذلك من طرق أهل السنة عن ابن عباس وهو على أي حال تفسير بلازم المعنى لا بالمراد اللفظي .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » فقال : أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم ، ولكن أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون .

أقول : وروي هذا المعنى البرقي في المحاسن ورواه العياشي في تفسيره عن أبي بصير وعن جابر جميعاً عن أبي عبد الله عليه السلام وعن حذيفة ، ورواه في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الفرق عن حذيفة .

وفي تفسير القمي قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال : هما عيسى ومريم أمّا المسيح فبعض عظموه

في أنفسهم حتى زعموا أنه إله وأنه ابن الله ، وطائفة منهم قالوا : ثالت ثلاثة ، وطائفة منهم قالوا : هو الله .

وأما قوله : « أحبارهم و رهبانهم » فإنتهم أطاعوا و أخذوا بقولهم ، و اتبعوا ما أمرهم به ، و دانوا بما دعواهم إليه فاتخذهم أرباباً بطاعتهم لهم و تركهم أمر الله و كتبه و رسله فبنوه و راء ظهورهم ، و ما أمرهم به الأحبار و الرهبان اتبعوهم و أطاعوهم و عصوا الله . الحديث .

و في تفسير البرهان عن المجمع قال : و روى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ و في عنقي صليب من ذهب فقال لي : يا عدي اطرح هذا الربيق .

و في تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق » الآية و الله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه حتى لو كان الكافر في بطن صخرة قالت : يا مؤمن في بطني كافر فاكسرنى و اقتله .

أقول : و روى ما في معناه العياشي عن أبي المقدم عن أبي جعفر عليه السلام و عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام ، و كذا الطبرسي مثله عن أبي جعفر عليه السلام ، و في تفسير القمي أنها نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام ، و معنى نزولها فيه كونه تأويلها كما يدل عليه رواية الصدوق .

و في الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقي في سننه عن جابر في قوله : « ليظهره على الدين كله » قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب ، و البقرة الأسد ، و الإنسان الحية ، و حتى لا تفرض فارة جراباً ، و حتى يوضع الجزية و يكسر الصليب و يقتل الخنزير ، و ذلك إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام .

أقول : و المراد بوضع الجزية أن تصير متروكة لاجابة إليها لعدم الموضوع بقريفة

صدر الحديث ، وما دأت عليه هذه الروايات من عدم بقاء كفر ولا شرك يومئذ يؤيدها روايات أخرى ، وهناك روايات أخرى تدل على وضع المهدي عليه السلام الجزية على أهل الكتاب بعد ظهوره .

وربما أيده قوله تعالى في أهل الكتاب : « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » المائدة : ٦٤ « وأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » المائدة : ١٤ و ما في معناه من الآيات فإنها لا تخلو من ظهور ما في بقائهم إلى يوم القيامة إن لم تكن كناية عن ارتفاع المودة بينهم ارتفاعاً أبدياً ، وقد تقدم في ذيل الآيات بعض الكلام في هذا المعنى .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحر أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة : « والذين يكنزون الذهب والفضة » قال أبي : لتلحقنّها أولاً ضع سيّفي على عاتقي فألحقوها .

وفي أمالي الشيخ قال : أخبرنا جماعة عن أبي المفضل وساق إسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، كل ما يؤدى زكاته فليس يكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، و كل مال لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض .

أقول : وروى ما في معناه في الدر المنثور عن ابن عديّ و الخطيب عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وكذا بطرق أخرى عن ابن عباس وغيره .

وفيه أيضاً بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام عن أبيه أبي جعفر عليه السلام أنه سئل عن الدنانير والدرهم وما على الناس . فقال أبو جعفر عليه السلام : هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله مصلحة لخلقه ، وبها يستقيم شؤونهم ومطالبهم فمن أكثر له منها فقام بحق الله تعالى فيها وأدى زكاتها فذاك الذي طلبه ، وخلص له ، ومن أكثر له منها فبخل بها ولم يؤد حق الله فيها واتخذ منها الأبنية فذاك الذي حق عليه وعيد الله عز وجل في كتابه ، يقول الله تعالى « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

أقول : والرواية يؤيد ما استفدناه سابقاً من الآية .

وفي تفسير القمي قال : كان أبوذر الغفاري يغدو كل يوم وهو في الشام فينادي بأعلى صوته : بشر أهل الكنوز بكفي في الجباه ، وكفي في الجنوب ، وكفي في الظهر حتى يتردد الحر في أجوافهم .

أقول : وقد استفاد الطبرسي في المجمع من الرواية الوجه في تخصيص الجباه و الجنوب والظهر من بين أعضاء الإنسان بالذكر في الآية ، وأن الغرض من تعذيبهم بهذا الوجه إيراد حر النار في أجوافهم وهي داخل الرؤوس فتكوى جباههم وداخل الصدور والبطن فتكوى جنوبهم وظهورهم .

ويمكن تميم ما ذكره بأنهم يكتبون على وجوههم ورؤوسهم منكوسة على ما يشعر به الأخبار وبعض الآيات ثم تكوى أعضاؤهم من فوق فينتج ذلك كفي الجباه و الجنوب والظهر .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق في المصنف عن أبي ذر قال : بشر أصحاب الكنوز بكفي في الجباه وفي الجنوب وفي الظهر .

وفيه أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذر بالربذة فقلت : ما أتراك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فقال معاوية : ما هذه فينا هذه في أهل الكتاب . قلت أنا : إننا لفينا وفيهم .

وفيه أخرج مسلم وابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال : جاء أبوذر فقال : بشر الكاذبين بكفي من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وكفي من جباههم يخرج من أفئدتهم فقلت : ماذا ؟ قال : ما قلت إلا ما سمعت من نبيهم ﷺ .

وفيه أخرج أحمد في الزهد عن أبي بكر بن المنكدر قال : بعث حبيب بن سلمة إلى أبي ذر وهو أمير الشام بثلاثمائة دينار ، وقال : استعن بها على حاجتك ؛ فقال أبوذر أرجع بها إليه أما وجد أحداً أغرت بالله منا مالنا إلا الظل نتواري به ، وثلاثة من غنم

تروح علينا ، و مولاة لنا تصدق علينا بخدمتها ثم إنني لأنأ اتخوف الفضل .

وفيه أخرج البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال : جلست إلى ملائكة من قريش فجاء رجل خشن الشعر و الثياب و الهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشر الكافرين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ندي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ، و يوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة نديه فيتدلل .

ثم ولت و جلس إلى سارية فتبعته و جلست إليه وأنا لا أدري من هو ؟ فقلت : لأرى القوم إلا قد كرهوا ما قلت ، قال : إنهم لا يعقلون شيئاً قال لي خليلي . قلت : من خليلك؟ قال : النبي صلى الله عليه وسلم ، أتبصر أحداً؟ قلت : نعم . قال : ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنائير و إن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون للدنيا والله لا أسألهم دنيا ، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل .

وفي تاريخ الطبري عن شعيب عن سيف عن محمد بن عوف عن عكرمة عن ابن عباس أن أبازر دخل على عثمان وعنده كعب الأخبار فقال لعثمان : لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، و قد ينبغي لمؤدّي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران و الإخوان و يصل القرابات .

فقال : كعب من أذى الفريضة فقد قضى ما عليه فرفع أبوذر محججه فضر به فشجبه فاستوهبه عثمان فوهبه له ، وقال : يا أبازر اتق الله واكفف يدك ولسانك ، وقد كان قال له : يا بن اليهودية ما أنت وما ههنا ؟

أقول : و قصص أبي ذر و اختلافه مع عثمان و معاوية معروفة مضبوطة في كتب التاريخ و التدبير فيما مر من أحاديثه و ما قاله لمعاوية إن الآية لا تختص بأهل الكتاب و ما خاطب به عثمان وواجه به كعباً يدل على أنه إنما فهم من الآية ما قد مناه عنها تواعد على الكف عن الإيفاق في السبيل الواجب .

و يؤيده تحليل الحال الحاضر يومئذ فقد كان الناس يومئذ انقسموا قسمين و تبعضوا شطر بن عامرة لا يتقنون على قوت اليوم ، ولا يجدون ما يستر عورتهم و ما لهم إلى

أوجب حوائجهم سبيل ، وخاصة أسكرتهم الدنيا بجماع ما فيها من مال و منال يكتنزون
مات الألو ف وألو ف من عطايا الخلافة وغنائم الحروب و مال الخراج . ويكفيك
في التبصر فيه أن تراجع ماضبطته التواريخ من أموال الصحابة من نقد ورقيق و ضيعة و
شامخات القصور وناجحات الدور ، وما أحدثه معاوية وسائر بني أمية بالشام وغيره من أزياء
قيصرانية و كسروانية .

و الإسلام لا يرتضي شيئاً من ذلك ولا ينفذ هذا الاختلاف الفاحش دون أن تتقارب
الطبقات بالإففاق ، و تصلح عامة الأوضاع بانعطاف الأغنياء على الفقراء ، و الأقباء على
الضعفاء .

و ربما قيل : إن أبذر كان يرى باجتهاد منه أن الزائد على القدر الواجب من
المال الذي ينفق لسدّ الجوع وستر العورة كنز يجب إنفاقه في سبيل الله أو أنه كان يدعو
إلى الزهد في الدنيا .

لكن الذي يوجد من بعض كلامه في الروايات يكذب به فإنه لا يستند في شيء مما
قاله إلى اجتهاده ورأي نفسه بل بقوله : ما قلت لهم إلا ما سمعت من نبيهم ، وقال خليلي كذا
و كذا ، وقد صححت الرواية و استفاضت من طرق الفريقين عن النبي ﷺ أنه قال : ما
أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء زالهجة أصدق من أبي ذر .

و بذلك يظهر فساد ما ذكره شداد بن أوس فيما روى عنه أحمد والطبراني قال : كان
أبو ذر يسمع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إلى باديته ثم يرخص فيه رسول
الله ﷺ بعد ذلك فيحفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم الرخصة فلا يسمعها أبو ذر
فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك .

وذلك أن الذي ذكر من أبي ذر إنما هو قوله : إن آية الكنز لا تختص بأهل
الكتاب بل يعمهم و المسلمين ، و ليس هذا مصداقاً لما ذكره في الرواية من العزيمة و
الرخصة ، و كذا قوله : إن تأدية الزكاة فحسب لا يكفي في جواز الكنز و عدم إنفاقه في
الواجب من سبيل الله ، و كيف يتصور في حقه أن لا يكون بسمع أن الإففاق منه

مستحب كما أن منه واجباً وأن لا يعلم أن أدلة الإنفاق المنسوب أحسن مبيِّن لآية الكنز .

و أوهم من ذلك ما تعلق به الطبري في تاريخه فقد روى عن شعيب عن سيف عن عطية بن يزيد الفقعي قال : لما ورد ابن السوداء الشام لقي أباذر فقال : يا أباذر ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله إلا إن كل شيء لله ؟ كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين .

فأتاه أبوذر فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أباذر ألسنا عباد الله و المال ماله و الخالق خلقه و الأمر أمره ؟ قال : فلا تقله ، قال : فإني لا أقول : إله ليس لله ، و لكن سأقول : مال المسلمين .

قال : و أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له : من أنت ؟ أظنك و الله يهودياً ؟ فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى به معاوية فقال : هذا و الله الذي بعث عليك أباذر .
و قام أبوذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء و أسوا الفقراء بشر الذين يكتزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها في سبيل الله بمكان من نار تكوى بها جباههم و جنوهم و ظهورهم . الحديث .

ومحصله أن أباذر إنما بادر إلى ما بادر و ألح عليه بتسويل من ابن السوداء و هذان الذان روى عنهما الحديث و عنهما يروي جل قصص عثمان أعني شعيباً و سيفاً هما من الكذابين الوضاعين المشهورين ذكرهما علماء الرجال و قد حو افيهما .

و الذي اختلقاه من حديث ابن السوداء و هو الذي سموه عبد الله بن سبا ، و إليهما ينتهي حديثه ، من الأحاديث الموضوعة ، و قد قطع المحققون من أصحاب البحث أخيراً أن ابن السوداء هذا من الموضوعات الخرافية التي لأصل لها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من ذي كنز لا يؤدي حقه إلا جيء به يوم القيامة تكوى به جبينه و جبهته ، و قيل له : هذا كنزك الذي بهتت به .

وفيه أخرج الطبراني في الأوسط و أبو بكر الشافعي في الغيلايات عن علي قال :

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم القدر الذي يسع فقراءهم ، و لن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يمنع أغنياؤهم . ألا وإنَّ الله يحاسبهم حساباً شديداً أو يعذبهم عذاباً أليماً .

وفيه أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن أبي سعيد الخدري عن بلال قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يا بلال ألق الله فقيراً ولا تلقه غنياً . قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : إذا رزقت فلا تخبأ ، و إذا سئلت فلا تمنع ، قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : هو ذاك و إلا فالنار .

﴿ كلام في معنى الكنز ﴾

لارب أن المجتمع الذي أوجده الإنسان بحسب طبعه الأولي إنما يقوم بمبادلة المال و العمل ، و لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني ولا طرفة عين فإِنما يتروك دالاً إنسان من مجتمعه بأن يحرز أموراً من أوليات المادّة الأرضية و يعمل عليها ما يسعه من العمل ثم يقبني من ذلك لنفسه ما يحتاج إليه ، و يعوض ما يزيد على حاجته من سائر ما يحتاج إليه ممّا عند غيره من أفراد المجتمع كالخبز يأخذ لنفسه من الخبز ما يقتات به و يعوض الزائد عليه من الثوب الذي نسجه النساج و هكذا فإنما أعمال المجتمعين في ظرف اجتماعهم بيع و شرى و مبادلة و معاوضة .

و الذي يتحصّل من الأبحاث الاقتصادية أن الإنسان الأولي كان يعوض في معاملاته العين بالعين من غير أن يكونوا متنبهين لأزيد من ذلك غير أن النسب بين الأعيان كانت تختلف عندهم باشتداد الحاجة و عدمه ، و بوفور الأعيان المحتاج إليها و إعوازها فكلمّا كانت العين أمسّ بحاجة الإنسان أو قلّ وجودها توقرت الرغبات إلى تحصيلها ، و ارتفعت نسبتها إلى غيرها ، و كلمّا بعدت عن ميسر الحاجة أو ابتذات بالكثرة و الوفور انصرفت النفوس عنها و انخفضت نسبتها إلى غيرها ، وهذا هو أصل القيمة .

ثم إنهم عمدوا إلى بعض الأعيان العزيزة الوجود عندهم فجعلوها أصلاً في القيمة

تقاس إليه سائر الأعيان المالية بمالها من مختلف النسب كالحنطة والبيضة والملح فصارت مداراً تدور عليها المبادلات السوقية ، وهذه السليقة دائرة بينهم في بعض المجتمعات الصغيرة في القرى وبين القبائل البدوية حتى اليوم .

ولم يزالوا على ذلك حتى ظفروا ببعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس و نحوها فجعلوها أصلاً إليه يعود نسب سائر الأعيان من جهة قيمها ، ومقياساً واحداً يقاس إليها غيرها فهي النقود القائمة بنفسها وغيرها يقوم بها .

ثم آل الأمر إلى أن يحوز الذهب المقام الأول والفضة يتلوها ، ويتلوها غيرها ، وسكت الجميع بالسكك الملو كية أو الدولية فصارت ديناراً ودرهماً وفلساً وغير ذلك بما يطول شرحه على خروجه من غرض البحث .

فلم يلبث النقدان حتى عادا أصلاً في القيمة بهما يقوم كل شيء ، وإليهما يقاس ما عند الإنسان من مال أو عمل ، وفيهما يرتكز ارتفاع كل حاجة حيوية ، وهما ملاك الثروة والوجد كالمتعلق بهما روح المجتمع في حياته يختل أمره باختلال أمرهما ، إذا جريا في سوق المعاملات جرت المعاملات بجريانهما ، وإذا وقفا وقتت .

وقد أوضحت ما عليهما من الوظيفة المحولة إليهما في المجتمعات الإنسانية من حفظ قيم الأمتعة والأعمال ، وتشخيص نسب بعضها إلى بعض ، الأوراق الرسمية الدائرة اليوم فيما بين الناس كالبونودوالدولار وغيرهما والصلوك البنجية المنتشرة فإنها تمثل قيم الأشياء من غير أن تتضمن عينية لها قيمة في نفسها فهي قيم خالصة مجردة تقريباً .

فالتأمل في مكانة الذهب والفضة الاجتماعية بماهما نقدان حافظان للقيم ومقياسان يقاس إليهما الأمتعة والأموال بمالها من النسب الدائرة بينها تنور أنهما ممثلان لنسب الأشياء بعضها إلى بعض ، وإن كانت بحسب الاعتبار ممثلات للنسب - وإن شئت فقل : نفس النسب - تبطل النسب ببطان اعتبارها ، وتحبس بحبسها ومنع جريانها ، و تقف بوقوفها .

وقد شاهدنا في الحربين العالميتين الأخيرين ماذا أوجده بطلان اعتبار نقود بعض الدول كالمنات في الدولة التزارية والمارك في الجرم من البلوى وسقوط الثروة واختلال

أمر الناس في حياتهم ، والحال في كنزهما ومنع جريانهما بين الناس هذا الحال .
و إلى ذلك يشير قول أبي جعفر عليه السلام في رواية الأمايلي المتقدمة : « جعلها الله
مصلحة لخلقها وبها يستقيم شؤونهم ومطالبهم » .
ومن هنا يظهر أن كنزهما إبطال لقيم الأشياء وإماتة لما في وسع المكنوز منهما
من إحياء المعاملات الدائرة وقيام السوق في المجتمع على ساقه، ويبطلان المعاملات وتعطل
الأسواق تبطل حياة المجتمع ، وبنسبة مالها من الر كود والوقوف تقف و تضعف .
لست أريد خزنهما في مخازن تختص بهما فإن حفظ نفائس الأموال و كرائم
الأمته من الضيعة من الواجبات التي تهدي إليه الغريزة الإنسانية ويستحسنه العقل
السليم فكلما جرت وجوه النقد في سبيل المعاملات كيفما كان فهو وإذا رجعت فمن الواجب
أن تحتزن وتحفظ من الضيعة وما يهددها من أيادي الغصب والسرقة والغيلة والخيانة .
وإنما أعنى به كنزهما وجعلهما في معزل عن الجريان في المعاملات السوقية و
الدوران لإصلاح أي شأن من شؤون الحياة ورفع الحوائج العاكفة على المجتمع كالشباع
جائع وإرواء عطشان و كسوة عريان و ربح كاسب وانتفاع عامل ونماء مال و علاج مريض
وفك أسير وإنجاء غريم والكشف عن مكروب والتفريج عن مهموم وإجابة مضطر والدفع
عن بيضة المجتمع الصالح وإصلاح مافسد من الجو الاجتماعي .
وهي موارد لا تحصى واجبة أو مندوبة أو مباحة لا يتعدى فيها حد الاعتدال إلى
جانبي الإفراط والتفريط و البخل و التبذير ، و المندوب من الإنفاق وإن لم يكن
في تركه مآثم ولا إجرام شرعاً ولا عقلاً غير أن التسبب إلى إبطال المندوبات من رأس و
الاحتيال لرفع موضوعها من أشد الجرم والمعصية .
اعتبر ذلك فيما بين يديك من الحياة اليومية بما يتعلق به من شؤون المسكن و
المنكح و المأكل و المشرب والملبس تجد أن ترك النفل المستحب من شؤون الحياة والمعاش
والاقتصار دقيماً على الضروري منها - الذي هو بمنزلة الواجب الشرعي - يوجب اختلال
أمر الحياة اختلالاً لا يجبره جابر ولا يسد طريق الفساد فيه ساد .
وبهذا البيان يظهر أن قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم ، ليس من البعيد أن يكون مطلقاً يشمل الإنفاق المندوب بالعبادة التي مرتّ فإنّ في كمنز الأموال رفعاً لموضوع الإنفاق المندوب كالأبفاق الواجب لا مجرد عدم الإنفاق مع صلاحية الموضوع لذلك .

وبذلك يتبيّن أيضاً معنى ما خاطب به أبوذرّ عثمان بن عفان لما دخل عليه على ما تقدّم في رواية الطبري حيث قال له : « لا ترضوا من الناس بكفّ الأذى حتّى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغي لمؤدّي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتّى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات . »

فإنّ لفظه كالصريح أو هو صريح في أنّه لا يرى كلّ إنفاق فيما يفضل من المؤنة بعد الزكاة واجباً ، وأنّه يقسم الإنفاق في سبيل الله إلى ما يجب وما ينبغي غير أنّه يعترض بانقطاع سبيل الإنفاق من غير جهة الزكاة وانسداد باب الخيرات بالكليّة وفي ذلك إبطال غرض التشريع وإفساد المصلحة العامّة المشرّعة .

يقول : ليست هي حكومة استبدادية فيصراية أو كسروانية لا وظيفة لها إلا بسط الأمن وكفّ الأذى بالمنع عن إبداء بعض الناس بعضاً ثمّ الناس أحرار فيما فعلوا غير ممنوعين عن ما اشتبهوا من عمل أفرطوا أو فرطوا أصلحوا أو أفسدوا اهتدوا أو ضلّوا وتاهوا ، والمتقلّد لحكومتهم حرّ فيما عمل ولا يسأل عمّا يفعل .

وإنّما هي حكومة اجتماعية دينية لا ترضى عن الناس بمجرد كفا الأذى بل تسوق الناس في جميع شؤون معيشتهم إلى ما يصلح لهم ويبيّس لكلّ من طبقات المجتمع من أميرهم ومأمورهم ورئيسهم ومرؤوسهم ومخدومهم وخادمهم وغنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم ما يسع له من سعادة حياتهم فترفع حاجة الغنيّ بإمداد الفقير وحاجة الفقير بمال الغنيّ وتحفظ مكانة القويّ باحترام الضعيف وحياء الضعيف برأفة القويّ ومراقبته ، ومصداقية العالي بطاعة الداني وطاعة الداني بنصفه العالي وعدله ، ولا يتمّ هذا كلّه إلا بنشر المبرّات وفتح باب الخيرات ، والعمل بالواجبات على ما يليق بها والمندوبات على ما يليق بها وأمّا القصر على القدر الواجب ، وترك الإنفاق المندوب من رأس فإنّ فيه هدماً لأساس الحياة الدينية ، وإبطالاً لغرض الشارع ، وسيراً حثيثاً إلى نظام مختلّ وهرج ومرج

وفساد عريق لا يصلحه شيء كل ذلك عن المسامحة في إحياء غرض الدين ، والمداهنة مع الظالمين إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

وكذلك قول أبي ذرٍّ معاوية فيما تقدم من رواية الطبري : « ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذرٍّ ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال : فلا تقله » .

فإن الكلمة التي كان يقولها معاوية وعمّاله ومن بعده من خلفاء بني أمية وإن كانت كلمة حق وقد رويت عن النبي ﷺ ويدل عليها كتاب الله لكنهم كانوا يستنتجون منه خلاف ما يريد الله سبحانه فإن المراد به أن المال لا يختص به أحد بعزة أو قوة أو سيطرة وإنما هو لله ينفق في سبيله على حسب ما عينه من موارد إنفاقه فإن كان مما اقتناه الفرد بكسب أو إرث أو نحوه فلله حكمه ، وإن كان مما حصلته الحكومة الإسلامية من غنيمة أو جزية أو خراج أو صدقات أو نحو ذلك فله أيضاً موارد إنفاق معينة في الدين ، وليس في شيء من ذلك لوالي الأمر أن يخص نفسه أو واحداً من أهل بيته بشيء يزيد على لازم مؤنته فضلاً أن يكنز الكنوز ويرفع به القصور ويتخذ الحجاب ويعيش عيشة قيصر وكسرى .

وأما هؤلاء فإِنما كانوا يقولونه دفعاً لاعتراض الناس عليهم في صرف مال المسلمين في سبيل شهواتهم وبذله فيما لا يرضى الله ، ومنعه أهليه ومستحقه أن المال للمسلمين تصرفونه في غير سبيلهم !! فيقولون : إن المال مال الله ونحن أمناءه نعمل فيه بما نراه فيستباحون بذلك اللعب بمال الله كيف شاؤوا ويستنتجون به صحة عملهم فيه بما أرادوا وهو لا ينتج إلا خلافة ، ومال الله ومال المسلمين بمعنى واحد ، وقد أخذوهما لمعينين اثنين يدفع أحدهما الآخر .

ولو كان مراد معاوية بقوله : « المال مال الله » هو الصحيح من معناه لم يكن معنى لخروج أبي ذرٍّ من عنده وندائه في الملا من الناس : بشر الكاذبين بكفي في الجباه وكفي في الجنوب وكفي في الظهور .

على أن معاوية قد قال لأبي ذرٍّ إنه يرى أن آية الكنز خاصة بأهل الكتاب و

ربما كان من أسباب سوء ظنه بهم إصرارهم عند كتابة مصحف عثمان أن يحدفوا الواو من قوله : « والذين يكنزون الذهب ، الخ حتى هددتهم أبي بالقتال إن لم يلحقوا الواو فالحقوها وقد مرّت الرواية .

فالقصة في حديث الطبري عن سيف عن شعيب وإن سيقّت بحيث تقضي على أبي ذر بأنه كان مخطئاً في ما اجتهد به كما اعترف به الطبري في أول كلامه غير أن أطراف القصة تقضي بإصابته .

وبالجمله فالآية تدلّ على حرمة كنز الذهب و الفضة فيما كان هناك سبيل لله يجب إنفاقه فيه و ضرورة داعية إليه لمستحقّي الزكاة مع الامتناع من تأديتها ، والدفاع الواجب مع عدم النفقة وانقطاع سبيل البرّ والإحسان بين الناس .

ولا فرق في تعلّق وجوب الإنفاق بين المال الظاهر الجاري في الأسواق وبين الكنز المدفون في الأرض غير أن الكنز يختصّ بشيء زائد وهو خيانة ولي الأمر في ستر المال وغروره كما تقدّم ذكره في البيان المتقدّم .



إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا
النُّسْيُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا
لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) .

﴿ بيان ﴾

في الآيتين بيان حرمة الأشهر الحرم ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب الفرد
وتثبيت حرمتها وإلقاء نسيء الجاهلية ، وفيها الأمر بقتال المشركين كافة .

قوله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » الشهر كالسنة والأُسبوع مما يعرفه عامة الناس منذ أقدم أعصار
الإنسانية ، وكان لبعضها تأثيراً في تذبذبهم للبعض فقد كان الإنسان يشاهد تحول السنين
ومرورها بمضي الصيف والشتاء والربيع والخريف وتكررهما بالعود ثم العود ثم تنبهاوا
لانتظامها إلى أقسام هي أقصر منها مدّة حسب ما ساقهم إليه مشاهدة اختلاف أشكال القمر
من الهلال إلى الهلال ، و ينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوماً و تنقسم بذلك السنة إلى
اثني عشر شهراً .

والسنة التي ينالها الحسّ شمسية تتألف من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وبعض
يوم لا ينطبق على اثني عشر شهراً قمرياً هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً تقريباً إلا

برعاية حساب الكبيسة غير أن ذلك هو الذي يناله الحسّ و يفتتح به عامّة الناس من الحاضر والبادي والصغير والكبير والعالم والجاهل .

ثمّ قسّموا الشهر إلى الأسابيع وإن كان هو أيضاً لا ينطبق عليها تمام الانطباق لكن الحسّ غلب هناك أيضاً الحساب الدقيق ، وهو الذي أثبت اعتبار الأسبوع و أبقاه على حاله من غير تغيير مع ما طرء على حساب السنة من الدقّة من جهة الأرصاء ، وعلى حساب الشهور من التغيير فبدلت الشهور القمرية شمسية تنطبق عليها السنة الشمسية تمام الانطباق .

وهذا بالنسبة إلى النقاط الاستوائية وما يليها من النقاط المعتدلة أو ما يتصل بها من الأرض إلى عرض سبع وستين الشمالي والجنوبي تقريباً ، وفيها معظم المعمورة ، وأمّا ما وراء ذلك إلى القطبين الشمالي والجنوبي فيختل فيها حساب السنة والشهر والأسبوع ، والسنة في القطبين يوم وليلة ، وقد اضطرّ ارتباط بعض أجزاء المجتمع الإنساني ببعض سكّان هذه النقاط - وهم شزيمة قليلون - أن يراعوا في حساب السنة والشهر والأسبوع واليوم ما يعتبره عامّة سكّان المعمورة فحساب الزمان الدائر بيننا إنّما هو بالنسبة إلى جلّ سكّان المعمورة من الأرض .

على أن هذا إنّما هو بالنسبة إلى أرضنا التي نحن عليها ، وأمّا سائر الكواكب فالسنة - وهي زمان الحركة الانتقالية من الكوكب حول الشمس دورة واحدة كاملة - فيها تختلف وتختلف عن سنتنا نحن ، وكذلك الشهر القمريّ فيما كان له قمر أو أقمار منها على ما فصلوه في فنّ الهيئة .

فقوله تعالى : « إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » الخ ناظر إلى الشهور القمرية التي تتألف منها السنون وهي التي لها أصل ثابت في الحسّ وهو التشكّلات القمرية بالنسبة إلى أهل الأرض .

والدليل على كون المراد بها الشهور القمرية - أوّلاً - قوله بعد : « منها أربعة حرم » لقيام الضرورة على أن الإسلام لم يحرم إلا أربعة من الشهور القمرية التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، والأربعة من القمرية دون الشمسية .

و ثانياً : قوله : « عند الله » وقوله : « في كتاب الله يوم خلق السماوات و الأرض » فإنّ هذه القيود تدلّ على أنّ هذه العدة لا سبيل للتغيير و الاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك ولا يتغيّر علمه ، و كونها في كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات و الأرض فجعل الشمس تجري مستقرّاً لها ، والقمر قدره منازل حتى عاد كالرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار و كلّ في فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب في كتاب التكوين ، ولا معقّب لحكمه تعالى .

ومن المعلوم أنّ الشهور الشمسيّة و ضعيّة اصطلاحية و إن كانت الفصول الأربعة والسنة الشمسيّة على غير هذا النعت فالشهور الاثنا عشر التي هي ثابتة ذات أصل ثابت هي الشهور القمرية .

فمعنى الآية أنّ عدّة الشهور اثناعشر شهراً تتألف منها السنون ، وهذه العدة هي التي في علم الله سبحانه ، وهي التي أثبتها في كتاب التكوين يوم خلق السماوات والأرض وأجرى الحركات العامة التي منها حركة الشمس وحرارة القمر حول الأرض وهي الأصل الثابت في الكون لهذه العدة .

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أنّ المراد بكتاب الله في الآية القرآن أو كتاب مكتوب فيه عدّة الشهور على حدّ الكتب و الدفاتر التي عندنا المؤلفة من قراطيس و أوراق يضبط فيها الألفاظ بخطوط خاصة وضعية .

قوله تعالى : « منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم » المحرم جمع حرام وهو الممنوع منه ، و القيم هو القائم بمصلحة الناس المهيم على إدارة أمور حياتهم وحفظ شؤونها .

وقوله : « منها أربعة حرم » هي الأشهر الأربعة : ذو القعدة و ذوالحجّة و المحرم و رجب بالنقل القطعي ، والكلمة كلمة تشريع بدليل قوله : « ذلك الدين القيم » الخ . وإنّما جعل الله هذه الأشهر الأربعة حرماً ليكفّ الناس فيها عن القتال ، وينبسط عليهم بساط الأمن ، و يأخذوا فيها الأهبة للسعادة ، و يرجعوا إلى ربّهم بالطاعات و القربات .

وكانت حرمتها من شريعة إبراهيم ، وكانت العرب تحترمها حتى في الجاهلية حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمة من شهر إلى شهر سنة أو يزيد منها بالنسيء الذي تعرّض له الآية التالية .

و قوله : « ذلك الدين القيم » ، الإشارة إلى حرمة الأربعة المذكورة ، والدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى أن تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذي يقوم بمصالح العباد . كما يشير إليه في قوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام » الآية المائدة : ٩٧ وقد تقدم الكلام فيه في الجزء السادس من الكتاب .

و قوله : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » الضمير إلى الأربعة إذ لو كان راجعاً إلى « اثنا عشر » المذكور سابقاً لكان الظاهر أن يقال « فيها » كما نقل عن الفراء ، و أيضاً لو كان راجعاً إلى « اثنا عشر » وهي تمام السنة لكان قوله : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » كما قيل في معنى قولنا : فلا تظلموا أبداً أنفسكم ، وكان الكلام متفرعاً على كون عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً ، ولا تفرّع له عليه ظاهراً فالمعنى لما كانت هذه الأربعة حرماً تفرّع على حرمتها عند الله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعاية لحرمتها و عظم منزلتها عند الله سبحانه .

فالنهي عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمة وتأكيدها لتفرّعها على حرمتها أولاً ولأنها نهي خاص بعد النهي العام كما يفيد قولنا : لا تظلم أبداً ولا تظلم في زمان كذا . والجملة أعني قوله : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » وإن كانت بحسب إطلاق لفظها نهياً عن كل ظلم ومعصية لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهي عن القتال في الأشهر الحرم .

قوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » قال الراغب في المفردات : الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض و يبسط ، و كففته أصبت كفه ، و كففته أصبته بالكف و دفعته بها ، و تعورف الكف بالدفع على أي وجه كان ، بالكف كان أو غيرها حتى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره .

وقوله : وما أرسلناك إلا كافة للناس أي كافة لهم عن المعاصي ، والهاء فيه للمبالغة كقولهم : راوية و علامة ونسابة ، وقوله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » قيل : معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين ، وقيل : معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة ، وذلك أن الجماعة يقال لهم : الكافة كما يقال لهم : الوازعة لقوتهم باجتماعهم ، وعلى هذا قوله : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » . انتهى .

وقال في المجمع : كافة بمعنى الإحاطة مأخوذ من كافة الشيء وهي حرفه وإذا انتهى الشيء إلى ذلك كفت عن الزيادة ، وأصل الكف المنع . انتهى .

وقوله : « كافة » في الموضعين حال عن الضمير الراجع إلى المسلمين أو المشركين أو في الأول عن الأول وفي الثاني عن الثاني أو بالعكس فهناك وجوه أربعة ، والمتبادر إلى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظي الذي بين الحال وزبي الحال حينئذ ، ومعنى الآية على هذا : وقاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم .

فالآية توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيرة قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » الآية ينسخ هذه ما ينسخ تلك و تخصص أو تنقيد بما تخصص أو تنقيد به هي .

و الآية مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين وهم عبدة الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن وإن كان ربما نسب الشرك تصريحا أو تلويحاً إلى أهل الكتاب لكنه لم يطلق المشركين على طريق التوصيف إلا على عبدة الأوثان ، وأما الكفر فعلاً أو وصفاً فقد نسب إلى أهل الكتاب وأطلق عليهم كما نسب وأطلق إلى عبدة الأوثان . فالآية أعني قوله : « وقاتلوا المشركين كافة » الآية لاهي ناسخة لآية أخذ الجزية من أهل الكتاب ، ولا هي مخصصة أو مقيدة بها . وقد قيل في الآية بعض وجوه آخر تر كناه لعدم جدوى في التعرض له .

وقوله : « واعلموا أن الله مع المتقين » تعليم و تذكير وفيه حث على الاتصاف بصفة التقوى يترتب عليه من الفائدة : أولاً : الوعد الجميل بالنصر الإلهي والغلبة والظفر فإن حزب الله هم الغالبون .

وثانياً : منهم أن يتعدوا حدود الله في الحروب و المغازي بقتل النساء و الصبيان و من ألقى إليهم السلام كما قتل خالد في غزوة حنين امرأة فأرسل إليه النبي ﷺ ينهاه عن ذلك و قتل رجلاً من بني جذيمة وقد أسلموا فوداهم النبي ﷺ و تبرأ إلى الله من فعله ثلاثاً^(١) ، و قتل أسامة يهودياً أظهر له الإسلام فنزل قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » النساء : ٩٤ وقد تقدم .

قوله تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر » إلى آخر الآية يقال : نساء الشيء ينسؤه نساءً ومنساءً و نسيئاً إذا أخره تأخيراً ، وقد يطلق النسيء على الشهر الذي أخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيره وأما أنه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ .

و الذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيما بينهم سنة جاهلية في أمر الأشهر الحرم وهي المسماة بالنسيء ، وهو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرمة الذي بعده ، و أنهم إنما كانوا يؤخرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أن يتحفظوا على سنة قومية ورثوها عن أسلافهم عن إبراهيم عليه السلام .

فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغياً وإنما يؤخرونه إلى غير الشهر سنة أو يزيد ليواطؤوا عدة ما حرم الله ، وهي الأربعة ثم يعودون ويعيدون الحرمة إلى مكانها الأول . وهذا نوع تصرف في الحكم الإلهي بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى و تقدس ، ولذا عدّه الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر .

وقد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمة الأشهر الحرم النهي عن ظلم الألفس حيث قال : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » وأظهر مصاديقه القتال كما أنه المصداق

(١) القستان الاوليان المذكورتان في كتب السير و المغازي و الثالثة تقدمت في تفسير الآية

الوحيد الذي استفتوا فيه النبي ﷺ فحكاه الله سبحانه بقوله : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » الآية البقرة : ٢١٧ و كذا ما في معناه من قوله : « لاتحلوا شغائر الله ولا الشهر الحرام » المائدة : ٣ ، وقوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والفرائد » المائدة : ٩٧ .

ولذلك الأثر الظاهر من حرمة البيت أو الحرم هو جعل الأمن فيه كما قال : «و من دخله كان آمناً » آل عمران : ٩٧ و قال : « أولم نمكن لهم حرماً آمناً ، القصص : ٥٧ . فالظاهر أن النسيء الذي تذكره الآية عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر الحرام للتوسل بذلك إلى قتال فيه لا لتأخير الحج الذي هو عبادة دينية مختصة ببعضها .

وهذا كله يؤيد ما ذكره : أن العرب كانت تحرم هذه الأشهر الحرم ، و كان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ثم يعود التحريم إلى المحرم ، ولا يفعلون ذلك أي إنساء حرمة المحرم إلى صفر إلا في ذي النجدة .

وأما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر إلى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتة ، و سيجيء تفصيل الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله . ولنرجع إلى ما كنا فيه .

فقوله تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر » أي تأخير الحرمة التي شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها إلى شهر غير حرام زيادة في الكفر لأنه تصرف في حكم الله المشروع و كفر بآياته بعد الكفر بالله من جهة الشرك فهو زيادة في الكفر .

وقوله : « يضل به الذين كفروا » أي ضلوا فيه باضلال غيرهم إياهم بذلك ، وفي الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء ، وقد ذكرنا أن المتصدي لذلك كان بعض بني كنانة ، و سيجيء تفصيله في البحث الروائي إن شاء الله .

وقوله : « يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عداة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله »

في موضع التفسير للإِ نساء ، والضمير للشهر الحرام المعلوم من سياق الكلام أي وهو أنهم يحلّون الشهر الحرام الذي نسؤوه بتأخير حرمة عاماً وبحرمّونه عاماً ، أي يحلّونه عاماً بتأخير حرمة إلى غيره ، وبحرمّونه عاماً بإعادة حرمة إليه .

وإنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنة والإِ ثبات أخرى ليواطؤوا ويوافقوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله في حال حفظهم أصل العدد أي إنهم يريدون التحفظ على حرمة الأشهر الأربعة بعددها مع التغيير في محلّ الحرمة ليتمكّنوا مما يريدونه من الحروب والغارات مع الاستئذان بالحرمة .

وقوله : « زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » المزين هو الشيطان كما وقع في آيات من الكتاب ، وربما نسب إلى الله سبحانه كما في آيات آخر ، ولا ينسب الشر إليه سبحانه إلا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى : « يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦

وذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهداية فيكون ذلك إزناً لداعي الضلال وهو الشيطان أن يزين له سوء عمله فيغويه ويضلّه ، ولذلك قال تعالى : « زين لهم سوء أعمالهم » ثم عقبه بقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » كأنه لما قيل : زين لهم سوء أعمالهم قيل : كيف أذن الله فيه ولم يمنع ذلك قيل : إن هؤلاء كفرون والله لا يهدي القوم الكافرين .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العياشي عن أبي خالد الواسطي في حديث ثم قال - يعني أبا جعفر عليه السلام - حدثني أبي عن علي بن الحسين عن أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما ثقل في مرضه قال : أيتها الناس إن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثم قال بيده : رجب مفرد ذو التعدة وذو الحجة والمحرم ثلاث متواليات .

أقول : وقد ورد في عدة روايات تأويل الشهور الاثني عشر بالأئمة الاثني عشر ، وتأويل الأربعة الحرم بعلي أمير المؤمنين وعلي بن الحسين وعلي بن موسى وعلي بن محمد عليهم السلام ، وتأويل السنة برسول الله صلى الله عليه وآله ، وانطباقها على الآية بما لها من السياق لا يخلو عن خفاء .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكره : أن النبي صلى الله عليه وآله خطب في حجته فقال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

أقول : وهي من خطب النبي صلى الله عليه وآله المشهورة ، وقد رويت بطرق أخرى عن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس وعن أبي حمزة الرقاشي عن عمه و كانت له صحبة وغيرهم . والمراد باستدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض استقرار الأحكام الدينية على ما تقتضيه الفطرة والخلفة وتمكن الدين القيم من الرقابة في أعمال الناس ، ومن ذلك حرمة الأشهر الأربعة الحرم وإلغاء النسيء الذي هو زيادة في الكفر .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقبة فقال : إن النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً و يحرمونه عاماً فكانوا يحرمون المحرم عاماً ، و يحرمون صفر عاماً و يستحلون المحرم وهو النسيء .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر و ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان جنادة بن عوف الكناني يوفي المومس كل عام وكان يكنى أبا ثمادة فينادي : ألا إن أبا ثمادة لا يخاف ولا يعاب ألا إن صفر الأول حلال .

وكان طوائف من العرب إذا أرادوا أن يغيروا على بعض عدوهم أتوه فقالوا أحل لنا هذا الشهر يعنون صفر ، وكانت العرب لا تقابل في الأشهر الحرم فيحمله لهم عاماً ، و يحرمه عليهم في العام الآخر ، و يحرم المحرم في قابل ليواطؤوا عدة ما حرم الله يقول :

ليجعلوا الحرم أربعة غير أنهم جعلوا صفر عاماً حلالاً وعماماً حراماً .

وفيه أخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله : « إنما النسيء زيادة في الكفر » الآية قال :
عمد أناس من أهل الضلالة فزادوا صفر في الأشهر الحرم ، وكان يقوم قائمهم في الموسم
فيقول : إن آلهتكم قد حرمت صفر فيحر مونه ذلك العام ، وكان يقال لهما الصفران .

وكان أول من نسا النسيء بنو مالك من كنانة ، وكانوا ثلاثة أبو ثمامة صفوان بن
أمية ، أحد بني فقيم بن الحارث ، ثم أحد بني كنانة .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : كان رجل من بني كنانة
يقال له : جنادة بن عوف يكنى أبا أمية ينسب إلى أشهر ، وكانت العرب يشتد عليهم أن
يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغبر بعضهم على بعض فإذا أراد أن يغبر على أحد قام يوماً بمنى
فخطب فقال : إنني قد أحللت المحرم وحرمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرم فإذا كان
صفر عمدوا ووضعوا السنة ثم يقوم في قابل فيقول : إنني قد أحللت صفر وحرمت المحرم
فيواطؤوا أربعة أشهر فيحللوا المحرم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : يحلونه عاماً ويحر مونه عاماً «
قال : هو صفر كانت هوازن و غطفان يحلونه سنة ويحر مونه سنة .

أقول محصل الروايات - كما ترى - أن العرب كانت تدين بحرمة الأشهر الحرم
الأربعة رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم ثم إنهم ربما كانوا يتحرجون من القعود
عن الحروب والغارات ثلاثة أشهر متواليات فسألوا بعض بني كنانة أن يحل لهم ثالث
الشهور الثلاثة فقام فيهم بعض أيام الحج بمنى وأحل لهم المحرم ونسأ حرمة إلى صفر
فذهبوا لوجههم عامهم ذلك يقاتلون العدو ثم رد الحرمة إلى مكانه في قابل وهذا هو
النسيء .

وكان يسمى المحرم صفر الأول وصفر الثاني وهما صفران كالربيعين والجماديين
والنسيء إنما ينال صفر الأول ولا يتعدى صفر الثاني فلما أقر الإسلام الحرمة لصفر
الأول عبسوا عنه بشهر الله المحرم ثم لما كثرت الاستعمال خفف و قيل : المحرم ، و
اختص اسم صفر بصفر الثاني فالمحرم من الألفاظ الإسلامية كما ذكره السيوطي في
المزهر .

وفيه أخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : « إنما النسيء زيادة في الكفر » قال : فرض الله الحج في ذي الحجة ، وكان المشركون يسمون الأشهر ذوالحجة والمحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذوالقعدة وذوالحجة ثم يحججون فيه .

ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوال ، و يسمون ذوالقعدة شوال ثم يسمون ذوالحجة ذوالقعدة ثم يسمون المحرم ذوالحجة ثم يحججون فيه واسمه عندهم ذوالحجة .

ثم عادوا إلى مثل هذه القصة فكانوا يحججون في كل شهر عاماً حتى وافق حجة أمي بكر الآخرة من العام في ذي القعدة ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج فيها فوافق ذوالحجة فذلك حين يقول ﷺ في خطبته : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض .

أقول ، ومحصله على ما فيه من التشويش والاضطراب أن العرب كانت قبل الإسلام يحج البيت في ذي الحجة غير أنهم أرادوا أن يحجوا كل عام في شهر فكانوا يدورون بالحج الشهور شهراً بعد شهر و كل شهر وصلت إليه النوبة عامهم ذلك سموه ذوالحجة وسكتوا عن اسمه الأصلي .

ولازم ذلك أن يتألف كل سنة فيها حجة من ثلاثة عشر شهراً ، وأن يتكرر اسم بعض الشهور مرتين أو أزيد كما يشعر به الرواية ، ولذا ذكر الطبري أن العرب كانت تجعل السنة ثلاثة عشر شهراً ، وفي رواية اثني عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً . ولازم ذلك أيضاً أن تتغير أسماء الشهور كلها ، وأن لا يواطئ اسم الشهر نفس الشهر إلا في كل اثنتي عشرة سنة مرة إن كان التأخير على نظام محفوظ ، وذلك على نحو الدوران .

ومثل هذا لا يقال له الإنشاء والتأخير فإن أخذ السنة ثلاثة عشر شهراً وتسمية آخرها ذوالحجة تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقة .

على أنه مخالف لسائر الأخبار والآثار المنقولة ، ولا مأخذ لذلك إلا هذه الرواية وماضاها ها كرواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كانت العرب يحلّون عاماً شهراً و عاماً شهرين ، ولا يصيبون الحجّ إلا في كلّ ستّة وعشرين سنة مرّة وهو النسيء الذي ذكر الله تعالى في كتابه فلمّا كان عام الحجّ الأكبر ثمّ حجّ رسول الله ﷺ من العام المقبل فاستقبل الناس الأهلّة فقال رسول الله ﷺ : إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . وهو في الاضطراب كخبر مجاهد .

على أن الذي ذكره من حجّة أبي بكر في ذي القعدة هو الذي ورد من طرق أهل السنة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم جعل أبا بكر أميراً للحجاجّ عام تسع فحجّ بالناس ، وقد ورد في بعض روايات أخر أيضاً أن الحجّة عامئذ كانت في ذي القعدة .

وهذه الحجّة على أيّ نعت فرضت كانت بأمر من النبي ﷺ وإمضائه ، ولا يأمر بشيء ولا يمضي أمراً إلا ما أمر به ربّه تعالى ، وحاشا أن يأمر الله سبحانه بحجّة في شهر نسيء ثمّ يسميها زيادة في الكفر .

فالحقّ أن النسيء هو ما تقدّم أنّهم كانوا يتحرّجون من توالي شهور ثلاثة محرّمة فينسون حرمة المحرّم إلى صفر ثمّ يعيدونها مكانها في العام المقبل .

وأما حجّهم في كلّ شهر سنة أو في كلّ شهر سنتين أو في شهر سنة وفي شهر سنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به ، وليس من البعيد أن تكون عرب الجاهليّة مختلفين في ذلك لكونهم قبائل شتّى وعشائر متفرّقة كلّ متبع لهوى نفسه غير أن الحجّ كان عبادة ذات موسم لا يتخلّفون عنه لحاجتها إلى أمن لنفوسهم وحرمة لدمائهم ، وما كانوا يتمكّنون من ذلك لو كان أحلّ الشهر بعضهم وحرّمه آخرون على اختلاف في شاكلة التحريم ، وهو ظاهر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْتُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي
 الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
 وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ
 أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
 إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا
 وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)
 لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّكَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ
 بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)
 عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)
 لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
 وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا
 لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ
 خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ لِيَبْغُوا نَفْسَكُمْ الْفِتْنَةَ وَ
 فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَ
 قَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) .

﴿بيان﴾

تعرض للمنافقين وفيه بيان لجمل أو صافهم و علائهم ، و شرح مالقي الإسلام و المسلمون من كيدهم و مكرهم و ما قاسوه من المصائب من جهة نفاقهم ، و في مقدمها عتاب المؤمنين في ثناقلهم عن الجهاد ، و حديث خروج النبي ﷺ من مكة و ذكر الغار .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أنثا فلتتم إلى الأرض ، الآية اثناقلتم أصله اثناقلتم على وزن ادّار كوا وغيره ، و كأنه أشرب معنى الميل و نحوه فعدّي بالي و قيل : اثناقلتم إلى الأرض أي ملتتم إلى الأرض متناقلين أو ثناقلتم مائلين إلى الأرض و المراد بالنفر في سبيل الله الخروج إلى الجهاد .

وقوله : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، كأن الرضا أشرب معنى القناعة فعدّي بمن كما يقال : رضيت من المال بطيبه ، و رضيت من القوم بخلة فلان ، و على هذا ففي الكلام نوع من العناية المجازية كأن الحياة الدنيا نوع حقير من الحياة الآخرة فنوعوا بها منها ، و يشعر بذلك قوله بعده : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » .

فمعنى الآية : يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قال لكم النبي ﷺ - لم يصرح باسمه صوتاً و تعظيماً - اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أفنعمتم بالحياة الدنيا راضين بهامن الآخرة فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الآخرة إلا قليل .

وفي الآية وما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين و تهديد عنيف وهي تقبل الانطباق على غزوة تبوك كما ورد ذلك في أسباب النزول .

قوله تعالى : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً و يستبدل قوماً غيركم » إلى آخر الآية العذاب الذي أنذروا به مطلق غير مقيد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه . و ربما أيد السياق كون المراد به عذاب الدنيا أو عذاب الدنيا و الآخرة جميعاً .

وقوله : « يستبدل قوماً غيركم » أي يستبدل بكم قوماً غيركم لا يتناقلون في

امتثال أوامر الله والنفر في سبيل الله إذا قيل لهم : انفروا ، والدليل على هذا المعنى قرينة المقام .

وقوله : « ولا تضرّوه شيئاً » إشارة إلى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد أن يذهب بهم ويأتي بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضرهم على أنفسهم ، وقوله : « والله على كل شيء قدير » تعليل لقوله : « بعدّ بكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم »
قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار » ثاني اثنين أي أحدهما ، والغار الثقب العظيم في الجبل ، والمراد به غار جبل ثور قرب منى وهو غير غار حراء الذي ربما كان النبي ﷺ يأوي إليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة ، والمراد بصاحبه هو أبو بكر للنقل القطعي .

وقوله : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » أي لا تحزن خوفاً مما تشاهده من الوحدة والغربة وفقد الناصر و تظاهر الأعداء و تعقيبهم إيتاي فإن الله سبحانه معنا ينصرنى عليهم .

وقوله : « فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » أي أنزل الله سكينته على رسوله وأيد رسوله بجنود لم تروها يصر فون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجميع العوامل التي عملت في انصراف القوم عن دخول الغار والظفر به ﷺ ، وقد روي في ذلك أشياء ستأتي في البحث الروائي إن شاء الله .

والدليل على رجوع الضمير في قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » إلى النبي ﷺ أولاً : رجوع الضمائر التي قبله و بعده إليه ﷺ كقوله : « إلا تنصروه » و « نصره » و « أخرجه » و « يقول » و « لصاحبه » و « أيدته » فلا سبيل إلى رجوع ضمير « عليه » من بينها وحده إلى غيره من غير قرينة قاطعة تدل عليه .

وثانياً : أن الكلام في الآية مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه ﷺ حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته إذ يقول تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ » الآية و إنزال السكينة والتقوية بالجنود من النصر فذاك له ﷺ خاصة .

وبدل على ذلك تكرار « إذ » و ذكرها في الآية ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله

بوجه فقوله « إن أخرجهم الذين كفروا » بيان لوقت قوله : « فقد نصره الله » وقوله : « إذ هما في الغار » بيان لتشخيص الحال الذي هو قوله : « ثاني اثنين » وقوله : « إذ يقول لصاحبه » بيان لتشخيص الوقت الذي يدل عليه قوله : « إذ هما في الغار » .

وثالثاً : أن الآية تجري في سياق واحد حتى يقول : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » ولاريب أنه بيان لما قبله ، وأن المراد بكلمة الذين كفروا هي ما قاضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإطفاء نور الله ، و بكلمة الله هي ما وعده من نصره وإتمام نوره ، وكيف يجوز أن يفرق بين البيان والمبين وجعل البيان راجعاً إلى نصره تعالى إياه ﷺ ، والمبين راجعاً إلى نصره غيره .

فمعنى الآية : إن لم تنصروه أنتم أيها المؤمنون فقد أظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له أحد ينصره ويدفع عنه وقد تظاهرت عليه الأعداء وأحاطوا به من كل جهة وذلك إذ هم المشركون به وعزموا على قتله فاضطر إلى الخروج من مكة في حال لم يكن إلا أحد رجلين اثنين ، وذلك إذ هما في الغار إذ يقول النبي ﷺ لصاحبه وهو أبو بكر : لا تحزن مما تشاهده من الحال إن الله معنا بيده النصر فنصره الله .

حيث أنزل سكينته عليه وأيده بجنود غائبة عن أبصاركم ، وجعل كلمة الذين كفروا - وهي قضاؤهم بوجوب قتله وعزيمتهم عليه - كلمة مغلوبة غير نافذة ولا مؤثرة ، وكلمة الله - وهي الوعد بالنصر وإظهار الدين وإتمام النور - هي العليا العالية القاهرة والله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل ولا يغلط في ما شاء وفعله .

وقد تبين مما تقدم أولاً : أن قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » متفرع على قوله : « فقد نصره الله » في عين أنه متفرع على قوله : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن » فإن الظرف ظرف للنصرة على ما تقدم ، والكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه ﷺ لا غيره فالتفريع تفریع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله : « فقد نصره الله » لا على قوله : « يقول لصاحبه لا تحزن » .

وربما استدل لذلك بأن النبي ﷺ لم ينزل على سكينته من ربه فأنزل السكينة في هذا الظرف خاصة يكشف عن نزوله على صاحبه .

ويدفعه أو لا قوله تعالى : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، في قصة حنين ، والقول بأن نفسه الشريفة اضطربت بعض الاضطراب في وقعة حنين فناسب نزول السكينة بخلاف الحال في الغار . يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآية لا تذكر منه ﷺ حزناً ولا اضطراباً ولا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين . على أنه يبطل أصل الاستدلال أن النبي ﷺ لم ينزل على سكينته من ربه لا يتجدد له شيء منها فكيف جازله أن يضرب في حنين فتنزل عليه سكينته جديدة اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم ينزل في الغار كذلك .

ونظيرتها الآية الناطقة بنزول السكينته عليه ﷺ وعلى المؤمنين في سورة الفتح : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، الفتح : ٢٦ .

ويدفعه ثانياً لزوم تفرغ قوله : « وأيده بجنود لم يروها » على أثر تفرغ قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » لأنهما في سياق واحد ، ولازمه عدم رجوع التأيد بالجنود إليه ﷺ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوز يجوز .

وربما التزم بعضهم - فراراً من شناعة لزوم التفكيك - أن الضمير في قوله تعالى : « وأيده » أيضاً راجع إلى صاحبه ، ولازمه كون إنزال السكينته والتأيد بالجنود عائدين إلى أبي بكر دون النبي ﷺ .

وربما أيده بعض آخر بأن الوقائع التي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعة حنين والأحزاب وكذا نزول الملائكة لوقعة بدر وإن لم تذكر نزولهم على المؤمنين ولم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا إنما نزلوا للنصر وفيه نصر المؤمنين وإمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التي لم يروها إنما أيدت أبا بكر ، وتأييدهم المؤمنين جميعاً أو أبا بكر خاصة تأييد منهم في الحقيقة للنبي ﷺ .

والأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذي هو قوله : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » الآية مترتباً على ما تقدمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك في السياق .

ولا يخفى عليك أن هذا الذي التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الواحداني إلى معنى متهاافت الأطراف يدفع آخره أوله ، وينقض ذيله صدره فقد بدأت الآية بأن النبي ﷺ أكرم على الله وأعز من أن يستذله ويحوجه إلى نصره هؤلاء بل هو تعالى وليه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتسعين أثره ثم إنشأرت في بيان نصره تعالى إياه بين نصره غيره بإزال السكينة عليه وتأيدته بجنود لم يروها إلى آخر الآية .

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به ﷺ أو جميعهم نصر منه له بالحقيقة لكن الآية في مساق يدفعه البتة فإن الآية السابقة يجمع المؤمنين في خطاب واحد - يا أيها الذين آمنوا - ويعاتبهم ويهددهم على التثاقول عن إجابة النبي ﷺ إلى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله والخروج إلى الجهاد ثم الآية الثانية تهددهم بالعذاب والاستبدال إن لم ينفروا وتبين لهم أن الله ورسوله في غنى عنهم ولا يضرر ونه شيئاً ، ثم الآية الثالثة توضح أن النبي ﷺ في غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليه الناصر له ، وقد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه وهو نصره إياه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

و من البين الذي لا مرية فيه أن مقتضى هذا المقام بيان نصره ﷺ الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصة من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا بيان نصره إياه بأؤمنين أو ببعضهم وقد جمعهم في خطاب المعاتبة ، ولا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه .

ولا أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله : « إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين » إشارة إجمالية إلى نصره العزيز لنبيه ﷺ ثم يؤخذ في تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصة بإزال السكينة والتأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يأبى ذلك .

ويدفعه ثالثاً : أن فيه غفلة عن حقيقة معنى السكينة وقد تقدم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الآية : ٢٦ من السورة . والامر الثاني : أن المراد بتأييده ﷺ بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على

ما يفيد السياق ، وأما قول بعضهم : إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب ويوم حنين على ما نطقت به الآيات . فمما لا دليل عليه من اللفظ البتة .

والامر الثالث : أن المراد بالكلمة في قوله : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » هو ما قضاوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإبطال دعوته الحقّة بذلك ، وبقوله : « وكلمة الله هي العليا » هو ما وعد الله نبيه ﷺ من النصر وإظهار دينه على الدين كله .

وذلك أن هذه الآية بما تتضمنه من قوله : « فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا » تشير إلى ما يقصه قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » الأنفال : ٣٠ ، والذي في ذيل الآية من إبطال كلمتهم وإحقاق الكلمة الإلهية مرتبط بما في صدر الآية من حديث الإخراج أي الاضطرار إلى الخروج لا محالة ، والذي اضطره ﷺ إلى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هي الكلمة التي أبطلها الله سبحانه وجعلها السفلى وتقابلها كلمة الله وليست إلا النصر والإظهار .

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم إن المراد بكلمة الذين كفروا الشرك والكفر ، وبكلمة الله تعالى التوحيد والإيمان غير سديد فإن الشرك وإن كان كلمة لهم ، والتوحيد كلمة لله لكنّه لا يستلزم كونهما المرادين كلّما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينة على الخلاف .

قوله تعالى : انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، الخفاف والثقال جمعاً خفيف وثقيل ، والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثرة المشاغل المالية وحبّ الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم ، وقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك ، والخفة كناية عن خلاف ذلك .

فالأمر بالنفر خفافاً وثقالاً وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أي حال ، وعدم اتخاذ شيء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين

الأموال والأَنْفُس في الذِّكْرِ في معنى الأمر بالجهاد بأي وسيلة أمكنت .
وقد ظهر بذلك أنَّ الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعداء التي يسقط
معها وجوب الجهاد كالمرض والعمى والعرج و نحو ذلك فإنَّ المراد بالخفة والثقل أمر
وراء ذلك .

قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » إلى آخر الآية . العرض
ما يسرع إليه الزوال و يطلق على المال الدنيوي وهو المراد في الآية بقرينة السياق ،
والمراد بقربه كونه قريباً من التناول ، والقاصد من القصد وهو التوسط في الأمر ، والمراد
بكون السفر قاصداً كونه غير بعيد المقصد سهلاً على المسافر ، والشقة : المسافة لما في
قطعها من المشقة .

والآية كما يلوح من سياقها تعبير ودم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبي
صلَّى الله عليه وآله إلى الجهاد في غزوة تبوك إذ الغزوة التي خرج فيها النبي ﷺ
وتخلف عنه المنافقون وهي على بعد من المسافة هي غزوة تبوك لا غيرها .

ومعنى الآية : لو كان ما أمرتهم به ودعوتهم إليه عرضاً قريب التناول وغنيمة حاضرة
وسفراً قاصداً قريباً هيناً لاتبعوك يا محمد و خرجوا معك طمعاً في الغنيمة ولكن بعدت
عليهم الشقة والمسافة فاستصعبوا السير وثاقلوا فيه .

و سيحلفون بالله إذا رجعت إليهم و لمتموهم على تخلفهم : لو استطعنا الخروج
لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم بما أخذوه من الطريقة : من الخروج إلى القتال طمعاً في
عرض الدنيا إذا استيسروا القبض عليه ، والتخلف عنه إذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعدو
الكاذب على نبيهم والحلف في ذلك بالله كاذبين؛ أو يهلكون أنفسهم بهذا الحلف الكاذب ،
والله يعلم إنهم لكاذبون .

قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا و تعلم
الكاذبين » الجملة الأولى دعاء للنبي ﷺ بالعفو نظير الدعاء على الإنسان بالقتل في
قوله : « قتل الإنسان ما أكرهه » عبس : ١٧ ، وقوله : « فقتل كيف قدر » المدثر : ١٩
وقوله : « فاتلهم الله أنتى يؤفكون » التوبة : ٣٠ .

والجملة متعلّقة بقوله : « لم أذنت لهم » أي في التخلّف والعود، ولما كان الاستفهام للإنكار أو التوبيخ كان معناه : كان ينبغي أن لا تأذن لهم في التخلّف والعود ، ويستقيم به تعلّق الغاية التي يشتمل عليها قوله : « حتّى يتبيّن لك الذين صدقوا » الآية . بقوله : « لم أذنت لهم » فالتعلّق إنّما هو بالاستفهام منه دون الاستفهام وإلا أفاد خلاف المقصود ، والكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم وأن أدنى الامتحان كالكشف عن إذنتهم في القعود يكشف عن فسادهم .

ومعنى الآية : عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلّف والعود ؛ ولو شئت لم تأذن لهم - وكانوا أحقّ به - حتّى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين فيتميّز عندك كذبهم ونفاقهم .

والآية - كما ترى وتقدّمت الإشارة إليه - في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم ، وأنهم مقتضون بأدنى امتحان يمتحنون به ، و من مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب إلى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنه هو الذي ستر عليهم فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم ، وهو نوع من العناية الكلاميّة يتبيّن به ظهور الأمر ووضوحه لا يراد أزيد من ذلك فهو من أقسام البيان على طريق : « إياك أعني واسمعي يا جارة » .

فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا الكشف عن تقصير النبي ﷺ وسوء تدييره في إحياء أمر الله ، وارتكابه بذلك ذنباً - حاشاه - و أولويّة عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن أنسب بظهور فضيحتهم وأنهم أحقّ بذلك لما بهم من سوء السريرة وفساد النيّة لا لأنه كان أولى وأحرى في نفسه وأقرب وأمسّ بمصلحة الدين .

و الدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ولأوضاعوا خلالكم يبغيونكم القننة فيكم سمّاعون لهم » إلى آخر الآيتين ، فقد كان الأصلح أن يؤذن لهم في التخلّف ليصان الجمع من الخبال وفساد الرأي وتفرّق الكلمة ، والمتعيّن أن يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم والتفتين فيهم وفيهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب وهم سمّاعون لهم يسرعون إلى المطاوعة لهم ، ولولم يؤذن لهم فأنظروا الخلاف كانت القننة أشدّ والتفرّق في كلمة الجماعة أوضح وأبين .

ويؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فبسطهم وقيل أهدوا مع القاعدین ، فقد كان تخلفهم ونفاقهم ظاهراً لا محاباً من عدم إعدادهم العدة يتوسمه في وجوههم كل ذي لب ، ولا يخفى مثل ذلك على مثل النبي ﷺ وقد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السورة كراراً فكيف يصح أن يعاتب ههنا عتاباً جدياً بأنه لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم ويميز المنافقين من المؤمنين؟ فليس المراد بالعتاب إلا ما ذكرناه .

ومما تقدم يظهر فساد قول من قال : إن الآية تدل على صدور الذنب عنه ﷺ لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب ، وأن الإذن كان قبيحاً منه ﷺ ومن صفات الذنوب لأنه لا يقال في المباح لم فعلته؟ انتهى .

وهذا من لعبهم بكلام الله سبحانه ، ولو اعترض معترض على ما يهجون به في مثل المقام الذي سيق الآيه فيه لم يرضوا بذلك ، وقد أوضحنا أن الآيه مسوقة لغرض غير غرض الجد في العتاب .

على أن قولهم : إن المباح لا يقال فيه : لم فعلت؟ فاسد فإن من الجائز إذا شوه من رجح غير الأولى على الأولى أن يقال له : لم فعلت ذلك ورجحت على ما هو أولى منه؟ على أنك قد عرفت أن الآيه غير مسوقة لعتاب جدي .

ونظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال : إن بعض المفسرين ولا سيما الزمخشري قد أسأوا الأرب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآيه ، وكان يجب أن يتعلموا أعلى الأرب معه ﷺ إذ أخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب ، وهو منتهى التكريم واللفظ .

وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فأرادوا أن يشبتوا أن العفو لا يدل على الذنب ، وغايته أن الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى .

وهو محمود مع الاصطلاحات المحدثه والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية ، وما كان ينبغي لهم أن يهروا من إثبات ما أثبتته الله في كتابه تمسكاً باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له ولمدلول اللغه أيضاً .

فالذنب في اللغة كل عمل يستتبع ضرراً أو فوات منفعة أو مصلحة ، مأخوذ من ذنب الدابة ، وليس مرادفاً للمعصية بل أعم منها . والإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين ، وقد قال تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » الآية : الفتح : ٢ .

ثم ذكر في كلام له طويل أن ذلك كان اجتهاداً منه ﷺ فيما لا وحي فيه من الله وهو جائز وواقع من الأنبياء ﷺ وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطئ فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .

ومنه ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه تعالى لرسوله ﷺ في أخذ الفدية من أسارى بدر حيث قال : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » الأنفال : ٦٧ ثم بين أنه كان مقتضياً لنزول عذاب أليم لولا كتاب من الله سبق فكان مانعاً انتهى كلامه بنوع من التلخيص .

وليت شعري ما الذي زاد في كلامه على ما تفصّل به الرازي وغيره حيث ذكروا أن ذلك من ترك الأولى ، ولا يسمونه ذنباً في عرف الملتزمين وهو الذي يستتبع عقاباً ، وذكر هو أنه من ترك الأصلح وسمّاه ذنباً لغة .

على أنك قد عرفت فيما تقدم أنه لم يكن ذنباً لا عرفاً ولا لغة بدلالة ناصّة من الآيات على أن عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائلة وقوع الفتنة واختلاف الكلمة ، وكانت هذه العلة بعينها موجودة لولم يأذن لهم النبي صلى الله عليه وآله وظهر منهم ما كانوا أبطنوه من الكفر والخلاف وأن الذي ذكره الله بقوله : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » أن عدم إعدادهم العدة كان يبدل على عدم إرادتهم الخروج ؛ كان رسول الله ﷺ أجل من أن يخفى عليه ذلك وهم بعرضي منه وسمع .

مضافاً إلى أنه ﷺ كان يعرفهم في لحن القول كما قال تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » سورة محمد : ٣٠ وكيف يخفى على من سمع من أحدهم مثل قوله : « ائذن لي

ولا تفتنني، أو يقول للنبي ﷺ : « هو أذن ، أو يلزمه في الصدقات ولا ينصح له ﷺ »
أن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم وما وراءه إلا كفر وخلاف .

فقد كان النبي ﷺ يتوسم منهم النفاق والخلاف ويعلم بما في نفوسهم ، ومع ذلك فعتابه ﷺ بأنه لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم ولم يميزهم من غيرهم ؟ ليس إلا عتاباً غير جدي للغرض الذي ذكرناه .

وأما قوله : « إن الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبيين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين ، ففيه أن الذي تشتمل عليه الآية من المصلحة هو تبيين الذين صدقوا للنبي ﷺ وعلمه هو بالكاذبين لا مطلق تبيينهم ولا مطلق العلم بالكاذبين ، وقد ظهر عما تقدم أنه ﷺ لم يكن يخفى عليه ذلك ، وأن حقيقة المصلحة إنما كانت في الإذن وهي سد باب الفتنة واختلاف الكلمة فإنه ﷺ كان يعلم من حالهم أنهم غير خارجين البتة سواء أذن لهم في القعود أم لم يأذن فبادر إلى الإذن حفظاً على ظاهر الطاعة ووحدة الكلمة .

وليس لك أن تتصور أنه لو بان نفاقهم يومئذ وظهر خلافهم بعدم إذن النبي لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم وإقائهم الخلاف لما في الإسلام يومئذ وهو يوم خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك - من الشوكة والقوة ، وله ﷺ من نفوذ الكلمة .

فإن الإسلام يومئذ إنما كان يملك القوة والمهابة في أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته ويعظمون سواد أهله ويخافون حد سيوفهم وأما المسلمون في داخل مجتمعهم وبين أنفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق ومرض القلوب ، ولم يستول عليهم بعد وحدة الكلمة وجد الهمة والعزيمة والدليل على ذلك نفس هذه الآيات وما يتلوها إلى آخر السورة تقريباً .

وقد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم أحد وقد هجم عليهم العدو في عقردارهم فرجع ثلث الجيش الإسلامي من المعركة ولم يؤثر فيهم عظة ولا إلحاح حتى قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، فكان ذلك أحد الأسباب العاملة في انهزام المسلمين .

وأما قوله : ومن عتابه تعالى لرسوله ﷺ في خطائه في اجتهاده ما تقدم في سورة

الأفعال من عتابه في أخذ الفدية من أسارى بدر حيث قال : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض » الآية .

ففيه أولاً : أنه من سوء الفهم فمن البين الذي لا يرتاب فيه أن الآية بلفظها لا تعاتب على أخذ الفدية من الأسرى وإنما يعاتب على نفس أخذ الأسرى - ما كان لنبي أن يكون له أسرى - ولم تنزل آية ولا وردت رواية في أن النبي ﷺ كان أمرهم بالأسر بل روايات القصة تدل على أن النبي ﷺ لما أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس أن يقتلهم عن آخرهم فكلموه وألحوا عليه في أخذ الفدية منهم ليتقوا وبذلك على أعداء الدين و قد رد الله عليهم ذلك بقوله : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

وهذا من أحسن الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه إلى المؤمنين خاصة من غير أن يختص به النبي ﷺ أو يشار بهم فيه وأن أكثر ما ورد من الأخبار في هذا المعنى موضوعة أو مدسوسة .

وثانياً : أن العتاب في الآية لو اختص بالنبي ﷺ أو شمله وغيره لم يكن من العتاب على ما ذكره من الذنب بمعناه اللغوي وهو تفويت المصلحة بوجه فإن هذا العتاب مذنب بقوله تعالى في الآية التالية : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » الأفعال : ٦٨ فلا يرتاب زولب في أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلا مع كون المهدد عليه من المعصية المصطلحة بل ومن كبائر المعاصي ، وهذا أيضاً من الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه إلى غير النبي ﷺ .

قوله تعالى : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر » إلى آخر الآيتين
تذكر الآيتين أحد ما يعرف به المنافق و يتميز به من المؤمن وهو الاستئذان في التخلف عن الجهاد في سبيل الله .

وقد بين الله سبحانه ذلك بأن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأفان من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر بحقيقة الإيمان لما يورثه هذا الإيمان من صفة التقوى ، و المؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله واليوم الآخر كان على بصيرة من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه ، ولا يدعه ذلك أن يتأقل عنه فيستأذن في القعود لكن

المنافق لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر فقد صفة التقوى فارتاب قلبه ولا يزال يتردد في ربه فيجب التطرف ، ويستأذن في التخلف والعود عن الجهاد .

قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » إلى آخر الآية ، العدة الأهبة ، والانبعاث - على ما في المجمع - الانطلاق بسرعة في الأمر ، و التثبيط التوقيف عن الأمر بالترهيد فيه .

والآية معطوفة على ما تقدم من قوله : « والله يعلم إنهم لكاذبون » بحسب المعنى أي هم كاذبون في دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه ولو أرادوه لأعدوا له عدة لأن من آثار من يريد أمراً من الأمور أن يتأهب له بما يناسبه من العدة والأهبة ولم يظهر منهم شيء من ذلك .

وقوله : « ولكن كره الله انبعاثهم فثبسطهم » أي جزاء بنفاقهم و امتناناً عليك و على المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم ، ويفرقوا كلمتكم بالثقتين و إلقاء الخلاف .

وقوله : « وقيل اعدوا مع القاعدين » أمر غير تشريعي لا ينافي الأمر التشريعي بالنفر و الخروج ، فقد أمرهم الله بلسان نبيه ﷺ بالنفر والخروج - وهو أمر تشريعي - وأمرهم من ناحية سربرتهم الفاسدة والريب المتردد في قلوبهم و سجاياهم الباطنية الخبيثة بالعود - وهو أمر غير تشريعي - ولا تنافي بينهما .

ولم ينسب قول : « اعدوا مع القاعدين » إلى نفسه تنزيهاً لنفسه عن الأمر بما لا يرتضيه وهناك أسباب متخللة آمرة بذلك كالشيطان والنفس ، وإنما ينسب إليه تعالى بالواسطة لانطباق معنى الجزاء والامتنان على المؤمنين عليه .

وليتوافق الأمران المتخالفان صورة في السياق أعني قوله : « قيل لكم انفروا في سبيل الله » وقوله : « قيل اعدوا مع القاعدين » .

قوله تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأضعوا خلالكم » الآية الخبال هو الفساد واضطراب الرأي ، و الإيضاع : الإسراع في الشر ، والخلال : البين ، و البغي هو الطلب بمعنى يبعثونكم الفتنة أي يطلبون لكم أوفيكم الفتنة على ما قيل ، و الفتنة هي المحنة كالفرقة و اختلاف الكلمة على ما يناسب الآية من معانيها ، و السماع

السريع الإجابة والقبول .

والآية في مقام التعليل لقوله : « ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم » امتناناً ، و لذا جيء بالفصل من غير عطف ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل و قلبوا لك الأمور حتى جاء الحق » و ظهر أمر الله وهم كارهون ، أي أقسم لقد طلبوا المحنة و اختلاف الكلمة و تفرق الجماعة من قبل هذه الغزوة - وهي غزوة تبوك - كما في غزوة أحد حين رجع عبدالله بن أبي بن سلول بثلك القوم و خذل النبي ﷺ ، و قلبوا لك الأمور بدعوة الناس إلى الخلاف و تحريضهم على المعصية و خذلانهم عن الجهاد و بعث اليهود و المشركين على قتال المؤمنين و التجسس و غير ذلك حتى جاء الحق - وهو الحق الذي يجب أن يتبع - و ظهر أمر الله - وهو الذي يريد من الدين - وهم كارهون لجميع ذلك .

والآية تستشهد على الآية السابقة بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله ، و في توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ خاصة بعد عمومه في الآية السابقة لاختصاص الأمر فيه بالنبي ﷺ أعني تقليب الأمور عليه بخلاف ما في الآية السابقة من خروجهم في الناس .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « إن لاتنصروه فقد نصره الله » الآية أخرج ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور . قال : و تبعه أبو بكر فلما سمع رسول الله ﷺ حسه خلفه خاف أن يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تمنحج فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار .

فأصبحت قريش في طلبه فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار و على بابه شجرة فبال في أصلها القائف ثم قال : ما جاز صاحبكم الذي تطلبون

هذا المكان قال : فعند ذلك حزن أبو بكر فقال له رسول الله ﷺ : لا تحزن إن الله معنا . قال : فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة وعليّ يجهزهم فاشترؤا ثلاثة أباغر من إبل البحرين واستأجر لهم دليلاً فلمّا كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم عليّ بالإبل والدليل فركب رسول الله ﷺ راحلته وركب أبو بكر أخرى فتوجهوا نحو المدينة ، وقد بعثت قريش في طلبه .

وفيه أخرج ابن سعد عن ابن عباس وعليّ وعائشة بنت أبي بكر وعائشة بنت قدامة وسرافقة بن جعشم - دخل حديث بعضهم في بعض - قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والقوم جلوس على بابه فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرها على رؤوسهم ويتلو : «يس والقرآن الحكيم» الآيات ومضى .

فقال لهم قائل ما تنتظرون ؟ قالوا : نحمد . قال : قد والله مرّ بكم قالوا : والله ما أبصرناه وقاموا ينفضون التراب من رؤوسهم ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض .

و طلبته قريش أشدّ الطلب حتّى انتهوا إلى باب الغار فقال بعضهم : إنّ عليه لعنكبوتاً قبل ميلاد محمد .

وفي إعلام الورى - في حديث سرافقة بن جعشم مع النبي ﷺ - قال : الذي اشتهر في العرب يتقاولون فيه الأشعار ويتفاوضونه في الديار أنّه تبعه وهو متوجه إلى المدينة طالباً لغرته ﷺ ليحظى بذلك عند قريش ، حتّى إذا أمكنته الفرصة في نفسه ، و أيقن أنّ قد ظفر ببيغيته ساخت قوائم فرسه حتّى تغيبت بأجمعها في الأرض وهو بموضع جذب وقاع صفصف فعلم أنّ الذي أصابه أمر سماويّ فنادى يا محمد : ادع ربك يطلق لي فرسي وزمة الله أنّ لا أدلّ عليك أحداً ؛ فدعا له فوثب جواده كأنه أفلت من أنشوطة و كان رجلاً داهية ، وعلم بما رأى أنّه سيكون له نبا فقال : اكتب لي أماناً فكتب له وانصرف .

قال محمد بن إسحاق : إنّ أباجهل قال في أمر سرافقة أبياتاً فأجابه سرافقة نظماً :

أباحكم والللات^(١) الوكنت شاهداً * لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه

عجبت ولم تشكك بأنّ نبيّاً * نبيّ بيهان فمن زايكاته ؟
عليك بكفّ الناس عنه فانّني * أرى أمره يوماً ستبدو معاملة

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام ، و في الدر المنثور بعدة طرق ، وأورده الزمخشري في ربيع الأبرار .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن مصعب قال : أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم و المغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدّثون : أن النبيّ صلّى الله عليه و سلّم ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت في وجه النبيّ صلّى الله عليه و سلّم فسترته ، و أمر الله العنكبوت فانسجت في وجه النبيّ صلّى الله عليه و سلّم فسترته وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بقم الغار .

وأقبل فتیان قريش من كلّ بطن رجل بعصيتهم و أسيافهم و هراويهم حتّى إذا كانوا من النبيّ صلّى الله عليه و سلّم قد رآبعين ذراعاً فعجل بعضهم فنظر في الغار فرجع إلى أصحابه فقالوا : مالك لم تنظر في الغار ؟ فقال : رأيت حمامتين بقم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد . الحديث .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق وابن المنذر عن الزهريّ في قوله : « إذهما في الغار » قال : الغار الذي في الجبل الذي يسمّى ثوراً .

أقول : وقد استفاضت الروايات بكون الغار المذكور في القرآن الكريم هو غار جبل ثور ، وهو على أربعة فراسخ من مكّة تقريباً .

وفي إعلام الوری وقصص الأنبياء ، و بقي رسول الله صلّى الله عليه وآله في الغار ثلاثة أيّام ثمّ أذن الله تعالى له بالهجرة ، وقال : اخرج من مكّة يا نبيّ فليس لك بها ناصر بعد أبي طالب فخرج رسول الله صلّى الله عليه وآله .

وأقبل راع لبعض قريش يقال له : ابن أريقط فدعاه رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال له : يا ابن أريقط أءتمنك على دمي ؟ فقال : إذن والله أحرسك وأحفظك ولا أدلّ عليك ، فأين تريد يا نبيّ ؟ قال : يشرب . قال : لأسلكن بك مسلماً لا يهتدي فيها أحد فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : أمت عليّاً وبشره بأنّ الله قد أذن لي في الهجرة فهيس لي زاداً وراحلة .

وقال له أبو بكر : ائت أسماء ابنتي وقل لها : تهبّي لي زاداً وراحتين ، وأعلم عامر بن فهيرة أمرنا ، وكان من موالي أبي بكر وكان قد أسلم ، وقل له : اثنتا بالزاد والراحتين .

فجاء ابن أريقط إلى علي عليه السلام فأخبره بذلك فبعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بزاد وراحلة . وبعث ابن فهيرة بزاد وراحتين ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الغار وأخذ به ابن أريقط على طريق نخلة بين الجبال فلم يرجعوا إلى الطريق إلا بقدر يد فنزلوا على أمّ معبد هناك .

قال : وقد كانت الأنصار بلغهم خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم و كانوا يتوقعون قدومه إلى أن وافى مسجد قبا ونزل فخرج الرجال والنساء يستبشرون بقدومه .

أقول : والأخبار في تفاصيل قصص الهجرة بالغة في الكثرة رواها أصحاب النقل وأرباب السير من الشيعة وأهل السنة ، وهي على كثرتها متدافعة مضطربة لا يسع نقدها واستخراج الصافي منها مجال هذا الكتاب ، وللدلالة على إجمال القصة فيما أوردناه كفاية وهو كالمتمفق عليه بين أخبار الفريقين .

وفي الدر المنثور أخرج خيثمة بن سليمان الطرابلسي في فضائل الصحابة وابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال : إن الله ذمّ الناس كلّهم ومدح أبا بكر فقال : إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .

أقول : نقد البحث في مضامين الآيات الحافّة بالقصة وما ينضمّ إليها من النقل الصحيح يوجب سوء الظنّ بهذه الرواية فإنّ الآيات التي تدمّم المؤمنين - أو الناس كلّهم كما في الرواية - وإليها تشير آية الغار بما فيها من قوله : « إلا تنصروه » هي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقتم إلى الأرض » الآية و النقل القطعي يدلّ على أنّ الثناقل المذكور لم يكن من عامّة المؤمنين وجميعهم ، وأنّ كثيراً منهم سارع إلى إجابة الرسول صلى الله عليه وآله فيما أمر به من النفر ، وإنّما ثناقل جماعة من الناس من مؤمن ومناقف .

فخطاب « يا أيها الذين آمنوا » الشامل لجميع المؤمنين ، والذم المتعقب له إنما هو من خطاب الجماعة بشأن بعضهم كخطاب اليهود بقوله : « فلم تقتلون أنبياء الله » البقرة : ٩١ وغيره ، وهو كثير في القرآن غير أن « ديدن القرآن في مثل هذه الموارد أن لا يضيع حق الصالحين ولا أجر المحسنين أعني الأقلين الذين تعمهم أمثال هذه الخطابات العامة بالذم والتوبيخ فيتدارك أمرهم ويستثنىهم ويذكرهم بالجميل كما فعل ذلك فيما سيأتي في هذه السورة من الآيات المادحة للمؤمنين الشاكرة لجميل مساعيهم بقوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » الآية وغيره .

وإذا كانت الآيات - وقد نزلت في غزوة تبوك - تعم المؤمنين جميعاً المسارعين في الخروج والمتثاقلين فيه من غير استثناء فهي تشمل عامة الصحابة والمؤمنين وفيهم أبو بكر نفسه غير أنه تعالى تدارك ما لحق بالمسارعين في الطاعة والإجابة منهم في آيات تالية و شكر سعيهم .

فلو كان قوله في الآية : « إلا تنصروه » وهو يشير إلى ما تقدم من حديث التثاقل ويؤمى إليه زمناً للناس كلهم كان زمناً لأبي بكر كما هو ذم لغيره بعدم نصرته للنبي ﷺ أو تثاقلهم في نصره ، ومع ذلك لا تسمح الآية بالدلالة على نصر أبي بكر له ﷺ بما فيها من قوله : « فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » بل لودل لدل على نصر النبي ﷺ لأبي بكر حيث طيب قلبه وسلاه بقوله : « لا تحزن إن الله معنا » .

على أنك قد عرفت في البيان السابق أن الآية بمقتضى المقام لا تعرض إلا لنصر الله سبحانه وحده نبيه ﷺ بعينه وشخصه ، قبال ما يفرض من عدم نصر كافة المؤمنين له وخذلانهم إتمام فدلالة الآية على أن النبي ﷺ يوم الغار لم ينصره إلا الله سبحانه وحده دلالة قطعية .

وهذا المعنى في نفسه أدل شاهد على أن الضمائر في تتممة جمل الآية : « فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » للنبي ﷺ ، والجمل مسوقة لبيان قيامه تعالى وحده بنصره نصراً عزيزاً غيبياً لا صنع

فيه لأحد من الناس فيه ، وهو إنزال السكينة عليه وتأيدته بجنود غائبة عن الأبصار ، و جعل كلمة الذين كفروا السفلى وإعلاء كلمة الحق والله عزيز حكيم .
وأما غير نصره النبي ﷺ من المناقب التي يمدح الإنسان عليها فلو كان هناك شيء من ذلك لكان هو ما في قوله : « ثاني اثنين » وما في قوله : « لصاحبه » فلنسلم أن كون الإنسان ثانياً لاثنين أحدهما النبي ﷺ ، وكونه صاحباً للنبي ﷺ مذكوراً في القرآن بالصحبة من المفاخر التي يتنفس لها لكنها من المناقب الاجتماعية التي تقدّر لها في المجتمعات قيمة ونفاسة ، وأما القرآن الكريم فللقيمة فيه ملاك آخر ، وللفضل والشرف في منطقته معنى آخر متمسكى على حقيقة هي أعلى من المقاصد الوضعية الاجتماعية ، وهي كرامة العبودية ودرجات القرب والزلفى .

ومجرد الصحابة الجسمانية والدخول في العدد لا يدل على شيء من ذلك ، وقد تكرر في كلامه تعالى أن التسمي بمختلف الأسماء والتلبس بما يتنفس فيه عامة الناس ويستعظمه النظر الاجتماعي لا قيمة له عند الله سبحانه ، وأن الحساب على ما في القلوب دون ما يتراءى من ظواهر الأعمال وتقدمه الأحساب والأنساب .

وقد أفصح عنه في مورد أصحاب النبي ﷺ وملازميه خاصة بأبلغ الإفصاح قوله تعالى : « محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً - إلى أن قال - وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ، الفتح : ٢٩ فانظر إلى ما في صدر الآية من المدح وما في ذيله من القيد وتدبير .

هذه نبذة مما يتعلق بالآية والرواية من البحث ، والزائد على هذا المقدار يخرجنا من البحث التفسيري إلى البحث الكلامي الذي هو خارج عن غرضنا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساکر في تاريخه عن ابن عباس في قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » قال : على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم ينزل السكينة معه .

وفيه أخرج الخطيب في تاريخه عن حبيب بن أبي ثابت : « فأنزل الله سكينته عليه » قال : على أبي بكر فأما النبي ﷺ فقد كانت عليه السكينة .

أقول : قد حقق فيما تقدم أن الضمير راجع إلى النبي ﷺ على ما يهدي إليه السياق ، والروايتان على ما بهما من الوقف ضعيفتان ، ولا حججينة لقول ابن عباس ولا حبيب لغيرهما .

وأما الحجّة التي أوردها فيهما وهي أن النبي ﷺ لم تنزل السكينة معه فمدخولة يدفعها قوله تعالى في قصة حنين : « ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين » الآية : التوبة : ٢٦ ونظيرته آية سورة الفتح المشيرة إلى قصة الحديبية وهما تصرّحان بنزول السكينة عليه ﷺ في خصوص المورّد فليكن الأمر على تلك الوتيرة في الغار .

وكان بعضهم^(١) أحسّ بالأشكال فحمل قولهما في الروايتين : أن السكينة لم تنزل مع النبي ﷺ على معنى آخر وهو كون السكينة ملازمة للنبي ﷺ في الغار فيكون قرينة على كون التي نزلت فيه إنما نزلت على صاحبه دونه ، ولعلّ رواية حبيب أقرب دلالة على ما ذكره .

قال بعد إيراد رواية ابن عباس ثم رواية حبيب : وقد أخذ بهذه الرواية بعض مفسري اللغة والمعقول ووضّحوا ما فيها من التعليل بأنه ﷺ لم يحدث له وقتئذ اضطراب ولا خوف ولا حزن ، وقواها بعضهم بأن الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور . وليس هذا بشيء .

وذهب آخرون إلى أن الضمير يعود إلى النبي ﷺ وأنّ إنزال السكينة عليه لا يقتضي أن يكون خائفاً أو مضطرباً أو منزعجاً . وهذا ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدالّ على وقوعه بعده وترتبته عليه ، وأنّ نزولها وقع بعد قوله لصاحبه : لا تحزن . انتهى .

أمّا ما ذكره من عدم طرّو خوف واضطراب عليه ﷺ وقتئذ فإن كانوا استفادوه من عدم ذكر شيء من ذلك في الآية أو في رواية معتمد عليها فكلامه تعالى في قصة حنين والحديبية أيضاً خال عن ذكر النبي ﷺ بخوف أو حزن أو اضطراب ، ولم ترد رواية

(١) صاحب المنار في تفسيره .

معتمد عليها تدلّ على ذلك فكيف استقام ذكر نزول السكينة عليه ﷺ فيهما؟! وإن قالوا باستلزام إنزال السكينة الاضطراب والخوف والحزن فهو ممنوع كما تقدم ، كيف؟ ونزول نعمة من النعم الإلهية لا يتوقف على سبق الاتصاف بحالة مضادة لها و نعمة مقابلة لها كنزول الرحمة بعد الرحمة والنعمة بعد النعمة والإيمان والهداية بعد الإيمان والهداية وغير ذلك ، وقد نصّ القرآن الكريم بأمر كثيرة من هذا القبيل .
وأما قوله : إن رجوع الضمير إلى النبي ﷺ ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدالّ على وقوعه بعده وترتبه عليه وأنّ نزولها وقع بعد قوله لصاحبه : لا تحزن . انتهى .

ففيه : أنه لا ريب أنّ فاء التفريع تدلّ على ترتب ما بعدها على ما قبلها و وقوعه بعده لكن بعدية رتبة لا بعدية زمانية ولم يقل أحد بوجود كونها زمانية دائماً .
فمن الواجب فيما نحن فيه أن يترتب قوله : « فأنزل الله سكينته عليه و أيده » على ما تقدم عليه من الكلام لاعلى ما هو أقرب إليه من غيره إلا على القول بأنّ الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور ، وقد ضعفه في سابق كلامه .

والذي يصلح من سابق ليتعلّق به التفريع المذكور هو قوله : فقد نصره الله في كذا وكذا وقتاً وتفرّع هذه الفروع عليه من قبيل تفرّع التفصيل على الإجمال والسياق على استقامته : « فقد نصره الله في وقت كذا فأنزل سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

فظهر أنّ ما أجاب به أخيراً هو عين ما ضعفه أولاً من حديث أصل قرب المرجع من الضمير - ذلك الأصل الذي لا أصل له - كرّمه ثانياً بتغيير ما في اللفظ .

ومن هنا يظهر جهة المناقشة في رواية أخرى رواها في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالك « قال : دخل النبي ﷺ وأبو بكر غار حراء فقال أبو بكر للنبي ﷺ لو أنّ أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك فقال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما إنّ الله أنزل سكينته عليك وأيدني بجنود لم تروها » .

على أنّ الرواية تدلّ على غار حراء وقد ثبت بالمستفيض المتكاثر من الأخبار أنّ الغار

كان غار ثور لا غار حراء .

على أن الرواية مشتملة على تفكيك السياق صريحاً بما فيها من قوله : أنزل سكينته عليك وأيدني بجنود ، الح .

وقد أورد الآلوسي في روح المعاني الرواية هكذا : « إن الله أنزل سكينته عليك وأيدك بجنود لم تروها » فأرجع الضميرين إلى أبي بكر دون النبي ﷺ .

ولا ندري أي اللفظين هو الأصل وإيهما المحرف غير أنه يضاف على رواية « وأيدك بجنود لم تروها » إلى ما ذكر من الإشكال آنفاً إشكالات أخرى تقدمت في البيان السابق مضافاً إلى إشكال آخر جديد من جهة قوله : « لم تروها » بخطاب الجمع ولا مخاطب يومئذ جمعاً .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً » يقول : غنيمة قريبة « لاتبعوك » .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحران وحماد بن مسلم ، عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » الآية إنهم يستطيعون وقد كان في علم الله أنه لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لفعلوا .

أقول : و رواه الصدوق في المعاني بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام مثله .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولكن بعدت عليهم الشقة » يعني إلى تبوك وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ لم يسافر سفراً أبعد منه ولا أشد منه .

و كان سبب ذلك أن الصيافة كانوا يقدمون المدينة من الشام ومعهم الدرهم والطعام ، وهم الأنباط فأشاعوا بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله ﷺ في عسكر عظيم ، وأن هرقل قد سار في جمع جنوده ، و جلب معهم غسان و جذام و بهراء و عاملة ، وقد قدم عساكره البلقاء ونزل هو حمص .

فأرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى تبوك وهي من بلاد البلقاء ، وبعث إلى القبائل

حواه ، وإلى مكة ، وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة فحشهم على الجهاد .
وأمر رسول الله ﷺ بعسكره فضرب في ثنية الوداع ، وأمر أهل الجدة أن يعينوا
من لا قوة به ؛ ومن كان عنده شيء أخرجه ، وحملوا وقوتاً وحشوا على ذلك .

وخطب رسول الله ﷺ وقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس إن أصدق
الحديث كتاب الله ، وأولى القول كلمة التقوى ، وخير الملل ملّة إبراهيم ، وخير السنن
سنّة عمّ ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عزائمها
وشرّ الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتلى الشهداء ، وأعمى العمى
الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشرّ العمى عمى القلب
واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، وشرّ المعذرة
محض الموت ، وشرّ الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزرأ ، ومنهم
من لا يذكر الله إلا هجراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذب ، وخير الغنى غنى النفس ،
وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما ألقى في القلب اليقين ، والارتياب
من الكفر ، والتباعد من عمل الجاهليّة ، والغلول من قبح جهنّم ، والسكر بجر النار ،
والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبايل إبليس ، والشباب شعبة من الجنون
وشرّ المكاسب كسب الربا ، وشرّ الأكل أكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقيّ
من شقي في بطن أمّه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى آخره
وملاك الأمر خواتيمه ، وأربى الربا الكذب ، وكلّما آت هو قريب ، وسباب المؤمن فسوق
وقتل المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن توكل
على الله كفاه ، ومن صبر ظفر ، ومن يعف الله عنه ، ومن كظم الغيظ أجره الله ، ومن
يصبر على الرزية يعوّضه الله ، ومن تبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصم يضاعف الله له ،
ومن يعص الله يعدّه به ؛ اللهم اغفر لي ولأمتي . اللهم اغفر لي ولأمتي أستغفر الله
لي ولكم .

قال : فرغب الناس في الجهاد لما سمعوا هذا من رسول الله ، وقدمت القبائل من

العرب ممن استنفرهم ، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم ، ولقي رسول الله ﷺ الجد بن قيس فقال له : يا أبا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة ؟ لعلك أن تحتفد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله والله إن قومي ليعلمون أن ليس فيهم أشدّ عجباً بالنساء مني وأخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر فلا تفتنني وائذن لي أن أقيم . وقال للجماعة من قومه : لا تخرجوا في الحرّ .

فقال ابنه : ترد على رسول الله ﷺ و تقول له ما تقول ثم تقول لقومك : لا تنفروا في الحرّ والله لينزلن الله في هذا قرآناً يقرؤه الناس إلى يوم القيامة فأنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . »

ثم قال الجد بن قيس : أبطم محمدان حرب الروم مثل حرب غيرهم . لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً .

أقول : وقد روي هذه المعاني في روايات أخرى كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفي العيون بإسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام فقال له : يا ابن رسول الله أليس من قولك : إن الأنبياء معصومون؟ قال : بلى؛ فقال له المأمون - فيما سأله - يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

قال الرضا عليه السلام : هذا مما نزل : إياك أعني واسمعي يا جارة ، خاطب الله تعالى بذلك نبيه وأراد به أمته ، وكذلك قوله عز وجل : « لئن أشركت ليجبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » ، وقوله تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » . قال : صدقت يا ابن رسول الله .

أقول : ومضمون الرواية ينطبق على ما قدّمناه في بيان الآية ، دون ما ذكره من كون إذنه ﷺ لهم في القعود من قبيل ترك الأولى فإنه لا يستقيم معه كون الآية

من قبيل «إيناك أعني واسمعي يا جارة» .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق في المصنف ؛ وابن جرير ، عن عمرو بن ميمون الأودي قال : اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى فأنزل الله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » الآية .

أقول : وقد تقدم الكلام على مضمون الرواية .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » الآية وما بعدها قال : وتختلف عن رسول الله ﷺ أهل نيات وبصائر لم يكن يلحقهم شك ولا ارتياب ولكنهم قالوا : نلحق برسول الله ﷺ .

منهم أبوخيثمة وكان قوياً و كان له زوجتان وعريشان ، و كانتا زوجته قد رشتا عريشته ، وبردتا له الماء ، وهياتا له طعاماً فأشرف على عريشته فلما نظر إليهما قال : لا والله ما هذا با نصاب ، رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قد خرج في الفيح والريح ، وقد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله ، وأبوخيثمة قوي قاعد في عريشة وامرأتين حسناوين لا والله ما هذا با نصاب .

ثم أخذ ناقته فشد عليها رحله و لحق برسول الله ﷺ فنظر الناس إلى ركب على الطريق فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة فأقبل ، وأخبر النبي بما كان منه فجزأه خيراً ودعا له .

وكان أبوذر تخلف عن رسول الله ﷺ ثلاثة أيام و ذلك أن جملة كان أعرج ، فلحق بعد ثلاثة أيام به و وقف عليه جملة في بعض الطريق فتركه و حمل ثيابه على ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر فقالوا : هو أبوذر فقال رسول الله ﷺ أدر كوه فإنته عطشان فأدر كوه بالماء .

ووافق أبوذر رسول الله ﷺ و معه إداة فيها ماء فقال رسول الله ﷺ : يا أبا ذر معك ماء وعطشت ؟ قال : نعم يا رسول الله بأبي أنت وأُمِّي انتهيت إلى صخرة عليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد فقلت : لا أشربه حتى يشرب رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : يا أباذر رحمك الله ، تعيش وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث

وحدك ، وتدخل الجنة وحدك ، يسعد بك قوم من أهل العراق يتولون غسلك وتجهيزك
والصلاة عليك و دفنك ،

ثم قال : وقد كان تخلف عن رسول الله ﷺ قوم من المنافقين و قوم من المؤمنين
مستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق : منهم كعب بن مالك الشاعر ومرة بن الربيع وهلال بن
أمية الزافعي فلما تاب الله عليهم قال كعب : ما كنت قط أقوى مني في ذلك الوقت
الذي خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وما اجتمعت لي راحلتان قط إلا في ذلك اليوم ،
و كنت أقول : أخرج غداً بعد غد فإني مهوى ، وتوانيت وثقلت بعد خروج النبي ﷺ
أياماً أدخل السوق ولا أفضي حاجة فلقيت هلال بن أمية ومرة بن الربيع و قد كانا
تخلفاً أيضاً فتوافقنا أن نبكر إلى السوق ؛ فلم نقض حاجة فما زلنا نقول : نخرج غداً وبعد
غد حتى بلغنا إقبال رسول الله ﷺ فندمنا .

فلما وافى رسول الله ﷺ استقبلناه نهينته السلامة فسلمنا عليه فلم يرد علينا
السلام و أعرض عنا ، و سلمنا على إخواننا فلم يردوا علينا السلام فبلغ ذلك أهلونا
فقطعوا كلامنا ؛ و كننا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد ولا يكلمنا فجاءت نساؤنا إلى
رسول الله ﷺ فقلن : قد بلغنا سخطك على أزواجنا أفنعتزلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ :
لا تعتزلنهم ولكن لا يقربوكن ،

فلما رأى كعب بن مالك وصاحبه ما قد حل بهم قالوا : ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلمنا
رسول الله ﷺ ولا إخواننا ولا أهلونا ؟ فهلموا نخرج إلى هذا الجبل فلا نزال فيه حتى
يتوب الله علينا أو نموت .

فخرجوا إلى زباب - جبل بالمدينة - فكانوا يصومون وكان أهلهم يأتونهم بالطعام
فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم ولا يكلمونهم .

فبقوا على هذا أياماً كثيرة يبكون بالليل والنهار ويدعون الله أن يغفر لهم فلما
طال عليهم الأمر قال لهم كعب : يا قوم قد سخط الله علينا ورسوله ، وقد سخط علينا أهلونا ،

وإخواننا قد سخطوا علينا فلا يكلمنا أحد فلم لا يسخط بعضنا على بعض؟ فتفرقوا في الجبل وحلفوا أن لا يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه فبقوا على ذلك ثلاثة أيام؛ وكل واحد منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلمه .

فلما كان في الليلة الثالثة ، ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة نزلت توبتهم على رسول الله ﷺ قوله : « لقد تاب الله بالنبي ﷺ على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » قال الصادق عليه السلام : هكذا نزلت وهو أبوذر وأبوخيثمة وعمير بن وهب الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله ﷺ .

ثم قال في هؤلاء الثلاثة : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » فقال العالم عليه السلام : إنما أنزل : على الثلاثة الذين خلفوا ولو خلفوا لم يكن عليهم عيب « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، حيث لا يكلمهم رسول الله ﷺ ولا إخوانهم ولا أهلهم فضاقت عليهم المدينة حتى خرجوا منها » وضاقت عليهم أنفسهم ، حيث حلفوا أن لا يكلم بعضهم بعضاً فتفرقوا وناب الله عليهم لما عرف من صدق نياتهم .

أقول : وسيأتي الكلام في الآيتين وما ورد فيهما من الروايات .

وفي تفسير العياشي عن المغيرة قال : سمعته يقول في قول الله عز وجل : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » ، قال : يعني بالعدة النية ، يقول : « لو كان لهم نية لخرجوا .

أقول : الرواية على ضعفها وإرسالها وإضمارها لا تنطبق على لفظ الآية والله أعلم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن الحسن البصري قال : كان عبد الله ابن أبي عبد الله بن نبتل ورفاعة بن زيد بن تابوت من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيد الإسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور » إلى آخر الآية .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَاِنْ جَهَنَّمَ
 لَمُحِيْطَةٌ بِالْكَافِرِيْنَ (٤٩) وَاِنْ تُصِْبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَاِنْ تُصِْبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُوْلُوْا
 قَدْ اَخَذْنَا اٰمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُوْنَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا اِلَّا مَا كَتَبَ
 اللّٰهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوْنَ بِنَا
 اِلَّا اِحْدَى الْحُسَيْنِيْنَ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ اَنْ يُصِيبَكُمْ اللّٰهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ اَوْ
 بِاَيْدِنَا فَتَرَبَّصُوْا اِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُوْنَ (٥٢) قُلْ اَنْفِقُوْا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ
 مِنْكُمْ اِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِيْنَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ اَنْ يَقْبَلُوْا مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ اِلَّا اَنْهُمْ
 كَفَرُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَاِلَّا يَأْتُوْنَ الصَّلَاةَ اِلَّا وَهُمْ كَسَالِيٌّ وَلَا يُنْفِقُوْنَ اِلَّا وَهُمْ
 كَارِهُوْنَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ اَمْوَالُهُمْ وَلَا اَوْلَادُهُمْ اِنَّمَا يَرِيْدُ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا
 فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ اَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُوْنَ (٥٥) وَيَحْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ اِنَّهُمْ
 لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَاَكْبَهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُوْنَ (٥٦) لَوْ يَجِدُوْنَ مَلْجَاً اَوْ مَفَارَاتٍ
 اَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا اِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُوْنَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَاِنْ
 اَعْطَوْا مِنْهَا رِضْوَانًا وَاِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا اِذَا هُمْ يَسْتَخَطُوْنَ (٥٨) وَاِنْ هُمْ
 رَضُوْا مَا آتَيْتَهُمُ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِنَا اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ
 اِنَّا اِلَى اللّٰهِ رَاغِبُوْنَ (٥٩) اِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِيْنِ وَالْعَامِلِيْنَ عَلَيْهَا
 وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوْبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِيْنَ وَفِي سَبِيْلِ اللّٰهِ وَابْنِ السَّبِيْلِ فَرِيْضَةٌ
 مِنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ (٦٠) وَمِنْهُمْ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ النَّبِيَّ وَيَقُوْلُوْنَ هُوَ اِذْنٌ

قُلْ اذْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ
وَاللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ
يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣).

﴿ بيان ﴾

الآيات تعقب القول في المنافقين و بيان حالهم و فيها ذكر أشياء من أقوالهم
و أفعالهم ، و البحث عما يكشف عنه من خبايا أوصافهم الباطنة و اعتقاداتهم المبنية
على الضلال .

قوله تعالى : « و منهم من يقول ائذن لي و لا تفتني ألا في الفتنة سقطوا » الآية
الفتنة هنا - على ما يهدي إليه السياق - إما الإلقاء إلى ما يفتن و يغرّ به ، و إما الإلقاء
في الفتنة و البلية الشاملة .

و المراد على الأوّل : ائذن لي في القعود و عدم الخروج إلى الجهاد ، و لا تلقني في
الفتنة بتوصيف ما في هذه الغزوة من نفائس الغنائم و مشتبهات الألفس فأفتتن بها و أضطرّ
إلى الخروج ، و على الثاني ائذن لي و لا تلقني إلى ما في هذه الغزوة من المحنة و المصيبة
و البلية .

فأجاب الله عن قولهم بقوله : « ألا في الفتنة سقطوا » و معناه أنهم يحترزون بحسب
زعمهم عن فتنة مترقبة من قبل الخروج ، و قد أخطؤوا فإنّ الذي هم عليه من الكفر
و النفاق و سوء السريرة ، و من آثاره هذا القول الذي تفوّهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها
فقد فتنهم الشيطان بالغرور ، و وقعوا في مهلكة الكفر و الضلال و فتنته .

هذا حالهم في هذه النشأة الدنيوية و أمّا في الآخرة فإنّ جهنم تحيطه بالكافرين

على حذو إحاطة الفتنة بهم في الدنيا وسقوطهم فيها فقوله : « ألا في الفتنة سقطوا » وقوله : « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » كأنهما معاً يفيدان معنى واحداً وهو أن هؤلاء واقعون في الفتنة والتهلكة أبدأ في الدنيا والآخرة .

ويمكن أن يفهم من قوله : « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » الإحاطة بالفعل دون الإحاطة الاستقبالية كما تهدي إليه الآيات الدالة على تجسّم الأعمال .

قوله تعالى : « إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك سيئة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل » المراد بالحسنة والسيئة بقرينة السياق ما تتمعه الحروب والمغازي لأهلها من حسنة الفتح والظفر والغنيمة والسبي ، ومن سيئة القتل والجرح والهزيمة .

وقوله : « يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل » كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجاً من أيديهم فأخذوه وقبضوا وتسلطوا عليه فلم يدعوهم يفسد ويضيع .

فمعنى الآية أن هؤلاء المنافقين هواهم عليك: إن غنمت وظفرت في وجهك هذا ساءهم ذلك ، وإن قتلت أو جرحت أو أصبت بأي مصيبة أخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل وتولوا وهم فرحون .

وقد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين في آيتين : قوله : « قل لن يصيبنا » الخ وقوله : « قل هل تربصون » الخ .

قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » محصله أن ولاية أمرنا إنما هي لله سبحانه فحسب - على ما يدل عليه قوله : « هو مولانا » من الحصر - لا إلى أنفسنا ولا إلى شيء من هذه الأسباب الظاهرة ، بل حقيقة الأمر لله وحده وقد كتب كتابه حتم ما سيصيبنا من خير أو شر أو حسنة أو سيئة ، وإذا كان كذلك فعلينا امتثال أمره والسعي لإحياء أمره والجهاد في سبيله والله المشيئة فيما يصيبنا في ذلك من حسنة أو سيئة فما على العبيد إلا ترك التدبير وامتثال الأمر وهو التوكل .

وبذلك يظهر: أن المراد بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ليس كلاماً مستأنفاً

بل معطوف على ما قبله متمم له ، والمعنى أن ولاية أمرنا لله ونحن مؤمنون به ، ولازمه أن نتوكل عليه ونرجع الأمر إليه من غير أن نختر لأفئدتنا شيئاً من الحسنه والسيئه فلو أصابتنا حسنة كان المن له وإن أصابتنا سيئه كانت المشيئة والخيرة له ، ولا لوم علينا ولا شامة تتعلق بنا ، ولا حزن ولا مساءة يطرق على قلوبنا .

وقد قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، الحديد : ٢٣ ، وقال : « ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله بهد قلبه ، التغابن : ١١ وقال : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا » سورة محمد : ١١ ، وقال : « والله ولي المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال : « فالله هو الولي » الشورى : ٩ .

والآيات - كما ترى - تتضمن أصول هذه الحقيقة التي تنبئ عنها الآية التي نتكلم فيها جواباً عن وهم المنافقين ، وهي أن حقيقة الولاية لله سبحانه ليس إلى أحد من دونه من الأمر شيء ، فإذا آمن الإنسان به وعرف مقام ربه علم ذلك و كان عليه أن يتوكل على ربه ويرجع إليه حقيقة المشيئة والخيرة فلا يفرح بحسنة أصابته ، ولا يحزن لسيئة أصابته .

ومن الجهل أن يسوء الإنسان ما أصاب عدوه من حسنة أو يسره ما أصابته من سيئة فليس له من الأمر شيء ، وهذا هو الجواب الأول عن مساءتهم بما أصاب المؤمنين من الحسنه وفرحهم بما أصابتهم من السيئة .

وظاهر كلام بعض المفسرين أن المولى في الآية بمعنى الناصر ، وكذا ظاهر كلام بعضهم : أن قوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » جملة مستأنفة أمر الله فيها المؤمنين بالتوكل عليه ، والسياق المشهود من الآيتين لا يساعد عليه .

قوله تعالى : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نترقبكم بكم » الآية الحسنيان هما الحسنه والسيئة على ما يدل عليه الآية الأولى الحاكية أنهم يسوؤهم ما أصاب النبي ﷺ من حسنة ، و تسرهم ما أصابه من سيئة فيقولون قد أخذنا أمرنا من قبل فهم على حال تربص ينتظرون ما يقع به وبالمؤمنين من الحسنه أو السيئة .

والحسنة والسيئة كلتاها حسنيان بحسب النظر الديني فإن في الحسنة حسنة الدنيا وعظيم الأجر عند الله ، وفي السيئة التي هي الشهادة أو أي تعب و عناء أصابهم مرضاة الله وثواب خالد دائم .

ومعنى الآية أننا نحن وأنتم كل يتربص بصاحبه غير أنكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحدة منهما خصلة حسنى وهما : الغلبة على العدو مع الغنيمة ، والشهادة في سبيل الله ، ونحن تتربص بكم أن يعذب بكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماوي أو بعذاب يجري بأيدينا كأن يأمرنا بقتالكم وتطهير الأرض من قذارة وجودكم فنحن فائزون على أي حال، إن وقع شيء مما تتربصتم سعدنا ، وإن وقع ما تربصنا سعدنا فتربصوا إننا معكم متربصون ، وهذا جواب ثان عن المنافقين .

وقد ذكر في الآية الأولى إصابة الحسنة والسيئة النبي ﷺ ، وفي مقام الجواب في الآيتين الثانية والثالثة إصابتهم النبي والمؤمنين جميعاً ملازمتهم إياه ومشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنة أو سيئة .

قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين » لفظ أمر في معنى الشرط . والترديد للتعميم ولفظ الأمر في هذه الموارد كناية عن عدم النهي ومد السبيل إيماءً إلى أن الفعل لغو لا يترتب عليه أثر ، وقوله : « لن يتقبل منكم » تعليل للأمر كما أن قوله تعالى : « إنكم كنتم قوماً فاسقين » تعليل لعدم القبول .

ومعنى الآية : لا نمنعكم عن الإنفاق في حال من طوع أو كره فإنه لغو غير مقبول لأنكم فاسقون ، ولا يقبل عمل الفاسقين ، قال تعالى : « إنما يتقبل الله من المتقين » المائدة : ٢٧ والتقبل أبلغ من القبول .

قوله تعالى : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، الخ الآية تعليل تفصيلي لعدم تقبل نفقاتهم ، وبعبارة أخرى بمنزلة الشرح لفسقهم ، وقد عدت الكفر بالله تعالى ورسوله والكسل في إقامة الصلاة و الكره في الإنفاق أركاناً لنفاقهم .

قوله تعالى : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها ، إلى آخر الآية ، الإعجاب بالشيء السرور بما يشاهد فيه من جمال أو كمال أو نحوهما ، والزهوق خروج الشيء بصعوبة وأصله الهلاك على ما قيل .

وقد نهى الله سبحانه نبيه ﷺ عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق ، وعدّل ذلك بأنّ هذه الأموال والأولاد - وهي شاغلة للإنسان لا محالة - ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة بل من النعمة التي تجرّهم إلى الشقاء فإنّ الله وهو الذي خولهم إياها إنما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا ، وتوفيئهم وهم كافرون .

فإنّ الحياة التي يعدّها الموجود الحيّ سعادة لنفسه وراحة لذاته إنما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها وهو أن يتلبّس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه ، فهذه هي الحياة التي لا موت فيها ، والراحة التي لا تعب معها ، واللذّة التي لا ألم دونها ، وهي الحياة في ولاية الله ، قال تعالى : « ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يونس : ٦٢ .

وأما من اشتغل بالدنيا وجذبته زيناتها من مال و بنين إلى نفسها وغرّته الآمال والأمانى الكاذبة التي تترأى له منها واستهوته الشياطين فقد وقع في تناقضات القوى البدنيّة وتزاحمات اللذائذ الماديّة ، وعذب أشدّ العذاب بنفس ما يرى فيه سعاده ولذته فمن المشاهد المعاین أنّ الدنيا كلّما زادت إقبالاً على الإنسان ، وامتّعت به بكثرة الأموال والأولاد أبعده عن موقف العبوديّة وقرّبه إلى الهلاكة وعذاب الروح فلا يزال يتقلّب بين هذه الأسباب المواقفة والمخالفة ، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة؛ فالذي يسمّيه هؤلاء المغفلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك كما قال تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، طه : ١٢٦ .

فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربّه ، وانكبابه على الدنيا يبتغي به سعادة الحياة

وراحة النفس ولذة الروح أن يعذب بين أطباق هذه الفتن التي يراها نعماً ، ويكفر بربه بالخروج عن زي العبودية كما قال : « إنما يريد الله ليعذب بهم بها وتزهق أنفسهم وهم كافرون » وهو الإيلاء والاستدراج الذين يذكروهما في قوله : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين » : الأعراف : ١٨٢ .

قوله تعالى : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم » إلى آخر الآيتين الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع ، والملجأ الموضع الذي يلتجأ إليه ويتحصن فيه ، والمغار المحل الذي يغور فيه الإنسان فيستره عن الأ نظار ، ويطلق على الغار وهو الثقب الذي يكون في الجبال ، والمدخل من الافتعال الطريق الذي يتدسس بالدخول فيه ، والجماح مضي المارة مسرعاً على وجهه لا يصرفه عنه شيء ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » المزمع العيب ، وإنما كانوا يعيونه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآية .

قوله تعالى : « ولو أنتمم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » إلى آخر الآية « لو » للتمني وقوله : « رضوا ما آتاهم الله » كأن الرضى ضمن معنى الأخذ ولذا عدى بنفسه أي أخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك ، والإيتاء الإعطاء ، وحسبنا الله أي كفانا فيما نرغب إليه ونأمله .

و قوله : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » بيان لما يرغب إليه ويطمع فيه و ليس إخباراً عما سيكون ، وقوله : « إننا إلى الله راغبون » كالتعليل لقوله : « سيؤتينا الله » إلى آخر الآية .

والمعنى وكان مما يتمنى لهم أن يكونوا أخذوا ما أعطاهم الله ورسوله بأمر منه من مال الصدقات أو غيره ، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب ونحن راغبون في فضله ونطمع أن يؤتينا من فضله ويؤتينا رسوله .

وفي الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الإيتاء إلى الله وإلى رسوله وخص الكفاية والفضل والرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد .

قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » الآية، بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبة وهي الزكوات بدليل قوله في آخر الآية : « فريضة من الله » وهي ثمانية . وورد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية و لازمه أن يكون الفقير والمسكين موردين أحدهما غير الآخر .

وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أتمهما صنف واحد أو صنفان ، ثم على الثاني في معناهما على أقوال كثيرة لا ينتهي أكثرها إلى حجة بيّنة ، والذي يعطيه ظاهر لفظهما أن الفقير هو الذي اتصف بالعدم وفقدان ما يرفع حوائجه الحيوية من المال قبال الغني الذي اتصف بالغنى وهو الجدة واليسار .

وأما المسكين فهو الذي حلت به المسكنة والذلة مضافة إلى فقدان المال وذلك إنما يكون بأن يصل فقره إلى حد يستدله بذلك كمن لا يجد بداً من أن يبذل ماء وجهه ويسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر و كالأعمى والأعرج فالمسكين أسوأ حالاً من الفقير . والفقير والمسكين وإن كانا بحسب النسبة أعم وأخص فكل مسكين من جهة الحاجة المالية فقير ولا عكس غير أن العرف يراهما صنفين متقابلين لكان مغايرة الوصفين في نفسها فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لكان أعميته وذلك أن المسكنة هي وصف الذلة كالزمانة والعرج والعمى وإن كان بعض مصاريفه نهاية الذلة من جهة فقد المال .

وأما العاملون عليها أي على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوة وجباتها .
وأما المؤلفة قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا أو يدفع بهم العدو أو يستعان بهم على حوائج الدين .

وأما قوله : « وفي الرقاب » فهو متعلق بمقدّر والتقدير : وللصرف في الرقاب أي في فكها كما في المكاتب الذي لا يقدر على تأدية ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرق الذي كان في شدة .

وقوله : « والغارمين » أي وللصرف في الغارمين الذين ركبتم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة .

وقوله : « وفي سبيل الله » أي وللصرف في سبيل الله ، وهو كل عمل عام يعود عائده إلى الإسلام والمسلمين وتحفظ به مصلحة الدين و من أظهر مصاريفه الجهاد في سبيل الله ، ويلحق به سائر الأعمال التي تعم نفعه و تشمل فائده كإصلاح الطرق و بناء القناطر و نظائر ذلك .

وقوله : « وابن السبيل » أي وللصرف في ابن السبيل وهو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به وإن كان غنياً ذاسار في بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاة .

وقد اختلف سياق العد في الآيات من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأول باللام : « للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفة قلوبهم » ثم غير السياق في الأربعة الباقية فقيل : « وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله و ابن السبيل » فإن ظاهر السياق الخاص بهذه الأربعة أن التقدير : « وفي الرقاب و في الغارمين وفي سبيل الله و في ابن السبيل » .

أما الأربعة الأول : « للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفة قلوبهم » فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرف فإن الآية بحسب السياق كالجواب عن المناقذين الذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقين لها و كانوا يلمزون النبي ﷺ في حرمانهم منها فأجيبوا بالآية أن للصدقات مواضع خاصة تصرف فيها ولا تتعداها ، و الآية ليست بظاهرة في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص .

وأما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقهاً ؟ وكذا حقيقة هذا الملك مع كون المالكين أصنافاً بعناوينهم الصنفية لازوات شخصية ؟ ونسبة سهم كل صنف إلى بقية السهام ؟ فإتعا هي مسائل فقهية خارجة عن غرضنا ، وقد اختلفت أقوال الفقهاء فيها اختلافاً شديداً فليرجع إلى الفقه .

وأما الأربعة الباقية : « وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله و ابن السبيل » فقد قيل في تغيير السياق فيها وفي تأخيرها عن الأربعة الأول وجوه :

منها : أن الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف ، فأحق الأصناف بها القراء ثم المساكين وهكذا على الترتيب ، ولكون الأربعة الأخيرة بحسب ترتيب الأحيية واقعة في المراتب الأربع الأخيرة وضع كل في موضعه الخاص ، ولولا هذا الترتيب لكان الأ نسب أن يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فيقال : للقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ثم يقال : وفي الرقاب وسبيل الله .

والحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم والتأخير على أهمية الملاك وقوة المصلحة في أجزاء الترتيب لا ريب فيه فإن كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكاً فالأهم فهو ، ولو كان المراد التقدم والتأخير من حيث الإعطاء والصرف وما يشبه ذلك فلادلالة من جهة اللفظ عليه البتة كما لا يخفى والذي أيده به من الوجه لاجدوى فيه .

ومنها : أن العدول عن اللام في الأربعة الأخيرة إلى « في » للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره لأن « في » للوعاء فبسه على أنهم أحق بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصعباً ، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أوالرق والأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم والتخليص والانقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال .

وتكرير « في » في قوله : « وفي سبيل الله وابن السبيل » فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين . كذا ذكره في الكشف .

وفيه : أنه معارض بكون الأربعة الأول مدخولة للام الملك فإن المملوك أشد لزوماً واتصلاً بالنسبة إلى مالكة من المظروف بالنسبة إلى ظرفه ، وهو ظاهر .

ومنها : أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً فكان دخول اللام لائقاً بهم ، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف إليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم .

فالل الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المالكاتون والبائعون فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما

هم محال لهذا الصنف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذمهم لالههم ، وأما سبيل الله فواضح ذلك فيه ، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل^(١) الله ، وإنما أُفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكنّه على القريب منه أقرب .

وهذا الوجه لا يخلو عن وجه غير أن إجراءه في ابن السبيل لا يخلو عن تكلف ، وما ذكر من دخوله في سبيل الله هو وجه مشترك بينه وبين غيره .

ولو قال قائل بكون الغارمين وابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الأول بالمعنى الذي ذكرناه وجهاً للترتيب والوجه الأخير وجهاً لاختصاص الرقاب وسبيل الله بدخول « في » لم يكن بعيداً عن الصواب .

وقوله في ذيل الآية : « فريضة من الله والله عليم حكيم » إشارة إلى كون الزكاة فريضة واجبة مشرعة على العلم والحكمة لاتقبل تغيير المغيّر ، ولا يبعد أن يتعلّق الفرض بتقسّمها إلى الأصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فإن الغرض في الآية إنما تعلّق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض أصلها فالأنسب أن يكون قوله : « فريضة من الله » إشارة إلى أن تقسّمها إلى الأصناف الثمانية أمر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في ملزهم النبي ﷺ .

ومن هنا يظهر أن الآية لا تخلو عن إشعار بكون الأصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافاً لما ذكره بعضهم : أن المؤلّفة قلوبهم كانوا جماعة من الأشراف في زمن النبي ﷺ أُلّف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إليهم ، وأما بعده ﷺ فقد ظهر الإسلام على غيره ، وارتفعت الحاجة إلى هذا النوع من التاليفات ، وهو وجه فاسد وارتفاع الحاجة ممنوع .

قوله تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم » الأذن جارحة السمع المعروفة ، وقد أطلقوا

(١) • بل هو أيضاً كالغارمين والرقاب لا يدفع إليه نصيبه وإنما يصرف في المصلحة المتعلقة

به من الزاد واكتراء الراحلة حتى يصل إلى وطنه (ب) .

عليه صلى الله عليه وسلم الأذن وسموه بها إشارة إلى أنه يصغي لكل ما قيل له ويستمع إلى كل ما يذكر له فهو أذن .

وقوله : « قل أذن خير لكم » من الإضافة الحقيقية أي سماع يسمع ما فيه خير كم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم ، ويسمع من المؤمنين النصيحة وفيها خير لكم ويمكن أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة أي أذن هي خير لكم لأنه لا يسمع إلا ما ينفعكم ولا يضركم .

والفرق بين الوجهين أن اللازم على الأول أن يكون مسموعه خيراً لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين ، واللازم على الثاني أن يكون استماعه استماع خير وإن لم يكن مسموعه خيراً كأن يستمع إلى بعض ما ليس خيراً لهم لكنه يستمع إليه فيحترم بذلك فائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحة فلا يهتك حرمة ولا يسيء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر .

ومن هنا يظهر أن الأناجب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله : « يؤمن بالله » ويؤمن للمؤمنين ، الآية .

وذلك أن الإيمان هو التصديق ، وقد ذكر متعلق الإيمان في قوله : « يؤمن بالله » و أما قوله : « و يؤمن للمؤمنين » فلم يذكر متعلقه وإنما ذكر أن هذا التصديق لنفع المؤمنين ملكان اللام ، والتصديق الذي يكون فيه نفع المؤمنين حتى في الخبر الذي يتضمن ما يضرهم إنما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبري دون الخبري أي فرض أن المخبر صادق بمعنى أنه معتقد بصدق خبره وإن كان كاذباً لا يطابق الواقع .

وهذا كما في قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » المنافقون : ١ فالله سبحانه يكذب المنافقين لا من حيث خبرهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم بل من حيث إخبارهم بخلاف ما يعتقدونه وهذا بخلاف قول المؤمنين فيما حكى الله سبحانه : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » الأحزاب : ٢٢ فهم يصدقون الله ورسوله في

الخبر لا في الاعتقاد .

وبالجملة ظاهر قوله : « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » أنه يصدق الله فيما أخبر به من الوحي ، ويصدق لنفع المؤمنين كل من ألقى إليه منهم خبراً بحمل فعله على الصحة وعدم رميه بالكذب وسوء النية من غير أن يرتب أثراً على كل ما يسمعه ويستمع إليه وإلا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين واختل الأمر ، وهذا المعنى كما ترى يؤيد الوجه الثاني المذكور .

و كأن المراد بالمؤمنين المجتمع المنسوب إليهم وإن اشتمل على أفراد من غيرهم كالمناققين وعلى هذا كان المراد بالذين آمنوا منهم المؤمنون من قومهم حقاً فمعنى الكلام أنه يصدق ربه ويصدق كل فرد من أفراد مجتمعكم احتراماً لظاهر حاله من الانتساب إلى المؤمنين وهو رحمة للذين آمنوا منكم حقاً لأنه يهديهم إلى مستقيم الصراط .
وإن كان المراد من الذين آمنوا هم الذين آمنوا في أول البعثة قبل الفتح - كما تقدم سابقاً أن « الذين آمنوا » اسم تشريفي في القرآن للمؤمنين الأولين في الإسلام - كان المراد بالمؤمنين في قوله : « يؤمن للمؤمنين » المؤمنون منهم حقاً كما أطلق بهذا المعنى في قوله : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله » الأحزاب : ٢٦ .

وربما قيل : إن اللام في قوله : « ويؤمن للمؤمنين » للتعدية كما في قوله : « يؤمن بالله » فالإيمان يتعدى بالحرفين جميعاً كما في قوله : « فأمن له لوط » العنكبوت : ٢٦ وقوله : « فما آمن موسى إلا ذرية من قومه » يونس : ٨٣ وقوله : « أنؤمن لك واتبعك الأرزلون » الشعراء : ١١١ .

وربما قيل : إن اللفظ جار على طريقة التضمن بتضمن الإيمان معنى الجنوح المتعدى باللام والمعنى يجنح للمؤمنين مؤمناً بهم أو يؤمن جانحاً لهم .
والوجهان وإن كانا لا بأس بهما في نفسهما لكن يبعد ذلك لزوم التفكيك في قوله « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » بين « يؤمن » الأول والثاني من غير نكتة ظاهرة إلا أن يحمل على التفتن في التعبير ومع ذلك فالنتيجة هي النتيجة السابقة فإن إيمانه بالمؤمنين

لا يختصّ بالمخبرين خاصة حتى يصدق خبرهم ويؤخذ آخرين إذا أخبر بما يضرهم بل إيمان يعمّ جميع المؤمنين فيصدق المخبر في خبره بمعنى إعطاء الصدق المخبري و يصدق المخبر عنه بحمل فعله على الصحة فافهم ذلك .

وعده تعالى نبيه في قوله : « ورحمة للذين آمنوا منكم ، رحمة لقوم خاص في هذه الآية مع عدمه رحمة للناس كلهم في قوله عز وجل : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، الأنبياء : ١٠٧ » إنما هو لاختلاف المراد بالرحمة في الآيتين فالمراد بها هنا الرحمة الفعلية وهناك الرحمة الشائبة .

وبعبارة أخرى هو صلى الله عليه وسلم رحمة لمن آمن به حقاً بمعنى أن الله سبحانه أنقذه به من الضلالة وختم له بالسعادة والكرامة، ورحمة للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ، من معاصريه و ممن يأتي بعده بمعنى أن الله بعثه صلى الله عليه وسلم بملة بيضاء وسنة طيبة فحوّل المجتمع البشري و صرفه عن مسيره المنحرف عن الاستقامة إلى طريق الشقاوة والهلاك ، وأثار بمشعلته صراط الفطرة الإلهية فمن ركب على السبيل فائز بالغاية المطلوبة ، ومن خارج عن مسير الردى والهلكة ولمّا يركب متن الصراط الفطري ، ومن قاصد للخروج والورود ولمّا يخرج وهذا حال المجتمع العام البشري بعد طلوع الإسلام و بسطه معارفه بين الناس وإيصاله إلى سمع كل سامع وتأثيره في كل من السنن الاجتماعية بما في وسعه أن يتأثر به ، وهذا ممّا لا يرتاب فيه باحث عن طبيعة المجتمع الإنساني ، وهذا الوجه قريب المأخذ من الوجه السابق أو راجع إليه بالحقيقة .

قوله تعالى : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » قال في المجمع : « الفرق بين الأحق والأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولك : زيد أحق بالمال ، والأصلح لا يقع هذا الموضع لأنّه من صفات الفعل وتقول : الله أحق بأن يطاع ولا تقول أصلح » . انتهى .

والسبب الأصلي فيه أن الصلاحية والصلوح يحمل معنى الاستعداد والتهيؤ ، والحق يحمل معنى الثبوت والمّزوم ، والله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد والقبول المستلزم لتأثير الغير فيه وتأثره عنه .

وقد حوّل الله الخطاب في الآية عن نبيه ﷺ إلى المؤمنين التفاتاً وكأنّ الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله : « والله ورسوله أحقّ أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » من الحكم وهو أنّ من الواجب على كل مؤمن أن يرضي الله ورسوله ، ولا يحادّ الله ورسوله فإنّ فيه خزيّاً عظيماً نار جهنّم خالداً فيها .

ومن أدب التوحيد في الآية ما في قوله : « أحقّ أن يرضوه » من أفراد الضمير ولم يقل : أحقّ أن يرضوهما صوتاً لتمامه تعالى من أن يعدل به أحد فإنّ أمثال هذه الحقوق وكذا الأوصاف التي يشار كنه تعالى غيره من حيث الإطلاق والإجراء ، له تعالى بالذات ولنفسه ولغيره بالتبع أو بالعرض ومن جهته كوجوب الإرضاء والتعظيم والطاعة وغيرها ، وكالاتصاف بالعلم والحياة والإحياء والإماتة وغيرها .

وقد روعي نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي ﷺ غيره من الأمة من الشؤون فأخرج النبي ﷺ من بينهم وأفرد بالذكر كما في قوله : « يوم لا يخزي الله النبيّ والذين آمنوا » التحريم : ٨ وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الفتح : ٢٦ وقوله : آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » البقرة : ٢٨٥ وغير ذلك .

قوله تعالى : « ألم يعلموا أنّهم يحادّوا الله ورسوله فإنّ له نار جهنّم » إلى آخر الآية قال في المجمع : المحادّة مجاوزة الحدّ بالمشاقّة ، وهي و المخالفة و المجانبة والمعاداة نظائر ، وأصله المنع والمحادّة ما يلحق الإنسان من النزق لأنّه يمنعه من الواجب وقال : والخزي الهوان وما يستحي منه . انتهى .

والاستفهام في الآية للتعجيب ، و الكلام مسوق لبيان كونه تعالى و كونه رسوله أحقّ بالإرضاء ومحصله أنّهم يعلمون أنّ محادّة الله ورسوله والمشاقة والمعاداة مع الله ورسوله والإسقاط يوجب خلود النار ، وإذا حرم إسقاط الله ورسوله وجب إرضاءه وإرضاء رسوله على من كان مؤمناً بالله ورسوله .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمى عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « وإن تصبك حسنة تسوهم وإن تصبك مصيبة » الآية أما الحسنه فهي الغنيمه والعافيه ، وأما المصيبة فالبلاد والشدة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبدالله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار السوء ، ويقولون : إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فسأهم ذلك فأنزل الله تعالى : « إن تصبك حسنة تسوهم » الآية .

وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له : قول الله عز وجل « هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » قال : إماموت في طاعة الإمام أو إدراك ظهور إمام « ونحن نتربص بكم » مع مانحن فيه من المشقة « أن يصيبكم الله بعذاب من عنده » قال : هو المسخ « أو بأيدينا » وهو القتل قال الله عز وجل لنبيته : « فتربصوا إننا معكم متربصون » .
أقول : وهو من الجري دون التفسير .

في المحاسن بإسناده عن يوسف بن ثابت عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لا يضر مع الإيمان عمل ، ولا ينفع مع الكفر عمل .

ثم قال : ألا ترى أن الله تبارك وتعالى قال : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله » .

أقول : ورواه العياشي والقمي عنه وكذا الكليني في الكافي عنه في حديث مفصل والرواية تبينها آيات وروايات أخرى فالإيمان مادام باقياً لا يضره معصية بايجاب خلود النار ، والكفر مادام كفراً لا ينفع معه حسنة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « مدحلاً » الآية قال : سرباً عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن غالب قال : قال أبو عبدالله عليه السلام يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية : « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » قال :

هم أكثر من ثلثي الناس .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره والحسين بن سعيد في كتاب الزهد عن إسحاق

عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : بينما النبي ﷺ يقسم قسماً إذ جاء ذو الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله فقال : ويلك و من يعدل إذا لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في نضيه فلا يرى فيه شيء ثم ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيء ، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرس والدم آيتهم رجل أسود إحدى ثديه - أو قال : ثديه - مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدرر يخرجون على حين فرقة من الناس قال : فنزلت فيهم : « ومنهم من يلمزك في الصدقات » الآية . قال أبو سعيد : أشهد أنني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و أشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي تفسير القمي في الآية : أنها نزلت لما جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنوا أن الرسول يقسمها بينهم فلما وضعها رسول الله ﷺ في الفقراء تغامزوا رسول الله ﷺ ولمزوه ، وقالوا : نحن الذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوي أمره ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئاً فأنزل الله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون » . ثم فسّر الله عز وجل الصدقات لمن هي وعلى من يجب ؟ فقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم و في الرقاب والغارمين و في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فأخرج الله من الصدقات جميع الناس إلا هذه الثمانية الأصناف الذين سماهم .

وبيّن الصادق عليه السلام من هم ؟ فقال : الفقراء هم الذين لا يسألون وعليهم مؤونات من عيالهم ، والدليل على أنهم لا يسألون قول الله تعالى في سورة البقرة : « للفقراء الذين أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .

والمساكين هم أهل الزمانة من العميان والعرجان والمجنونين وجميع أصناف الزمنى من الرجال والنساء والصبيان .

والعاملين عليها هم السعاة والجباة في أخذها وجمعها وحفظها حتى يؤدّها إليها إلى من يقسمها .

والمؤلفة قلوبهم قوم وحدوا الله ولم يدخل المعرفة قلوبهم أن تجداً رسول الله فكان رسول الله عليه السلام يتألفهم ويعلمهم كيما يعرفوا فجعل الله لهم نصيباً في الصدقات كي يعرفوا ويرغبوا .

أقول : وقد وردت في تأييد هذا الذي أرسله من الرواية روايات كثيرة مسندة من طرق أهل البيت عليهم السلام . وفي بعض الروايات تعارض ما ، و يرجع في تفصيل الروايات على كثرتها وتنقيح المطلب إلى جوامع الحديث و كتب الفقه .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : بعث علي بن أبي طالب من اليمن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بنهية فيها تربتها فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلي و علقمة بن علاثة العامري و عيينة بن بدر الفزاري و زيد الخيل الطائي ، فقالت قريش و الأنصار : أقمهم بين صنادر أهل نجد و تدعنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما أتألفهم .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يحيى ابن أبي كثير قال : المؤلفة قلوبهم من بني هاشم أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب ، ومن بني مخزوم الحارث بن هشام و عبدالرحمان بن يربوع و من بني أسد حكيم بن حزام ، و من بني عامر سهيل بن عمرو و حويطب بن عبدالعزي ، و من بني جمح صفوان بن أمية ، و من بني سهم عدي بن قيس ، و من ثقيف العلاء بن

جارية أو حارثة ، ومن بني فزارة عيينة بن حصن ، ومن بني تميم الأقرع بن حابس ، ومن بني نصر مالك بن عوف ، ومن بني سليم العباس بن مرداس .

أعطى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلَّ رجلٍ منهم مائة ناقةٍ إلا عبد الرحمن بن يربوع وحو يطب بن عبدالعزيز فإنه أعطى كلَّ واحدٍ منهما خمسين .

وفي تفسير القمّيّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : المؤلّفة قلوبهم : أبوسفیان بن حرب بن أمية وسهيل بن عمرو وهو من بني عامر بن لؤي ، وهشام بن عمرو وأخوه - : أخو بني عامر بن لؤي - وصفوان بن أمية بن خلف القرشي ثم الجمحي ، والأقرع بن حابس التميمي أحد بني حازم وعيينة بن حصن الفزاري ومالك بن عوف وعلقمة بن علاثة . بلغني أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعطي الرجل منهم مائة من الإبل ورعاتها وأكثر من ذلك وأقل .

أقول : وهؤلاء هم المؤلّفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تاليفاً لقلوبهم ، وليس المراد حصر المؤلّفة قلوبهم وهم صنف من الأصناف الثمانية المذكور في الآية في هؤلاء الأشخاص بأعيانهم .

وفي تفسير العيّاشي عن ابن إسحاق عن بعض أصحابنا عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضها قال : يؤدي من مال الصدقة إن الله يقول في كتابه : « وفي الرقاب » .

وفيه عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ : عبد زني ؟ قال : يجلّد نصف الحد ، قال : قلت : فإن هو عاد قال : يضرب مثل ذلك قال : قلت : فإن هو عاد ؟ قال : لا يزداد على نصف الحد . قال : قلت : فهل يجب عليه الرجم في شيء من فعله ؟ قال : نعم يقتل في الثامنة إن فعل ذلك ثمان مرّات .

قال : قلت : فما الفرق بينه وبين الحرّ وإنما فعلهما واحد ؟ فقال له : إن الله رحمه أن يجمع عليه ربق الرقّ وحد الحرّ . قال : ثم قال : وعلى إمام المسلمين أن يدفع ثمنه إلى مولاه من سهم الرقاب .

وفيه عن الصباح بن سيابة قال : أيما مسلم مات وترك ديناً لم يكن في فساد وعلى

إسراف فعلى الإمام أن يقضيه فإن لم يقضه فعليه إثم ذلك إن الله يقول : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين ، فهو من الغارمين وله سهم عند الإمام فإن حبسه فإثمه عليه .

وفيه عن محمد بن القسري عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الصدقة فقال : اقسمها فيمن قال الله ، ولا يعطى من سهم الغارمين الذين يغرمون في مهور النساء ولا الذين ينادون نداء الجاهلية قال : قلت : وما نداء الجاهلية ؟ قال : الرجل يقول : يا آل بني فلان فيقع بينهم القتل ولا يؤدى ذلك من سهم الغارمين ، ولا الذين لا يبألون ما صنعوا بأموال الناس .

وفيه عن الحسن بن محمد قال . قلت لأبي عبد الله عليه السلام إن رجلاً أوصى لي في السبيل قال : فقال لي : اصرف في الحج قال : قلت : إنته أوصى في السبيل ! قال : اصرفه في الحج فإني لا أعلم سبيلاً من سبله أفضل من الحج .

أقول : و الروايات في الباب أكثر من أن تحصى ، و إنما أوردنا منها ما يجري مجرى الأ نموذج .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي » الآية أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس إليه فيسمع ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذي قال لهم : إنما محمد أذن من حديثه شيئاً صدقه فأنزل الله فيه : « ومنهم الذين يؤذون النبي » ويقولون هو أذن ، الآية .

وفي تفسير القمي في الآية قال : سبب نزولها أن عبد الله بن نبتل كان منافقاً وكان يقعد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين فيتم عليه فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد إن رجلاً من المنافقين يتم وينقل حديثك إلى المنافقين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله من هو ؟ قال : الرجل الأسود الوجه الكثير شعر الرأس ينظر بعينين كأنهما قدران ، وينطق بلسان شيطان .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره فحلف أنه لم يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قد قبلت

منك فلا تفعل فرجع إلى أصحابه فقال : إنَّ محمداً أذن . أخبره الله أنني عليه وأنقل أخباره فقبله ، وأخبرته أنني لم أفل ولم أفعل فقبله !

فأنزل الله على نبيّه : « ومنهم الذين يؤذون النبيّ ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، أي يصدق الله فيما يقول له ، ويصدقكم فيما تعتذرون إليه ولا يصدقكم]-م في الباطن ، ويؤمن للمؤمنين يعني المقرّين بالإيمان من غير اعتقاد .
أقول : وروى ما يقرب منه في نهج البيان عن الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت وجحش بن حير ووديعه بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فنهى بعضهم بعضاً وقالوا : إننا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، وقال : بعضهم : إنَّ محمداً أذن نحلف له فيصدقنا فنزل : « ومنهم الذين يؤذون النبيّ ويقولون هو أذن ، الآية .

وفي تفسير العياشيّ عن حماد بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إنني أردت أن أستبضع فلاناً بضاعة إلى اليمن فأتيت إلى أبي جعفر عليه السلام فقلت : إنني أريد أن أستبضع فلاناً فقال لي : أما علمت أنه يشرب الخمر ؟ فقلت : قد بلغني من المؤمنين أنهم يقولون ذلك فقال : صدقهم إنَّ الله عز وجل يقول : « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » فقال : يعني يصدق الله ويصدق للمؤمنين لأنّه كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين .



يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا
 إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
 قُلِ ابُلَّهِمْ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ
 إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)
 الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
 وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَّ اللَّهُ
 الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ
 اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ
 أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ
 نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٤) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَاؤِا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤).

﴿ بيان ﴾

تذكر الآيات شأناً آخر من شؤون المنافقين، وتكشف عن سواة أخرى من سوءاتهم ستروا عليها بالنفاق، وكانوا يحذرون أن تظهر عليهم وتنزل فيها سورة تقص ما هموا به منها.

والآيات تنبئ عن أنهم كانوا جماعة ذوي عدد كما يدل عليه قوله: « إن نغف عن طائفة منكم نعدب طائفة » وأنه كان لهم بعض الاتصال والتوافق مع جماعة آخرين من المنافقين كما في قوله: « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » الآية وأنهم كانوا على ظاهر الإسلام والإيمان حتى اليوم وإنما نافقوا يومئذ أي تفوهوا بكلمة الكفر فيما بينهم وأسرّوا بها يومئذ كما في قوله: « قد كفرتم بعد إيمانكم ».

وأنهم تواطؤوا على أمر دبروه فيما بينهم فأظهروا عند ذلك كلمة الكفر وهموا على أمر عظيم فحال الله بينهم وبينه فخاب سعيهم ولم يؤثر كيدهم كما في قوله: « ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ».

وأنه ظهر مما هموا به بعض ما يستدل عليه من الآثار والقرائن فسئلوا عن ذلك فاعتذروا بما هو مثله قبلاً وشناعة كما في قوله: « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض

ونلعب ، والآيات التالية لهذه الآيات في سياق متصل منسجم تدلّ على أنّ هذه الواقعة أياً ما كانت وقعت بعد خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك ولما يرجع إلى المدينة كما يدلّ عليه قوله : « فإن رجعت الله إلى طائفة منهم » الآية آية ٨٣ من السورة : وقوله : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم » آية ٩٥ من السورة .

فيتلخص من الآيات أنّ جماعة ممن خرج مع النبي ﷺ تواطؤوا على أن يمكروا بالنبي ﷺ ، وأسرّوا عند ذلك فيما بينهم بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم ثمّ همّوا أن يفعلوا ما اتفقوا عليه بقتك أو نحوه فأبطل الله كيدهم وفضحهم وكشف عنهم فلمّا سئلوا عن ذلك قالوا : إنّما كنّا نخوض ونلعب فعاتبهم الله بلسان رسوله ﷺ بأنّه استهزاء بالله وآياته ورسوله ، وهدّدهم بالعذاب إن لم يتوبوا ، وأمر نبيّه ﷺ أن يجاهدهم ويجاهد الكافرين .

فآيات - كما ترى - أوضح انطباقاً على حديث العقبة منها على غيره من القصص التي تتضمّن الروايات الأخر الواردة في بيان سبب نزول الآيات ، و سنورد جلّها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبؤهم بما في قلوبهم ، إلى آخر الآية . كان المنافقون يشاهدون أنّ جلّ ما يستسرّون به من شؤون النفاق ؛ ويناجي به بعضهم بعضاً من كلمة الكفر ووجوه الهمز واللمز والاستهزاء أو جميع ذلك لا يخفي على الرسول ، ويتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبي ﷺ أنّه من وحي الله ، ولا محالة كانوا لا يؤمنون بأنّه وحي نزل به الروح الأمين على رسول الله ﷺ ، ويقدرّون أنّ ذلك ممّا يتجسّسه المؤمنون فيخبرون به النبي ﷺ صلى الله عليه وآله فيخرجه لهم في صورة كتاب سماوي نازل عليهم وهم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم وخروج ما خبوه في سرائرهم الخبيثة لأنّ السلطنة والظهور كانت للنبي ﷺ عليهم يجري فيهم ما يأمر به ويحكم عليه .

فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما أضمره من الكفر وهمّوا به من تقلب الأمور على النبي ﷺ وقصده بما يبطل به نجاح دعوته وتمام كلمته فأمر الله نبيّه ﷺ

أن يبلغهم أن الله عالم بما في صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه وظهوره بنزول سورة من عنده أي يخبرهم بأن الله منزل سورة هذا نعمتها .

وبهذا يستنير معنى الآية فقوله : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة » الخطاب للنبي ﷺ ووجه الكلام إليه ، وهو يعلم بتعليم الله أن هذا الكلام الذي يتلوه على الناس كلام إلهي وقرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذي يخاف منه المنافقون بما له من الوصف عند النبي ﷺ وهو أنه سورة منزلة من الله على الناس ومنهم المنافقون لا على ما يراه المنافقون أنه كلام بشري يدعى كونه كلام الله .

فهم كانوا يحذرون أن يتلو النبي ﷺ عليهم وعلى الناس كلاماً هذا نعمته الواقعي وهو أنه سورة منزلة عليهم بما أنها متوجهة بمضمونها إليهم قاصدة نحوهم ينبؤهم هذه السورة النازلة بما في قلوبهم فيظهر على الناس ويفشو بينهم ما كانوا يسرونه من كفرهم وسوء نيّاتهم ، وهذا الظهور في الحقيقة هو الذي كانوا يحذرونه من نزول السورة .

وقوله : « قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون » كأن المراد بالاستهزاء هو نفاقهم وما يلحق به من الآثار فإن الله سمى نفاقهم استهزاء حاكياً في ذلك قولهم حيث قال : « وإذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذ خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون » البقرة : ١٤ فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما يحذرون ظهوره ، و الأمر تعجيزي أي دوموا على نفاقكم وستركم ما تحذرون خروجه من عندكم إلى مرئي الناس ومسمعهم فإن الله مخرج ذلك وكشف عن وجهه الغطاء ، ومظهر ما أخفيتموه في صدوركم .

فصدر الآية وإن كان يذكر أنهم يحذرون تنزيل سورة كذا وكذا لكنهم إنما كانوا يحذرونها لما فيها من الأنباء التي يحذرون أن يطّلع عليها النبي ﷺ وتنجلي الناس ، وهذا هو الذي يذكر ذيلها أنهم يحذرونه فالكلام بمنزلة أن يقال : يحذر المنافقون تنزيل سورة قل إن الله منزلها ، أو يقال : يحذر المنافقون انكشاف باطن أمرهم وما في قلوبهم قل استهزؤوا إن الله سيكشف ذلك وينبئهم عما في قلوبكم .

وبما تقدّم يظهر سقوط ما أشكل على الآية أو لا بأن المنافقين لكفرهم في الحقيقة

لم يكونوا يرون أن القرآن كلام منزل من عند الله فكيف يصح القول إنهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة ؟

وثانياً : أنهم لما لم يكونوا مؤمنين في الواقع فكيف يصح أن يطلق أن سورة قرآنية نزلت عليهم ولا تنزل السورة إلا على النبي ﷺ أو على المؤمنين ؟
وثالثاً : أن حذرهم نزول السورة وهو حال داخلي جدي فيهم لا بجامع كونه استهزاء .

ورابعاً : أن صدر الآية يذكر أنهم يحذرون أن تنزل سورة وذيلها يقول : إن الله مخرج ما تحذرون فهو في معنى أن يقال : إن الله مخرج سورة أو مخرج تنزيل سورة . وقد يجاب عن الإشكال الأول بأن قوله : يحذر المنافقون الخ إنشاء في صورة خبر أي ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة الخ .

وهو ضعيف إذ لا دليل عليه أصلاً على أن ذيل الآية لا يلائم ذلك إذ لا معنى لقولنا : ليحذر المنافقون كذا قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون أي ما يجب عليكم حذره . وهو ظاهر .

وقد يجاب عنه بأنهم إنما كانوا يظهرون الحذر استهزاءً لاجدأً وحقيقة . وفيه أن لازمه أنهم كانوا على ثقة بأن ما في قلوبهم من الأبناء وما أبطنوه من الكفر والفسوق لاسبيل للظهور والإجلاء إليه ، ولا طريق لأحد إلى الاطلاع عليه ، ويكذب به آيات كثيرة في القرآن الكريم تقص ما عقدوا عليها القلوب من الكفر والفسوق وهموا به من الخدعة والمكيدة كآيات من سورة البقرة وسورة المنافقين وغيرها ، وإن كانوا شاهدوا ظهور أنبائهم ومطويات قلوبهم عياناً مرة بعد مرة فلا معنى لثقتهم بأنهم لا تنكشف أصلاً وإظهارهم الحذر استهزاءً لاجدأً ، وقد قال تعالى : « يحسبون كل صيحة عليهم » المنافقون : ٤ .

وقد يجاب عنه بأن أكثر المنافقين كانوا على شك من صدق الدعوة النبوية من غير أن يستيقنوا كذبه ، وهؤلاء كانوا يجوزون تنزيل سورة تنبؤهم بما في قلوبهم احتمالاً عقلياً ، وهذا الحذر والإشفاق كما ذكره أثر طبيعي للشك والارتياب فلو كانوا موقنين بكذب الرسول ﷺ لما خطر لهم هذا الخوف على بال ، ولو كانوا موقنين بصدقه لما كان هناك

محلّ لهذا الخوف والحذر لأنّ قلوبهم مطمئنّة بالإيمان .

وهذا الجواب - وهو الذي اعتمد عليه جمهور المفسرين - وإن كان بظاهره لا يخلو عن وجه غير أنّ فيه أنّه إنّما يحسم مادّة الإشكال لو كان الواقع من التعبير في الآية نحواً من قولنا : يخاف المنافقون أن تنزل عليهم سورة ، ولذا قرروا الجواب بأنّ الخوف يناسب الشكّ دون اليقين .

لكنّ الآية تعبّر عن شأنهم بالحذر ، ويخبر أنّهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة النخ والحذر فيه شيء من معنى الاحتراز والانتقاء ، ولا يتمّ ذلك إلا بالتوسّل إلى أسباب ووسائل تحفظ الحازر ممّا يحذره ويحترز منه ، وتصونه عن شرّ مقبل إليه من ناحية ما يخافه .

ولو كان مجرد شكّ من غير مشاهدة أثر من الآثار وإصابة شيء ممّا يتقونه إبتاهم لما صحّ الاحتراز والانتقاء ، فحذرهم يشهد أنّهم كانوا يخافون أن يقع بهم هذه المرّة نظير ما وقع بهم قبل ذلك من جهة آيات البقرة وغيرها ، فهذا هو الوجه لحذرهم دون الشكّ والارتياب فالمتعمد في الجواب ماقدّمناه .

وقد يجاب عن الإشكال الثاني بأنّ « على » في قوله : « أن تنزل عليهم » بمعنى : في كما في قوله : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » البقرة : ١٠٢ و المعنى : يحذر المنافقون أن تنزل فيهم أي في شأنهم و بيان حالهم سورة تكشف عمّا في ضمائرهم . وفيه أنّه لا بأس به لولا قوله بعده : « تنبؤهم بما في قلوبهم » على ما سنوضحه .

وقد يجاب عنه بأنّ الضمير في قوله : « عليهم » راجع إلى المؤمنين دون المنافقين والمعنى : يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تنبؤ المنافقين بما في قلوب المنافقين أو تنبؤ المؤمنين بما في قلوب المنافقين .

وردّ عليه بأنّه يستلزم تفكيك الضمائر . ورفع بأنّ تفكيك الضمائر غير ممنوع ولا أنّه مناف للبلاغة إلا إذا كان المعنى معه غير مفهوم ، وربما أيد بعضهم هذا الجواب بأنّه ليس ههنا تفكيك للضمائر فإنّه قد سبق أنّ المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوهم ثمّ وبخهم الله بأنّ الله ورسوله أحقّ أن يرضوه إن كانوا مؤمنين فقد بين ههنا بطريقة الاستئناف

أنهم يحذرون أن تنزل على المؤمنين سورة تنبؤهم بما في قلوبهم فتبطل ثقتهم بهم فأعيد الضمير إلى المؤمنين لأن سياق الكلام فيهم فلا أثر من التفكيك .

وفيه أن من الواضح الذي لا يرتاب فيه أن موضوع الكلام في هذه الآيات و آيات كثيرة مما يتصل بها من قبل ومن بعد ، هم المنافقون ، والسياق سياق الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله لاغيره ، وإنما كان خطاب المؤمنين في قوله : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم خطاباً التفاتياً للتنبية على غرض خاص أو أماناً إليه ثم عاد الكلام إلى سياقها الأصلي من خطاب النبي صلى الله عليه وآله بتبديل خطابهم إلى خطابه فلامعنى لقوله : إن سياق الكلام في المؤمنين .

ولو كان السياق هو الذي ذكره لكان من حق الكلام أن يقال : أن تنزل عليكم سورة تنبؤكم بما في قلوبهم ، فما معنى العدول إلى ضمير الغيبة ، ولم يتقدم في سابق الكلام ذكر لهم على هذا النعت ؟

على أن قوله : إن الآية - يحذر المنافقون - بيان من طريق الاستئناف لسبب حلقهم للمؤمنين ليرضوهم؛ إخراج لهذه الطائفة من الآيات من استقلال غرضها الأصلي الذي بحثنا عنه في أول الكلام ، ويختل بذلك ما يتراءى من فقرات الآيات من الاتصال والارتباط .

فالأية - يحذر المنافقون الخ - ليست بياناً لسبب حلقهم المذكور سابقاً بل استئناف مسوق لغرض آخر يهدي إليه مجموع الآيات الإحدى عشرة .
وبالجملة الآيات السابقة على هذه الآية خالية عن ذكر المؤمنين ذكراً يوجب انعطاف الذهن إليه حينما يلقي ضميراً يمكن عوده إليهم وهذا هو التفكيك المذكور ، وهو مع ذلك تفكيك ممنوع لا يجابه إبهاماً في البيان ينافي بلاغته .

والحق أن الضمير في قوله : « أن تنزل عليهم » للمناققين - كما تقدمت الإشارة إليه - ولا بأس بأن يسمّى تنزيل سورة لبيان حالهم وذكر مثالبهم وتوبيخهم على نفاقهم تنزيلاً للسورة عليهم وهم في جماعة المؤمنين غير متميزين منهم كما عبّر بنظير التعبير في مورد المؤمنين حيث قال : « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة

يفظكم به ، البقرة : ٢٣١ .

وقد أتى سبحانه بنظير هذا التعبير في أهل الكتاب حيث قال : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » النساء : ١٥٣ ، وفي المشر كين حيث حكى عنهم قولهم : « ولن نؤمن لرفيقك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » أسرى : ٩٣ ، وليست نسبة المنافقين وهم في المؤمنين إلى نزول القرآن عليهم بأبعد من نسبة المشر كين وأهل الكتاب إلى نزوله عليهم ، والنزول والإنزال و التنزيل يقبل التعدّي بالي بعناية الإتهاء وبعلى بعناية الاستعلاء والإتيان من العلو ، والتعدية بكل واحد منهما كثير في تعبيرات القرآن ، والمراد بنزول الكتاب إلى قوم وعلى قوم تعرّضه لشؤونهم وبيانه لما ينفعهم في دنياهم وأخراهم .

وقد يجاب عن الإشكال الثالث بأن قوله تعالى : « قل استهزؤا ، دليل على أنهم كانوا يستهزؤون بالحنذر ولم يكن من جدّ الحنذر في شيء .

وفيه أن الآيات الكثيرة النازلة في سورة البقرة و النساء وغيرها - وكل ذلك قبل هذه الآيات نزولاً - المخرجة لكثير من خبايا قلوبهم الكاشفة عن أسرارهم تدل على أن هذا الحنذر كان منهم على حقيقته من غير استهزاء وسخرية .

على أنه تعالى وصفهم في سورة المنافقون بمثل قوله : « يحسبون كل صيحة عليهم ، المنافقون : ٤ ، وقال في مثل ضربه لهم وفيهم : « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » البقرة : ٢٥ وقد ذكر في الآية التالية .

والحق أن استهزاءهم إنما هو نفاقهم وقولهم في الظاهر خلاف ما في باطنهم كما يؤيده قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون » البقرة : ١٤ .

والجواب عن الإشكال الرابع أن الشيء الذي كانوا يحذرونه في الحقيقة هو ظهور نفاقهم وإنكشاف ما في قلوبهم ، وإنما كانوا يحذرون نزول السورة لأجل ذلك فالحنذر الذي ذكر في صدر الآية والذي في ذيل الآية أمر واحد ، ومعنى قوله « إن الله مخرج ما تحذرون » أنه مظهر لما أخفيتموه من النفاق ومنبئ لما في قلوبكم .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته و

ورسوله كنتم تستهزؤون ، الخوض - على ما في المجمع - دخول القدم فيما كان مائعا من الماء والطين ثم كثر حتى استعمل في غيره .

وقال الراغب في المفردات : الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ، ويستعار في

الأمر ، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه . انتهى .

ولم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال وأن المسؤول عنه الذي إن سأل النبي ﷺ سأل عنه ما هو ؟ غير أن قوله : « ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » بماله من السياق المصدر بما إنما يدل على أنه كان فعلاً صادراً منهم له نوع تعلق بالنبي ﷺ ، وكان أمرأئياً يسيء الظن بهم ، ولم يكن في وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين وانكشف للنبي ﷺ إلا بأنه إنما كان منهم خوفاً ولعباً لم يريدوا به غير ذلك .

و الخوض و اللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيئة التي لا يعترف بهما الناس في حالهم العادي وخاصة المؤمنون و سائر المتظاهرين بالإيمان وخاصة إذا كان ذلك في أمر يرجع إلى الله ورسوله غير أنهم لم يجدوا وصفاً يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه ، دون أن يعنونوه بأنه كان خوفاً ولعباً .

ولذا أمر نبيه ﷺ أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال : « قل أبا لله و آياته و رسوله كنتم تستهزؤون » ثم فسّر عملهم في آخر الآيات بقوله : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا » الآية .

ويتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبي ﷺ بسوء كالكفتك به ومفاجأته بما يهلكه وأقدموا على ما قصدوه وتكلموا عند ذلك بشيء من الكلام الردي لكنهم أخطؤوا في ما أوقعوه عليه واندفع الشر عنه ، ولم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم وبان أمرهم سألهم النبي ﷺ عن ذلك وما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون فوبخهم النبي ﷺ بقوله : « أبا لله و آياته ورسوله كنتم تستهزؤون » ورد الله سبحانه إليهم عندهم الذي اعتذروا به وبيّن حقيقة ما قصدوا بذلك .

وبالجملة معنى الآية : وأقسم لمن سألتهم عن فعلهم الذي شوهد منهم : ما الذي أرادوا به؟ وكان ظاهره أنهم هموا بأمر فيك . ليقولن : لم يكن قصد سوء ولا بالذي ظننت

فَأَسَأْتِ الظَّنَّ بِنَا ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ خَوْضَ الرِّكْبِ فِي الطَّرِيقِ لَا عَلَى سَبِيلِ
الْجِدِّ وَلَكِنْ لَعِبَاءً .

وهذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله فأنتهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك
ما فعلوه خوفاً ولعباً فقد استهزؤوا بالله ورسوله فقل : أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون
أي أتعذبون عن سيئتي فعلكم بسيئتي أخرى هي الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ، و هو
كفر ؟

وليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول ، وإنما
ذكر الله وآياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول ، وأنه لما كان من آيات الله كان
الاستهزاء به استهزاء بآيات الله ، والاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء
برسول الله استهزاء بالله وآياته ورسوله .

قوله تعالى : « لَاتَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ
طَائِفَةً » الآية قال الراغب في المفردات : الطوف المشي حول الشيء ومنه الطائف لمن
يدور حول البيوت حافظاً - إلى أن قال - و الطائفة من الناس جماعة منهم و من الشيء
القطعة منه .

وقوله تعالى : « فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » قال بعضهم:
قد يقع ذلك على الواحد فصاعداً ، و على ذلك قوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ هَمَّتْ
طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ ،

و الطائفة إذا أريد بها الجمع فجمع طائف ، « و إذا أريد بها الواحد فيصح أن
يكون جمعاً ويكتسى به عن الواحد ، ويصح أن يجعل كراوية و علامة ونحو ذلك . انتهى
وقد خطأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفة على الواحد والاثنين من الناس كما
تصدق على الثلاثة فصاعداً ، وبالغ في ذلك حتى عدّه غلطاً ولا دليل له على ما ذكره ، و
مادة اللفظ لا يستوجب شيئاً معيناً من العدد ، و إطلاقها على القطعة من الشيء يؤيد
استعمالها في الواحد .

وقوله : « لَاتَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » نهي عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما

يدلّ عليه قوله : « قد كفرتم بعد إيمانكم » فإنّ الاعتذار لافائدة تترتب عليه بعد الحكم بكفرهم بعد إيمانهم .

و المراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الذي كانوا يتظاهرون به لا حقيقة الإيمان الذي هو من الهداية الإلهية التي لا يعقبها ضلال ، ويؤيده قوله تعالى في آخر هذه الآيات : « ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم » فبدل الإيمان إسلاماً وهو ظاهر الشهاداتتين .

و يمكن أن يقال : إنّ من مراتب الإيمان ما هو اعتقاد وازعان ضعيف غير آجب عن الزوال كما يمان الذين في قلوبهم مرض وقد عدّهم الله من المؤمنين و ذكرهم مع المنافقين لامنهم ، ولا مانع من أن ينسلخوا هذا الإيمان .

وكيف لا ؟ وقد سلخ الله الإيمان ممن هو أرسخ إيماناً منهم كالذي يقصّه في قوله :
« وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولوشئنا لرفعناه بها ولكنّه أخذ إلى الأرض واتبع هواه » الأعراف : ١٧٦ .

وقال أيضاً : « إنّ الذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً » النساء : ١٣٧ وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الإيمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبي قبل رسوخه وهو اعتقاد .

نعم الإيمان المستقرّ والاعتقاد الراسخ لا سبيل إلى عروض الزوال له قال تعالى :
« من يهدي الله فهو المهتدي » الأعراف : ١٧٨ وقال : « فإنّ الله لا يهدي من يضلّ » النحل : ٣٧ .

و قوله : « إنّ نفع عن طائفة منكم نعدّب طائفة » يدلّ على أنّ هؤلاء المنافقين المذكورين في الآيات كانوا ذوي عدد وكثرة ، وأنّ كلمة العذاب وقعت عليهم لا بدّ لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهي لمصلحة في ذلك وقع العذاب على الباقيين فهذا معنى الجملة : « إنّ نفع عن طائفة منكم نعدّب طائفة » بحسب ما يفهم من نظمه وسياقه .
وبعبارة أخرى رابطة اللزوم بين الشرط والجزاء بترتّب الجزاء وتفترعه على الشرط إنّما هي بالتبعية وأصله ترتّب الجزاء ههنا على أمر يتعلّق به الشرط وهو أنّ العذاب

وجب على جماعتهم فإن عفي عن بعضهم تعيين الباقيون من غير تخلف .
وقد ظهر بما قدمناه أولاً : وجه ترتب قوله : « نعدب طائفة » على قوله : « إن
نعف عن طائفة » واندفع ما استشكله بعضهم على الآية أنه لا ملازمة بين العفو عن البعض
وعذاب البعض فما معنى الاشتراط ؟

والجواب : أن اللزوم بحسب الأصل بين وجوب نزول العذاب على الجماعة وبين
نزوله على بعضهم ثم انتقل إلى ما بين العفو عن البعض و بين نزوله على بعضهم كما
قررناه .

و ثانياً : أن المراد بالعفو هو ترك العذاب لمصلحة من مصالح الدين دون العفو بمعنى
المغفرة المستندة إلى التوبة إذ لا وجه ظاهراً لمثل قولنا : إن غفرنا لطائفة منكم لتوبتهم
نعدب طائفة لجرمهم مع أنهم لو تابوا جميعاً لم يعدبوا قطعاً .

وقد ندب الله إليهم جميعاً أن يتوبوا حيث قال في آخر الآيات : « فإن يتوبوا يك
خيراً لهم وإن يتولوا يعدبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة » .

وثالثاً : أن العفو في الآية بل والعذاب المذكور فيها هو العفو عن العذاب الديني
وتركها وكذا القول في العذاب فإن العفو من العذاب الأخروي على ما تنص عليه
الآيات القرآنية إنما يكون لتوبة أو شفاعاة ، ولا تحقق واحد منهما فيما نحن فيه أما
التوبة فلما تبين أنها غير مرادة في الآية ، وأما الشفاعاة فلما ثبت بآيات الشفاعاة أن
الشفاعة لا ينالها في الآخرة إلا مؤمن مرضي الإيمان ، وقد استوفينا البحث عنها في الجزء
الأول من الكتاب .

ورابعاً : أنه لا مانع من كون الآية أعني قوله : « لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم
إن نعف عن طائفة » الآية من تتمّة كلام النبي ﷺ فإن المراد بالعفو والعذاب هو
العذاب الديني بالسياسة وتركه ، ولا مانع من نسبتها إلى النبي ﷺ .

لكن ظاهر الآيات التالية هو كونه من قول الله سبحانه خطاباً للمنافقين فيكون
التفاتاً من خطاب النبي ﷺ إلى خطابهم والنكته فيه إظهار كمال الغضب واشتداد السخط
من صنعهم حتى كأنه لا يفي بإيدانه وإعلامه الرسالة فواجههم بنفسه و خاطبهم بشخصه

فهدّدهم بعذاب واقع لامرئذله ولا مفرّ منه .

قوله تعالى : « المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض » إلى آخر الآيتين؛ إذ كروا أنّه استئناف يتعرّض لحال عامّة المنافقين بذكر أوصافهم العامّة الجامعة وتعريفهم بها وما يجازيهم الله في عاقبة أمرهم ثمّ يتعرّض لحال عامّة المؤمنين ويعرّفهم بصفتهم الجامعة ويدكر ما ينسبهم الله به على سبيل المقابلة استتماماً للقسمّة ، ومن الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفّار مع المنافقين في قوله : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفّار » الآية . والظاهر أنّ الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « إن نعت عن طائفة منكم نعتب طائفة » وسياق مخاطبة المنافقين جار لم ينقطع بعد .

فلاّية السابقة لما دلّت على أنّه تعالى لا يترك المنافقين حتّى يعذبهم بأجرامهم فإن ترك بعضاً منهم لحكمة ومصالحة أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنة أن يسأل فيقال : ما وجه أخذ البعض إذا ترك غيره ؟ وهل هو إلاّ كأخذ الجار بجرم الجار فأجيب ببيان السبب وهو أنّ المنافقين جميعاً بعضهم من بعض لا اشتراكهم في خبائث الصفات والأعمال ، واشتراكهم في جزاء أعمالهم وعاقبة حالهم .

ولعلّه ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهنّ للدلالة على كمال الاتّحاد والاتّفاق بينهم في نفسيّتهم ، وليكون تلويحاً على أنّ من النساء أيضاً أجزاء مؤثّرة في هذا المجتمع النفاقيّ الفاسد المفسد .

فمعنى الآية لا ينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين إذا ترك البعض الآخر لأنّ المنافقين والمنافقات يحكم عليهم نوع من الوحدة النفسية بوحّد كثرتهم فيرجع بعضهم إلى بعض ، فيشرّكهم في الأوصاف والأعمال وما يجازون به بوعد من الله تعالى .

فهم يأمرّون بالمنكر وينهون عن المعروف ويمسكون عن الإنفاق في سبيل الله وعبارة أخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنّهم فاسقون خارجون عن زبيّ العبوديّة فنسيهم الله فلم يشبههم بما أثاب عباده الذاكرين مقام ربهم .

ثمّ ذكر ما وعدهم على ذلك فقال : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفّار - وعطّف عليهم

الكفار لأنهم جميعاً سواء - نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم، من الجزاء لا يتعدى فيهم إلى غيرها «ولعنهم الله» وأبعدهم «ولهم عذاب مقيم» ثابت لا يزول عنهم البتة .

وقد ظهر بذلك أن قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » الخ بيان لما تقدمه من قوله : « يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم » .

ويتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإفراق في سبيل الله من الذكر .

قوله تعالى : « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلافهم » الخ قال الراغب : الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلافه قال تعالى : « وما له في الآخرة من خلاق » انتهى وفسره غيره بمطلق النصيب .

والآية من تممة مخاطبة المنافقين التي في قوله : « لانعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » الآية في سياق واحد متصل وفي الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار والمنافقين وقياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل : أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض وأنهم جميعاً والكفار زووا طبيعة واحدة في الإعراض عن ذكر الله والإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال وأولاد والخوض في آيات الله ثم في حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة والخسران .

ومعنى الآية - والله أعلم - أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوة وأموال وأولاد بل أشد وأكثر في ذلك منكم ، فاستمتعوا بنصيبهم وقد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما استمتعوا وخضتم كما خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون وأنتم أيضاً أمثالهم في الحبط والخسران ولذا وعدكم النار الخالدة ولعنكم .

وذكر كون قوة من قبلهم أشد وأموالهم وأولادهم أكثر للإيماء إلى أنهم لم يعجزوا الله بذلك ، ولم يدفع ذلك عنهم غائلة الحبط والخسران فكيف بكم وأنتم أضعف قوة وأقل أموالاً وأولاداً ؟

قوله تعالى : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات » الآية رجوع إلى السياق الأول وهو سياق مخاطبة النبي ﷺ مع اقتراض الغيبة في المنافقين ، وتذكير لهم بما قص عليهم القرآن من قصص الأمم الماضية .

فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق ، و عاد وهم قوم هود أهلهم بريح صرصر عاتية ، و ثمود وهم قوم صالح عذبهم بالرجفة ، وقوم إبراهيم أهلهم ملكهم نمرود و سلب عنهم النعمة ، والمؤتفكات وهي القرى المنقلبات على وجهها - من اثنتفكت الأرض إذا انقلبت - قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها .

وقوله : « أتتهم رسلمهم بالبينات » أي بالواضحات من الآيات والحجج والبراهين وهو بيان إجمالي لنبأهم أي كان نبأهم أن أتتهم رسلمهم بالآيات البينة فكذبوها فانتهى أمرهم إلى الهلاك ، ولم يكن من شأن السنة الإلهية أن يظلمهم لأنه يسن لهم الحق والباطل ، ويميز الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ولكن كان أولئك الأقوام والأمة أنفسهم بظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا والخوض في آيات الله وتكذيب رسله .

قوله تعالى : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » الآية . ثم وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامة محازاة لما وصف به المنافقين فقال : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ليدل بذلك على أنهم مع كثرتهم وتفرقتهم من حيث العدد ومن الذكورة والأنوثة ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض ويدبره .

ولذلك كان يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف و ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر فلولاية بعض المجتمع على بعض ولاية سارية في جميع الأبعاض دخلا في تصديهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم أنفسهم .

ثم وصفهم بقوله : « وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » وهما الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين الله وبين خلقه ، والزكاة في المعاملات

التي هي رابطة بين الناس أنفسهم .

ثم وصفهم بقوله : « ويطيعون الله ورسوله » فجمع في إطاعة الله جميع الأحكام الشرعية الإلهية وجمع في إطاعة رسوله جميع الأحكام الولاية التي يصدرها رسوله في إدارة أمور الأمة وإصلاح شؤونهم كفرامينه في الغزوات ، وأحكامه في القضايا وإجراء الحدود وغير ذلك .

على أن إطاعة شرائع الله النازلة من السماء من جهة أخرى منطوية في إطاعة الرسول فإن الرسول هو الصادر بالحق القائم بالدعوة إلى أصول الدين وفروعه .

وقوله : « أولئك سيرحهم الله » إخبار عما في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر ، وكأن في هذه الجملة محاذة لما سرد في المناقنين من قوله تعالى : « نسوا الله فنسيتهم » والظاهر أيضاً أن قوله : « إن الله عزيز حكيم » تعليل لما ذكر من الرحمة فلا مانع من رحمته لعزته ، ولا اختلال أو وهناً وجزافاً لحكمته .

قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار إلى آخر الآية ، العدن مصدر بمعنى الإقامة والاستقرار يقال : عدن بالمكان أي أقام فيه واستقر ومنه المعدن للأرض التي تستقر فيه الجواهر والفلزات المعدنية ، وعلى هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامة واستقرار وخلود .

وقوله : « ورضوان من الله أكبر » أي رضى الله سبحانه عنهم أكبر من ذلك كله - على ما يفيد السياق - وقد نكر «رضوان» إيماء إلى أنه لا يقدر بقدر ولا يحيط به وهم بشر أو لأن رضواناً ما منه ولو كان يسيراً أكبر من ذلك كله لأن ذلك كله مما يتفرع على رضاه تعالى وترشح منه - وإن كان كذلك في نفسه - بل لأن حقيقة العبودية التي يندب إليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حباً له : لا طمعاً في جنّة ، أو خوفاً من نار ، وأعظم السعادة والفوز عند المحب أن يستجلب رضى محبوبه دون أن يسعى لإرضاء نفسه .

وكانت للإشارة إلى ذلك ختم الآية بقوله : « ذلك هو الفوز العظيم » وتكون في

الجملة دلالة على معنى الحصر أي أن هذا الرضوان هو حقيقة كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنة الخالدة إذ لولا شيء من حقيقة الرضى الإلهي في نعيم الجنة كان نعمة لا نعمة.

قوله تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم وماواهم جهنم وبئس المصير ، جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم و هو يكون باللسان وباليد حتى ينتهي إلى القتال ، وشاع استعماله في الكتاب في القتال وإن كان ربما استعمل في غيره كما في قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » الآية .

واستعماله في قتال الكفار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق ، وأما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف ، وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الأمور كيداً ومكرأ ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم ، ولذلك ربما يسبق إلى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا ، وإن اقتضت وعظوا باللسان ، وإن اقتضت أخرجوا وشرّوا إلى غير الأرض أو قتلوا إذا أخذ عليهم الردة ، أو غير ذلك .

وربما شهد لهذا المعنى أعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد تعقيب قوله : « جاهد الكفار والمنافقين » بقوله : « واغلب عليهم » أي شدّد عليهم و عاملهم بالخشونة .

و أمّا قوله : « وماواهم جهنم وبئس المصير » فهو عطف على ما قبله من الأمر ، ولعلّ الذي هوّن الأمر في عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة في معنى قولنا : « إن هؤلاء الكفار والمنافقين مستوجبون للجهاد » . والله أعلم .

قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا » الآية . سياق الآية يشعر بأنهم أتوا بعمل سيئ و شفعوه بقول تفوّوا هوأ به عند ذلك ، وأن النبي ﷺ عاتبهم على قولهم مؤاخذاً لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدّم في قوله : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » إلى آخر الآية

أنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوفاً ولعباً لا غير ذلك .
والله سبحانه يكذبهم في الأمرين جميعاً : أمّا في إنكارهم القول فبقوله : « ولقد قالوا
كلمة الكفر ، وفسرناه ثانياً بقوله : « وكفروا بعد إسلامهم ، للدلالة على جدّ القول فيتفرّع
عليه الكفر بعد الإسلام .

ولعلّه قال ههنا : « وكفروا بعد إسلامهم ، وقد قيل سابقاً : « قد كفرتم بعد إيمانكم ،
لأنّ القول السابق للنبي ﷺ الجاري على ظاهر حالهم وهو الإيمان الذي كانوا يدّعونونه
ويتظاهرون به ، والقول الثاني لله العالم بالغيب والشهادة فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين
ولم يتعدّوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين ، وقد كفروا بقولهم وخرجوا
عن الإسلام إلى الكفر ، وفي هذا إيحاء إلى أنّ قولهم كان كلمة فيه الردّ على الشهادتين
أو إحداهما ،

أو لأنّ القول الأوّل في قبال عملهم الذي أرادوا إيقاع الشرّ بالنبي ﷺ ،
والعمل الخالي من القول وهو لم يصب الغرض لا يضرّ بالإسلام الذي هو نصيب اللفظ
والشهادة ، وإنّما يضرّ بالإيمان الذي هو نصيب الاعتقاد ، والقول الثاني في قبال قولهم
الذي تفوّقوا به ، وهو ينافي الإسلام الذي يكتسب باللفظ دون الإيمان الذي هو نوع
من الاعتقاد القلبي .

وأما في إنكارهم العمل السيئ الذي أتوا به وتأويلهم إيّاه إلى الخوض واللّب
فبقوله : « وهمّوا بما لم ينالوا ،

ثمّ قال في مقام ذمّهم وتعييرهم : « وما نعموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله »
أي بسبب أن أغناهم الله ورسوله ، أي كان سبب نعمتهم هذه أن الله أغناهم من فضله بما
رزقهم من الغنائم وبسط عليهم الأمن والرفاهية فمكّنهم من توليد الثروة وإنماء المال من
كلّ جهة ، وكذا رسوله حيث هداهم إلى عيشة سالحة تفتح عليهم أبواب بركات السماء
والأرض ، وقسم بينهم الغنائم وبسط عليهم العدل .

فهو من قبيل وضع الشيء موضع ضده : وضع فيه الإغناء وهو بحسب الطبع سبب للرضى
والشكر موضع سبب النعمة والسخط كالظلم والغصب وإن شئت قلت : وضع فيه الإحسان

موضع الإساءة ، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما في قوله تعالى : « و تجعلون رزقكم أنكم تكذبون » الواقعة : ٨٢ أي تجعلون رزقكم سبباً للتكذيب بآيات الله وهو سبب بحسب الطبع لشكر النعمة والرضا بالموهبة على ما قيل : إن المعنى : و تجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون .

والضمير في قوله : « من فضله » راجع إلى الله سبحانه قال في المجمع : وإتمامه يقول : من فضلها لأنه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية تعظيماً لله ، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول : « من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى » : بس خطيب القوم أنت فقال : كيف أقول يا رسول الله ؟ قال : قل : ومن يعص الله ورسوله ، و هكذا القول في قوله سبحانه : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » وقيل : إنما لم يقل من فضلها لأن فضل الله منه وفضل رسوله من فضله انتهى كلامه .

وهناك وراء التعظيم أمر آخر قد منا القول فيه في تفسير قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائة : ٧٣ في الجزء السادس من الكتاب ، وهو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحدة العددية حتى يصح بذلك تأليفها مع وحدة غيره واستنتاج عدد من الأعداد منه .

ثم بين الله سبحانه لهؤلاء المناققين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكة وصريح كفرهم بالله وهمهم بما لم ينالوا أن يرجعوا إلى ربهم ، وبين عاقبة أمر هذه التوبة وعاقبة التولي والإعراض عنها فقال : « فإن يتوبوا يك خيراً لهم » لادائه إلى المغفرة والجنة « وإن يتولوا » ويعرضوا عن التوبة « يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا » بالسياسة والنكال أو بإغراء النبي ﷺ عليهم أو بالمكر والاستدراج ، ولولم يكن من عذابهم إلا أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبني على الصدق والإيمان فتقادمهم سلسلة الأسباب وتحطيمهم وتفضحهم لكان فيه كفاية ، وقد قال الله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٢٤ « والآخرة » بعذاب النار .

وقوله تعالى : « وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير » معناه أن هؤلاء لا ولي لهم في الأرض يتولّى أمرهم ويصرف العذاب عنهم ، ولا نصير ينصرهم ويمدّهم بما يدفعون به

العذاب الموعود عن أنفسهم لأن سائر المنافقين أيضاً منهم وكلمة الفساد يجمعهم وأصلهم
الفاقد منقطع عن سائر الأسباب الكونية فلا ولي لهم يتولى أمرهم ولا ناصر لهم ينصرهم
ولعل هذه الجملة من الآية إشارة إلى ما أومأنا إليه في معنى عذاب الدنيا .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة » الآية : قيل :
نزلت في اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة ليقتنكوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك
فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ بذلك ، وأمره أن يرسل إليهم و يضرب وجوه رواحلهم .
وعمار كان يقود دابة رسول الله ﷺ وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة : اضرب وجوه
رواحلهم فضربها حتى نحاهم فلما نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف
منهم أحداً فقال رسول الله ﷺ : إنه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة : ألا
تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم . عن
ابن كيسان .

و روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام مثله إلا أنه قال : ائتمروا بينهم ليقتلوه و قال
بعضهم لبعض : إن فطن نقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، وإن لم يظن نقتله .

و قيل : إن جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك : يظن هذا الرجل أن يفتح
قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال : احبسوا عليّ
الركب فدعاهم فقال لهم : قلت كذا وكذا . فقالوا : يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب و
حلفوا على ذلك فنزلت الآية : « ولئن سألتهم ليقولن » الخ عن الحسن وقتادة .

وقيل : كان ذلك عند مصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة وكان بين يديه أربعة نفر
أو ثلاثة يستهزؤون ويضحكون ، وأحدهم يضحك ولا يتكلم فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله
ﷺ بذلك فدعا عمار بن ياسر وقال : إن هؤلاء يستهزؤون بي وبالقرآن أخبرني جبرئيل
بذلك ، ولئن سألتهم ليقولن : كنا نتحدث بحديث الركب فأتبعهم عمار و قال ممّ

تضحكون ؟ قالوا : نتحدث بحديث الركب فقال عمار : صدق الله ورسوله احترقتم أحرقتكم الله فأقبلوا إلى النبي ﷺ يعتذرون فأنزل الله تعالى الآيات . عن الكلبي وعلي بن إبراهيم وأبي حمزة .

وقيل : إن رجلاً قال في غزوة تبوك : ما رأيت أ كذب لساناً ولا أجبني عند اللقاء من هؤلاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه فقال له عوف بن مالك : كذبت و لكنك منافق وأراد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك فجاء وقد سبقه الوحي فجاء الرجل معتذراً ، وقال : إنما كنا نخوض ونلعب ففيه نزلت الآية عن ابن عمرو زيد بن أسلم و محمد بن كعب .

وقيل : إن رجلاً من المنافقين قال : يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب ؟ فنزلت الآية عن مجاهد .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي رهطه ، عن الضحاک .

وفي المجمع أيضاً في قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية اختلف في من نزلت فيه هذه الآية فقيل : إن رسول الله ﷺ كان جالساً في ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علام تشمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله : ما قالوا فأنزل الله هذه الآية عن ابن عباس .

وقيل : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : ما هذا الذي بلغني عنكم فحلفوا بالله : ما قالوا شيئاً من ذلك عن الضحاک .

وقيل : نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت ، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً و عابهم فقال الجلاس : والله لئن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال : أجل والله إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس : كذب يا رسول الله .

فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما

قال ثم قام عامر فحلف بالله لقد قال : ثم قال : اللهم أنزل على نبيك الصادق منا الصدق فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون : آمين فنزل جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ : « فإن يتوبوا يك خيراً لهم » ،

فقام الجلاس فقال : يا رسول الله أسمع الله قد عرض عليّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلت و أنا أستغفر الله و أتوب إليه فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه . عن الكلبيّ و محمد بن إسحاق ومجاهد .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول حين قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعرّ منها الأذلّ » . عن قتادة .

وقيل : نزلت في أهل العقبة فإنهم ائتمروا في أن يفتلوا رسول الله ﷺ في عقبه عند مرجعهم من تبوك ، و أرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلمه الله على ذلك وكان من جملة معجزاته لأنه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى .

فسار رسول الله ﷺ في العقبة ، وعمّار وحذيفة معه أحدهما يقود ناقته والآخري سوقها وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي ، وكان الذين همّوا بقتله اثني عشر رجلاً أو خمسة عشر رجلاً على الخلاف فيه عرفهم رسول الله ﷺ و ستمّاهم واحداً واحداً عن الزجاج والواقديّ والكلبيّ ، والقصة مشروحة في كتاب الواقديّ .

وقال الباقر عليه السلام : كانت ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب .

أقول : والذي ذكره رحمه الله مما جمعه واختاره من الروايات مروية في كتب التفسير بالمأثور وجوامع الحديث من كتب الفريقين وهناك روايات أخرى تركها وأخرى بها أن تترك فتر كنا أكثرها كما ترك .

وأما الذي أورده من الروايات فشيء منها لا ينطبق على الآيات غير حديث العقبة الذي أورده تارة في تفسير الآية الأولى : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة » الآية وتارة في تفسير الآية : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية .

وأما سائر الروايات الواردة فإنما هي روايات تتضمن من متفرقات القصص والوقائع ما لو صحّت وثبتت كانت من قصص المنافقين من غير أن ترتبط بهذه الآيات - وهي

كما عرفت في البيان السابق إحدى عشرة آية متصل بعضها ببعض مسرودة لغرض واحد ، وهو الإشارة إلى قصة من قصص المنافقين همّوا فيها باغتيال رسول الله ﷺ ، و تكلموا عند ذلك بكلمة الكفر فحال الله سبحانه بينهم وبين أن ينالوا ما همّوا به فسألهم رسول الله ﷺ عن أمرهم وما تفوتوا به فأولوا فعلهم وأنكروا قولهم وحلفوا على ذلك فكذبهم الله تعالى فيه .

فهذا إجمال ما يلوح من خلال الآيات ، ولا ينطبق من بين الروايات الأعلى الروايات المشتملة على قصة العقبة في الجملة دون سائرها .

ولا مسوغ للاستناد إليها في تفسير الآيات إلا على مسلك القوم من تحكيم الروايات بحسب مضمونها على الآيات سواء ساعدت على ذلك ألفاظ الآيات أولم تساعد على ما فيها - أعني الروايات - من الاختلاف الفاحش الذي يوجب سوء الظن بها كما يظهر لمن راجعها .

على أن في الروايات مغمزاً آخر وهو ظهورها في تقطع الآيات و تشتت بعضها وانفصاله عن بعض بنزول كل لسبب آخر وتعقيبها غرضاً آخر ، وقد عرفت أن الآيات ذات سياق واحد متصل ليس من شأنه إلا أن يعقب غرضاً واحداً .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك و بين يديه ثلاثة رهط استهزؤوا بالله و رسوله وبالقرآن قال : كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجاناً لهم يقال له : يزيد بن وداعة فنزلت : « إن نعت عن طائفة منكم نعتب طائفة ، فسمي طائفة وهو واحد .

أقول : وهذا هو منشأ قول بعضهم : إن الطائفة تطلق على الواحد كما تطلق على الكثير مع أن الآية جارية مجرى الكناية دون التسمية ونظير ذلك كثير في الآيات القرآنية كما تقدمت الإشارة إليه .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف فيهم وداعة بن ثابت ، ورجل من أشجع حليف لهم يقال له : مخشي ابن حمير* كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض :

* وقد مر في ص ٣٣٨ نقلاً عن المصدر نفسه جحش بن حمير وهو مصحف (ب) .

أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم والله لكأننا بكم غداً تقادون في الجبال .
قال مخشي بن حمير لوردت أُنِّي أفاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على
أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن فقال رسول الله ﷺ لعمّار بن ياسر : أدرك القوم
فإنهم قد احترقوا فسلمهم عمّا قالوا فإن هم أنكروا وكنتموا فقل : بلى قد قتلتم كذا وكذا
فأدر كمهم فقال لهم فجأؤوا يعتذرون فأنزل الله : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف
عن طائفة منكم » الآية فكان الذي عفا الله عنه مخشي بن حمير فتسمى عبد الرحمن ، وسأل
الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله فقتل باليمامة لا يعلم مقتله ولا من قتله ولا يرى له أثر
ولا عين .

أقول : وقصة مخشي بن حمير وردت في عدة روايات غير أنها على تقدير صحتها
لا تستلزم نزول الآيات فيها على ما بينها وبين مضامين الآيات من البون البعيد .
وليس من الواجب علينا إذا عثرنا على شيء من القصص الواقعة في زمن النبي ﷺ
أي قصة كانت أن نلجأ بها آية من آيات القرآن الكريم ثم نعود فنفسر الآية بالقصة
ونحكّمها عليها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن
عبّاس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة : « كالأذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة - إلى قوله -
وخضتم كأذي خاضوا » هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى
لودخل رجل جحر ضب لدخلتموه .

أقول : ورواه في المجمع أيضاً عنه .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدري عن النبي
ﷺ قال : لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر و باعاً بباع
حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله كما صنعت
فارس والروم وأهل الكتاب ؟ قال : فهل الناس إلا هم ؟

وفيه أيضاً عن تفسير الثعلبي عن حذيفة قال : المنافقون الذين فيكم اليوم شر من
المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ . قلنا : وكيف ؟ قال : أولئك كانوا يخفون

نفاقهم وهؤلاء أعلنوه .

وفي العيون بإسناده عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبدالعزيز بن مسلم قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : « نسوا الله فنسيهم » فقال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسى ولا يسهو ، وإنما ينسى ويسهو المخلوق المحدث ألا تسمعه عز وجل يقول : « وما كان ربك نسياً » ، وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم كما قال عز وجل : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » [وفيه عز وجل : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » أي تتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا .

وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام « نسوا الله » قال : تركوا طاعة الله « فنسيهم » قال : قترتهم .

وفيه عن أبي معمر السعداني قال : قال علي عليه السلام في قوله : « نسوا الله فنسيهم » فإنما يعني أنهم نسوا الله في دار الدنيا فلم يعملوا له بالطاعة ولم يؤمنوا به وبرسوله فنسيهم في الآخرة أي لم يجعل لهم في ثوابه نصيباً فصاروا منسيين من الخير .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن أبي معمر عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - قلت : « والمؤتفكات أتمهم رسلهم بالبينات » قال : أولئك قوم لوط ائتفكت عليهم أي انقلبت وصارت عاليها سافلها .

وفي التهذيب بإسناده عن صفوان بن مهران قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعلمي و أعرفها بإسلامها ليس لها محرم فأحلمها ؟ قال : فأحلمها فإن المؤمن محرم للمؤمنة . ثم تلا هذه الآية : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن صفوان الجمال عنه عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن ثوير عن علي بن الحسين عليه السلام قال : إذا صار أهل الجنة في الجنة ودخل ولي الله إلى جناته ومساكنه ، واتسكى كل مؤمن على أريكته حفته خدامه ،

و تهدلت عليه الأثمار ، و تفجرت حوله العيون ، و جرت من تحته الأنهار ، و بسطت له الزرابي ، و وضعت له النمارق ، و أنته الخدّام بماشاة هواه من قبل أن يسألهم ذلك قال : و تخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكنون بذلك ما شاء الله .

ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم : أوليائي و أهل طاعتي و سكنان جنّتي في جواربي الأهل أنبوؤكم بخير مما أنتم فيه ؟ فيقولون : ربنا و أي شيء خير مما نحن فيه فيما اشتهدت أنفسنا و لذت أعيننا من النعم في جوار الكريم ؟

قال : فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك و تعالى لهم : رضاي عنكم و محبّتي لكم خير و أعظم مما أنتم فيه قال : فيقولون : نعم يا ربنا رضاك عنا و محبّتك لنا خير و أطيب لأنفسنا .

ثم قرأ عليّ بن الحسين عليهما السلام هذه الآية : « وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و مساكن طيبة في جنّات عدن و رضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله : هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا و هل بقي شيء ؟ إلا قد أثلّتناه ؟ فيقول : نعم رضائي فلا أسخط عليكم أبداً .

أقول : و هذا المعنى و ارد في روايات كثيرة من طرق الفريقين .

وفي جامع الجوامع عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه و آله : عدن دار الله التي لم ترها عين و لم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون و الصّدّيقون و الشهداء يقول الله : طوبى لمن دخلك .

أقول : و لا ينافي خصوص سكنة الجنة في الرواية عمومهم في الآية لدلالة قوله تعالى : « و الذين آمنوا بالله و رسله أولئك هم الصّدّيقون و الشهداء عند ربهم » الحديد : ١٩ على أن الله سبحانه سيلحق عامّة المؤمنين بالصّدّيقين و الشهداء .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ جاهد الكفار و المنافقين » الآية

قال حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : جاهد الكفار والمنافقين بإلزام الفرائض .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : لما نزلت : «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين» أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبليقه بوجه مكفهر .

أقول : وفي الرواية تشويش من حيث ترتب أجزائها فالجهاد بالقلب بعد الجميع وقد تخلل بينها .



وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)
 فَلَمَّا آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعَقَبَهُمُ نِقَاقًا فِي
 قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)
 أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٨٧) الَّذِينَ
 يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
 فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ
 لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ
 رَسُولِهِ وَاللَّهُ لَأَيُّهُدَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٨٠) .

﴿ بيان ﴾

تذكر الآيات طائفة أخرى من المنافقين تخلفوا عن حكم الصدقات فامتنعوا عن
 إيتاء الزكاة ، وقد كانوا فقراء فعاهدوا الله إن أغناهم وآتاهم من فضله ليصدقن وليكوننَّ
 من الصالحين فلما آتاهم مالاً بخلوا به وامتنعوا .

ومذكر آخرين من المنافقين يعيبون أهل السعة من المؤمنين بإيتاء الصدقات وكذلك
 يلمزون أهل العسرة منهم و يسخرون منهم والله سبحانه يسمي هؤلاء جميعاً منافقين ، و
 يقضي فيهم بعدم المغفرة البتة .

قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنَّ و لنكوننَّ من
 الصالحين » إلى آخر الآيتين . الإيتاء الإيعاء ، وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على
 إعطاء المال ، ومن القرائن عليه في الآية قوله « لنصدقنَّ » أي لنتصدقنَّ مما آتانا من

المال وكذلك ما في الآية التالية من ذكر البخل به .
والسياق يفيد أن الكلام متعرّضٌ لأمر واقع ، والروايات تدلّ على أن الآيات
نزلت في ثعلبة في قصة سيأتي نقلها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى ، ومعنى
الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه » الآية . الإعقاب الإيراث
قال في المجمع : وأعقبه وأورثه وأدّاه نظائر وقد يكون أعقبه بمعنى جازاه . انتهى وهو
مأخوذ من العقب ، ومعناه الإتيان بشيء عقيب شيء .

و الضمير في قوله : « فأعقبهم » راجع إلى البخل أو إلى فعلهم الذي منه البخل ،
وعلى هذا فالمراد بقوله : « يوم يلقونه » يوم لقاء البخل أي جزاء البخل بنحو من العناية .
ويمكن أن يرجع الضمير إليه تعالى والمراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله وهو يوم
القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسمية يوم القيامة بيوم لقاء الله أو يوم
الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآت »
العنكبوت : ٥ .

وهذا الثاني هو الظاهر على الثاني لأنّ الأُنسب عند الذهن أن يقال : فهم على
نفاقهم إلى أن يموتوا . دون أن يقال : فهم على نفاقهم إلى أن يبعثوا إذ لا تغيير لحالهم فيما
بعد الموت على أيّ حال .

وقوله : « بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » الباء في الموضعين منه للسببية
أي إنّ هذا البخل أورثهم نفاقاً بما كان فيه من الخلف في الوعد والاستمرار على الكذب
الموجبين لمخالفة باطنهم لظاهرهم وهو النفاق .

ومعنى الآية : فأورثهم البخل والامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقاً في قلوبهم يدوم لهم
ذلك ولا يفارقهم إلى يوم موتهم وإنّما صار هذا البخل والامتناع سبباً لذلك لما فيه من
خلف الوعد لله والملازمة والاستمرار على الكذب .

أو المعنى : جازاهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم لقائه وهو يوم الموت لأنّهم أخلفوه
ما وعدوه وكانوا يكذبون .

و في الآية دلالة أو لآعلى أن خلف الوعد و كذب الحديث من أسباب النفاق و أماراته .

وثانياً : أن من النفاق ما يعرض الإنسان بعد الإيمان كما أن من الكفر ما هو كذلك وهو الردة وقد قال الله سبحانه : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون » الروم : ١٠ فذكر أن الإساءة ربما أدت بالإنسان إلى تكذيب آيات الله ، و التكذيب ربما كان ظاهراً و باطنياً معاً وهو الكفر ، أو باطنياً فحسب وهو النفاق .

قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم و نجواهم » الآية النجوى الكلام الخفي و الاستفهام للتوبيخ و التأنيب .

قوله تعالى : « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات و الذين لا يجدون إلا جهدهم » الآية التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس ولا تحسبه شاقاً و لذلك يستعمل غالباً في المندوبات لما في الواجبات من شائبة التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك .

ومقابلة المطوعين من المؤمنين في الصدقات بالذين لا يجدون إلا جهدهم قرينة على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاة على السعة والجدة كأنهم لسعتهم و كثرة مالهم يؤتونها على طوع و رغبة من غير أن يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلا جهدهم أي مبلغ جهدهم و طاقتهم أو ما يشق عليهم القنوع بذلك .

وقوله : « الذين يلمزون » الآية كلام مستأنف أو هو وصف للذين ذكروا بقوله : « ومنهم من عاهد الله » الآية كما قالوا . والمعنى : الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين و الذين لا يجدون من المال إلا جهد أنفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم و معسرهم و غنيهم و فقيرهم و يسخرون منهم سخر الله منهم و لهم عذاب أليم ، وفيه جواب لاستهزائهم و إبعاد بعذاب شديد .

قوله تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » الترديد بين الأمر والنهي كناية عن تساوي الفعل و الترك أي لغوية الفعل كما

مرّ نظيره في قوله : « أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم » التوبة : ٥٣ .
فالمعنى أن هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفرة من الله ويستوي فيهم طلب المغفرة وعدمها
لأن طلبها لهم لغو لا أثر له .

وقوله : « إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » تأكيد لما ذكر قبله من
لغويّة الاستغفار لهم ، وبيان أن طبيعة المغفرة لا تنالهم البتّة سواء سئلت المغفرة في حقّهم
أولم يسأل ، وسواء كان الاستغفار مرّة أو مرّات قليلاً أو كثيراً .

فذكر السبعين كناية عن الكثرة من غير أن يكون هناك خصوصيّة للعدد حتّى
يكون الواحد والاثنتان من الاستغفار حتّى يبلغ السبعين غير مؤثّر في حقّهم فإذا جاوز
السبعين أثمر أثره ، ولذلك علّله بقوله : « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » أي أن المانع من
شمول المغفرة هو كفرهم بالله ورسوله ، ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار ولا وجوده
واحداً أو كثيراً فهم على كفرهم .

و من هنا يظهر أن قوله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » متمم لسابقه و الكلام
مسوق سوق الاستدلال القياسي والتقدير : إنهم كافرون بالله ورسوله فهم فاسقون خارجون
عن عبوديّة الله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين لكن المغفرة هداية إلى سعادة القرب والجنّة
فلا تشملهم المغفرة ولا تنالهم البتّة .

واستعمال السبعين في الكثرة المجرّدة عن الخصوصيّة كاستعمال المائة والألف فيها
كثير في اللغة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع قيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ، و كان من الأنصار فقال للنبي ﷺ :
ادع الله أن يرزقني مالا فقال : يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لاتطيقه أمالك في
رسول الله أسوة حسنة ؟ و الذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً و فضّة
لسارت .

ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق ،
 لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالاً فاتخذ
 غنماً فتمت كما ينمو الدور فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثم
 كثرت نمو آحتى تباعد من المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة ، وبعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم إليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال : ماهذه إلا أخت الجزية فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ، وأنزل الله الآيات . عن أبي أمامة الباهلي وروي ذلك
 مرفوعاً .

وقيل : إن ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله
 تصدقت منه وآتيت كل ذي حق حقه ووصلت منه القرابة فابتلاه الله فمات ابن عم له
 فوزته مالاً فلم يف بما قال فنزلت . عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة .

وقيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف قال :
 لئن رزقنا الله مالاً لنصدقن فلما رزقهما الله المال بخلا به . عن الحسن ومجاهد .
أقول : ما ذكره من الروايات لا يدفع بعضها البعض فمن الجائز أن يكون ثعلبة
 عاهد النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ثم أشهد عليه جماعة من الأنصار ، وأن يكون معه في ذلك غيره
 فتتأيد الروايات بعضها ببعض .

وتتأيد أيضاً بما روي عن الضحاک أن الآيات نزلت في رجال من المنافقين :
 نبتل بن العارث وجد بن قيس وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير .

وأما مارواه في المجمع عن الكلبي أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة كان له مال
 بالشام فأبطأ عنه وجهه لذلك جهداً شديداً فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدقن فاتاه
 الله تعالى ذلك فلم يفعل؛ فهو بعيد الانطباق على الآيات لأن إيصال المال إلى صاحبه لا
 يسمى إيتاءً من الفضل ، وإتمامه الإعطاء والرزق .

وفي تفسير القمي قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام - في الآية - قال :
 هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف كان محتاجاً فعاهد الله فلما آتاه بخل به .
 وفي الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان .

أقول : وهو مروى بغير واحد من الطرق عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد تقدم بعضها .

وفيه في قوله تعالى : « الذين يلمزون المطّوعين ، الآية أخرج البخاري و مسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن مسعود قال لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير فقالوا : مراء ، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا فنزلت : « الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلاّ جهدهم ، الآية . **أقول :** والروايات في سبب نزول الآية كثيرة وأمثلها ما أوردناه ، وفي قريب من معناه روايات أخرى ، وظاهرها أن الآية مستقلة عما قبلها مستأنفة في نفسها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل : ليخرجن الأعراف منها الأذلّ فأنزل الله عز وجل : « استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأزيدن على السبعين فأنزل الله : سواء عليهم أستغفرت لهم أولم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : لما نزلت : « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » قال النبي صلى الله عليه وسلم : سأزيد على سبعين فأنزل الله في السورة التي يذكر فيها المنافقون « لن يغفر الله لهم » .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : - لما نزلت هذه الآية - أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم فقال الله من شدة غضبه عليهم : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين .

أقول : مما لا ريب فيه أن هذه الآيات مما نزلت في أواخر عهد النبي صلى الله عليه وآله وقد

سبقها في النزول السور المكيّة عامّة و أكثر السور والآيات المدنيّة قطعاً ، ومما لا ريب فيه لمن يتدبّر كتاب الله أنّه لارجاء في نجات الكفار والمنافقين وهم أشدّ منهم إذا ماتوا على كفرهم و نفاقهم ، ولا مطمع في شمول المغفرة الإلهيّة لهم فهناك آيات كثيرة مكّيّة ومدنيّة صريحة قاطعة في ذلك .

والنبي ﷺ أجلّ من أن يخفى عليه ما أنزله الله إليه أو أن لا يثق بما وعدهم الله من العذاب المخلد وعداً حتمياً فيطمع في نقض القضاء المحتوم بالإصرار عليه تعالى و الإلحاح في طلب الغفران لهم .

أو أن يخفى عليه أن التردد في الآية لبيان اللغوّة وأن لا خصوصيّة لعدد السبعين حتّى يطمع في مغفرتهم لو زاد على السبعين .

وليت شعري ماذا يزيد قوله تعالى في سورة المنافقون : «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين» على قوله تعالى في هذه الآية «استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين» و قد علّل الله سبحانه نفي المغفرة نفياً مؤبداً فيهما بأنهم فاسقون والله لا يهدي القوم الفاسقين .

فقد تلخّص أن هذه الروايات وما في معناها موضوعة يجب طرحها .
وفي الدر المنثور أخرج أحمد و البخاري و الترمذي و النسائي و ابن أبي حاتم والنحاس و ابن جرير و ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبي دُعَيْ رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه فلمّا وقف قلت : أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيتامه ورسول الله ﷺ يتبسّم حتّى إذا أكثرت قال : يا عمر أخّر عني إني قد خيّرت قد قيل لي : «استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة» فلو أعلم أنّي إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها .

ثمّ صلّى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتّى قام على قبره حتّى فرغ منه فعبجت لي و لجرأتي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتّى

نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على منافق بعده حتّى قبضه الله عزّ وجلّ .

أقول : قوله صلّى الله عليه وآله في الرواية : « فلو أعلم أنّي إن زدت على السبعين » الخ صريح في أنّه كان آنساً من شمول المغفرة له ، وهو يشهد بأنّ المراد من قوله : « إنّي قد خيرت قد قيل لي استغفر لهم أولاً تستغفر لهم » أنّ الله قد ردّ الأمر ولم ينه عن الاستغفار لا أنّه خيرته بين الاستغفار وعدمه تخييراً حقيقياً حتّى ينتج تأثير الاستغفار في حصول المغفرة أو رجاء ذلك .

ومن ذلك يعلم أنّ استغفاره صلّى الله عليه وآله لعبد الله و صلاته عليه وقيامه على قبره إنّ ثبت شيء من ذلك لم يكن شيء من ذلك لطلب المغفرة و الدعاء له جداً كما سيأتي في رواية القمّيّ ، وفي الروايات كلام سيأتي .

وفيه عن ابن أبي حاتم عن الشعبي أنّ عمر بن الخطاب قال : لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قطّ أراد رسول الله صلّى الله عليه وآله أن يصلّي على عبد الله بن أبي فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا لقد قال الله : « استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : قد خيرني ربي فقال : استغفر لهم أولاً تستغفر لهم فقعد رسول الله على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه : يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : الحجاب اسم شيطان أنت عبد الله . وفي تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « استغفر لهم أولاً تستغفر لهم » الآية أنّها نزلت لما رجع رسول الله صلّى الله عليه وآله المدينة ومرض عبد الله بن أبي وكان ابنه عبد الله بن عبد الله مؤمناً فجاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وأبوه يوجد بنفسه فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمّي إنك إن لم تأت أبي كان ذلك عاراً علينا فدخل إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله و المناقون عنده فقال ابنه عبد الله بن عبد الله استغفر له فاستغفر له .

فقال عمر : ألم ينهك الله يا رسول الله أن تصلّي على أحد أو تستغفر له ؟ فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله فأعاد عليه فقال له : ويلك إنّي قد خيرت فاخترت إن الله يقول : « استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » .

فلما مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال : بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله إن رأيت أن تحضر جنازته فحضر رسول الله ﷺ فقام على قبره فقال له عمر : يا رسول الله ألم ينهك الله أن تصلي على أحد منهم مات أبداً وأن تقيم على قبره ؟ فقال رسول الله ﷺ : ويلك وهل تدري ما قلت ؟ إنما قلت : اللهم احش قبره ناراً وجوفه ناراً وأصله النار فبدا من رسول الله ﷺ ما لم يكن يحب .

أقول : وفي الروايات تمة كلام سيوافيك في ذيل الآيات التالية .



فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ
تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَاعْبُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى
قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ
وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ
عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا
نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا
عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتَ لْتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٤) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٤) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ
لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ
إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ
عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تقبل الاتصال بالآيات التي قبلها وهي تعقب غرضاً يعقبه ما تقدمها .
قوله تعالى : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » الآية الفرحة والسرور
خلاف الغمّ و هما حالتان نفسيّتان وجدانيتان ملذّة ومؤلّة ، والمخلفون اسم مفعول من
قولهم خلفه إذا تركه بعده والمقعد كالمقعد مصدر قعد يقعد وهو كناية عن عدم الخروج
إلى الجهاد .

والخلاف كالمخالفة مصدر يخالف يخالف ، وربما جاء بمعنى بعد كما قيل ولعلّ منه
قوله : « وإنّ لا يلبثون خلافك إلا قليلاً » وكان قياس الكلام أن يقال : « خلافك » لأنّ الخطاب
فيه للنبي ﷺ وإنّما قيل : « خلاف رسول الله » للدلالة على أنّهم إنّما يفرحون على
مخالفة الله العظيم فما على الرسول إلاّ البلاغ .

والمعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافاً لك - أو
بعدك - و كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

وقوله تعالى : « وقالوا لا تنفروا في الحر » ، خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي صلى الله عليه وآله ويبتلوا مسعاه في تنفير الناس إلى الغزوة ، ولذلك أمره الله تعالى أن يجيب عن قولهم ذلك بقوله : « قل نار جهنم أشد حراً ، أي إن الفرار عن الحر بالقعود إن أنجاكم منه لم ينجحكم مما هو أشد منه وهو نار جهنم التي هي أشد حراً فإن الفرار عن هذا الهين يوقعكم في ذلك الشديد . ثم أفاد بقوله : « لو كانوا يفقهون ، المصدر بلو التمني اليأس من فقههم وفهمهم .

قوله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون » ، تفرغ على تخلفهم عن الجهاد بالأموال والأفئس وفرحهم بالقعود عن هذه الفريضة الإلهية الفطرية التي لا سعادة للإنسان في حياته دونها .

وقوله : « جزاء بما كانوا يكسبون » ، والباء للمقابلة أو السببية دليل على أن المراد بالضحك القليل هو الذي في الدنيا فرحاً بالتخلف والقعود ونحو ذلك ، وبالبكاء الكثير ما كان في الآخرة في نار جهنم التي هي أشد حراً فإن الذي فرغ عليه الضحك والبكاء هو ما في الآية السابقة ، وهو فرحهم بالتخلف وخرجهم من حرّ الهواء إلى حرّ نار جهنم .

فالمعنى : فمن الواجب بالنظر إلى ما عملوه واكتسبوه أن يضحكوا ويفرحوا قليلاً في الدنيا وأن يبكوا ويحزنوا كثيراً في الآخرة فالأمر بالضحك والبكاء للدلالة على إيجاب السبب وهو ما كسبوه من الأعمال لذلك .

وأما حمل الأمر في قوله : « فليضحكوا » ، وقوله : « وليبكوا » ، على الأمر المولوي لينتج تكليفاً من التكليف الشرعية فلا يناسبه قوله : « جزاء بما كانوا يكسبون » .

ويمكن أن يكون المراد الأمر بالضحك القليل والبكاء الكثير معاً ما هو في الدنيا جزاء لسابق أعمالهم فإنها هدتهم إلى راحة وهمية في أيام فلائل وهي أيام قعودهم خلاف رسول الله ﷺ ثم إلى هوان وذلة عند الله ورسوله والمؤمنين ما داموا أحياء في الدنيا ثم إلى شديد حرّ النار في الآخرة بعد موتهم .

قوله تعالى : « فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج » ، إلى آخر

الآية المراد بالعود أوّل مرّة المتخلّف عن الخروج في أوّل مرّة كان عليهم أن يخرجوا فيها فلم يخرجوا ، ولعلّها غزوة تبوك كما يهدي إليه السياق .

والمراد بالخالفين المتخلّفون بحسب الطبع كالنساء والصبيان والمرضى والزمنى وقيل : المتخلّفون من غير عنذر ، وقيل : الخالفون هم أهل الفساد ، والباقي واضح .

وفي قوله : « فإن رجعت الله إلى طائفة منهم » الآية دلالة على أن هذه الآية وما في سياقها المتصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت و رسول الله ﷺ في سفره و لما يرجع إلى المدينة ، وهو سفره إلى تبوك .

قوله تعالى : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله و رسوله و ماتوا وهم فاسقون » نهي عن الصلاة لمن مات من المنافقين والقيام على قبره وقد علل النهي بأنهم كفروا وفسقوا و ماتوا على فسقهم ، وقد علل لغويّة الاستغفار لهم في قوله تعالى : السابق : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » آية ٨٠ من السورة ، وكذا في قوله « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ، المنافقون : ٦ بالكفر والفسق أيضاً .

ويتحصّل من الجميع أن من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به فلا سبيل له إلى النجاة يهتدي به ، وأن الآيات الثلاث جميعاً تكشف عن لغويّة الإستغفار للمنافقين والصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم للدعاء لهم .
و في الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يصلي على موتى المسلمين و يقوم على قبورهم للدعاء .

قوله تعالى : « ولا تعجبك أموالهم و أولادهم » الآية تقدّم بعض ما يتعلّق بالآية من الكلام في الآية ٥٥ من السورة .

قوله تعالى : « وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله ، إلى آخر الآيتين . الطول القدرة والنعمة ، والخوالب هم الخالفون والكلام فيه كالكلام فيه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « لكن الرسول وآذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، لما ذم المنافقين في الآيتين السابقتين بالرضا بالعودة مع الخوالب والطبع على قلوبهم استدرك بالنبي ﷺ وآذين آمنوا معه - والمراد بهم المؤمنون حقاً الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابلة مع المنافقين - ليمدحهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم أي أنهم لم يرضوا بالعودة ولم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعادة الحياة والنور الإلهي الذي يهتدون به في مشيهم كما قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، الأ نعام : ١٢٢ .

ولذلك عقب الكلام بقوله : « وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون » فلمم جميع الخيرات - على ما يقتضيه الجمع المحلّي باللام - من الحياة الطيبة و نور الهدى والشهادة وسائر ما يتقرّب به إلى الله سبحانه ، وهم المفلحون الفائزون بالسعادة .

قوله تعالى : « أعدّ الله لهم جنّات تجري » الآية الإعداد هو التهيئة وقد عبّر بالإعداد دون الوعد لأنّ الأمور بخواتيمها و عواقبها فلو كان وعداً وهو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاءً حتمياً واجب الوفاء سواء بقي الموعودون على صفاء إيمانهم و صلاح أعمالهم أو غيروا والله لا يخلف الميعاد .

والأصول القرآنية لا تساعد على ذلك ، ولا الفطرة السليمة ترضى أن ينسب إلى الله سبحانه أن يطبع بطابع المغفرة والجنّة الحتمية على أحد لعمل عمله من الصالحات ثمّ يخلف بينه وبين ما شاء وأراد .

ولذلك نجد سبحانه إذا وعد وعداً علّقه على عنوان من العناوين العامة كالإيمان والعمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير أن يخصّ به أشخاصاً بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف والتأمين كما قال تعالى : « وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنّات » الآية ٧٢ من السورة وقال تعالى : « تحمّ رسول الله وآذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم - إلى أن قال - وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة و أجرأ عظيماً » الفتح : ٢٩ .

قوله تعالى : « وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذّن لهم » الآية . الظاهر أنّ

المراد بالمعذرين هم أهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحاً بدليل قوله : « وقعد الذين كذبوا ، الآية والسياق يدل على أن في الكلام قياساً لإحدى الطائفتين إلى الأخرى ليظهر به لؤم المنافقين وخساستهم وفساد قلوبهم وشقاء نفوسهم ، حيث إن فريضة الجهاد الدينية والنصرة لله ورسوله هيح لذللك المعذرين من الأعراب وجاءوا إلى النبي ﷺ يستأذنونهم ، ولم يؤثروا في هؤلاء الكاذبين شيئاً .

قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، المراد بالضعفاء بدلالة سياق الآية : الذين لا قوة لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما أن المرضى لا قوة لهم عليه بحسب عارض مزاجي ، والذين لا يجدون ما ينفقون لا قوة لهم عليه من جهة فقد المال ونحوه .

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج والمشقة أي الحكم بالوجوب الذي لو وضع كان حكماً حرجياً ، وكذا ما يستتبعه الحكم من الذم والعقاب على تقرير المخالفة .

وقد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله : « إذا نصحوا لله ورسوله » وهو ناظر إلى الذم والعقاب على المخالفة والعود فإنما يرفع الذم والعقاب عن هؤلاء المعذورين إذا نصحوا لله ورسوله وأخلصوا عن الغش والخيانة ولم يجروا في قعودهم على ما يجري عليه المنافقون المتخلفون من قلب الأُمور وإفساد القلوب في مجتمع المؤمنين ، وإلا فيجري عليهم ما يجري على المنافقين من الذم والعقاب .

وقوله : « ما على المحسنين من سبيل » في مقام التعليل لنفي الحرج عن الطوائف المذكورين بشرط أن نصحوا لله ورسوله أي لأنهم يكونون حينئذ محسنين وما على المحسنين من سبيل فلا سبيل يتسلط عليهم يؤتون منه فيصابون بما يكرهونه .

ففي السبيل كناية عن كونهم في مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم في حصن حصين لا طريق إلى داخله يسلكه الشر إليهم فيصيبهم ، والجملة عامة بحسب المعنى وإن كان مورد التطبيق خاصاً .

قوله تعالى : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت ، الآية قال في المجمع : الحمل إعطاء المر كوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول : حمله يحمله حملاً إذا أعطاه

ما يحمل عليه قال :

الأفتى عنده خفان يحملني * عليهما إنني شيخ على سفر
قال : والفيض الجري عن امتلاء من قولهم : فاض الإناء بما فيه ، و الحزن ألم في
القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض وهي الأرض الغليظة المسلك . انتهى .
وقوله : « ولا على الذين » الآية . موصول صلته قوله : « تولوا » الآية ، وقوله : « إذا
ما أتوك لتحملهم » كالشرط والجزاء والمجموع ظرف لقوله : « تولوا » وحزناً مفعول له ،
« وأن لا يجدوا » منصوب بنزع الخافض .

والمعنى : ولا حرج على الفقراء الذين إذا ما أتوك لتعطيتهم مراكباً يريد كونه و تصلح
سائر ما يحتاجون إليه من السلاح وغيره قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا والحال أن
أعينهم تمتلئ وتسكب دموعاً للحزن من أن لا يجدوا - أو لأن لا يجدوا - ما ينفقونه في
سبيل الله للجهاد مع أعدائه .

وعطف هذا الصنف على ما تقدمه من عطف الخاص على العام عناية بهم لأنهم في
أعلى درجة من النصح وإحسانهم ظاهر .

قوله تعالى : « إنما السبيل على الذين يستأنونك وهم أغنياء » الآية القصر
للإفراد ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم » إلى آخر الآية . خطاب الجمع
للنبي ﷺ والمؤمنين جميعاً وقوله : « لن نؤمن لكم » أي لن نصدقكم على ما تعتذرون
به بناء على تعدية الإيمان باللام كالباء - أو لن نصدق تصديقاً ينفعكم - بناء على كون
اللام للنفع - والجملة لتعليل لقوله : « لا تعتذروا » كما أن قوله : « قد نبأنا الله من
أخباركم » لتعليل لهذه الجملة .

والمعنى يعتذر المنافقون إليكم عند رجوعكم من الغزوة إليهم قل يا محمد لهم : لا
تعتذروا إلينا لأننا لن نصدقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد أخبرنا ببعض أخباركم
مما يظهر به نفاقكم وكذبكم فيما تعتذرون به ، وسيظهر عملكم ظهوراً شهوداً لله ورسوله
ثم تردون إلى الله الذي يعلم الغيب والشهادة يوم القيامة فيخبركم بحقائق أعمالكم .

و في قوله : « وسيرى الله عملكم ورسوله ، الخ في إيضاحه كلام سيمر بك عن قريب .

قوله تعالى : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم ، الآية أى لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب والتقريع وما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لاتصديقاً لهم فيما يحلفون له من الأعداء بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم وأما هم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى : « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، أي هذا الحلف منهم كما كان للتوسل إلى صرفكم عنهم ليؤمنوا الذم والتقريع كذلك هو للتوسل إلى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس لا ينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته أن تتعرض لرجس النفاق والكذب وقذارة الكفر والفسق ، وأما الرضى فاعلموا أنكم إن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم لفسقهم والله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

فالمراد أنكم إن رضيتهم فقد رضيتهم ممن لم يرض الله عنه أي رضيتهم بخلاف رضى الله ، ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه فهو أبلغ كناية عن النهي عن الرضا عن المنافقين .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « فرح المخلّفون ، الآية أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه - عليه السلام قال : كانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، و هي غزوة الحرّ ، قالوا لا تنفروا في الحرّ ، وهي غزوة العسرة .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال : يا رسول الله إن الحرّ شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحرّ فقال الله : « قل نار جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون » فأمره بالخروج .

أقول : ظاهر الآية أنهم إنما قالوه ليخذلوا الناس عن الخروج ، وظاهر الحديث أنهم إنما قالوه إشارة فلا يتطابقان .

و فيه أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد إلى تبوك فقال رجل من بني سلمة : لا تنفروا في الحر فأنزل الله : « قل نار جهنم أشد حراً » الآية .

أقول : تقدمت أخبار في قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني » الآية أن القائل لقوله : « لا تنفروا في الحر » هو جد بن قيس .

و في الدر المنثور أيضاً في قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم » الآية أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : لما توفي عبدالله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبدالله رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : إن ربي خيرني وقال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وسأزيد على السبعين فقال : إنه منافق فصلي عليه فأنزل الله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فترك الصلاة عليهم .

أقول . وفي هذا المعنى روايات أخرى رواها أصحاب الجوامع ورواة الحديث عن عمر بن الخطاب وجابر و قتادة ، وفي بعضها أنه كفنه في قميصه ونفث في جلده و نزل في قبره .

وفيه أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبدالله بن أبي دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام عليه فلمّا وقف قلت : أتصلي على عدو الله عبدالله بن أبي القائل كذا وكذا والقائل كذا وكذا - أعد دأبامه - ورسول

الله يتبسّم حتّى إذا أكثرتُ قال : يا عمر أخّر عني إني قد خيّرت قد قيل لي : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلوأعلم أنّي إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ثمّ صلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم و مشى معه حتّى قام على قبره حتّى فرغ منه .

فعببت لي ولجرتني على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتّى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على منافق بعده حتّى قبضه الله عزّ وجلّ .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبيّ أنّ عمر بن الخطّاب قال : لقد أصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها قطّ أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يصلّي على عبد الله بن أبي فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا . لقد قال الله : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قد خيّرني ربّي فقال « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » .

فقعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه ، يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : الحباب اسم شيطان أنت عبد الله .

وفيه أخرج الطبرانيّ وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن ابن عباس أنّ عبد الله بن أبيّ قال له أبوه : اطلب لي ثوباً من ثياب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فكفّنتني فيه ومره أن يصلّي عليّ قال : فاتاه فقال : يا رسول الله قد عرفت شرف عبد الله وهو يطلب إليك ثوباً من ثيابك فكفّنه فيه وتصلّي عليه .

فقال عمر : يا رسول الله قد عرفت عبد الله ونفاقه أتصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي عليه ؟ فقال : وأين ؟ فقال : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » قال : فإني سأزيد على سبعين فأنزل الله : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » الآية قال : فأرسل إليّ عمر فأخبره بذلك ، وأنزل الله : « سواء عليهم

أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم .

أقول : وقد ورد استغفار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي و صلواته عليه في بعض المراسيل من روايات الشيعة أيضاً أوردها العياشي والقمي في تفسيريهما ، وقد تقدم خبر القمي .

وهذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض و التدافع و اشتمالها على التعارض فيما بينها يدفعها الآيات الكريمة دفعاً يسناً لامرية فيه :

أما أولاً فلظهور قوله تعالى : « استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ظهوراً يسناً في أن المراد بالآية بيان لغوية الاستغفار للمنافقين دون التخيير ، وأن العدد جيء به لمبالغة الكثرة لا لخصوصية في السبعين بحيث ترجى المغفرة مع الزائد على السبعين .

والنبي ﷺ أجل من أن يجهل هذه الدلالة فيحمل الآية على التخيير ثم يقول سأزيد على سبعين ثم يذكره غيره بمعنى الآية فيصير على جهله حتى ينهيه الله عن الصلاة وغيرها بآية أخرى ينزلها عليه .

على أن جميع هذه الآيات المتعرضة للاستغفار للمنافقين و الصلاة عليهم كقوله : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وقوله : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، وقوله : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » تعلل النهي و اللغوية بكفرهم و فسقهم ، حتى قوله تعالى في النهي عن الاستغفار للمشركين : « ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » آية : ١١٣ من السورة ينهى عن الاستغفار معللاً ذلك بالكفر و خلود النار ، و كيف يتصور مع ذلك جواز الاستغفار لهم و الصلاة عليهم ؟

وثانياً : أن سياق الآيات التي منها قوله : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » الآية صريح في أن هذه الآية إنما نزلت و النبي ﷺ في سفره إلى تبوك ولما يرجع إلى المدينة ، وذلك في سنة ثمان ، وقد وقع موت عبد الله بن أبي بالمدينة سنة تسع من الهجرة كل ذلك مسلّم من طريق النقل .

فما معنى قوله في هذه الروايات : إن النبي ﷺ صلى على عبد الله وقام على قبره ثم أنزل الله عليه : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً » الآية ؟
وأعجب منه ما وقع في بعض الروايات السابقة أن عمر قال للنبي ﷺ : أتصلّي عليه وقد نهك عن الصلاة للمنافقين فقال : إن ربّي خير نبيّ ثم أنزل الله : « ولا تصلّ على أحد منهم » الآية .

وأعجب منه ما في الرواية الأخيرة من نزول قوله : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » الآية ، والآية من سورة المنافقون وقد نزلت بعد غزاة بني المصطلق وكانت في سنة خمس و عبد الله بن أبي حنيفة عندئذ وقد حكى في السورة قوله : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ .

وقد اشتمل بعض هذه الروايات وتعلّق به بعض من انتصر لها على أن النبي ﷺ إنما استغفر وصلى على عبد الله ليستميل قلوب رجال منافقين من الخزرج إلى الإسلام ، وكيف يستقيم ذلك ؟ وكيف يصحّ أن يخالف النبي ﷺ النصّ الصريح من الآيات استمالة لقلوب المنافقين ومداهنة معهم ؟ وقد هدده الله على ذلك بأبلغ التهديد في مثل قوله « إذا لا زفناك ضعف الحياة وضعف المماتة » الآية أسرى : ٧٥ . فالوجه أن هذه الروايات موضوعة يجب طرحها بمخالفة الكتاب .

وفي الدر المنثور في قوله : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالم » الآية أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن عليّ بن أبي طالب خرج مع النبي ﷺ حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك ، وعليّ يبكي ويقول : تخلفني مع الخوالم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة .

أقول : والرواية مروية بطرق كثيرة من طرق الفريقين .

وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر ﷺ في قوله : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالم » قال : مع النساء .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق في المصنّف وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فقل من غزوة تبوك

فأشرف على المدينة قال : لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتهم في مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه . قالوا : يا رسول الله و كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال : حبسهم العذر .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، الآيتين قيل : إن الآية الأولى نزلت في عبد الله بن زائدة وهو ابن أم مكتوم وكان ضريب البصر جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إنني شيخ ضريب خفيف الحال نحيف الجسم وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزله الآية . عن الضحاك ، وقيل : نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه . عن قتادة .

و الآية الثانية نزلت في البكائين وهم سبعة نفر : منهم عبد الرحمان بن كعب و علبة بن زيد وعمرون ثعلبة ابن غنمة وهؤلاء من بني النجاش ، وسالم بن عمير وهرمي بن عبدالله وعبدالله بن عمرو بن عوف [أ] وعبدالله بن مغفل من مزينة جاؤوا إلى رسول الله فقالوا يا رسول الله احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . عن أبي حمزة الثمالي .

وقيل : نزلت في سبعة من قبائل شتى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : احملنا على الخفاف والنعال . عن محمد بن كعب و ابن إسحاق .

وقيل : كانوا جماعة من مزينة . عن مجاهد ، وقيل : كانوا سبعة من فقراء الأنصار فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين ، والعباس بن عبد المطلب رجلين ، و يامين بن كعب النضري ثلاثة عن الواقدي قال : وكان الناس يتبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين ألفاً منهم عشرة آلاف فارس

أقول : والروايات في أسماء البكائين مختلفة اختلافاً شديداً .

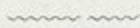
وفي تفسير القمي قال : قال : وإنما سأل هؤلاء البكؤون نعلًا يلبسونها .

وفي الاماني بإسناده عن ثعلبة عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « عالم الغيب والشهادة » فقال : الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان .

أقول : وهو من باب إراءة بعض المصاحيق و اللفظ أعم .

و في تفسير القميّ قال : ولما قدم النبي ﷺ من تبوك كان أصحابه المؤمنون يتعرّضون المنافقين ويؤذونهم فأنزل الله : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، إلى آخر الآيتين .

و في المجمع قيل : نزلت الآيات في جدّ بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً ، ولما قدم النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم المدينة راجعاً عن تبوك قال : لاتجالسوهم ولا تكلموهم . عن ابن عباس .



الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَةً لَهُمُ مَسِيئَةٌ لَّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُعْتَمِدُونَ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

﴿ بيان ﴾

الكلام جار على الغرض السابق يبين به حال الأعراب في كفرهم ونفاقهم وإيمانهم وفي خلال الآيات آية الصدقة .

قوله تعالى : « الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » الآية قال الراغب في المفردات : العرب ولد إسماعيل ، و الأعراب جمعه في الأصل ، وصار ذلك اسماً لسكان البادية : « قالت الأعراب آمنّا . الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً . و من الأعراب من يؤمن بالله و اليوم الآخر » وقيل في جمع الأعراب أعراب قال الشاعر :

أعراب ذو وفخر بافك وألسنة لطاف في المقال

و الأعرابي في التعارف صار اسماً للمنسوب إلى سكان البادية و العربي المفصح و الأعراب البيان انتهى موضع الحاجة . يبين تعالى حال سكان البادية و أنهم أشدّ كفراً و نفاقاً لأنهم لم يهملوا المدنية و الحضارة ، و حرمانهم من بركات الإنسانية من العلم و الأدب أفسى و أجفى ، فهم أجدر و أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصلية و الأحكام الشرعية من فرائض و سنن و حلال و حرام .

قوله تعالى : « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً و يتربص بكم الدوائر » الآية قال في المجمع : المغرم الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غير خيانة ، وأصله لزوم الأمر ، ومنه قوله : إن عذابها كان غراماً ، وحبّ غرام أي لازم ، و الغريم يقال لكل واحد من المتدائنين للزوم أحدهما الآخر و غرّمته كذا أي ألزّمته إياه في ماله - انتهى .

و الدائرة الحادثة و تغلب في الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزّل كلّ يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم و الرجوع الى رسوم الشرك و الضلال .

و قوله : « يتخذ ما ينفق مغرماً » أي يفرض الإنفاق غراماً أو المال الذي ينفقه

مغرمًا - على أن يكون ما مصدرية أو موصولة - و المراد الإنفاق في الجهاد أو أي سبيل من سبل الخير على ما قيل ، ويمكن أن يكون المراد الإنفاق في خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئة لما سيجيء بعد عدة آيات من حكم أخذ الصدقة من أموالهم ، و يؤيده ما في الآية التالية من قوله : « ويتخذ ما ينفق قربات عند الله و صلوات الرسول » فإنه كالتوطئة لقوله في آية الصدقة : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

فمعنى الآية : ومن سكن البادية من يفرض الإنفاق في سبيل الخير أو في خصوص الصدقات غرمًا وخسارة و ينتظر نزول الحوادث السيئة بكم عليهم دائرة السوء - قضاء منه تعالى أو دعاء عليهم - والله سميع للأقوال عليم بالقلوب .

قوله تعالى : « و من الأعراب من يؤمن بالله و اليوم الآخر و يتخذ ما ينفق قربات عند الله و صلوات الرسول » الخ الظاهر أن قوله : « و صلوات الرسول » عطف على قوله : « ما ينفق » و أن الضمير في قوله : « ألا إنها قربة » عائد إلى ما ينفق و صلوات الرسول .

و معنى الآية : و من الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك و يؤمن باليوم الآخر فيصدق الحساب و الجزاء و يتخذ إنفاق المال لله و ما يتبعه من صلوات الرسول و دعواته بالخير و البركة كل ذلك قربات عند الله و تقرّبات منه إليه ألا إن هذا الإنفاق و صلوات الرسول قربة لهم ، و الله يعدهم بأنّه سيدخلهم في رحمته لأنّه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به و المطيعين له .

قوله تعالى : « و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان » الخ القراءة المشهورة « و الأنصار » بالكسر عطفًا على « المهاجرين » و التقدير : السابقون الأولون من المهاجرين و السابقون الأولون من الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان و قرء يعقوب : و الأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب .

و قد اختلفت الكلمة في المراد بالسابقين الأولين فقيل : المراد بهم من صلّى إلى القبليتين ، وقيل : من بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية ، وقيل : هم أهل بدر خاصة ،

وقيل : هم الذين أسلموا قبل الهجرة ، و هذه جميعاً وجوه لم يوردوا لها دليلاً من جهة اللفظ .

والذي يمكن أن يؤيده لفظ الآية بعض التأيد هو أن بيان الموضوع - السابقون الأوتلون - بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم و أشخاصهم يشعر بأن الهجرة و النصرة هما الجهتان اللتان روعي فيهما السبق و الأوتلية .

ثم الذي عطف عليهم من قوله : « و الذين اتبعوهم بإحسان ، يذكروهم بما ينعتهم بالاتباع و يقيدهم بأن يكون بإحسان و الذي يناسب وصف الاتباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأوتلية فلا يقال : أول و تابع وإنما يقال : سابق و تابع و تصديق ذلك قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم و أموالهم - إلى أن قال - و الذين تبوءوا الدار و الإيمان من قبلهم - إلى أن قال - و الذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا و لأخواننا الذين سبقونا بالإيمان » الآيات الحشر : ١٠ .

فالمراد بالسابقين هم السابقون إلى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام إلى يوم القيامة .

و لكون السبق و يقابله اللحق و الاتباع من الأمور النسبية ، و لازمه كون مسلمي كل عصر سابقين في الإيمان بالقياس إلى مسلمي ما بعد عصرهم كما أنهم لاحقون بالنسبة إلى من قبلهم فيسند « السابقون » بقوله : « الأوتلون » ليدل على كون المراد بالسابقين هم الطبقة الأولى منهم .

و إذ ذكر الله سبحانه تلك الأصناف الثلاثة بقوله : « و الذين اتبعوهم بإحسان » و لم يقيد بتابعي عصر دون عصر و لا وصفهم بتقدم و أوتلية و نحوهما و كان شاملاً لجميع من يتبع السابقين الأوتلين كان لازم ذلك أن يصنف المؤمنون غير المناقذين من يوم البعثة إلى يوم البعث في الآية ثلاثة أصناف : السابقون الأوتلون من المهاجرين ، و السابقون الأوتلون من الأنصار ، و الذين اتبعوهم بإحسان ، و الصنفان الأوتلون فإفادان لوصف التبعية و إنهما إمامان متبوعان لغيرهما و الصنف الثالث ليس متبوعاً إلا بالقياس .

و هذا نعم الشاهد على أن المراد بالسابقين الأوتلين هم الذين أسسوا أساس الدين

و رفعوا قواعده قبل أن يشيد بنيانه و يهتز رأياته صنف منهم بالإيمان واللحوق بالنبي ﷺ و الصبر على الفتنة والتعذيب ، والخروج من ديارهم وأموالهم بالهجرة إلى الحبشة و المدينة ، و صنف بالإيمان و نصرة الرسول و إيوائه و إيواء من هاجر إليهم من المؤمنين و الدفاع عن الدين قبل وقوع الوقائع .

وهذا ينطبق على من آمن بالنبي ﷺ قبل الهجرة ثم هاجر قبل وقعة بدر التي منها ابتداء ظهور الإسلام على الكفر أو آمن بالنبي ﷺ و آواه وتهيأ لنصرته عند ما هاجر إلى المدينة .

ثم إن قوله : « و الذين اتبعوهم بإحسان » قيد فيه أتباعهم بإحسان و لم يرد الاتباع في الإحسان بأن يكون المتبوعون محسنين ثم يتبعهم التابعون في إحسانهم و يقتدوا بهم فيه - على أن يكون الباء بمعنى في - و لم يرد الاتباع بواسطة الإحسان - على أن يكون الباء للسببية أو الآلية - بل جيء بالإحسان منكرًا ، و الأنسب له كون الباء بمعنى المصاحبة فالمراد أن يكون الاتباع مقارنًا لنوع ما من الإحسان مصاحبًا له ، و بعبارة أخرى يكون الإحسان و صفًا للاتباع .

و إننا نجد تعالي في كتابه لا يذم من الاتباع إلا ما كان عن جهل و هو كاتباع المشركين آباءهم ، و اتباع أهل الكتاب أحبارهم و رهبانهم و أسلافهم عن هوى و اتباع الهوى و اتباع الشيطان فمن اتبع شيئاً من هؤلاء فقد أساء في الاتباع و من اتبع الحق لا لهوى متعلق بالأشخاص و غيرهم فقد أحسن في الاتباع قال تعالي : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله » الزمر : ١٨ و من الإحسان في الاتباع كمال مطابقة عمل التابع لعمل المتبوع و يقابله الإساءة فيه .

فالظاهر أن المراد بالذين اتبعوهم بإحسان أن يتبعوهم بنوع من الإحسان في الاتباع وهو أن يكون الاتباع بالحق - وهو اتباعهم لكون الحق معهم - و يرجع إلى اتباع الحق بالحقيقة بخلاف اتباعهم لهوى فيهم أو في اتباعهم ، و كذا مراقبة التطابق . هذا ما يظهر من معنى الاتباع بإحسان ، و أمّا ما ذكره من أن المراد كون الاتباع مقارنًا لإحسان في المتبوع عملاً بأن يأتي بالأعمال الصالحة و الأفعال الحسنة فهو

لا يلائم كلّ الملائمة التنكير الدالّ على النوع في الإحسان ، وعلى تقدير التسليم لامفرّ فيه من التقييد بما ذكرنا فإنّ الاتباع للحقّ وفي الحقّ يستلزم الإتيان بالأعمال الحسنة الصالحة دون العكس وهو ظاهر .

فقد تلخّص أنّ الآية تقسم المؤمنين من الأمة إلى ثلاثة أصناف : صنفان هما السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، والصنف الثالث هم الذين اتبعوهم بإحسان . وظهر ممّا تقدّم أوّلاً : أنّ الآية تمدح الصنفين الأوّلين ، بالسبق إلى الإيمان والتقدّم في إقامة صلب الدين و رفع قاعدته ، وتفضيلهم على غيرهم على ما يفيدُه السياق .

و ثانياً : أنّ « من » في قوله : « من المهاجرين والأنصار » تبعيضية لا بيانية لما تقدّم من وجه فضلهم ، ولما أنّ الآية تذكر أنّ الله رضي عنهم ورضوا عنه ، والقرآن نفسه يذكر أنّ منهم من في قلبه مرض ومنهم سمّاعون للمنافقين ، ومنهم من يسمّيه فاسقاً ، ومنهم من تبرأ النبي ﷺ من عمله ولامعنى لرضى الله عنهم ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

و ثالثاً : أنّ الحكم بالفضل ورضى الله سبحانه في الآية مقيّد بالإيمان والعمل الصالح على ما يعطيه السياق فإنّ الآية تمدح المؤمنين في سياق تدمّ فيه المنافقين بكفرهم وسيئات أعمالهم وبدلّ على ذلك سائر المواضع التي مدحهم الله فيها أو ذكرهم بخير و وعدهم وعداً جميلاً فقد قيّد جميع ذلك بالإيمان والعمل الصالح كقوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله » إلى آخر الآيات الثلاث الحشر : ٨ .

وقوله فيما حكاه من دعاء الملائكة لهم : « ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبَعُوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربّنا وأدخلهم جنّات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » المؤمن : ٨ .

وقوله : « تحمّد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم - إلى أن قال - وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً » الفتح : ٢٩ .

وقوله : « و الذين آمنوا و اتبعتهم ذرّيتهم بايمان الحقنا بهم ذرّيتهم و ما اتناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين » الطور : ٢١ انظر إلى موضع قوله : « بايمان » وقوله : « كل امرء الخ .

و لو كان الحكم في الآية غير مقيّد بقيد الايمان و العمل الصالح و كانوا مرضيين عند الله مغفوراً لهم أحسنوا أو أساؤوا و اتقوا أو فسقوا كان ذلك تكذيباً صريحاً لقوله تعالى : « فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » التوبة : ٩٦ ، وقوله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٨٠ ، وقوله : « والله لا يحب الظالمين » آل عمران : ٥٧ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة مطابقة أو التراماً أن الله لا يرضى عن الظالم و الفاسق و كل من لا يطيعه في أمر أو نهي ، وليست الآيات مما يقبل التقييد أو النسخ .

و كذا أمثال قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : « ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به » النساء : ١٢٣ .

على أن لازم عدم تقييد الحكم في هذه الآية تقييد جميع الآيات الدالة على الجزاء و المشتملة على الوعيد و التهديد ، وهي آيات جمّة في تقييدها اختلال نظام الوعد و الوعيد و إلغاء معظم الأحكام و الشرائع ، و بطلان الحكمة ، و لافرق في ذلك بين أن نقول بكون « من » تبعيضية و الفضل لبعض المهاجرين و الأنصار أو بيانية و الفضل للجميع و الرضى الإلهي للكلمة ، و هو ظاهر .

وقوله تعالى : « رضي الله عنهم و رضوا عنه » الرضى منّا موافقة النفس لفعل من الأفعال من غير تضادّ و تدافع يقال : رضي بكذا أي وافقه ولم يمتنع منه ، و يتحقق بعدم كراهته إياه سواء أحبّه أو لم يحبّه و لم يكرهه فرضى العبد عن الله هو أن لا يكره بعض ما يريد الله ولا يحبّ بعض ما يبغضه و لا يتحقق إلا إذا رضي بقضائه تعالى و ما يظهر من أفعاله التكوينية ، و كذا بحكمه و ما أراه منه تشريعاً ، و بعبارة أخرى إذا سلّم له في التكوين و التشريع و هو الإسلام و التسليم لله سبحانه .

وهذا بعينه شاهد آخر على ما تقدّم أن الحكم في الآية مقيّد بالايمان والعمل الصالح بمعنى أن الله سبحانه إنّما يمدح من المهاجرين و الأنصار و التابعين من آمن به

وعمل صالحاً ، ويخبر عن رضاه عنه وإعداده له جنّات تجري تحتها الأنهار .
وليس مدلول الآية أن من صدق عليه أنه مهاجر أو أنصاري أو تابع فإن الله قد
رضي عنه رضاً لا يسخط بعده أبداً وأوجب في حقّه المغفرة والجنّة سواء أحسن بعد ذلك أو
أساء ، اتقى أو فسق .

وأما رضاه تعالى فإنّما هو من أوصافه الفعلية دون الذاتية فإنّه تعالى لا يوصف
لذاته بما يصير معه معرضاً للتغيير والتبدّل كأن يعرضه حال السخط إذا عصاه ثمّ الرضى
إذا تاب إليه ، وإنّما يرضى ويسخط بمعنى أنّه يعامل عبده معاملة الراضي من إنزال
الرحمة وإيتاء النعمة أو معاملة الساخط من منع الرحمة وتسليط النقمة والعقوبة .

ولذلك كان من الممكن أن يحدث له الرضى ثمّ يتبدّل إلى السخط أو بالعكس
غير أنّ الظاهر من سياق الآية أن المراد بالرضى هو الرضى الذي لا يسخط بعده فإنّه
حكم محمول على طبيعة أختيار الأمة من سابقهم و تابعيهم في الإيمان والعمل الصالح ،
وهذا أمر لامدخاله للزمان فيه حتّى يصحّ فرض سخط بعد رضى وهو بخلاف قوله تعالى :
« لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الآية الفتح : ١٨ فإنّه رضى مقيد
بزمان خاصّ يصلح لنفسه لأن يفرض بعده سخط .

قوله تعالى : « ومنّ حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، الآية حول
الشيء ما يجاوره من المكان من أطرافه وهو ظرف ، و المراد العتوّ والخروج عن الطاعة ، و
الممارسة و التمرين على الشرّ و هو المعنى المناسب لقوله في الآية : « مردوا على النفاق ،
أي مرتّوا عليه وما رسوا حتّى اعتادوه .

ومعنى الآية : ومنّ في حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي
منافقون مرتّوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضاً منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم
أنت يا محمّد نحن نعلمهم سنعدّ بهم مرتّين ثمّ يردّون إلى عذاب عظيم .

وقد اختلفت كلماتهم في المراد من تعذيبهم مرتّين . ماهما المرّتان ؛ فقيل : يعني
مرّة في الدنيا بالسبي و القتل ونحوهما ومرّة بعذاب القبر ، وقيل : في الدنيا بأخذ الزكاة
وفي الآخرة بعذاب القبر ، وقيل بالجوع مرتّين وقيل مرّة عند الاحتضار ومرّة في القبر ،

وقيل : بإقامة الحدود وعذاب القبر ، وقيل مرة بالفضيحة في الدنيا ومرة بالعذاب في القبر وقيل غير ذلك ، ولادليل على شيء من هذه الأقوال ، وإن كان ولا بد فأنزلها أولها .

قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » الآية أي ومن الأعراب جماعة آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح وعمل آخر سيئ ، خلطوا هذا بذلك من المرجو أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم .

وفي قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » إيجاد الرجاء في نفوسهم لتكون نفوسهم واقعة بين الخوف والرجاء من غير أن يحيط بها اليأس والقنوط ، وفي قوله : « إن الله غفور رحيم » ترجيح جانب الرجاء .

قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم » التطهير إزالة الأوساخ والقذارات من الشيء ليصفي وجوده ويستعدّ للنمو والنماء وظهور آثاره وبركاته ، والتزكية إتماماً وإعطاء الرشد له بلحوق الخيرات وظهور البركات كالشجرة بقطع الزوائد من فروعها فتزيد في حسن نموها وجوده ثمرتها فالجمع بين التطهير والتزكية في الآية من لطيف التعبير .

فقوله : « خذ من أموالهم صدقة » أمر للنبي ﷺ بأخذ الصدقة من أموال الناس ولم يقل : من مالهم ليكون إشارة إلى أنها مأخوذة من أصناف المال ، وهي النقدان : الذهب والفضة ، والأنعام الثلاثة : الإبل والبقر والغنم ، والغلات الأربع : الحنطة والشعير والتمر والزبيب .

وقوله : « تطهرهم وتزكّيهم بها » خطاب للنبي ﷺ ، وليس وصفاً لحال الصدقة ، والدليل عليه ضمير بها الراجع إلى الصدقة أي خذ يا محمد من أصناف أموالهم صدقة تطهرهم أنت وتزكّيهم بتلك الصدقة أي أخذها .

وقوله : « وصلّ عليهم » الصلاة عليهم هي الدعاء لهم والسياق يفيد أنه دعاء لهم ولأموالهم بالخير والبركة وهو المحفوظ من سنة النبي ﷺ فكان يدعو لمعطي الزكاة لماله بالخير والبركة .

وقوله : « إن صلاتك سكن لهم » السكن ما يسكن إليه الشيء ، والمراد به أن نفوسهم تسكن إلى دعائك وتمثق به وهو نوع شكر لسعيهم في الله كما أن قوله تعالى في ذيل الآية : « والله سميع عليم » سكن يسكن إليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآية أو يتلوها .

و الآية تتضمن حكم الزكاة المالية التي هي من أركان الشريعة والملة على ما هو ظاهر الآية في نفسها ، وقد فسرتها بذلك أخبار متكاثرة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم .

قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده و يأخذ الصدقات و أن الله هو التواب الرحيم » استفهام إنكاري بداعي تشويق الناس إلى إيتاء الزكاة ، و ذلك أنهم إنما يؤتون الصدقة لله وإنما يسلمونها إلى الرسول أو إلى عامله و جابه بما أنه مأمور من قبل الله في أخذها فإيتاؤه إيتاء لله ، وأخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقة ، وقد قال تعالى في أمثاله : « إن الذين يبائعونك إنما يبيعون الله يداً الله فوق أيديهم » الفتح : ١٠ وقال : « وما رميت إذ رميت و لكن الله رمى » الأنفال : ١٧ و قال قولاً عاماً : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء : ٨٠ .

فإذا ذكر الناس بمثل قوله : « ألم يعلموا أن الله » الآية انبعثت رغباتهم واشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه ويمسوا بأيديهم يده تنزهه عن عوارض الأجسام و تعالى عن ملابسة الحدثان .

ومقارنته الصدقة بالتوبة لما أن التوبة تطهر وإيتاء الصدقة تطهر فالتصدق بصدقة توبة مالية كما أن التوبة بمنزلة الصدقة في الأعمال والحركات ، و لذلك عطف على صدر الآية قوله ذيلاً : « وأن الله هو التواب الرحيم » فذكر عباده باسميه التواب و الرحيم ، و جمع فيهما التوبة والتصدق .

وقد بان من الآية أن التصديق وإيتاء الزكاة نوع من التوبة .

قوله تعالى : « قل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون » الآية . الآية على ظاهر اتصالها بما قبلها كأنها تخاطب المؤمنين وتسوقهم وتحرضهم إلى إيتاء الصدقات .

غير أن لفظها مطلق لادليل على تخصيص خطابها بالمتصدقين من المؤمنين ولابعامة المؤمنين بل هي تشمل كل ذي عمل من الناس من الكفار والمنافقين والمؤمنين ولا أقل من شمولها للمنافقين والمؤمنين جميعاً .

إلا أن نظير الآية الذي مر أعني قوله في سياق الكلام على المنافقين : « وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون » التوبة: ٩٤ حيث ذكر الله ورسوله في رؤية عملهم ولم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء إلى أن الخطاب في الآية التي نحن فيها للمؤمنين خاصة فإن ضم إحدى الآيتين إلى الأخرى يخطر بالبال أن حقيقة أعمال المنافقين أعني مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفية على ملائكة الناس فإنما يعلم بها الله ورسوله بوحى من الله تعالى ، وأما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعني مقاصدهم منها وآثارها وفوائدها التي تنفع عليها وهي شيوع التقوى وإصلاح شؤون المجتمع الإسلامي وإمداد الفقراء في معاشهم وزكاة الأموال و نماؤها يعلمها الله تعالى ورسوله وشاهدها المؤمنون فيما بينهم .

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها وعامة فوائدها أو مضراتها في محيط كينونتها وتبدلها بأمثالها وتصورها في أطوارها زماناً بعد زمان وعصراً بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم ، ولا مشاهدتها والتأثر بها بقوم دون قوم .

فلو كان المراد من رؤية المؤمنين أعمالاً لعاملين ظهور آثارها ونتائجها وبعبارة أخرى ظهور أنفسها في البسة نتائجها لهم لم يختص المشاهدة بقوم دون قوم ولا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون ولا يراها المنافقون وهم أهل مجتمع واحد؟ وما بال أعمال المنافقين لا يشاهدها المؤمنون وقد كوّنت في مجتمعهم وداخلت أعمالهم؟

وهذا مع ما في الآية من خصوص السياق مما يقرّب الذهن أن يفهم من الآية معنى آخر فإن قوله : « ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون » يدل أولاً على أن قوله : « سيرى الله عملكم » الآية ناظر إلى ما قبل البعث وهي الدنيا لمكان قوله : « ثم تردون » فإنه يشير إلى يوم البعث وما قبله هو الدنيا .

وثانياً : أنهم إنما يوقفون على حقيقة أعمالهم يوم البعث وأما قبل ذلك فإنما

يرون ظاهرها ، وقد نبهنا على هذا المعنى كراراً في أبحاثنا السابقة ، و إذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة و ذكر رؤية الله و رسوله و المؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث في الدنيا وقد ذكر الله مع رسوله و غيره وهو عالم بحقائقها وله أن يوحى إلى نبيه بها كان المراد بها مشاهدة الله سبحانه ورسوله و المؤمنون حقيقة أعمالهم ، وكان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامة المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى « و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة : ١٤٣ وقد مر الكلام فيه في الجزء الأول من الكتاب .

وعلى هذا فمعنى الآية : وقل يا أيها الذين آمنوا ما كنتم تعملون من عمل خيراً أو شراً فسيشهد الله سبحانه حقيقة عملكم ويشاهدها رسوله و المؤمنون - وهم شهداء الأعمال - ثم تردون إلى الله عالم الغيب والشهادة يوم القيامة فيريك حقيقة عملكم .
و بعبارة أخرى : ما عملتم من عمل خيراً أو شراً فإن حقيقته مرئية مشهودة لله عالم الغيب والشهادة ثم لرسوله و المؤمنين في الدنيا ثم لكم أنفسكم معاصر العاملين يوم القيامة .

فالآية مسوقة لنذب الناس إلى مراقبة أعمالهم بتذكيرهم أن لأعمالهم من خير أو شر حقائق غير مستورة بستر ، وأن لها رقباء شهداء سيطلعون عليها ويرون حقائقها وهم رسول الله وشهداء الأعمال من المؤمنين والله من ورائهم محيط فهو تعالى براها وهم يرونها ، ثم إن الله سبحانه سيكشف عنها الغطاء يوم القيامة للعاملين أنفسهم كما قال : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ ففرق عظيم بين أن يأتي الإنسان بعمل في الخلوة لا يطلع عليه أحد ، وبين أن يعمل ذلك العمل بعينه بين ملائكة الناظرين جلوة وهو يرى أنه كذلك .

هذا في الآية التي نحن فيها ، وأما الآية السابقة : « يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون » فإن وجه الكلام فيها إلى أشخاص من المنافقين بأعيانهم بأمر الله فيها نبيه ﷺ أن يرد إليهم اعتذارهم ، ويذكر لهم أولاً أن

الله قد نبأهم أي النبي والذين معه من المؤمنين في جيش الإسلام أخبارهم بنزول هذه الآيات التي تنص أخبار المنافقين وتكشف عن مساوي أعمالهم .

ثم يذكر لهم أن حقيقة أعمالهم غير مستورة عن الله سبحانه ولا خفية عليه وكذلك رسوله وحده ولم يكن معه أحد من شهداء الأعمال ثم الله يكشف لهم أنفسهم عن حقيقة أعمالهم يوم القيامة .

فهذا هو الفرق بين الآيتين مع اتحادهما في ظاهر السياق حيث ذكر في الآية التي نحن فيها : الله ورسوله والمؤمنون ، وفي الآية السابقة : الله ورسوله ، واقتصر على ذلك . فهذا ما يعطيه التدبر في معنى الآية ومن لم يقنع بذلك ولم يرض دون أن يصور للآية معنى ظاهرياً فليقل إن ذكره تعالى « الله ورسوله » في خطاب المنافقين إنما هو لأجل أنهم إنما يريدون أن يكيدوا الله ورسوله ولاهم لهم في المؤمنين ، وأما ذكره تعالى : « الله ورسوله والمؤمنين » في الخطاب العام فإتما الغرض فيه تحريضهم على العمل الصالح في مشهد من الملأ الصالح ولم يعبا بحال غيرهم من الكفار والمنافقين . فتدبر .

قوله تعالى : « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليهم حكيم » الإرجاء التأخير ، والآية معطوفة على قوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » ومعنى إرجائهم إلى أمر الله أنهم لاسبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب أو جانب المغفرة فأمرهم يؤول إلى أمر الله ماشاء وأراد فيهم فهو النافذ في حقهم .

وهذه الآية تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين والمسيئين ، وإن ورد في أسباب النزول أن الآية نازلة في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله ﷺ وسيجيء إن شاء الله تعالى .

و كيف كان فالآية تخفي ما يؤول إليه عاقبة أمرهم وتبقيها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين : العليم والحكيم الدالين على أن الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه وحكمته ، وهذا بخلاف ما ذيل قوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » حيث قال : « عسى الله أن يتوب عليهم والله غفور رحيم » .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العياشي عن داود بن الحصين عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله » أي يثيبهم عليه ؟ قال : نعم .

وفيه عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله سبق بين المؤمنين كما سبق بين الخيل يوم الرهان .

قلت : أخبرني عمّا ندب الله المؤمن من الإسباق إلى الإيمان . قال : قول الله تعالى « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله » وقال : « السابقون السابقون أولئك المقربون » .

وقال : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه » فبدء بالمهاجرين الأولين على درجة سبقهم ثم تنسّى بالأنصار ثم تلك بالتابعين وأمرهم [هم] بإحسان فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده .

وفي تفسير البرهان عن مالك بن أنس عن أبي صالح عن ابن عباس قال : « و السابقون الأولون » نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وهو أسبق الناس كلهم بالإيمان ، و صلى على القبليتين ، وبأيع البيعتين بيعة بدر وبيعة الرضوان ، وهاجر الهجرتين مع جعفر من مكة إلى الحبشة ومن الحبشة إلى المدينة .

أقول : و في معناها روايات أخر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي حديثني يحيى بن كثير والقاسم ومكحول وعبد بن أبي لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : لما أنزلت هذه الآية : « و السابقون الأولون - إلى قوله - ورضوا عنه » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا لأمتي كلهم ، وليس بعد الرضا سخط .

أقول : معناه أن من رضي الله عنهم ورضوا عنه هم الذين جمعتهم الآية لا أن الآية

تدلّ على رضاه تعالى عن الأمة كلّهم فهذا ممّا يدفعه الكتاب بالمخالفة القطعيّة ، و كذا قوله : « و ليس بعد الرضا سخط » مراده ليس بعد الرضا المذكور في الآية سخط ، وقد قرّرناه فيما تقدّم لأنّه ليس بعد مطلق رضى الله سخط فهو ممّا لا يستقيم البتّة .

وفيه أخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن أبي صخر حميد بن زياد قال : قلت لمحمد بن كعب القرظي : أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّما أريد الفتن . فقال : إنّ الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوجب لهم الجنّة في كتابه محسنهم ومسيئهم . قلت : وفي أيّ موضع أوجب الله لهم الجنّة في كتابه ؟ قال : ألا تقرأ : « و السابقون الأوّلون » الآية أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الجنّة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم .

قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان يقول : يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدون بهم في غير ذلك . قال أبو صخر : فوالله لكانني لم أقرأها قبل ذلك ، وما عرفت تفسيرها حتّى قرأها عليّ محمد بن كعب .

أقول : هو - كما ترى - يسلم أنّ في أعمالهم حسنة وسيئة وطاعة وفسقاً غير أنّ الله رضي عنهم في جميع ذلك وغفرها لهم فلا يجازيهم بالسيئة سيئة ، وهو الذي ذكرنا في البيان المتقدم أنّ مقتضاه تكذيب آيات كثيرة قرآنيّة تدلّ على أنّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين والظالمين وأنّه لا يحبّهم ولا يهديهم ، وتفيد آيات أكثر من ذلك وهي أكثر الآيات القرآنيّة الدالّة على عموم جزاء الحسنّة بالحسنة والسيئة بالسيئة من غير مقيد وعليها تعتمد آيات الأمر والنهي وهي آيات الأحكام بجملتها .

ولو كان مدلول الآية هذا الذي ذكره كانت الصحابة على عريشتهم المحضّة واتّصالهم بزمان النبوة ونزول الوحي أحقّ أن يفهموا من الآية ذلك ، ولو كانوا يفهموا منها ذلك لما عامل بعضهم بعضاً بما ضبطه النقل الصحيح .

وكيف يمكن أن يتحقّق كلّهم بمضمون قوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » ، ويفهموا ذلك منه ثمّ لا يرضى بعضهم عن بعض وقد رضي الله عنه ، والراضي عن الله راض عمّا رضي الله عنه ، ولا يندفع هذا الأشكال بحديث اجتهادهم فإنّ ذلك لو سلّم يكون عندهم

في مقام العمل لا مصححاً للجمع بين صفتين متضادتين وجداناً و هما الرضا عن الله و عدم الرضا عما رضي الله عنه والكلام طويل .

وفيه أخرج أبو عبيد وسنيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمرو بن عامر الأنصاري أن عمر بن الخطاب قرء « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان » فرفع الأنصار ولم يلحق الواو في الذين فقال له زيد ابن ثابت : والذين فقال عمر : الذين فقال زيد : أمير المؤمنين أعلم فقال عمر : ائتوني بأبي ابن كعب فاتاه فسأله عن ذلك فقال أبي : والذين فقال عمر : فنعم إذن نتابع أياً .

أقول : ومقتضى قراءة عمر اختصاص المهاجرين بما يتضمنه قوله : « والسابقون الأولون » من المنقبة ومنقبة أخرى وهي كونهم متبوعين للأنصار كما يشير إليه الحديث الآتي .

وفيه أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : مرّ عمر برجل يقرء « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبي بن كعب . قال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه فلمّا جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم قال : وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : كنت أرى أننا رفعنا رفة لا يبلغها أحد بعدنا .

فقال أبي : تصديق ذلك في أوّل سورة الجمعة : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » وفي سورة الحشر : « والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان » وفي الأنفال : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » .

وفي الكافي بإسناده عن موسى بن بكر عن رجل قال : قال أبو جعفر عليه السلام : « الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » فأولئك قوم مؤمنون يحدثون في إيمانهم من الذنوب التي يعييبها المؤمنون ويكرهونها فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم .

أقول : ورواه العياشي عن زرارة عنه عليه السلام إلا أن فيه « مذنبون » مكان « مؤمنون » .

و في المجمع في قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » الآية قال : أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنهم ثلاثة نفر من الأنصار : أبو كنانة بن عبد المنذر و ثعلبة بن وداعة و أوس بن حذام تخلّفوا عن رسول الله ﷺ عند مخرجه إلى تبوك فلما بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلّف عن نبيّه ﷺ أيقنوا بالهلاك وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلّون أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ يحلّمهم ، وقال رسول الله ﷺ : وأنا أقسم لا أكون أول من حلّمهم إلا أن أومر فيهم بأمر .

فلما نزل : « عسى الله أن يتوب عليهم » حمد رسول الله ﷺ إليهم فحلّمهم فانطلقوا فجاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا : هذه أموالنا التي خلّقتنا عنك فخذها وتصدّق بها عنا . قال : ما أمرت فيها ، فنزل : « خذ من أموالهم صدقة » الآيات .

أقول : و في هذا المعنى روايات أخرى رواها في الدر المنثور بينها اختلاف في أسامي الرجال ، وفيها نزول آية الصدقة في خصوص أموالهم ، وبضعفها تظافر الروايات في نزول الآية في الزكاة الواجبة .

و فيه : و روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنها نزلت في أبي لبابة ولم يذكر غيره معه و سبب نزولها فيه ما جرى منه في بني قريظة حين قال : إن نزلتم علي حكمه فهو الذبح .

و في الكافي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : لما نزلت هذه الآية : « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم و تزكّهم بها » و أنزلت في شهر رمضان فأمر رسول الله ﷺ مناديه فنادى في الناس : إن الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة ففرض الله عزّ و جلّ عليهم من الذهب والفضة وفرض الصدقة من الإبل والبقر والغنم ، ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب فنادى بهم بذلك في شهر رمضان ، وعفى لهم عمّا سوى ذلك .

قال : ثمّ لم يفرض لشيء من أموالهم حتى حال عليه الحول من قابل فصاموا وأفطروا فأمر مناديه فنادى في المسلمين : أيها المسلمون زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم . قال : ثمّ

وجه عمال الصدقة وعمال الطسوق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عبدالله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتني بصدقة قال : اللهم صل على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى .

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن سليمان بن مهران عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « يأخذ الصدقات » قال : يقبلها من أهلها ويثيب عليها .

و في تفسير العياشي عن مالك بن عطية عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال علي بن الحسين عليه السلام : ضمنت على ربي أن الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في يد الرب ، وهو قوله : « هو يقبل التوبة عن عباده يأخذ الصدقات » .

أقول : وفي معناه روايات أخرى مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وعليه وأبي جعفر وأبي عبدالله عليه السلام .

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألت عن الأعمال تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : ما فيه شك . قال : رأيت قول الله « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » فقال : لله شهداء في خلقه .

أقول : و في معناه روايات متظافرة متكاثرة مروية في جوامع الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وفي أكثرها : أن «المؤمنون» في الآية هم الأئمة ، وانطباقها على ما قدّمناه من التفسير ظاهر .

و في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله « وآخرون مرجون لأمر الله » قال : قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة وجعفر وأشباههما من المسلمين ثم إنهم دخلوا في الإسلام فوحدوا الله وتركوا الشرك ، ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فيجب لهم الجنة ، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فيجب لهم النار فهم على تلك الحال مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام و في معناه روايات أخر .
وفي تفسير العياشي عن حمران قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المستضعفين قال :
هم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفار فهم المرجون لأمر الله .
وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : « وآخرون مرجون لأمر
الله » قال ؛ هم الثلاثة الذين خلفوا .

أقول : وروى مثله عن مجاهد وقتادة و أن أسماءهم هلال بن أمية و مرارة بن
الربيع و كعب بن مالك من الأوس والخزرج ، ولا تنطبق قصتهم على هذه الآية وسيجيء
إن شاء الله تعالى .

﴿ كلام في الزكاة و سائر الصدقة ﴾

الأبحاث الاجتماعية والاقتصادية وسائر الأبحاث المرتبطة بها جعلت اليوم حاجة
المجتمع من حيث أنه مجتمع إلى مال يختص به و يصرف لرفع حوائجه العامة في صف
البدبيات التي لا يشك فيها شك ولا يداخلها ريب فكثير من المسائل الاجتماعية
والاقتصادية - ومنها هذه المسألة - كانت في الأعصار السالفة مما يغفل عنها عامة الناس
ولا يشعرون بها إلا شعوراً فظرياً إجمالياً وهي اليوم من الأبحاث التي يعرفها العامة
والخاصة .

غير أن الإسلام بحسب ما بين من نفسية الاجتماع وهويته وشرع من الأحكام
المالية الراجعة إليها ، والأنظمة والقوانين التي رتبها في أطرافها ومتونها له اليد العليا
في ذلك .

فقد بين القرآن الكريم أن الاجتماع يصيغ من عناصر الأفراد المجتمعين صيغة
جديدة فيكون منهم هوية جديدة حية هي المجتمع ، وله من الوجود والعمر والحياة
والموت والشعور والإرادة والضعف والقوة والتكليف والإحسان والإساءة والسعادة
والشقاوة أمثال أو نظائر ما للإنسان الفرد وقد نزلت في بيان ذلك كآيات كثيرة قرآنية
كررتنا الإشارة إليها في خلال الأبحاث السابقة .

وقد عزلت الشريعة الإسلامية سهماً من منافع الأموال وفوائدها للمجتمع كالصدقة الواجبة التي هي الزكاة والخمس من الغنيمة ونحوها ، ولم يأت في ذلك ببدع فإن القوانين والشرائع السابقة عليها كشرعية هورابي وقوانين الروم القديم يوجد فيها أشياء من ذلك بل سائر السنن القومية في أي عصر وبين أية طائفة دارت لا يخلو عن اعتبار جهة مالية لمجتمعها فالمجتمع كيفما كان يحسن بالحاجة المالية في سبيل قيامه ورشده .

غير أن الشريعة الإسلامية تمتاز في ذلك من سائر السنن والشرائع بأمر يجب إمعان النظر فيها للحصول على غرضها الحقيقي ونظرها المصيب في تشريعها وهي :
أولاً : أنها اقتضت في وضع هذا النوع من الجهات المالية على كينونة الملك وحدوثه موجوداً ولم يتعد ذلك ، وبعبارة أخرى إذا حدثت مالية في ظرف من الظروف كغلة حاصلة عن زراعة أو ربح عائد من تجارة أو نحو ذلك بادرت فوضعت سهماً منها ملكاً للمجتمع وبقية السهام ملكاً لمن له رأس المال أو العمل مثلاً ، وليس عليه إلا أن يرد مال المجتمع وهو السهم إليه .

بل ربما كان المستفاد من أمثال قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، البقرة : ٢٩ و قوله : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ، النساء : ٤ أن الثروة الحادثة عند حدوثها للمجتمع بأجمعها ثم اختص سهم منها للفرد الذي نسميه المالك أو العامل ، وبقي سهم أعني سهم الزكاة أو سهم الخمس في ملك المجتمع كما كان فالمالك الفرد مالك في طول مالك وهو المجتمع ، وقد تقدم بعض البحث عن ذلك في تفسير الآيتين .

وبالجملة فالذي وضعته الشريعة من الحقوق المالية كالزكاة والخمس مثلاً إنما وضعت في الثروة الحادثة عند حدوثها فشركت المجتمع مع الفرد من رأس ثم الفرد في حريته من ماله المختص به يضعه حيث يشاء من أغراضه المشروعة من غير أن يعترضه في ذلك معترض إلا أن يدهم المجتمع من المخاطر العامة ما يجب معه صرف شيء من رؤوس الأموال في سبيل حفظ حياته كعدو هاجم يريد أن يهلك الحرث والنسل ، والمخمصة

العامّة التي لا تبقى ولا نذر .

وأما الوجوه الماليّة المتعلّقة بالنفوس أو الضياع والعقار أو الأموال التجاريّة عند حصول شرائط أو في أحوال خاصّة كالعشر المأخوذ في الثغور ونحو ذلك فإنّ الإسلام لا يرى ذلك بل يعدّه نوعاً من الغصب وظلماً يوجب تحديداً في حريّة المالك في ملكه . ففي الحقيقة لا يأخذ المجتمع من الفرد إلا مال نفسه الذي يتعلّق بالغنيمة والفائدة عند أوّل حدوثه ويشارك الفرد في ملكه على نحو يبيّنه الفقه الإسلاميّ مشروحاً ، وأما إذا انعقد الملك واستقرّ مالكه فلا اعتراض لمعترض على مالك في حال أو عند شرط ، يوجب قصور يده وزوال حرّيّة .

وثانياً : أنّ الإسلام يعتبر حال الأفراد في الأموال الخاصّة بالمجتمع كما يعتبر حال المجتمع بل الغلبة في ما يظهر من نظره لحالهم على حاله فإنّه يجعل السهم في الزكاة ثمانية لا يختصّ بسبيل الله منها إلا سهم واحد وباقي السهم للأفراد الكفراء والمساكين والعاملين والمؤلّفة قلوبهم وغيرهم ، وفي الخمس ستّة لم يجعل لله سبحانه إلا سهم واحد والباقي للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وذلك أنّ الفرد هو العنصر الوحيد لتكوّن المجتمع ، ورفع اختلاف الطبقات الذي هو من أصول برنامج الإسلام ، وإلقاء التعادل والتوازن بين قوى المجتمع المختلفة وتثبيت الاعتدال في مسيره بأركانه وأجزائه لا يتمّ إلا بإصلاح حال الأجزاء أعني الأفراد وتقريب أحوالهم بعضهم من بعض .

وأما قصر مال المجتمع في صرفه في إيجاد الشوكة العامّة والتزيينات المشتركة ورفع القصور المشيدة العالية والآبنة الرفيعة الفاخرة وتخلية القويّ والضعيف أو الغنيّ والفقير على حالهما لا يزيدان كلّ يوم إلا ابتعاداً فلتندلّ التجربة الطويلة القطعيّة أنّه لا يدفع غائلاً ولا يغني طائلاً .

وثالثاً : أنّ للفرد من المسلمين أن يصرف ما عليه من الحقّ الماليّ الواجب كالزكاة مثلاً في بعض أبواب السهم والفقير والمسكين من دون أن يؤدّيه إلى وليّ الأمر أو

عامله في الجملة فيردّه هو إلى مستحقّيه .

وهذا نوع من الاحترام الاستقلاليّ الذي اعتبره الإسلام لأفراد مجتمعه نظير إعطاء النعمة الذي لكل فرد من المسلمين أن يقوم به لمن شاء من الكفار المحاربين وليس للمسلمين ولا لوليّ أمرهم أن ينقض ذلك .

نعم لوليّ الأمر إذا رأى في مورد أن مصلحة الإسلام و المسلمين في خلاف ذلك أن ينهى عن ذلك فيجب الكفّ عنه لوجوب طاعته .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
 لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 أَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ
 أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَمُوتُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨)
 أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى
 شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)
 لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ (١١٠) .

﴿ بيان ﴾

تذكر الآيات طائفة أخرى من المنافقين بنوا مسجد الضرار وتفسير حالهم إلى حال
 جماعة من المؤمنين بنوا مسجداً لتقوى الله .

قوله تعالى « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا » إلى آخر الآية الضرار
 والمضارة إيصال الضرر ، والإرصاد اتخاذ الرصد والانتظار والترقب .
 وقوله : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا » إن كانت الآيات نازلة مع ما تقدم
 الآيات النازلة في المنافقين فالعطف على من تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين
 بقوله : ومنهم أي ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .
 وإن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استئنافية وقوله : « الَّذِينَ اتَّخَذُوا »
 مبتدأ خبره قوله : « لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا » ويمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضاً ،

وقد ذكر المفسرون في إعراب الآية وجوهاً أخرى لا تخلو عن تكلف تركناها .
وقد بين الله غرض هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد وهو الضرار بغيرهم
والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، والأغراض المذكورة
خاصة ترتبط إلى قصة خاصة بعينها ، وهي على ما اتفق عليه أهل النقل أن جماعة من بني
عمرو بن عوف بنوا مسجداً قبا وسألوا النبي أن يصلي فيه فصلى فيه فحسداهم جماعة من بني غنم
ابن عوف وهم منافقون فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا ليضربوا به ويفرقوا المؤمنين منه
و ينتظروا لأبي عامر الراهب الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبي
ﷺ من المدينة ، وأمرهم أن يستعدوا للقتال معه .

ولما بنوا مسجد أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك وسألوه أن يأتيه ويصلي
فيه ويدعو لهم بالبركة فوعدهم إلى الفراغ من أمر تبوك والرجوع إلى المدينة فنزلت
الآيات .

فكان مسجدهم لمضارة مسجد قبا ، وللكفر بالله ورسوله ، ولتفريق المؤمنين المجتمعين
في قبا ، ولإرصاد أبي عامر الراهب المحارب لله ورسوله من قبل ، وقد أخبر الله سبحانه عنهم
أنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى وهو التسهيل للمؤمنين
بتكثير معابد يعبد فيها الله ، وشهد تعالى بكذبهم بقوله : « وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى
والله يشهد إنهم لكاذبون » .

قوله تعالى : « لا تقم فيه أبداً » إلى آخر الآية بدء بنهي النبي ﷺ عن أن
يقوم فيه ثم ذكر مسجد قبا و رجح القيام فيه بعد ما مدحه بقوله : « لمسجد أسس
على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » فمدحه بحسن نيّة مؤسسّيه من أول يوم
وبنى عليه رجحان القيام فيه على القيام في مسجد الضرار .

و الجملة وإن لم تفد تعيين القيام في مسجد قبا حيث عبّر بقوله : « أحق غير أن
سبق النهي عن القيام في مسجد الضرار يوجب ذلك ، وقوله تعالى : « فيه رجال يحبون
أن يتطهروا » تعليل للرجحان السابق ، وقوله : « والله يحب المطهّرين » متمم للتعليل
المذكور ، وهذا هو الدليل على أن المراد بقوله : « لمسجد أسس » الخ هو مسجد قبا لا

مسجد النبي أو غيره .

ومعنى الآية : لا تقم أي للصلاة في مسجد الضرار أبداً ، أقسم ، لمسجد قبا الذي هو مسجد أسس على تقوى الله من أول يوم أحق وأحرى أن تقوم فيه للصلاة وذلك أن فيه رجالاً يحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس والأحداث والله يحب المطهرين وعليك أن تقوم فيهم .

وقد ظهر بذلك أن قوله : « لمسجد أسس » الخ بمنزلة التعليل لرجحان المسجد على المسجد وقوله : « فيه رجال » الخ لإفادة رجحان أهله على أهله ، وقوله الآتي « أفمن أسس بنيانه » الخ لبيان الرجحان الثاني .

قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير » إلى آخر الآية شفا البئر طرفه ، وجرف الوادي جانبه الذي انحف بالماء أصله وهار الشيء يهار فهو هائر وربما يقال : هار بالقلب وانهار ينهار انهاراً أي سقط عن لين فقوله : « على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم » استعارة تخيلية شبه فيها حالهم بحال من بنى بنياناً على نهاية شفير واد لا ثقة بثباتها وقوامها فتساقطت بما بني عليه من البنيان وكان في أصله جهنم فوقع في ناره ، وهذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من الله ورضوان منه أي جرى في حياته على اتقاء عذاب الله وابتغاء رضاه .

وظاهر السياق أن قوله : « أفمن أسس بنيانه على تقوى » الخ وقوله : « أم من أسس بنيانه على شفا جرف » الخ مثالان يمثل بهما بنيان حياة المؤمنين والمنافقين وهو الدين والطريق الذي يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله وابتغاء رضوانه عن يقين به ، ودين المنافق مبني على التزلزل والشك .

ولذلك أعقبه الله تعالى وزاد في بيانه بقوله : « لا يزال بنيانهم » يعني المنافقين « الذي بنوا ريبة » و شكاً « في قلوبهم » لا يتعدى إلى مرحلة اليقين « إلا أن تقطع قلوبهم » فتتلاشى الريبة بتلاشيها « والله عليم حكيم » ولذلك بضع هؤلاء ويرفع أولئك .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع قال المفسرون : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم و صلى فيه فحسدتهم جماعة من المنافقين من بني غنم ابن عوف فقالوا نبني مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد ، وكانوا اثني عشر رجلاً وقيل : خمسة عشر رجلاً منهم : ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير ونبتل بن الحارث فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا .

فلما بنوه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الممطرة والليلة الشامية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا و تدعو بالبركة فقال ﷺ : إني على جناح سفر ولو قدمنا أمتينا كم إن شاء الله فصلينا لكم فيه فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد .

قال : فوجه رسول الله ﷺ عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلاني ومالك ابن الدخشم وكان مالك من بني عمرو بن عوف فقال لهما : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقا ، وروي أنه بعث عمار بن ياسر ووحشياً فحرّقا ، وأمر بأن يتخذ كناسة يلقي فيها الجيف .

أقول : وفي رواية القمي أنه ﷺ بعث لذلك مالك بن دخشم الخزاعي وعامر ابن عدي أخا بني عمرو بن عوف فجاء مالك وقال لعامر انتظرنني حتى أخرج ناراً من منزلي فدخل وجاء بنار ، وأشعل في سعف النخل ثم أشعله في المسجد ففترقوا ، وقعد زيد بن حارثة حتى احترقت البنية ثم أمر بهدم حائطه .

والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق أهل السنة والروايات متقاربة إلا أن في أسامي من بعثه النبي ﷺ اختلافاً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال : كان الذين بنوا

مسجد الضرار اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد بن عبيد بن زيد وثعلبة بن حاطب و هلال ابن أمية ومعتب بن قشير وأبو حبيبة بن الأزعر وعباد بن حنيف و جارية بن عامر وابناء مجمع وزيد ونبتل بن الحارث وبخدج بن عثمان^(١) ووريدة بن ثابت .

وفي المجمع في قوله : « وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله » قال : هو أبو عامر الراهب ، قال وكان من قصته أنه كان قد تهرّب في الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده ، وحرّز عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، وخرج إلى الروم وتنصّر وهو أبو حنظلة فسيل الملائكة الذي قتل مع النبي ﷺ يوم أحد وكان جنباً ففسلته الملائكة .

وسمى رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق ، وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدوا وابنوا مسجداً فإني أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود ، وأخرج محمداً من المدينة فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم .

أقول : وفي معناه عدّة من الروايات .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : مسجد قبا .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره ، وروى هذا المعنى أيضاً في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمار عنه عليه السلام .

وقد روى في الدر المنثور بغير واحد من الطرق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : هو مسجدي هذا ، وهو مخالف لظاهر الآية وخاصة قوله : « فيه رجال » الخ فإن الكلام موضوع في القياس بين المسجدين : مسجد قبا ومسجد الضرار والقياس بين أهلهما ولا غرض يتعلّق بمسجد النبي ﷺ .

وفي تفسير العياشي عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » قال : الذين يحبون أن يتطهروا وناظف الوضوء وهو الاستنجاء بالماء وقال : قال : نزلت هذه في أهل قبا .

(١) وفي السيرة : بجاد بن عثمان وهو الصحيح (ب)

وفي المجمع في الآية قال : يحبسون أن يتطهروا بالماء عن الغائط والبول وهو المروي
عن السيدين : الباقر والصادق عليهما السلام وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لأهل قبا : ما ذا
تفعلون في طهركم فإن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء ؟ قالوا : نغسل أثر الغائط .
فقال : أنزل الله فيكم : والله يحب المطهّرين .

وفيه في قراءة قوله : « إلا أن تقطع قلوبهم » وقرء يعقوب وسهل : « إلى أن ، على
أنه حرف الجر » ، وهو قراءة الحسن و قتادة و الجحدري و جماعة ، و رواه البرقي عن
أبي عبدالله عليه السلام :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ
 وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
 الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا
 أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ
 إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ
 يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ
 تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ
 مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧)
 وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
 عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ
 هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
 الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
 عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا

نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوْنُ مَوْطَأًا يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
 مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)
 وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ
 اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا
 نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
 وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣).

﴿ بيان ﴾

آيات في أغراض متفرقة يجمعها غرض واحد مرتبط بغرض الآيات السابقة فإنها
 تتكلم حول القتال فمنها ما يمدح المؤمنين ويعددهم وعداً جميلاً على جهادهم في سبيل الله
 ومنها ما ينهى عن التودد إلى المشركين والاستغفار لهم ، ومنها ما يدل على توبته تعالى
 للثلاثة المخلفين عن غزوة تبوك ، ومنها ما يفرض على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب
 أن يخرجوا مع النبي ﷺ إذا أراد الخروج إلى قتال ولا يتخلفوا عنه ، ومنها ما يفرض
 على الناس أن يلازم بعضهم البيضة للتفقه في الدين ثم تبليغه إلى قومهم إذا رجعوا إليهم
 ومنها ما يقضي بقتال الكفار ممن يلي بلاد الإسلام .

قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ،
 إلى آخر الآية الاشارة هو قبول العين المبيعة بنقل الثمن في المبايعه .

والله سبحانه يذكر في الآية وعده القطعي للذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم
 وأموالهم بالجنة ، ويذكر أنه ذكر ذلك في التوراة والإنجيل كما يذكره في
 القرآن .

وقد قلبه سبحانه في قالب التمثيل فصور ذلك بيعاً ، وجعل نفسه مشترياً والمؤمنين بايعين ، وأنفسهم وأموالهم سلعة ومبيعاً ، والجنّة ثمناً ، والتوراة والإنجيل والقرآن سنداً للمبايعة ، وهو من لطيف التمثيل ثم يبشّر المؤمنين ببيعهم ذلك ، ويهنّئهم بالفوز العظيم .

قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون السائحون » إلى آخر الآية يصف سبحانه المؤمنين بأجل صفاتهم ، والصفات مرفوعة بالقطع أي المؤمنون هم التائبون العابدون الخ فهم التائبون لرجوعهم من غير الله إلى الله سبحانه العابدون له ويعبدونه بألسنتهم فيحمدونه بجميل الثناء ، وبأقدامهم فيسيحون ويجولون من معهد من المعاهد الدينية و مسجد من مساجد الله إلى غيره ، وبأبدانهم فيركعون له ويسجدون له .

هذا شأنهم بالنسبة إلى حال الانفراد وأما بالنسبة إلى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف في السنة الدينية وناهون عن المنكر فيها ثم هم حافظون لحدود الله لا يتعدونه في حالتي انفرادهم واجتماعهم خلوتهم وجلوتهم ، ثم يأمر النبي ﷺ بأن يبشّرهم وقد بشّرهم تعالى نفسه في الآية السابقة ، وفيه من كمال التأكيد ما لا يقدر قدره .

وقد ظهر بما قررنا أولاً وجه الترتيب بين الأوصاف التي عدّها لهم فقد بدء بأوصافهم منفردين وهي التوبة والعبادة والسياحة والركوع والسجود ثم ذكر مالهم من الوصف الخاص بهم المنبعث عن إيمانهم مجتمعين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وختم بمالهم من جميل الوصف في حالتي انفرادهم واجتماعهم وهو حفظهم لحدود الله ، وفي التعبير بالحفظ مضافاً إلى الدلالة على عدم التعدّي دلالة على الرقوب والاهتمام .

وثانياً : أن المراد بالسياحة - ومعناه السير في الأرض - على ما هو الأناجب بسياق الترتيب هو السير إلى مساكن ذكر الله وعبادته كالمساجد ، وأما القول بأن المراد بالسياحة الصيام أو السياحة في الأرض للاعتبار بعجائب قدرة الله وما جرى على الأمم الماضية مما تحكيه ديارهم وآثارهم أو المسافرة لطلب العلم أو المسافرة لطلب الحديث خاصة فهي وجوه غير سديدة .

أما الأول فلا دليل عليه من جهة اللفظ البتة ، وأما الوجوه الأخر فإنها وإن

كانت ربما استفيد النذب إليها من مثل قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » المؤمن : ٨٢ ، وقوله : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » الآية ١٢٢ من السورة إلا أن إرادتها من قوله : « السائحون » تبطل جودة الترتيب بين الصفات المنضودة .

وثالثاً : أن هذه الصفات الشريفة هي التي يتم بها إيمان المؤمن المستوجب للوعد القطعي بالجنة المستتبع للدشارة الإلهية والنبوية وهي الملازمة للقيام بحق الله المستلزمة لقيام الله سبحانه بما جعله من الحق على نفسه .

قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى » إلى آخر الآيتين معنى الآية ظاهر غير أنه تعالى لما ذكر في الآية الثانية التي تبين سبب استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافراً أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبين له أنه عدو لله ، فدل ذلك على أن تبين كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد إلى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازماً لكونهم أعداء لله فإذا تبين للنبي والذين آمنوا أن المشركين أعداء لله كشف ذلك لهم عن حكم ضروري وهو عدم جواز الاستغفار لكونه لغواً لا يترتب عليه أثر وخضوع الإيمان مانع أن بلغوا العدم مع ساحة الكبرياء .

و ذلك أنه تارة يفرض الله تعالى عبداً عدواً لله مبعضاً له لتقصير من ناحيته وسوء من عمله فمن الجائز بالنظر إلى سعة رحمة الله أن يستغفر له ويسترحم إذا كان العبد متذلاً غير مستكبر ، وتارة يفرض العبد عدواً لله محارباً له مستكبراً مستعلياً كأرباب الجحود والعناد من المشركين ، والعقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعة بمسألة أو استغفار إلا أن يتوب ويرجع إلى الله وينسلخ عن الاستكبار والعناد ويتلبس بلباس الذلة والمسكنته فلامعنى لسؤال الرحمة والمغفرة لمن يأبى عن القبول ، ولالاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ والتناول إلا الهزؤ بمقام الربوبية واللعب بمقام العبودية وهو غير جائز بضرورة من حكم الفطرة ،

وفي الآية نفي الجواز بنفي الحق بدليل قوله : « ما كان للنبي والذين آمنوا » أي ما كانوا يملكون الاستغفار بعد ما تبين لهم كذا وكذا ، وقد تقدم في ذيل قوله

تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله ، الآية ١٧ من السورة أن يحكم الجواز مسبقاً في الشرع بجعل الحق . »

و المعنى أن النبي والذين آمنوا بعد ما ظهر و تبين بتبين الله لهم أن المشركين أعداء لله مخلدون في النار لم يكن لهم حق يملكون به أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى منهم ، وأما استغفار إبراهيم لأبيه المشرك فإنه ظن أنه ليس بعدو معاند لله وإن كان مشركاً فاستعطفه بوعدها وإياه فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله معاند على شركه وضلاله تبرأ منه .

وقوله : « إن إبراهيم لأواه حليم ، تعليل لوعده إبراهيم واستغفاره لأبيه بأنه تحمّل جفوة أبيه ووعده وعداً حسناً لكونه حليماً و استغفر له لكونه أواهاً ، والأواه هو الكثير التآؤ خوفاً من ربه و طمعاً فيه . »

قوله تعالى : « وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إزهداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، إلى آخر الآيتين الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين . »

أما الآية الأولى أعني قوله : « وما كان الله ليضلّ » الخ ففيه تهديد للمؤمنين بالاضلال بعد الهداية إن لم يتقوا ما بين الله لهم أن يتقوه و يجتنبوا منه ، وهو بحسب ما ينطبق على المورد أن المشركين أعداء لله لا يجوز الاستغفار لهم و التودد إليهم فعلى المؤمنين أن يتقوا ذلك و إلا فهو الضلال بعد الهدى ، و عليك أن تذكر ما قدمناه في تفسير قوله تعالى : « اليوم ينسّ الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم و اخشوني » المائدة : ٣ في الجزء الخامس من الكتاب و في تفسير آيات ولاية المشركين و أهل الكتاب الواقعة في السور المتقدمة .

و الآية بوجه في معنى قوله تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الأنفال : ٥٣ و ما في معناه من الآيات ، و هي جميعاً تهتف بأن من السنة الإلهية أن تستمر على العبد نعمته و هدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران و التعدي فيسلب الله منه النعمة والهداية .

و أما الآية الثانية أعني قوله : «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيَمِيتُ
وَالْمَلِكُ مِنَ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَوْلَى اللَّهِ لَانصُرَ ، فذيلها بيان لعلّة الحكم السابق المدلول عليه بالآية
السابقة وهو النهي عن تولّي أعداء الله أو وجوب التبرّي منهم إذ لا وليّ ولا نصير حقيقة
إلا الله سبحانه وقد بيّنه للمؤمنين فعليهم بدلالة من إيمانهم أن يقصروا التولّي عليه تعالى
أو من أذن في تولّيهم له من أوليائه و ليس لهم أن يتعدوا ذلك إلى تولّي أعدائه كائنين
من كانوا .

و صدر الآية بيان لسبب هذا السبب و هو أن الله سبحانه هو الذي يملك كل
شيء و يده الموت و الحياة فالإيه تدبير كل أمر فهو الولي لا ولي غيره .
وقد ظهر من عموم البيان و العلة في الآيات الأربع أن الحكم عام وهو وجوب
التبرّي أو حرمة التولّي لأعداء الله سواء كان التولّي بالاستغفار أو بغير ذلك و سواء كان
العدو مشركاً أو كافراً أو منافقاً أو غيرهم من أهل البدع الكافرين بآيات الله أو المصرّ بن علي
بعض الكبار كالمرابي المحارب لله و رسوله .

قوله تعالى : «لقد تاب الله على النبي و المهاجرين و الأنصار الذين ، إلى آخر
الآيتين الساعة مقدار من الزمان فساعة العسرة الزمان الذي تمسرفيه الحياة لابتلاء
الإنسان بما تشقّ معه العيشة عليه كعطش أو جوع أو حر شديد أو غير ذلك ، و الزيف
هو الخروج من الطريق و الميل عن الحق ، و إضافة الزيف إلى القلوب و ذكر ساعة
العسرة و سائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على أن المراد بالزيف الاستنكاف عن امتثال
أمر النبي ﷺ و الخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج إلى الجهاد أو الرجوع إلى
الأوطان بقطع السير تحرّجاً من العسرة و المشقة التي واجهتهم في مسيرهم .

و التخليف - على ما في المجمع - تأخير الشيء عن مضي فأمّا تأخير الشيء عنك
في المكان فليس بتخليف ، و هو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه يقال ، خلفه أي
جعل خلفه فهو مخلف . انتهى و الرحب هو السعة التي تقابل الضيق ، و بما رحبت أي
برحبها فما مصدرية .

و الآيتان و إن كانت كل واحدة منهما ناظرة إلى جهة دون جهة الأخرى

فالأولى تبيِّن التوبة على النبيِّ والمهاجرين والأنصار والثانية تبيِّن توبة الثلاثة المخلفين مضافاً إلى أن نوع التوبة على أهل الآيتين مختلف فأهل الآية الأولى أو بعضهم تاب الله عليهم من غير معصية منهم ، و أهل الآية الثانية تاب عليهم وهم عاصون مذنبون .

و بالجمله الآيتان مختلفتان غرضاً ومدلولاً غير أن السياق يدل على أنهما مسوقتان لغرض واحد ومتصلتان كلاماً واحداً تبيِّن فيه توبته تعالى للنبيِّ والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا ، و من الدليل عليه قوله : لقد تاب الله على النبيِّ إلى أن قال - وعلى الثلاثة « الخ فالآية الثانية غير مستقلة عن الأولى بحسب اللفظ و إن استقلت عنها في المعنى ، و ذلك يستدعي نزولهما معاً وتعلق غرض خاص بهذا الاتصال و الامتراج .

ولعل الغرض الأصلي بيان توبة الله سبحانه لأولئك الثلاثة المخلفين و قد ضم إليها ذكر توبته تعالى للمهاجرين والأنصار حتى للنبيِّ ﷺ لتطيب قلوبهم بخلطهم بغيرهم و زوال تمييزهم من سائر الناس و عفو أثر ذلك عنهم حتى يعود الجميع على نعت واحد وهو أن الله تاب عليهم برحمته فهم فيه سواء من غير أن يرتفع بعضهم عن بعض أو ينخفض بعضهم عن بعض .

و بهذا تظهر النكتة في تكرار ذكر التوبة في الآيتين فإن الله سبحانه يبدأ بذكر توبته على النبيِّ والمهاجرين والأنصار ثم يقول : « ثم تاب عليهم » و على الثلاثة الذين خلفوا ثم يقول : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » فليس إلا أن الكلام مسوق على منهج الإجمال و التفصيل ذكر فيه توبته تعالى على الجميع إجمالاً ثم أُشير إلى حال كل من الفريقين على حدته فذكرت عند ذلك توبته الخاصة به .

و لو كانت كل واحدة من الآيتين ذات غرض مستقل من غير أن يجمعهما غرض جامع لكان ذلك تكراراً من غير نكتة ظاهرة .

على أن في الآية الأولى دلالة واضحة على أن النبيِّ ﷺ لم يكن له في ذلك ذنب

ولا يزيغ ولا كاذن يزيغ قلبه فإن في الكلام مدحاً للمهاجرين والأنصار باتِّباع النبي ﷺ فلم يزيغ قلبه ولا كاذن يزيغ حتى صار متبعباً يقتدى به ولو لا ما ذكرناه من الغرض لم يكن لذكره ﷺ مع سائر المذكورين وجه ظاهر .

فيؤول معنى الآية إلى أن الله - أقسم لذلك - تاب ورجع برحمته رجوعاً إلى النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا فأما توبته ورجوعه بالرحمة على المهاجرين والأنصار فإنهم اتبعوا النبي ﷺ في ساعة العسرة وزمانها - وهو أيام مسيرهم إلى تبوك - اتبعوه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ويميل عن الحق بترك الخروج أو ترك السير فبعد ما اتبعوه تاب الله عليهم إنه بهم لرؤوف رحيم .

وأما الثلاثة الذين خلفوا فإنهم آل أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ووسعت - وكان ذلك بسبب أن الناس لم يعاشروهم ولا كلموهم حتى أهلهم فلم يجدوا أنيساً يأمنون به - وضاقت عليهم أنفسهم - من درام الغم عليهم - وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه بالتوبة والإجابة فلما كان ذلك كله تاب الله عليهم وانعطف ورجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه فيقبل توبتهم إنه هو التواب - كثير الرجوع إلى عباده يرجع إليهم بالهداية والتوفيق للتوبة إليه ثم يقبل تلك التوبة - والرحيم بالمؤمنين .

وقد تبين بذلك كله أولاً : أن المراد بالتوبة على النبي ﷺ محض الرجوع إليه بالرحمة ، ومن الرجوع إليه بالرحمة ، الرجوع إلى أمته بالرحمة فالتوبة عليهم توبة عليه فهو ﷺ الواسطة في نزول الخيرات والبركات إلى أمته .

وأيضاً فإن من فضله تعالى على نبيه ﷺ أن : كلما ذكر أمته أو الذين معه بخير أفرد من بينهم وصدّر الكلام بذكره تشريراً له كما في قوله : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون « البقرة : ٢٨٥ وقوله : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين « التوبة : ٢٦ ، وقوله : « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا « التوبة ٨٨ إلى غير ذلك من الموارد .

وثنائياً : أن المراد بما ذكر ثانياً وثالثاً من التوبة بقوله : « ثم تاب عليهم » في

الموضعين هو تفصيل ما ذكره إجمالاً بقوله : « لقد تاب الله » .

و ثالثاً : أن المراد بالتوبة في قوله : « ثم تاب عليهم » في الموضعين رجوعه تعالى إليهم بالهداية إلى الخير والتوفيق فقد ذكرنا مراراً في الأبحاث السابقة أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الرب تعالى ، وأنه يرجع إليه بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهو التوبة الأولى منه فيهددي العبد إلى الاستغفار وهو توبته فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهو التوبة الثانية منه تعالى .

والدليل على أن المراد بهافي الموضعين ذلك أمّا في الآية الأولى فلا أنه لم يذكر منهم فيها ذنباً يستغفرون له حتى تكون توبته عليهم توبة قبول ، وإنما ذكر أنه كان من المتوقع زبغ قلوب بعضهم وهو يناسب التوبة الأولى منه تعالى دون الثانية ، وأمّا في الآية الثانية فلا أنه ذكر بعدها قوله : « ليتوبوا » وهو الاستغفار ، أخذ غاية لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلا التوبة الأولى منه .

وربما أيد ذلك قوله تعالى في مقام تعليل توبته عليهم : « إنه بهم رؤوف رحيم » حيث لم يذكر من أسمائه ما يدل بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبة بمعنى الاستغفار .

ورابعاً : أن المراد بقوله في الآية الثانية : « ليتوبوا » توبة الثلاثة الذين خلفوا المترتب على توبته تعالى الأولى عليهم ، فالمعنى ثم تاب الله على الثلاثة ليتوب الثلاثة فيتوب عليهم ويغفر لهم إنه هو التواب الرحيم .

فان قلت : فالآية لم تدل على قبول توبتهم وهذا مخالف للضرورة الثابتة من جهة النقل أن الآية نزلت في توبتهم .

قلت : القصة ثابتة تقلاً غير أنها لا توجد دلالة في لفظ الآية إلا أن الآية تدل بسياقها على ذلك فقد قال تعالى في مقام الإجمال : « لقد تاب الله » وهو أعم بإطلاقه من التوبة بمعنى التوفيق وبمعنى القبول ، وكذا قوله بعد : « إن الله هو التواب الرحيم » و خاصة بالنظر إلى ما في الجملة من سياق الحصر الناظر إلى قوله : « وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه » فإذا كانوا أقدموا على التوبة ليأخذوا ملجأ من الله يأمنون فيه وقد هداهم

الله إليه بالتوبة فتابوا فمن المحال أن يردّهم الله من بابه خائفين وهو التوّاب الرحيم ، وكيف يستقيم ذلك ؟ وهو القائل عزّ من قائل : « إنّما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم » النساء : ١٧ .

وربّما قيل : إنّ معنى « ثمّ تاب الله عليهم ليتوبوا » ثمّ سهّل الله عليهم التوبة ليتوبوا . وهو سخيف . وأسخف منه قول من قال : إنّ المراد بالتوبة في « ليتوبوا » الرجوع إلى حالتهم الأولى قبل المعصية . وأسخف منه قول آخرين : إنّ الضمير في « ليتوبوا » راجع إلى المؤمنين والمعنى ثمّ تاب على الثلاثة وأنزل توبتهم على نبيّه ﷺ ليتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأنّ الله قابل التوب .

و خامساً : أنّ الظنّ يفيد في الآية مفاد العلم لا دلالة لفظيّة بل لخصوص

المورد .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » الصدق بحسب الأصل مطابقة القول والخبر للخارج ، ويوصف به الإنسان إذا طابق خبره الخارج ثمّ لما عدّ كلّ من الاعتقاد والعزم - الإرادة - قولاً توسّع في معنى الصدق فعدّ الإنسان صادقاً إذا طابق خبره الخارج وصادقاً إذا عمل بما اعتقده وصادقاً إذا أتى بما يريد ويحزم عليه على الجِدِّ .

وما في الآية من إطلاق الأمر بالتقوى وإطلاق الصادقين وإطلاق الأمر بالكون معهم - والمعنيّة هي المصاحبة في العمل وهو الاتّباع - يدلّ على أنّ المراد بالصدق هو معناه الوسيع العامّ دون الخاصّ .

فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى واتّباع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وهو غير الأمر بالاتّصاف بصفّتهم فإنّه الكون منهم لا الكون معهم وهو ظاهر .

قوله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب » إلى آخر الآيتين الرغبة ميل خاصّ نفسانيّ والرغبة في الشيء الميل إليه لطلب منفعة فيه ، والرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه والباء للسببيّة فقوله : « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » معناه وليس لهم أن يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازي وفي تعب الأسفار ودعائها ويقعدوا

للمتسع من لذائذ الحياة ، والظماً العطش ، والنضب التعب والمخمصة المجاعة ، والقيظ أشد الغضب ، والموطىء الأرض التي توطأ بالأقدام .

والآية تسلب حق التخلف عن النبي ﷺ من أهل المدينة والأعراب الذين حولها ثم تذكر أن الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم في كل مصيبة تصيبهم في الجهاد من جوع وعطش وتعب وفي كل أرض يطؤونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فإنهم محسنون والله لا يضيع أجر المحسنين ، وهذا معنى قوله : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، الخ .

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيرة يسيرة كانت أو كبيرة خطيرة وكذا كل واحد قطعوه فإنه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء .

وقوله : « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » غاية متعلقة بقوله : « كتب لهم » أي غاية هذه الكتابة هي أن يجزيهم بأحسن أعمالهم ، وإنما خص جزاء أحسن الأعمال بالذكر لأن رغبة العامل عاكفة عليه ، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره ، أو لأن المراد بأحسن الأعمال الجهاد في سبيل الله لكونه أشقها وقيام الدعوة الدينية به وههنا معنى آخر وهو أن جزاء العمل في الحقيقة إنما هو نفس العمل عائداً إلى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال في معنى الجزاء بأحسن الجزاء ومعنى آخر وهو أن يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبة بأعمالهم الحسنة ويسترجعها نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسناً ثم يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك وربما رجع المعنيان إلى معنى واحد .

قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » السياق يدل على أن المراد بقوله : « لينفروا كافة » لينفروا وليخرجوا إلى الجهاد جميعاً ، وقوله : « فرقة منهم » الضمير للمؤمنين الذين ليس لهم أن ينفروا كافة ، ولازمه أن يكون نفر إلى النبي ﷺ منهم .

فالأية تنهى مؤمني سائر البلاد غير مدينة الرسول أن ينفروا إلى الجهاد كافة

بل يحضّضهم أن ينفر طائفة منهم إلى النبي ﷺ للتفقه في الدين ، وينفر إلى الجهاد غيرهم .

والأنسب بهذا المعنى أن يكون الضمير في قوله « رجعوا » للطائفة المتفقهين ، وفي قوله « إليهم » لقومهم و المراد إذا رجع هؤلاء المتفقهون إلى قومهم ، ويمكن العكس بأن يكون المعنى : إذا رجع قومهم من الجهاد إلى هؤلاء الطائفة بعد تفقّهم و رجوعهم إلى أوطانهم .

ومعنى الآية لا يجوز لمؤمني البلاد أن يخرجوا إلى الجهاد جميعاً فهلاً نفر وخرج إلى النبي ﷺ طائفة من كل فرقة من فرق المؤمنين ليتحقّقوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لأنفسهم ولينذروا بنشر معارف الدين و ذكر آثار المخالفة لأصوله وفروعه قومهم إذا رجعت هذه الطائفة إليهم لعلمهم يحذرون ويتقون .

ومن هنا يظهر أولاً أن المراد بالتفقه تفهّم جميع المعارف الدينية من أصول و فروع لا خصوص الأحكام العملية وهو الفقه المصطلح عليه عند المتشرّعة ، والدليل عليه قوله : « لينذروا قومهم » فإن ذلك أمر إنما يتم بالتفقه في جميع الدين وهو ظاهر .

و ثانياً : أن نفر إلى الجهاد موضوع عن طلبه العلم الديني بدلالة من الآية . وثالثاً : أن سائر المعاني المحتملة التي ذكرها في الآية بعيدة عن السياق كقول بعضهم : إن المراد بقوله : « لينفروا كافة » نفرهم إلى النبي ﷺ للتفقه ، وقول بعضهم في « فلولا نفر » : أي إلى الجهاد ، والمراد بقوله : « ليتفقهوا » أي الباقون المتخلفون فيندروا قومهم النافرين إلى الجهاد إذا رجعوا إلى أولئك المتخلفين . فهذه ونظائرها معان بعيدة لا جدوى في التعرّض لها والإطناب في البحث عنها .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » أمر بالجهاد العام الذي فيه توسّع الإسلام حتى يشيع في الدنيا فإن قتال كل طائفة من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهي إلا باتساع الإسلام اتساعاً باستقرار سلطنته على الدنيا وإحاطته بالناس جميعاً .

والمراد بقوله : « وليجدوا فيكم غلظة » أي الشدة في ذات الله وليس يعني بها

الخشونة والفظاظة وسوء الخلق والقساوة والجفاء فجميع الأصول الدينية تدمر ذلك و تستتبعه ، و لحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعدد واعتداء و جفاء كما مر في سورة البقرة .

وفي قوله : « واعلموا أن الله مع المتقين » وعداً إلهياً بالنصر بشرط التقوى، ويؤول معناه إلى إرشادهم إلى أن يكونوا دائماً مراقبين لأنفسهم ذا كرين مقام ربهم منهم ، وهو أنه معهم ومولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، الآية فكبّر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي رداءه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم . فقال الأنصاري : بيع ربيع لا نقيلا ولا نستقبل .

وفي الكافي بإسناده عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لقي عباد البصري علي بن الحسين عليه السلام في طريق مكة فقال له : يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج وليذته إن الله يقول : « إن الله اشترى » الخ فقال علي بن الحسين عليه السلام إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج .

أقول : يريد عليه السلام ما في الآية الثانية : « التائبون العابدون ، الآية من الأوصاف .

وعن النبي ﷺ قال : سياحة أمتي في المساجد .

أقول : وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن السائحين هم الصائمون ، وعن أبي أمامة عنه ﷺ أن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ، وقد تقدم الكلام فيه .
وفي المجمع : «التائبين العابدين » إلى آخرها بالياء عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى: « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أي عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعانوانه بتلك المقالة فقال أبو طالب آخر ما كلمهم هو: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت: « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ». **أقول:** وفي معناه روايات أخرى من طرق أهل السنة، وفي بعضها أن المسلمين لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر لعمه وهو مشرك استغفروا لآبائهم المشركين فنزلت الآية، وقد اتفقت الرواية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه كان مسلماً غير متظاهر بإسلامه ليتمكن بذلك من حماية النبي صلى الله عليه وآله، وفيما روي بالنقل الصحيح من أشعاره شيء كثير يدل على توحيده وتصديقه النبوة، وقد قدمنا نبذة منها.

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: الأواه الدعاء.

وفي المجمع في قوله تعالى: « وما كان الله ليضلّ قوماً » الآية قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض فقال المسلمون: يارسور الله إخواننا المسلمون ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم؟ فنزل: « وما كان الله ليضلّ قوماً » الآية عن الحسن . وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى ^(١) قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم

ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون . قال : حتى ينههم قبل ذلك .

أقول : ظاهر الروايتين أنهما من التطبيق دون النزول بمعناه المصطلح عليه ، واتصال الآية بالآيتين قبلها ودخولها في سياقها ظاهر ، وقد تقدم توضيحه .

وفي الكافي بإسناده عن حمزة بن محمد الطيسار عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله : « وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » قال : يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه . الحديث .

أقول : ورواه أيضاً عن عبد الأعلى عنه عليه السلام ، ورواه البرقي أيضاً في المحاسن . وفي تفسير القمي : « لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » قال الصادق عليه السلام : هكذا نزلت وهم أبو ذر وأبو خيثمة وعمر بن وهب الذين تخلّفوا ثمّ لحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله .

أقول : وقد استخرجناه من حديث طويل أورده القمي في تفسيره في قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » الآية : ٤٦ من السورة ، وروى قراءة « بالنبي » في المجمع عنه وعن الرضا عليه السلام .

وفي المجمع في قوله : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » وقرأ علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهم السلام وأبو عبد الرحمن السلمي . خالفوا .

وفيه في قوله « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار » الآية نزلت في غزاة تبوك وما لحق المسلمين فيها من العسرة حتى هم قوم بالرجوع ثمّ تداركهم لطف الله سبحانه قال الحسن : كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثمّ ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان زادهم الشعير المسوس والتمر المدود والإهالة السنخة وكان نفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلا كها حتى يجد طعامها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة .

وفيه في قوله . « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » الآية نزلت في شأن كعب بن مالك

ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يخرجوا معه
لا عن نفاق ولكن عن توان ثم ندموا فلما قدم النبي ﷺ المدينة جاؤوا إليه واعتذروا
فلم يكلمهم النبي ﷺ و تقدم إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس
حتى الصبيان ، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله ﷺ فقلن له يا رسول الله نعتزلهم ؟ فقال
لا ولكن لا يقربوكن .

فضافت عليهم المدينة فخرجوا إلى رؤوس الجبال ، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام
ولا يكلمونهم فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم فهلاً نتهاجر
نحن أيضاً فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان ، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرعون إلى
الله تعالى ويتوبون إليه فقبل الله تعالى توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية .

اقول : وقد تقدمت القصة في حديث طويل نقلناه من تفسير القمسي في الآية ٤٦
من السورة ، ورويت القصة بطرق كثيرة .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب من تفسير أبي يوسف بن يعقوب بن سفيان
حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، قال :
أمر الله الصحابة أن يخافوا الله . ثم قال : « وكونوا مع الصادقين ، يعني مع محمد وأهل
بيته ﷺ .

اقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت ﷺ وقد روي في الدر
المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس . وأيضاً عن ابن عساکر عن أبي جعفر في قوله :
« وكونوا مع الصادقين » قال : مع علي بن أبي طالب .

وفي الكافي بإسناده عن يعقوب بن شعيب قال : قلت لأبي عبد الله ﷺ إذا حدث علي
الإمام حدث كيف يصنع الناس ؟ قال : أين قول الله عز وجل : « فلولوا نفر من كل فرقة
منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » قال :
هم في عذر ماداموا في الطلب ، وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم
أصحابهم .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن الأئمة عليهم السلام ، وهو مما يدل على أن المراد بالتفقه في الآية أعم من تعلم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم .
واعلم أن هناك أقوالاً أخرى في أسباب نزول بعض الآيات السابقة تر كناها لظهور ضعفها ووهنها .

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُهَا هِيَ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ
يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا
مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

﴿بيان﴾

هي آيات تختتم بها آيات براءة وهي تذكر حال المؤمنين والمنافقين عند مشاهدة نزول السور القرآنية ، ويحتصل بذلك أيضاً أمانة من أمارات النفاق يعرف بها المنافق من المؤمن ، وهو قولهم عند نزول القرآن : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ و نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ؟

وفيها وصفه تعالى نبيّه ﷺ وصفاً يحسن به إليه قلوب المؤمنين ، وأمره بالتوكل عليه إن أعرضوا عنه .

قوله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً » إلى آخر الآيتين . نحو السؤال في قولهم : هل يراكم من أحد ؟ ! يدل على أن سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبه أثراً من

نزول القرآن و كأنه يذعن أن قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عن أثر في قلبه نزول القرآن كأنه يرى أن النبي ﷺ يدعي أن القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعداً مهيباً للصلاح أم لاهو لا يذعن بذلك و كلما تليت عليه سورة جديدة ولم يجد في قلبه خشوعاً لله ولا ميلاً وحناناً إلى الحق زاد شكاً فبعثه ذلك إلى أن يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه ويزيد ثباتاً في نفاقه .
وبالجملة السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق .

وقد فصل الله سبحانه أمر القلوب و فرق بين قلوب المؤمنين و الذين في قلوبهم مرض فقال : «فأما الذين آمنوا ، وهم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئة من المرض وهم على يقين من دينهم بقرينة المقابلة « فزادتهم » السورة النازلة « إيماناً » فإنها با نارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه ، وهذه زيادة في الكيف ، و باشمالها على معارف و حقائق جديدة من المعارف القرآنية و الحقائق الإلهية ، و بسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زيادة إيمان جديد على سابق الإيمان و هذه زيادة في الكمية و نسبة زيادة الإيمان إلى السورة من قبيل النسبة إلى الأسباب الظاهرة و كيف كان فالسورة تزيد المؤمنين إيماناً فتشرح بذلك صدورهم و تهلّل وجوههم فرحاً « وهم يستبشرون » .

« وأما الذين في قلوبهم مرض ، وهم أهل الشك » و النفاق « فزادتهم رجساً إلى رجسهم » أي ضللاً جديداً إلى ضلالهم القديم و قد سمى الله سبحانه الضلال رجساً في قوله : « ومن برد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » الأ نعم : ١٢٥ و المقابلة الواقعة بين « الذين آمنوا » و « الذين في قلوبهم مرض » يفيد أن هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح و إنما هو الشك أو الجحد و كيف كان فهو الكفر و لذلك قال « وماتوا وهم كافرون » .

والآية تدل على أن السورة من القرآن لا تخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلباً سليماً زادته إيماناً و استبشاراً و سروراً ، و إن كان قلباً مريضاً زادته رجساً و ضللاً نظير ما يفيد قوله : « و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا

خساراً « أسرى : ٨٢ .

قوله تعالى : « أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ، الآية الاستفهام للتقرير أي مالهم لا يتفكرون ولا يعتبرون وهم يرون أنهم يبتلون و يمتحنون كل عام مرة أو مرتين فيعصون الله ولا يخرجون من عهدة المحنة الإلهية و هم لا يتوبون ولا يتذكرون ولو تفكروا في ذلك انتبهوا لواجب أمرهم و أيقنوا أن الاستمرار على هذا الشأن ينتهي بهم إلى تراكم الرجس على الرجس والهلاك الدائم والخسران المؤبد .

قوله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ، الآية وهذه خصيصة أخرى من خصائصهم وهي أنهم عند نزول سورة قرآنية - ولا محالة هم حاضرون - ينظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول : هل يراكم من أحد ، وهذا قول من يسمع حديثاً لا يطيقه و يضيق بذلك صدره فيتغير لونه و يظهر القلق والاضطراب في وجهه فيخاف أن يلتفت إليه و يظهر السر الذي طواه في قلبه فينظر إلى بعض من كان قد أودعه سره و أوقفه على باطن أمره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق و الاضطراب أحد ؟

فقوله : « نظر بعضهم إلى بعض » أي بعض المنافقين ، و هذا من الدليل على أن الضمير في قوله في الآية السابقة : « فمنهم من يقول » أيضاً للمنافقين ، وقوله : « نظر بعضهم إلى بعض » أي نظر قلق مضطرب يحذر ظهور أمره و انهتاك ستره ، وقوله : « هل يراكم من أحد » في مقام التفسير للنظر أي نظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول : هل يراكم من أحد ؟ ومن للتأكيد و أحد فاعل يراكم .

وقوله : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ، ظاهر السياق أن المعنى ثم انصرفوا من عند النبي ﷺ في حال صرف الله قلوبهم عن وعي الآيات الإلهية و الإيمان بها بسبب أنهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجملة الحالية على ما يجوز الكوفيون من خلوا الجملة الحالية المصدرة بالفعل الماضي عن قد .

وربما احتمل كون قوله : « صرف الله قلوبهم » دعاءً منه تعالى على المنافقين ، وله

نظائر في القرآن ، والدعاء منه تعالى على أحد إيعاد له بالشر .

قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » العنت هو الضرر و الهلاك ، وما في قوله : « ما عنتم » مصدرية و التأويل عنتم ، والمراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمد ﷺ ، وقد وصفه بأنه من أنفسهم والظاهر أن المراد به أنه بشر مثلكم ومن نوعكم إذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب أو بقريش خاصة ، وخاصة بالنظر إلى وجود رجال من الروم وفارس و الحبشة بين المسلمين في حال الخطاب .

والمعنى لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم من أوصافه أنه يشق عليه ضرركم أو هلاككم وأنه حريص عليكم جميعاً من مؤمن أو غير مؤمن ، وأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصة فيحق عليكم أن تطيعوا أمره لأنه رسول لا يصدع إلا عن أمر الله ، وطاعته طاعة الله ، وأن تأنسوا به وتحسنوا إليه لأنه من أنفسكم ، وأن تجيبوا دعوته وتصغوا إليه كما ينصح لكم .

ومن هنا يظهر أن القيود المأخوذة في الكلام من الأوصاف أعني قوله « رسول » و « من أنفسكم » و « عزيز عليه ما عنتم » النخ جميعها مسوقة لتأكيد النذب إلى إجابته وقبول دعوته ، ويدل عليه قوله في الآية التالية : « فإن تولوا فقل حسبي الله » .

قوله تعالى : « فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » أي وإن تولوا عنك وأعرضوا عن قبول دعوته فقل حسبي الله لا إله إلا هو أي هو كافي لا إله إلا هو .

فقوله : « لا إله إلا هو » في مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب واعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواء لأنه الله لا إله غيره ، و من المحتمل أن تكون كلمة التوحيد جبيء بها للتعظيم نظير قوله : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه » البقرة : ١١٦ .

وقوله : « عليه توكلت » وفيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله : « حسبي الله » الدال على معنى التوكل بالالتزام ، وقد تقدم في بعض الأبحاث السابقة أن معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه و كلاً يحل محل نفسه ويتولى تدبير أموره أي انصرافه عن

التسبب بذيل ما يعرفه من الأسباب ، ولا محالة هو بعض الأسباب الذي هو علّة ناقصة و الاعتصام بالسبب الحقيقي الذي إليه ينتهي جميع الأسباب .
و من هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله « وهورب العرش العظيم ، أي الملك و السلطان الذي يحكم به على كل شيء و يدبر به كل أمر .

وإنما قال تعالى : « فقل حسبي الله » الآية ولم يقل : فتوكل على الله لإرشاده إلى أن يتوكل على ربه وهو ذا كر هذه الحقائق التي تنور حقيقة معنى التوكل ، وأن النظر المصيب هو أن لا يثق الإنسان بما يدركه من الأسباب الظاهرة التي هي لا محالة بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه و يثق بربه و يتوكل عليه في حصول بغيته و غرضه .

وفي الآية من الدلالة على عجب اهتمامه ﷺ باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر و هو ما تبينه الآية السابقة من شدة رغبته و حرصه في اهتداء الناس و فوزهم بالسعادة فافهم ذلك .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزيري عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث طويل يذكر فيه تمام الإيمان و نقصه ، قال : قلت : قد فهمت نقصان الإيمان و تمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله عز وجل : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيسكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم » وقال : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم و زدناهم هدى » .

ولو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان، لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ، ولا استوت النعم فيه ، ولا استوى الناس و بطل التفضيل ، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة و بالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله ، و بالنقصان دخل المفرطون النار .

وفي تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، يقول شكاً إلى شكهم .

وفي الدر المنثور في قوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يلتق أبواي قط على سفاح : لم ينزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا تشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما .

أقول : وقد أورد فيه روايات كثيرة في هذا المعنى عن رجال من الصحابة وغيرهم كالعباس وأنس وأبي هريرة وربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب وابن عمر وابن عباس وعلي بن محمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن وابن الأباري في المصاحف وابن مردويه عن الحسن أن أبا بن كعب كان يقول : إن أحدث القرآن عهداً بالله - وفي لفظ بالسما - هاتان الآيتان : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر الآية .

أقول : و الرواية مروية من طريق آخر عن أبي بن كعب ، وهي لا تخلو عن تعارض مع ما سيأتي من الرواية وكذا مع ما تقدم من الروايات في قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » الآية البقرة : أنها آخر آية نزلت من القرآن . على أن لفظ الآيتين لا يلائم كونهما آخر ما نزلت من القرآن إلا أن يكون إشارة إلى بعض الحوادث الواقعة في مرض النبي صلى الله عليه وسلم كحديث الدواة والقرطاس .

وفيه أخرج ابن إسحاق وأحمد بن حنبل وابن أبي داود عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم - إلى قوله - وهو رب العرش العظيم » إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدري والله إلا أنني أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فالحقوها فالحقت في آخر براءة .

أقول : وفي رواية أخرى أن عمر قال للحارث : لا أسألك عليها بيئنة أبداً كذلك

كان رسول الله ﷺ ، وفي هذا المعنى أحاديث أُخرى ، وسنستوفي الكلام في تأليف القرآن وما يتعلّق به من الأبحاث في تفسير سورة الحجّ إن شاء الله تعالى .

وقد كنّا نرجو أن نفرّد كلاماً في آخر براءة نبحت فيه عن شأن المنافقين في الإسلام ونستخرج ما يشرحه القرآن في أمرهم مع تحليل في تاريخهم وتبيين لما أوردوه من الفساد والبلوى بين المسلمين لكنّ طول الكلام في تفسير الآيات عاقنا عن ذلك فأخّرناه إلى موضع آخر يناسبه والله نسأل التوفيق فهو وليّه . تمّ والحمد لله .

~~~~~

هو

لا يسعني دون أن أشكر فضل مصحح الكتاب  
(البهبودي المحترم) تجاه دقته في عمله التي نزلت أرقام  
الخطأ في طبعة الجزءين الثامن والتاسع من الكتاب بالنسبة  
إلى الأجزاء الماضية تنزيلاً بالغاً ثم لا يسعني دون أن أقول  
- رعاية لحقه - إن أكثر الأغلط المذكورة في الجدول لا تستند  
إلا إلى الأصل (نسختي أنا) دونه فأشكر بحيل سعيه وأسأل  
الله أن يوفقه ويؤيده .

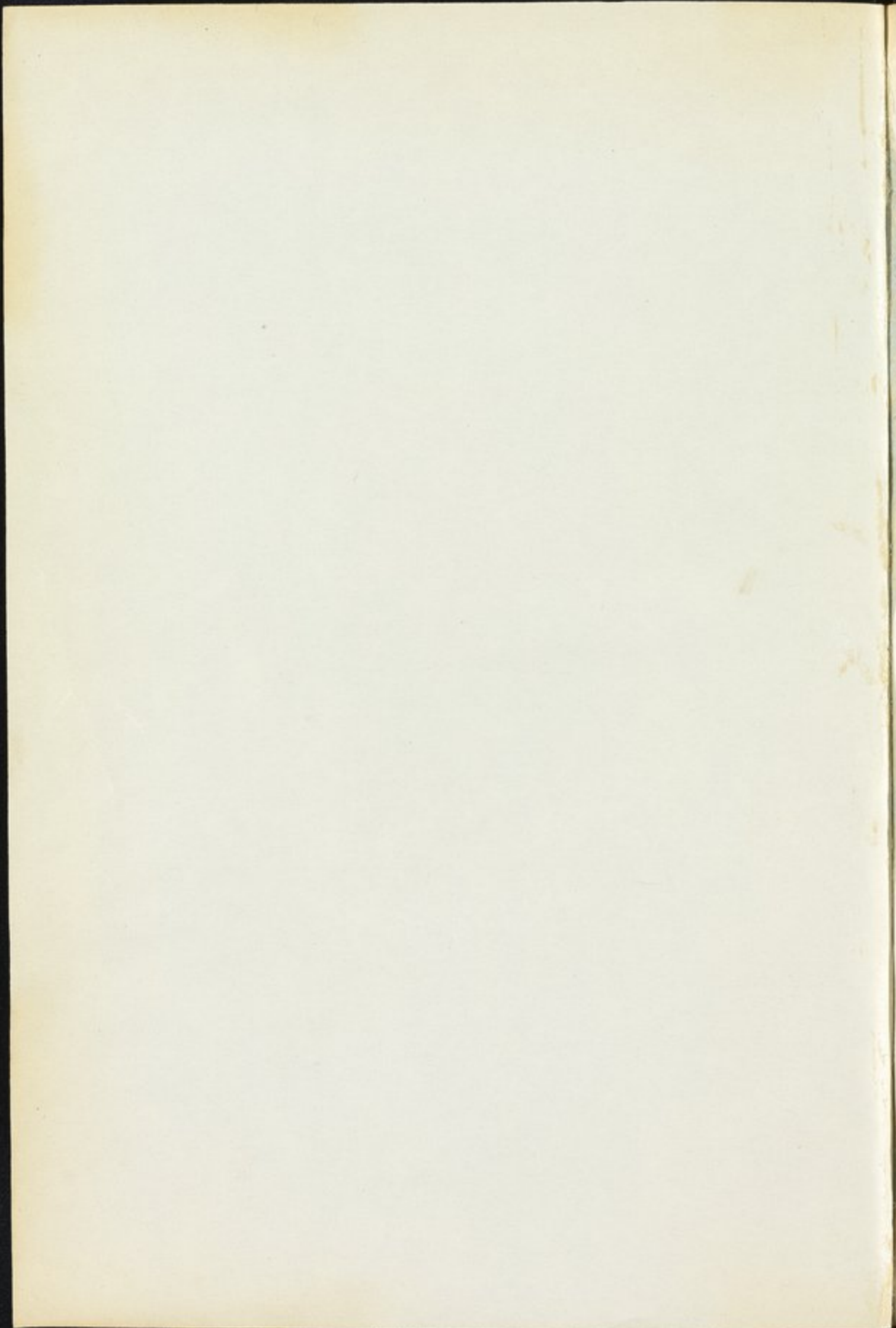
المؤلف

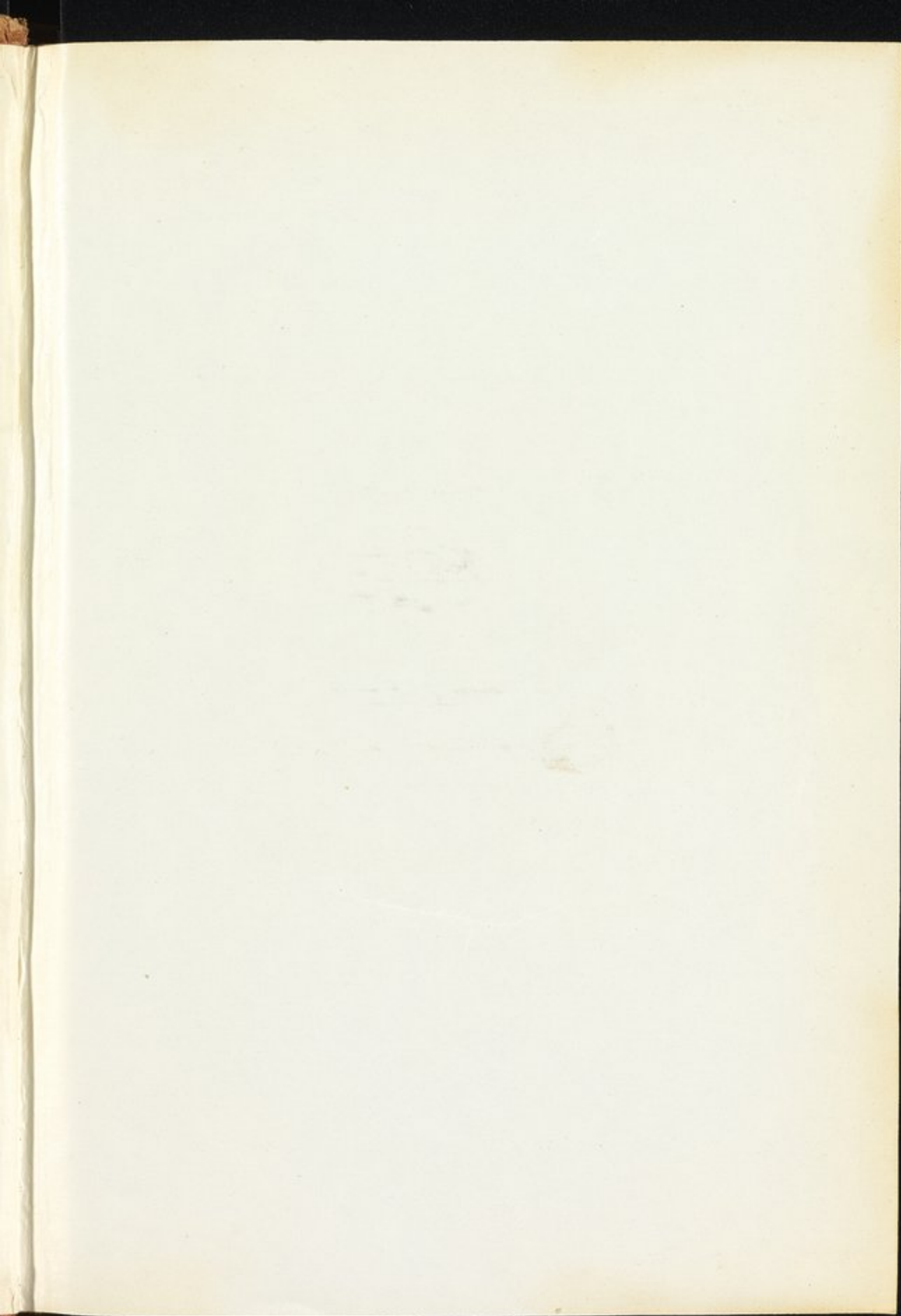
| رقم الاية   | الموضوع                                            | نوع البحث      | الصحيفة |
|-------------|----------------------------------------------------|----------------|---------|
| الأفقال     |                                                    |                |         |
| ١٤ - ٧      | فهرس أسماء شهداء بدر                               | تاريخي "روائي" | ٣١      |
| سورة التوبة |                                                    |                |         |
| ١٦ - ١      | كلام في معنى العهد و أقسامه و أحكامه في أربعة فصول | علمي           | ١٩٠     |
| «           | كلام في نسبة الأعمال إلى الأسباب                   |                |         |
|             | طولاً.                                             | فلسفي و كلامي  | ١٩٨     |
| ٢٨ - ٢٥     | فهرس أسامي شهداء حنين                              | روائي          | ٢٤٤     |
| ٣٥ - ٢٩     | كلام في معنى الكنز                                 | علمي           | ٢٢٢     |
| ١٠٦ - ٩٧    | كلام في الزكاة و سائر الصدقة                       | »              | ٤٠٧     |

| الصواب      | الخطاء      | الصحيفة | السطر | الصواب                            | الخطاء       | الصحيفة | السطر |
|-------------|-------------|---------|-------|-----------------------------------|--------------|---------|-------|
| تحسين       | يحسين       | ١١٢     | ٥     | ترفع                              | يرفع         | ٤       | ١٦    |
| لتكونوا     | ليكونوا     | ١١٥     | ١٤    | ملكها                             | ملكه         | ٥       | ٦     |
| الدائرة     | الدائرة     | ١١٨     | ٢٠    | نزعه                              | نزعه         | ٥       | ٧     |
| بالغاء      | باللقاء     | ١١٩     | ١٦    | لستم بأحق منا                     | وحننا        | ١٣      | ١١    |
| شئى         | شيء         | ١٢٠     | ١١    | نحن أحقنا برسول                   |              |         |       |
| يماس        | يتماس       | ١٢١     | ١٧    | الله عليه <sup>السلام</sup> وحننا |              |         |       |
| ستفتى       | سيفنى       | ١٢٢     | ١٩    | على ذلك                           | بذلك         | ١٩      | ١٧    |
| إلغاء       | إلقاء       | ١٢٣     | ١١    | الغفاري                           | الغفاري      | ٢١      | ١٧    |
| النادبة     | المتادية    | ١٢٣     | ١٢    | ينجز                              | ينجز         | ٥٢      | ٢٤    |
| تراه        | يراه        | ١٢٥     | ٥     | فيها                              | فيه          | ٦٥      | ١٦    |
| ضافت عليكم  | ضافت        | ١٢٧     | ٧     | واللافي                           | واللافي      | ٦٩      | ٣     |
| ورسولهُ     | ورسولهُ     | ١٤٨     | ٦     | فانته                             | فانته        | ٧٣      | ٢     |
| لبا المرصاد | لبا المرصاد | ١٥٥     | ٥     | تركتم ينظروا                      | تركتم ينظروا | ٧٣      | ٣     |
| الدين أخوة  | الدين       | ١٦٣     | ٩     | بأصله                             | إلى أصله     | ٧٤      | ١٨    |
| التحضيض     | التحضيض     | ١٦٤     | ٨     | تفاجؤكم                           | يفاجؤكم      | ٧٥      | ٦     |
| سيتقاضون    | سيتقاضون    | ١٧١     | ١     | يلقوا                             | يلقوا        | ٧٥      | ١٤    |
| سواء        | سواء        | ١٧٤     | ١١    | التكلم                            | الخطاب       | ٩٠      | ٢١    |
| من الله     | عن الله     | ١٧٤     | ٢٠    | وأن تكفوا عن                      | وأن تكفوا عن | ٩١      | ١٤    |
| عوضاً منك   | عوضاً عنك   | ١٧٥     | ٨     | التصرف فيها و                     |              |         |       |
| يرجع        | ترجع        | ١٨٦     | ٢٤    | أمركم                             | زائد         |         |       |
| رسول الله   | رسول        | ١٨٨     | ١٣    | قهرت                              | قهر على      | ٩٢      | ١٤    |
| كعقد        | لعقد        | ١٩٢     | ١٧    | بانت                              | بان          | ٩٢      | ٢٣    |
| كمن         | لمن         | ١٩٢     | ٢٤    | وإن                               | وإن          | ٩٤      | ٨     |
| غير ذلك     | غير لك      | ١٩٤     | ١٢    | نجدة                              | نجدة         | ١٠٦     | ١١    |

| الصواب                             | الصحيفة | السطر | الخطأ          | الصواب      | الصحيفة | السطر | الخطأ        |
|------------------------------------|---------|-------|----------------|-------------|---------|-------|--------------|
| تقدمة                              | ١٣      | ٣٠٩   | تقدّمه         | التروّي     | ٢١      | ١٩٤   | التردي       |
| الجدّة                             | ٢       | ٣١٣   | الجدّة         | التقوى الذي | ٧       | ١٩٥   | التقوى       |
| جماع                               | ١٤      | ٣١٣   | جماع           | يفوت        | ١٩      | ١٩٥   | يفوت         |
| في نهاية                           | ٨       | ٣٢٥   | نهاية          | من القرآن   | ٢٠      | ٢٠٧   | عن القرآن    |
| دخل                                | ٢٠      | ٣٥٣   | دخلا           | يتربصوا له  | ٢٠      | ٢١٦   | يتربصوله     |
| منصرفه                             | ٢١      | ٣٥٨   | مصرفه          | إليّ        | ١٩      | ٢٢٧   | إلي          |
| رسول الله                          | ١٢      | ٣٦٠   | رسول           | فاشبهه      | ٤       | ٢٣٩   | فاشبهه       |
| تسأل                               | ٦       | ٣٦٩   | يسأل           | واليهم      | ٤       | ٢٥٩   | إليهم        |
| من الغشّ                           | ١٤      | ٣٨٠   | عن الغشّ       | الطرق       | ٢٢      | ٢٦٥   | الفرق        |
| ابن أبي                            | ٢١      | ٣٨٢   | ابن ابن        | تتاوه       | ٧       | ٢٧٣   | يتلوه        |
| يُنْفِقُ                           | ٣       | ٣٨٩   | يُنْفِقُ       | والغناء     | ١٠      | ٢٧٨   | واللقاء      |
| ولانذر                             | ١       | ٤٠٩   | ولانذر         | لا تنطبق    | ٢٤      | ٢٧٨   | لا ينطبق     |
| بنوا المسجد                        | ٩       | ٤١٢   | بنوا المسجد    | وكذلك       | ٥       | ٢٨٤   | ولذلك        |
| عدو اللعبد                         | ١٥      | ٤٢٠   | عبداً عدو الله | الكافرين    | ١٤      | ٢٨٥   | الظالمين     |
|                                    |         |       |                | الغالبية    | ١٦      | ٢٩٣   | العالية      |
| موردان من الخطاء عشرنا عليه أخيراً |         |       |                | لا يراد     | ١٣      | ٢٩٨   | لا يراد      |
| في الجزء الثاني من الكتاب          |         |       |                | مما         | ٩       | ٣٠١   | عما          |
| ص                                  | س       | خ     | ص              | وإنما تعاتب | ٤       | ٣٠٢   | وإنما يعاتبه |
| بضعة                               | ١٨      | ١٤٥   | خمسة           | على الذنب   | ١٣      | ٣٠٢   | من الذنب     |
| سليمان وأيوب                       | ٢١      | ١٤٥   | سليمان         | الناس فيه   | ١       | ٣٠٩   | الناس        |







Library of



Princeton University.

(EC)  
P130

733  
650z